بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الإسلامية- غزة
عمادة الدراسات العليا
كلية الآداب
قسم اللغة العربية

البيضاوي وجهوده البلاغية في ضوء تفسيره (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)

إعداد الطالب
علاء جميل أبو عنزة
١٢٠١٠٠٨٠٥

إشراف الأستاذ الدكتور
محمد شعبان علوان

قدم هذا البحث استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في البلاغة العربية من كلية الآداب بالجامعة الإسلامية –غزة.

١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الغني الحميد، المبدئ المعيد، ذي العرش المجيد، الفعّال لما يريد، أحاط بكل شيء علمًا وهو على كل شيء شهيد، أحمده سبحانه، وأشكره، وأسأله من فضله المزيد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله وخليله، أفضل داع إلى الإيمان والتوحيد، اللهم صل على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا كثيرًا، وبعد.

فإن القرآن الكريم حوى من البيان والبلاغة العجب العُجاب، أفحم الله به العرب الفصحاء، وأحار به عقول العلماء، وقفت أمام بلاغته وفصاحته الآذان صاغية، والعقول متحيرة، والنفوس منبهرة، حتى قال قائل الجن عندما سمعه: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾ الجن: ١، وقال قائل الإنس رغم كفره وقد أجرى الله الحق على لسانه: "والله إن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يُعْلى عليه".

فلا شكَّ إذن أن القرآن معجز حق الإعجاز، وإعجاز القرآن ماثل في كثير من الوجوه أهمها نظمه، فقد تحدى الله عز وجل الجن والإنس أن يأتوا بمثله أو بمثل بعض منه فقال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨﴾ الإسراء: ٨٨، وقال: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٣﴾ البقرة: ٢٣

ومن هنا قام العلماء الأجِلَّاء بالتنقيب عن أسرار بلاغته، وأوضحوا لنا دلائل إعجازه، واعتبروا البلاغة مفتاح علومه، وطرَّزوا بالحديث عنه كتبهم ومصنفاتهم وتفاسيرهم.

لذلك كان هذا البحث في بلاغة القرآن الكريم والذي أقف من خلاله على البلاغة القرآنية في تفسير العلامة ناصر الدين البيضاوي الذي يُعد تفسيره **(أنوار التنزيل وأسرار التأويل)** من كتب التفسير التي اهتمت بإظهار النكات واللفتات البلاغية، رجوت من خلال هذا البحث الوقوف على البلاغة القرآنية والقبس من نورها الوضَّاء علَّ الله ينفعنا بما يعلمنا، وأن يعلمنا ما ينفعنا، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

الباحث

أولاً: أسباب اختيار الموضوع:

- ابتغاءَ الأجر والثواب من الله عز وجل، وتحصيلاً لمعنى الخيرية التي قال عنها النبي صلى الله عليه وسلم: **(خيركم من تعلم القرآن وعلمه)**، إذ قرر العلماء أن تعلم القرآن يشمل تعلم لفظه: أي تلاوة وحفظاً، وتعلم معناه: أي فهماً وتفسيراً، ولا شك أن علم البلاغة من العلوم التي يُحتاج إليها لفهم القرآن وتعقله.
- رغبة في تعلم بلاغتنا العربية وفهم مباحثها، وذلك بورود النبع الأول لها، وهو كتاب ربنا تبارك وتعالى، الذي أنزله قرآنا عربياً، حيَّر به العقول، وأدهش النفوس، وأنار القلوب، وكتب التفسير كشفت النقاب عن أسراره وكنوزه وإعجازه، فليس لطالب علم البلاغة غنىً عن مطالعتها وسبر أغوارها.
- إظهار الإعجاز البلاغي والبياني في آيات القرآن الكريم، والذي هو من أجلِّ وجوه الإعجاز الذي تحدى الله به مشركي مكة والعالمين جميعاً بقوله: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ الطور: ٣٤ .
- الوقوف على آراء عالِم من أعلام التفسير، وإثراء المكتبة العربية بآرائه ولفتاته ونكاته البلاغية.
- تقديم دراسة تطبيقية للبلاغة العربية بعيداً عن المتون التي تحفظ والشروح التي تدرس مجردة لا يظهر فيها جمال البلاغة وروعتها وسحر بيانها، كما هو الحال في البلاغة القرآنية.
- استكمالاً للجهود السابقة التي بُذلت للوقوف على البلاغة القرآنية وخاصة في كتب التفاسير، حيث كانت جامعتنا الإسلامية الغراء ممثلة بقسم البلاغة فيها وخاصة أستاذنا الدكتور محمد شعبان علوان، وأخيه الأستاذ الدكتور نعمان شعبان علوان، كثيراً ما توجهنا أنا وزملائي إلى مثل هذه الدراسات، فقامت دراسات على تفاسير القرآن مثل دراسة (الطاهر ابن عاشور وجهوده البلاغية في ضوء تفسيره التحرير والتنوير)، و(تفسير أبي السعود وجهوده في الدرس البلاغي)، و(البلاغة العربية في تفسير الشوكاني)، وغيرها من الدراسات، وتأتي هذه الدراسة ترسُّماً لذلك الطريق ضمن سلسلة الدراسات البلاغية المهتمة بالتفسير القرآني.

ثانياً: **الجهود السابقة**:

البيضاوي رحمه الله عالم موسوعي، صنف في كثير من فنون العلوم المختلفة فله مصنفات عديدة جمع فيها كثيراً مما جادت به قريحته من فنون النحو والبلاغة والتفسير والشريعة والعقيدة والتاريخ.

ولذلك فإن كثيراً من العلماء قد أكبُّوا على تفسيره **(أنوار التنزيل وأسرار التأويل)** فقاموا بشرحه والتحشية عليه إما تحشية تامة أو على بعض منه، وفي ذلك يقول صاحب كشف الظنون: " ثم إن هذا الكتاب رزق من عند الله –سبحانه وتعالى– بحسن القبول عند جمهور الأفاضل والفحول فعكفوا عليه بالدرس والتحشية، فمنهم من علق تعليقة على سورة منه ومنهم من حشى تحشية تامة ومنهم من كتب على بعض مواضع منه"[١] ثم أخذ يعدد ما يزيد عن أربعين حاشية.

وقد أورد الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط أسماء ثلاثمائة وثلاث وثلاثين حاشية[٢] كتبت على تفسير البيضاوي وهي ما بين حواشٍ تامة أو على بعض منه، ولا شك أن هذا يشير إلى أهمية هذا التفسير وقيمته العلمية.

إلا أن أشهر تلك الحواشي كما يذكر صاحب كتاب (التفسير والمفسرون) هي حاشية ابن زاده وحاشية الشهاب الخفاجي وحاشية القونوي[٣]

أما الجهود الحديثة التي اهتمت بتفسير البيضاوي، فإننا نذكر منها ما يتصل بعلوم اللغة العربية وما يتفق وموضوع هذا البحث وهي مفصلة كما يلي:

دراسات على تفسير البيضاوي:

١. القضايا النحوية والصرفية في تفسير القاضي البيضاوي مع حاشية الشهاب الخفاجي عليه المسماة بعناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، تحقيق ودراسة، مبروك عطية أحمد أبوزيد.

---

(١) كشف الظنون: ١٨٨/١.

(٢) انظر: الفهرس الشامل للتراث العربي والإسلامي المخطوط: المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، ٣٢٠/١، مخطوطات التفسير وعلومه، مؤسسة آل البيت، عمان، ١٩٨٩م

(٣) التفسير والمفسرون: محمد السيد حسين الذهبي، ٢١٥/١، مكتبة وهبة القاهرة.

٢. كتاب دراسة لغوية ونحوية على تفسير البيضاوي، للأستاذ الدكتور عبد الوهاب حسن حمد التدريسي. مؤسسة دار الصادق للطباعة والنشر في العراق.

دراسات على حواشي تفسير البيضاوي:

١. كتاب البيان عند الشهاب الخفاجي في كتابه عناية القاضي وكفاية الراضي، فريد النكلاوي، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٩٨١م.

٢. كتاب الالتفات في حاشية الشهاب، هاشم محمد هاشم، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٩٨٦م.

٣. رسالة ماجستير بعنوان: مسائل علم المعاني وقيمتها البلاغية في حاشية الشهاب الخفاجي في الربع الاول من القرآن الكريم من أول سورة البقرة الى اخر سورة الانعام.

٤. رسالة ماجستير بعنوان: الأساليب الإنشائية عند الشهاب الخفاجي في حاشيته عناية القاضي وكفاية الراضي، القطب عبد السلام طه الجيار

٥. شهاب الدين الخفاجي وجهوده في اللغة، عبدالرزاق بن فراج بن دخيل الصاعديّ، رسالة ماجستير، السعودية، ١٤١٢هـ.

٦. الشهاب الخفاجي نحويًّا، حاتم القضاة، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، الكرك، ١٩٩٧م.

٧. الشهاب الخفاجي وجهوده اللغوية، عادل شحاذه عفارة، دكتوراه.

٨. الشهاب الخفاجي وأثره في النحو، صلاح عبد العزيز علي السيد، دكتوراه

٩. الشهاب الخفاجي وجهوده في البلاغة والنقد، زين العابدين سالم عراقي النجار.

١٠. رسالة ماجستير بعنوان: الشهاب الخفاجي ومنهجه في التفسير. زهير ريالات.

١١. البديع في حاشية القونوي على تفسير البيضاوي، أمل عيد نويفع المطيري، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

١٢. مسائل علم المعاني في حاشية القونوي. رسالة ماجستير، محمد أبو العلا الحمزاوى. جامعة الأزهر.

١٣. المباحث البيانية في (حاشية زاده على تفسير البيضاوي) – دراسة بلاغية تحليلية. رسالة ماجستير، إبراهيم بن محمد الجمعة، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية.

ثالثاً: **منهج البحث**:

اعتمدت خلال هذا البحث الطريقة الاستقرائية للوقوف على القضايا البلاغية الواردة في تفسير البيضاوي ثم عملت على تصنيفها وتحليلها ومناقشتها وقياسها بما استقر عند علماء البلاغة.

رابعاً: **خطة البحث**:

التمهيد: **حياة الإمام البيضاوي**:

- مولده ونشأته.
- شيوخه وحياته العلمية.
- تلاميذه.
- آثاره ومصنفاته العلمية.
- وفاته.

الفصل الأول: **نظرة في تفسير البيضاوي**:

وفيه مباحث:

- المبحث الأول: المبحث الأول: سبب تأليف البيضاوي لتفسيره.
- المبحث الثاني: مكانة تفسير البيضاوي بين كتب التفاسير.
- المبحث الثالث: مصادر تفسير البيضاوي.
- المبحث الرابع: منهج البيضاوي في التفسير.

الفصل الثاني: **مباحث علم المعاني في تفسير البيضاوي**.

وفيه مباحث:

- مقدمة في علم المعاني.
- المبحث الأول: الخبر والإنشاء.
- المبحث الثاني: التعريف والتنكير.
- المبحث الثالث: التقديم والتأخير.
- المبحث الرابع: الاعتراض.

- المبحث الخامس: خروج الكلام عن مقتضى الظاهر.
- المبحث السادس: الإيجاز والإطناب والمساواة.

الفصل الثالث: **مباحث علم البيان في تفسير البيضاوي**

وفيه مباحث:

- المبحث الأول: التشبيه
- المبحث الثاني: المجاز.
- المبحث الثالث: الاستعارة.
- المبحث الرابع: الكناية والتعريض.

الفصل الرابع: **مباحث علم البديع في تفسير البيضاوي**

وفيه مباحث:

- المبحث الأول: المحسنات المعنوية
- المبحث الثاني: المحسنات اللفظية

الفصل الخامس: **تأثر البيضاوي بالسابقين وتأثيره في اللاحقين**.

وفيه مباحث:

- المبحث الأول: تأثره بالسابقين.
- المبحث الثاني: تأثيره في اللاحقين.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

التمهيد

"حياة الإمام البيضاوي"

- اسمه ونسبه.
- مولده ونشأته.
- شيوخه.
- تلاميذه.
- ثناء العلماء عليه.
- آثاره ومصنفاته العلمية.
- وفاته.

التمهيد: حياة الإمام البيضاوي

أولاً: اسمه ونسبه:

هو الإمام عبد الله بن عمر بن محمد بن علي، أبو الخير (وقيل أبو سعيد)، البيضاوي، الشيرازي، الفارسي، الشافعي، القاضي، المفتي[١].

والبيضاوي: نسبة إلى البيضاء من بلاد فارس، وهي مدينة كبيرة من أعمال شيراز، وينتسب إليها جماعة من العلماء، وهذه النسبة للبيضاء أشهر النسب، وبها يُعرف[٢]. وقد قال عنها الإصطخري: البيضاء أكبر مدينة في كورة إصطخر، وإنما سميت البيضاء لأن لها قلعة تبين من بُعد ويُرى بياضها، وكانت معسكراً للمسلمين يقصدونها في فتح إصطخر، وهي تامة العمارة خصبة جداً، ينتفع أهل شيراز بميرتها[٣].

"**والشيرازي:** نسبة إلى شيراز، وهي بلدة عظيمة مشهورة في وسط بلاد فارس، ونسب البيضاوي إليها لأن البيضاء تابعة لها، ولأنه تولى قضاء شيراز مدة.

والشافعي: نسبة إلى مذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعي في الفقه الإسلامي، ويُنسب البيضاوي إليه لأنه تفقه على هذا المذهب، وتولى القضاء للحكم بأحكامه، وصنف بعض الكتب الفقهية في المذهب الشافعي، وقدم فيه خدمات جُلَّى.

---

(١) انظر ترجمة البيضاوي في: (الوافي بالوفيات: صلاح الدين الصفدي، تحقيق الأرناؤوط وتركي مصطفى، ج٢٠٦/١٧، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م). و(طبقات الشافعية الكبرى: السبكي، تحقيق الحلو والطناحي، ج١٥٧/٨، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة). و(البداية والنهاية: ابن كثير، تحقيق عبدالله التركي، ج٦٠٦/١٧، هجر للطباعة والنشر، ط١، ١٩٩٧م). و(بغية الوعاة: السيوطي، تحقيق محمد إبراهيم، ٥٠/٢، دار الفكر، ط٢، ١٩٧٩م). و(طبقات المفسرين: الداوودي، تحقيق مجموعة من العلماء، ٢٤٨/١، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٣م). و(شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد، تحقيق عبد القادر ومحمود الأرناؤوط، ج٦٨٥/٧، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٩٨٨م). و(طبقات الشافعية: ابن قاضي شهبة، تحقيق عبد العليم خان، ٢٢٠/٢، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، ط١، ١٩٧٩م). و(هدية العارفين أسماء المؤلفين والمصنفين: اسماعيل البغدادي، ٤٦٢/١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥١م). و(مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان: اليافعي، ١٦٥/٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م). و(كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: حاجي خليفة، ١٨٦/١، دار إحياء التراث العربي، بيروت). و(معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة، ٢٦٦/٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٣م). و(التفسير والمفسرون: محمد الذهبي، ٢١١/١، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٧، ٢٠٠٠م).

(٢) انظر: مقدمة تفسير البيضاوي: تحقيق محمد حلاق ومحمود الأطرش، دار الرشيد، ، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م. نقلاً عن الأنساب: السمعاني: تحقيق البارودي، ٤٣١/١، دار الجنان، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

(٣) انظر: معجم البلدان: ياقوت الحموي، ٥٢٩/١، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.

ويُعرف البيضاوي بالقاضي، وقاضي القضاة، لأنه تولى هذين المنصبين فترة من الزمن"[١].

ثانياً: مولده ونشأته:

ولد البيضاوي في مدينة **البيضاء** باتفاق، ولم يذكر مرجع واحد تاريخ ولادته، كما أغفلت جميع المصادر سِنُّه عند الوفاة، مما يستحيل علينا تقدير ولادته، لكن يُفهم من كتب التراجم أن البيضاوي – رحمه الله – كان من المُعمَّرين، وعاش طويلاً.

وأما نشأة البيضاوي، فيظهر أنه نشأ في البيضاء، وتربى فيها على يد والده، وبدأ التعلم وتحصيل الفقه وغيره في البيضاء، وقد اقتصرت كتب التراجم على أنه تفقه بوالده، وهو ما صرح به القاضي البيضاوي نفسه، ويحتمل أن البيضاوي رحل إلى شيراز وتبريز وسائر بلاد فارس يطلب العلم، ويكتسب المعارف، ودليلنا على ذلك نتاج البيضاوي ومعارفه وثقافته واختلاف العلوم التي صنف فيها، وكذلك انتقال والده إلى شيراز واستقراره فيها، والغالب أن يكون الوالد قد صحب ابنه معه إلى شيراز.

كما ثبت في ترجمة البيضاوي أنه رحل إلى تبريز والتقى بالشيخ محمد الكتحتائي، كما ثبت أن البيضاوي استقر بعد ذلك في تبريز ومات فيها[٢].

ثالثاً: شيوخه:

قضى الإمام البيضاوي معظم حياته في شيراز المشهورة بالعلم، وأخذ العلوم المختلفة عن كبار العلماء فيها[٣]، غير أن كتب التراجم لم تذكر لنا أسماء الشيوخ الذين تتلمذ البيضاوي على أيديهم، إلا ما ذُكر في مرآة الجنان حيث يقول اليافعي عند ترجمته للبيضاوي: "تفقه بأبيه، وتفقه والده بالعلامة مجير الدين أبي سعيد منصور بن عمر البغدادي"[٤]، وذكر صاحب كشف الظنون أن البيضاوي لازم الشيخ محمد الكتحتائي وأخذ عنه وصنف التفسير بإشارة منه[٥].

---

(١) تفسير البيضاوي: مقدمة المحقق، محمد حلاق، محمود الأطرش، صفحة (ب).

(٢) انظر: مرآة الجنان: ٤/٢٢٠.

(٣) طبقات الشافعية لابن شهبة: ٢/٢٢٠

(٤) مرآة الجنان: ٤/١٦٥

(٥) انظر: كشف الظنون: ١/١٨٧.

رابعاً: تلاميذه:

لم يذكر المؤرخون في ترجمتهم للإمام البيضاوي تلاميذه، وإنما يمكننا العثور على بعض الأسماء التي تتلمذت على يديه في ثنايا الكتب، وهم:

١. **أحمد بن الحسن بن يوسف الجاربردي:** أحد الذين تفقهوا على الإمام البيضاوي، فقد جاء في كتاب الدرر الكامنة: "الإمام فخر الدين نزيل تبريز تفقه على مذهب الشافعي وفاق في العلوم العقلية، ذكره ابن السبكي في طبقاته فقال: كان إماما فاضلا دينا خيرا وقورا مواظبا على الشغل في العلم وإفادة الطلبة، اجتمع مع القاضي ناصر الدين البيضاوي وأخذ عنه على ما بلغني"(١).
٢. **زين الدين الهنكي:** فقد جاء في ترجمة الشيخ (عضد الدين الإيجي) في كتاب الدرر الكامنة: "أخذ عن مشايخ عصره ولازم الشيخ زين الدين الهنكي تلميذ البيضاوي"(٢).
٣. **عمر بن إلياس بن يونس المراغى:** فقد جاء في ترجمته في كتاب الدرر الكامنة: "وسمَّع على القاضي ناصر الدين البيضاوي المنهاج والغاية القصوى والطوالع"(٣).

خامساً: ثناء العلماء عليه:

أثنى العلماء على الإمام البيضاوي وذكروا فضله في كتبهم وتراجمهم فقد قال عنه تاج الدين السبكي: "كان إماماً مبرِّزاً، نظَّاراً، صالحاً، متعبِّداً، زاهداً"(٤). وقال عنه ابن كثير: "هو القاضي الإمام العلامة ناصر الدين عبد الله بن عمر الشيرازي، قاضيها وعالمها وعالم أذربيجان وتلك النواحي"(٥).

وقال عنه السيوطي: "كان إماماً علامة، عارفاً بالفقه والتفسير والأصلين والعربية والمنطق، نظاراً صالحاً متعبداً شافعياً"(٦). وقال عنه ابن حبيب: "عالم نمى زرع فضله ونجم، وحاكم عظمت

(١) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر العسقلاني، ١٢٣/١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣م.
(٢) انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ٣٢٢/٢.
(٣) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ١٥٦/٣.
(٤) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: ١٥٧/٨.
(٥) البداية والنهاية: ج٦٠٦/١٧.
(٦) بغية الوعاة: ٥٠/٢.

بوجوده بلاد العجم، برع في الفقه والأصول، وجمع بين المعقول والمنقول، تكلم كل من الأئمة بالثناء على مصنفاته...ولي أمر القضاء بشيراز، وقابل الأحكام الشرعية بالاحترام والاحتراز"[١].

وثناء العلماء على الإمام البيضاوي، يدل على أنه كان عَلَماً في زمانه، بالإضافة إلى كونه زاهداً وعابداً وقاضياً، ومتبحراً في شتى العلوم كما هو حال العلماء في تلك الفترة.

ومما يدل على ذكاء البيضاوي وسعة علمه وفقهه، ما رواه السبكي في طبقاته "أنه دخل تبريز وناظر بها، وصادف دخوله إليها مجلس درس قد عقد بها لبعض الفضلاء، فجلس القاضي ناصر الدين في أخريات القوم بحيث لم يعلم به أحد، فذكر المدرس نكتة زعم أن أحداً من الحاضرين لا يقدر على جوابها، وطلب من القوم حلَّها، والجواب عنها، فإن لم يقدروا فالحلَّ فقط، فإن لم يقدروا فإعادتها، فلما انتهى من ذكرها، شرع القاضي ناصر الدين في الجواب، فقال له: لا أسمع حتى أعلم أنك فهمتها. فخيره بين إعادتها بلفظها أو معناها، فبهت المدرس، وقال: أعِدْها بلفظها، فأعادها، ثم حلها وبين أن في تركيبه إياها خللاً، ثم أجاب عنها، وقابلها في الحال بمثلها، ودعا المدرس إلى حلها، فتعذر عليه ذلك، فأقامه الوزير من مجلسه، وأدناه إلى جانبه، وسأله من أنت؟ فأخبره أنه البيضاوي، وأنه جاء في طلب القضاء بشيراز، فأكرمه، وخلع عليه في يومه، ورده وقد قضى حاجته"[٢].

سادساً: آثاره ومصنفاته العلمية:

عاش البيضاوي في شيراز مدة طويلة، وهي مدينة مشهورة بالعلم والعلماء، وهذا ما جعل منه عالماً موسوعياً، فقه كثيراً من العلوم وبرع فيها، ويدلنا على ذلك نتاجه ومصنفاته العلمية التي تنوعت ما بين الفقه وأصول الفقه والحديث والتاريخ والنحو والتفسير والمنطق، كثرة مصنفاته وتنوعها مردُّها إلى المرحلة الأخيرة من حياته، التي تفرغ فيها وذلك بعد اعتزاله القضاء والمناصب الدنيوية، تلك الفترة التي لازم فيها الشيخ محمد الكتحتائي وشرع في تصنيف تفسيره أنوار التنزيل وأسرار التأويل.

(١) طبقات الشافعية لابن شهبة: ٢/٢٢٠.

(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: ٨/١٥٨.

وقد أشاد غير واحد من العلماء بتصانيفه ومؤلفاته، فقد قال الصفدي: "صاحب التصانيف البديعة المشهورة"[١]، وقال ابن شهبة: "تكلم كل من الأئمة بالثناء على مصنفاته"[٢].

ومن أشهر مصنفاته:

١. **أنوار التنزيل وأسرار التأويل:** المسمى بـ"تفسير البيضاوي"، وسماه السُّبكي والداوودي والسيوطي بـ"مختصر الكشاف"[٣]، وهو من التفاسير التي عنيت بالبلاغة والتأويل ويعتبر من أجلِّ التفاسير وأشهرها، لما حواه من اختصار ودرر وفوائد ونكات، تلقفها العلماء فقاموا بالتحشية عليه، حيث أورد الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط أسماء ثلاثمائة وثلاث وثلاثين حاشية[٤] كتبت على تفسير البيضاوي وهي ما بين حواشٍ تامة أو على بعض منه، ولا شك أن هذا يشير إلى أهمية هذا التفسير وقيمته العلمية.
٢. **المنهاج (منهاج الوصول إلى علم الأصول):** وهو كتاب مختصر في أصول الفقه، "وهو مشهور وقد شرحه غير واحد"[٥]، قال ابن شهبة في ترجمة البيضاوي: "تكلم كل من الأئمة بالثناء على مصنفاته وفاه، ولو لم يكن له غير المنهاج الوجيز لفظه المحرر لكفاه"[٦].
٣. **الطوالع (طوالع الأنوار):** وهو كتاب في أصول الدين والتوحيد، قال السبكي: "وهو أجل مختصر أُلِّف في علم الكلام"[٧].

هذه الكتب الثلاثة هي أشهر كتب الإمام البيضاوي، ومن مؤلفاته أيضاً[٨]:

٤. شرح منهاج الوصول.
٥. **(تحفة الأبرار)** في شرح مصابيح السنة للبغوي في الحديث الشريف.
٦. **(الغاية القصوى في دراية الفتوى)** في فروع الفقه الشافعي.
٧. **(شرح التنبيه للشيرازي)** في الفقه الشافعي. ذكره ابن كثير.
٨. **(شرح المنتخب)** في أصول الفقه للإمام فخر الدين الرازي.

---

(١) الوافي بالوفيات: ج١٧/٢٠٦.
(٢) طبقات الشافعية لابن شهبة: ٢/٢٢٠.
(٣) انظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: ج٨/١٥٧، وبغية الوعاة: ٢/٥٠، وطبقات المفسرين للداوودي: ١/٢٤٨.
(٤) انظر: الفهرس الشامل للتراث العربي والإسلامي المخطوط: ١/٣٢٠.
(٥) البداية والنهاية: ج١٧/٦٠٦.
(٦) طبقات الشافعية لابن شهبة: ٢/٢٢٠.
(٧) طبقات الشافعية لابن شهبة: ٢/٢٢٠.
(٨) انظر: تفسير البيضاوي: مقدمة المحقق، محمد حلاق، محمود الأطرش: صفحة (ث).

٩. **(شرح المحصول)** في أصول الفقه للإمام فخر الدين الرازي.
١٠. **(مرصاد الأفهام إلى مبادئ الأحكام)** وهو شرح مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه.
١١. **(مصباح الأرواح)** اختصر فيه طوالع الأنوار في أصول الدين.
١٢. **(الإيضاح في أصول الدين)** وهو شرح كتاب المصباح.
١٣. **(شرح الكافية)** في النحو لابن الحاجب.
١٤. **(لب اللباب في علم الإعراب)** اختصر فيه الكافية لابن الحاجب.
١٥. **(شرح المطالع)** وهو مطالع الأنوار في الحكمة والمنطق للقاضي سراج الدين الأرموي.
١٦. **(متن في علم الهيئة)** وهو مختصر ذكره الخفاجي
١٧. **(نظام التواريخ)** باللغة الفارسية، من ابتداء الخلق حتى سنة ٦٧٤هـ.
١٨. **(التهذيب والأخلاق)** في التصوف، ذكره محب الدين الخطيب في مقدمة نهاية السول.
١٩. (رسالة في موضوعات العلم وتعارفها) ذكره البغدادي والزركلي.
٢٠. **(شرح الفصول)** لنصير الدين الطوسي، ذكره البغدادي والخوانساري.
٢١. (منتهى المنى في شرح أسماء الله الحسنى) ذكره البغدادي.

سابعاً: وفاته:

تولى الإمام البيضاوي قضاء شيراز وذلك بعد القصة المشهورة التي استطاع من خلالها أن يجيب على نكتة ذكرها المدرس وقابلها بنكتة مماثلة تعذر على المدرس حلَّها، فأقامه الوزير وأكرمه وولَّاه قضاء شيراز.

وبقي البيضاوي رحمه الله قاضياً على شيراز "فاستشفع من الشيخ محمد الكتحتائي، فلما أتاه على عادته قال: إن هذا الرجل عالم فاضل يريد الاشتراك مع الأمير في السعير، يعنى أنه يطلب منكم مقدار سجادة في النار، وهي مجلس الحكم؛ فتأثر الإمام البيضاوي من كلامه، وترك المناصب الدنيوية، ولازم الشيخ إلى أن مات...ولما مات دفن عند قبره"(١).

وهذا يقودنا إلى أن البيضاوي رحمه الله ختم حياته بالتفرغ الكامل للعلم تصنيفاً وتأليفا، وقد نص على ذلك صاحب معجم المؤلفين الذي قال: "ثم ترك القضاء، وتخلص للعلم، وانزوى في

(١) انظر: كشف الظنون:١/١٨٧.

تبريز"[1]. وقد جاء في كشف الظنون أنه قد ألف تفسيره أنوار التنزيل وأسرار التأويل بإشارة من شيخه محمد الكتحتائي الذي لازمه ودفن عند قبره[2].

وقد اتفق العلماء والمؤرخون على أن البيضاوي قد توفي في مدينة تبريز، لكنهم اختلفوا في سنة وفاته، فقال ابن كثير والصفدي والكتبي وابن حبيب: سنة (٦٨٥هـ)، وقال السبكي والإسنوي: (٦٩١هـ) [3].

(١) انظر: معجم المؤلفين: ٢٦٦/٢.

(٢) انظر: كشف الظنون: ١٨٧/١.

(٣) انظر: الوافي بالوفيات: ج٢٠٦/١٧، والبداية والنهاية: ج٦٠٦/١٧، وطبقات الشافعية لابن شهبة: ٢٢١/٢.

الفصل الأول

"نظرة في تفسير البيضاوي"

- المبحث الأول: سبب تأليف البيضاوي لتفسيره.
- المبحث الثاني: مكانة تفسير البيضاوي بين كتب التفاسير.
- المبحث الثالث: مصادر تفسير البيضاوي.
- المبحث الرابع: منهج البيضاوي في التفسير.

الفصل الأول: نظرة في تفسير البيضاوي

المبحث الأول: سبب تأليف البيضاوي لتفسيره

كما اتضح في ترجمة الإمام البيضاوي رحمه الله، فهو إمامٌ علامة وعى من العلوم أجلَّها وأشرفها، فقد فقه الفقه وأصوله، وبرع في الحديث والمنطق، وغاص في العربية والبلاغة، واقتنص من التاريخ وعلم الهيئة درراً وفوائد، وكتب في أصول الدين والتوحيد، فهو عالم موسوعي نشأ في بلاد الفرس التي كانت مليئة بالعلم والعلماء.

ويكون الإمام البيضاوي بهذا بحراً من العلم، جمع إلى جانب هذا العلم منصباً كبيراً في الدولة وهو منصب القاضي ثم قاضي القضاة في شيراز، وكان كما وصفه علماء التراجم عابداً زاهداً، إلا أن منصب القضاء الذي تولاه البيضاوي قد ملأ عليه وقته ولم يبقِ له كثيرَ وقتٍ ليتفرغ للتصنيف والكتابة.

وما إن ترك القضاء والمناصب الدنيوية حتى لازم شيخه محمد الكتحتائي، ويبدو أنه كان سبباً في تأليف البيضاوي لهذا التفسير، فقد جاء في كشف الظنون أنه قد ألَّف تفسيره "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" بإشارة من شيخه محمد الكتحتائي(١).

وقد صرَّح البيضاوي نفسه رحمه الله بسبب تصنيفه لهذا التفسير بقوله في خطبة الكتاب: "وبعدُ، فإنَّ أعظمَ العلوم مقداراً وأرفعها شرفاً ومناراً علمُ التفسير؛ الذي هو رئيس العلوم الدينية ورأسها، ومبنى قواعد الشرع وأساسِها، لا يليق لتعاطيه والتصدي للتكلم فيه إلا من برع في العلوم الدينية كلها، أصولها وفروعها، وفاق في الصناعات العربية والفنون الأدبية بأنواعها، ولطالما أحدث نفسي بأن أصنف في هذا الفن كتاباً يحتوي على صفوة ما بلغني من عظماء الصحابة وعلماء التابعين ومَنْ دونَهم من السلف الصالحين، وينطوي على نكت بارعة، ولطائف رائعة، استنبطتها أنا ومن قبلي من أفاضل المتأخرين وأماثل المحققين، ويعرب عن وجوه القراءات المشهورة المعزية إلى الأئمة الثمانية المشهورين، والشواذ المروية عن القراء المعتبرين؛ إلا أن قصور بضاعتي يثبطني عن الإقدام، ويمنعني عن الانتصاب في هذا المقام، حتى سنح لي بعد الاستخارة ما صمم به عزمي على الشروع فيما أردته، والإتيان بما قصدته، ناوياً أن أسميه بعد أن أتممه، بـ"أنوار

(١) انظر: كشف الظنون: ١/١٨٧.

التنزيل وأسرار التأويل"، فها أنا الآن أشرع وبحسن توفيقه أقول وهو الموفق لكل خير ومعطي كل مسؤول"[١].

فبعد قراءة كلام البيضاوي تتضح الأسباب التي دفعته لتصنيف تفسيره وهي:

١. شرفُ علم التفسير ومكانته بين العلوم الدينية. لأن هذا العلم كما قال هو رأس العلوم الدينية، فالأحكام الشرعية مبنية على معرفة وفهم المراد من كتاب الله عز وجل.
٢. ما توفَّر لديه من العلوم المختلفة التي تؤهله للنظر في كتاب الله واستنباط النكات واللطائف الرائعة، وهو ما يُفهم من قوله: "لا يليق لتعاطيه والتصدي للتكلم فيه إلا من برع في العلوم الدينية كلها، أصولها وفروعها، وفاق في الصناعات العربية والفنون الأدبية بأنواعها" وكأن البيضاوي رحمه الله لا يريد أن يستأثر بما لديه من العلم لنفسه، بل يريد أن يجمعه ويودعه في كتاب يستفيد منه الدارسون وطلابُ العلم، ونراه ينص على ذلك في خاتمة الكتاب فيقول: "وأسأل الله تعالى أن يتمم نفعه للطلاب، ولا يخلي سعي من يتعب فيه من الأجر والثواب، ويختم كل خاتمة امرئٍ يؤمه بتمحيص عن الآثام، ويبلغني أعلى منازل دار السلام، في جوار العليين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً..." [٢].
٣. عدم توفر تفسير مختصر، يجمع أقوال العلماء والصالحين، يبتعد عن التطويل وذكر الروايات المتعددة وأسباب النزول كما هو الحال في كتب التفسير بالمأثور، وهو ما أشار إليه بقوله: "**ولطالما أحدث نفسي بأن أصنف في هذا الفن كتابا يحتوي على صفوة ما بلغني من عظماء الصحابة وعلماء التابعين ومَنْ دونَهم من السلف الصالحين**"، فهذا دفعه لتأليف هذا الكتاب المختصر الذي رأى الحاجة ماسَّة إليه.

وهنا مسألة من المهم البحث فيها وهي تسمية الكتاب.

اسم الكتاب:

فيتضح من كلام الإمام البيضاوي أنه أسمى تفسيره **(أنوار التنزيل وأسرار التأويل)**، وهذا هو الاسم الدقيق، وإن كان السُّبكي والداوودي والسيوطي أطلقوا عليه اسم "**مختصر الكشاف**"[٣]، ويبدو أن مختصر الكشاف ليس اسماً للكتاب، بقدر ما هو وصفٌ لمصدرٍ من المصادر المتعددة التي اعتمد عليها البيضاوي في تفسيره، ويدلُّنا على ذلك ما قاله صاحب كشف الظنون: "وتفسيره

(١) تفسير البيضاوي: ١/٥-٦.
(٢) تفسير البيضاوي: ٣/٥٨٨.
(٣) انظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: ج٨/١٥٧، وبغية الوعاة: ٢/٥٠، وطبقات المفسرين للداوودي: ١/٢٤٨.

هذا – يريد تفسير البيضاوي – كتاب عظيم الشأن غني عن البيان، لخَّصَ فيه من الكشاف ما يتعلق بالإعراب والمعاني والبيان، ومن التفسير الكبير ما يتعلق بالحكمة والكلام، ومن تفسير الراغب ما يتعلق بالاشتقاق وغوامض الحقائق ولطائف الإشارات، وضمَّ إليه ما وَرَّى زناد فكره من الوجوه المعقولة، فجلا ريْن الشكِّ عن السريرة، وزاد في العلم بسطة وبصيرة..."[(١)].

ومن هنا يتضح أن تسميته بمختصر الكشاف ليست تسمية دقيقة ومنصفة؛ لأن البيضاوي لم يعتمد على الكشاف اعتماداً كلياً، وإن كان قد أخذ منه ما يتعلق بالإعراب والمعاني والبيان، إلا أنه استعان إلى جانب هذا بتفاسيرَ أخرى، مثل: التفسير الكبير وتفسير الراغب الأصفهاني جامع التفاسير، إضافة إلى أنه ضَمَّ إلى هذا وذاك نتاجَ تأمُّلِه وإعمال فكره وقريحته.

وقد سمَّاه آخرون **(تفسير البيضاوي)**، وهي تسميةُ نسبةٍ على سبيل الاختصار والتعريف بصاحبه ومصنفه؛ أي أن مؤلف هذا الكتاب هو البيضاوي وليس تسميةً للكتاب، خاصة إذا ما علمنا أن من سمَّاه بهذا الاسم هو من قرأ هذا الكتاب من بعدُ، وبهذا يكون الاسم الأصح للكتاب على ما سمَّاه به صاحبُه ومصنِّفُه: **(أنوار التنزيل وأسرار التأويل)**.

ولا شك أن البيضاوي – رحمه الله – قد وُفِّق إلى هذا الاسم أيَّما توفيق، فأراد أن يبيِّن من خلال عنوان الكتاب طريقته في هذا التفسير ويختصر على من يقرأ عنوان الكتاب عناء البحث عن المنهج الذي اتبعه صاحبه فيه.

فأشار بكلمة **(أنوار التنزيل)** إلى الكتاب الذي هو بصدد تفسيره وهو كتاب الله عز وجل، ووصفه بالأنوار، الذي هو لا شك أنوارٌ تتجلى على البشرية والعالم أجمع، بما أودع الله فيه من منهج حياة وكلامٍ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقد قال الله عنه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ ﴾ النساء: ١٧٤ وقال: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ الأعراف: ١٥٧، وكيف لا يكون هذا القرآن نوراً وهو صادر عن الله عز وجل الذي هو نور السماوات والأرض: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ النور: ٣٥ ، وكيف لا يكون نوراً وقد جاء به عن الله رسولٌ هو للبشرية سراجٌ وقمرٌ منيرٌ كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾

(١) انظر: كشف الظنون: ١/١٨٧.

﴾الأحزاب: ٤٥ – ٤٦، إذاً فالقرآن نور ومصدره من نور السماوات والأرض وأنزل على نبي هو للناس نور.

وأشار بكلمة **(أسرار التأويل)** إلى طريقته في التفسير، وهو ما أوضحه في خطبة الكتاب: "ولطالما أحدث نفسي بأن أصنف في هذا الفن كتاباً يحتوي على صفوة ما بلغني من عظماء الصحابة وعلماء التابعين ومَنْ دونَهم من السلف الصالحين، وينطوي على نكتٍ بارعة، ولطائفَ رائعةٍ"(١)، فأراد من تصنيف هذا التفسير، أن يكشف لنا أسرار وروائع ولطائف ما في الكتاب الكريم، التي لا تتأتى إلا لمن يُحسن الغوص بحثاً عن الدرر واللآلئ المكنونة في ذلك الكتاب الكريم كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ الواقعة: ٧٧ – ٧٨.

وحتى نفهم ما أراد البيضاوي من قوله **أسرار التأويل** يحسُن بنا أن نقف على مسألة وهي:

هل هناك فرق بين التفسير والتأويل؟

والواقع أن هذه المسألة متشعبة وليس هذا مكان تقصيها، إذ أن بعض العلماء قالوا أنهما بمعنى واحد وهناك من فرق بينهما وهو الأرجح، وهنا لا بد من ذكر أشهر الأقوال في الفرق بين التفسير والتأويل(٢):

١. **التفسير**: بيان معاني القرآن من باب الجزم والقطع، وذلك لوجود دليل لدى المفسر، يعتمد عليه في الجزم والقطع، **والتأويل**: بيان معاني القرآن من باب الاحتمال وغلبة الظن والترجيح، لعدم وجود دليل لدى المؤول يعتمد عليه في الجزم والقطع.
٢. **التفسير**: بيان معاني الألفاظ القرآنية الظاهرة، التي وضعت لها في اللغة. كتفسير الصراط بالطريق، والصيِّب بالمطر، **والتأويل**: بيان باطن الألفاظ القرآنية، والإخبار عن حقيقة المراد بها.
٣. **التفسير**: هو فهم الآيات على ظاهرها، بدون صرفٍ لها عنه، **والتأويل**: صرفُ الآيات عن ظاهرها إلى معنىً آخرٍ، تحتمله الآيات، ولا يخالف الكتابَ والسُّنة، وذلك عن طريق الاستنباط.
٤. **التفسير**: هو الاقتصار على الإتباع والسماع والرواية، والاكتفاء بما ورد من مأثور في معاني الآيات، **والتأويل**: استنباط المعاني والدلالات من الآيات، عن طريق الدِّراية والتدبر وإعمال الفكر والنظر.

---

(١) تفسير البيضاوي: ١/٥-٦.

(٢) انظر: التفسير والتأويل في القرآن: صلاح الخالدي، ص١٧٠، دار النفائس، الأردن، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م. نقلاً عن التفسير والمفسرون للذهبي: ١/١٦-١٨.

٥. **التفسير**: هو بيان المعاني القريبة التي تؤخذ من الآيات، من كلماتها وجملها وتراكيبها، عن طريق الوضع واللغة، **والتأويل**: هو بيان المعاني البعيدة التي تُلحظ من الآيات، وتوحي بها كلماتها وجملها وتراكيبها عن طريق الإشارة واللطيفة والإيحاء.
٦. **التفسير**: أكثر استعماله في الألفاظ والمفردات، **والتأويل**: أكثر استعماله في المعاني والجمل.

من خلال ما ذُكر من الفرق بين التفسير والتأويل، نرى أن الإمام البيضاوي أشار بكلمة "**أسرار التأويل**" إلى أن تفسيره سيكون باحثاً عن النكات واللطائف والدلالات البلاغية والمعاني الخفية في كتاب الله عز وجل، أكثر من كونه مفسِّراً ينقل الروايات ويعددها ويذكر المعاني القريبة للآيات والألفاظ.

"فالمؤول يمعن النظر في الجمل والتراكيب والآيات، ويعتمد في نظره على تدبره وإعمال عقله، وتقليب وجوه الرأي والنظر، وتنفذ نظراته إلى باطن الآية، ويلتفت إلى لطائفِها وإشاراتِها وإيحاءاتها، ويستخرج حقائقَها ودلالاتِها، ويلحظ المعنى البعيد غير المتبادر للذهن، وغير الظاهر من الآية، ويسجل التوجيه والرمز والوْمضة التي تشرق بها الآية، ويقف على غرضها ومقصودها، ويزيل ما عليها من لَبْسٍ أو اشتباه، ويحِلُّ ما تثيره من غموض أو إشكال"(١).

(١) التفسير والتأويل في القرآن: ١٨٠-١٨١.

المبحث الثاني: مكانة تفسير البيضاوي بين كتب التفاسير

المطلب الأول: ما تميَّز به تفسير البيضاوي:

تميز تفسير البيضاوي بمميزات عدة أهلته ليحتل مكانة مرموقة بين كتب التفاسير، وجعلت العلماء يهتمون به غاية الاهتمام، منها:

١. تفسيرٌ جامعٌ لفرائد الفوائد:

فقد جمع تفسير البيضاوي صفوة آراء وتأملات العلماء والمفسرين الذين سبقوه، سيما الذين اهتموا بالكشف عن بيانه وبلاغته وأسراره، فنجد البيضاوي في تفسيره ينتقي من رياض التفاسير أزكى رياحينها، وأنضج وأجمل ثمارها، ثم يؤلفها في كتابه، جامعاً لهذه الفرائد بعد أن يضيف إليها نتاج تأمله وتدبره، فيكون بهذا العمل قد دفع عن طلاب العلم عناء التنقل بين التفاسير، لانتقاء الفوائد من هنا وهناك.

فقد أخذ من تفسير الكشاف للزمخشري والتفسير الكبير للرازي وجامع التفاسير للراغب الأصفهاني إضافة إلى تفاسير أخرى، إلا أن له فضلاً في تفسيره، إذ كان جامعاً لصفوة ما في التفاسير الأخرى كما قال البيضاوي: "وقد اتفق إتمام تعليق سواد هذا الكتاب **المنطوي على فرائد فوائد ذوي الألباب**، المشتمل على **خلاصة** أقوال أكابر الأئمة وصفوة آراء أعلام الأمة، في تفسير القرآن وتحقيق معانيه..."[(١)].

وللوقوف على أهمية تفسير البيضاوي لا بد لنا من التأمل في تاريخ وفيات المفسرين الثلاثة الذين اعتمد على تفاسيرهم الإمام البيضاوي كمصادر لتفسيره، فقد جمعوا خلاصة ما يمكن أن يصدر في القرن السادس الهجري من قطبيه، فالراغب الأصفهاني الذي كانت وفاته في بداية القرن السادس (ت٥٠٢هـ) مرر إلينا تجربة القرن الرابع فيما يتعلق بالتفسير، والزمخشري الذي قاربت وفاته منتصف القرن السادس (ت٥٣٨هـ) أدلى بدلوه ليظهر خلاصة ما توصلت إليه جهود المفسرين في أواسط هذا القرن، والرازي الذي ختم به القرن السادس (ت٦٠٦هـ) شكل صلة وصل بين القرنين السادس والسابع لينقل إلينا نهاية مسيرة علم التفسير في القرن السادس، وهذا يبرز

(١) تفسير البيضاوي: ٥٨٨/٣.

أهمية تفسير البيضاوي حيث جمع في تفسيره خلاصة قرن هو من أبرز القرون التي شهدت نهضة علمية واسعة فيما يتعلق بالعلوم الإسلامية على وجه العموم وبالتفسير على وجه الخصوص [١].

ونرى الشهاب الخفاجي في حاشيته يشهد بمكانة تفسير البيضاوي بين كتب التفاسير حين يقول: "والتفاسيرُ جداولُ تنصبُّ في لُجَّةِ بحرِهِ"، لذلك قرر أن يغوص باحثاً عن الجواهر وذلك حين قال: "فحَدَاني ذلك إلى مواردِه ومصادرِه، وحثَّني على الغوص على فرائدِ جواهره"[٢].

٢. **تفسيرٌ بيانيٌّ بلاغيّ**:

حرص البيضاوي في تفسيره على إظهار الأسرار البلاغية والبيانية في القرآن الكريم والكشف عن دقائقها وإعجازها، فيعد تفسير البيضاوي من التفاسير التي نحت إلى هذا النوع من التفسير مع حرصه الشديد أن يكون مختصراً اختصاراً غير مخل بتوضيح دلالة الآيات.

فقد قال البيضاوي عند حديثه عن تفسيره وطريقته فيه: "والكشف عن عويصات ألفاظه ومعجزات مبانيه"[٣]، فأراد أن يكشف الألفاظ المشكلة الصعبة، وأن يظهر الإعجاز في معاني القرآن، وهذا ما قرره الشهاب الخفاجي حين قال: "سقاه من صيْب البلاغة هتونه، حتى تشعَّبت فروعُه وتهدلت غصونُه، نَجْوُه بصوب الوحي مغدق، ودوْحُه في ربيع المعاني مثمرٌ مورق"[٤].

فلم يقتصر البيضاوي على التفسير بالمأثور كما هو حال القدماء بل مضى على طريقة المتأخرين في سعيه إلى إبراز مزايا القرآن وبلاغته، وهذا ما قرَّره القونوي حين يقول: "فصنَّفوا كتباً منقحة معتبرة – أي في التفسير – ، وزُبُراً محرَّرةً مهذبة، لكِنْ قدماؤهم روَّح الله أرواحَهم، اقتصروا على ما رُوي عن سيِّد البشر، في تبيين المعاني على وِفق الأثر، ومتأخروهم طاب الله ثراهم، حاولوا مع ذلك إبراز مزاياه، الرشيقة حسبما نطقها قواعِدُ البلاغة الأنيقة، ليظهرَ إعجازُه لكل جليلٍ وحقير، مما لا يطيق به عقولُ البشر، وما هو إلا لخالق القُوى والقدر، وليعلموا امتيازَه عن سائرِ الكتب الإلهية، ويشاهدوا فضله على سائر الزُّبُر السماوية، لا سيِّما أنوارُ التنزيل وأسرارُ التأويل...

(١) اهتمام مفسري القرن الحادي عشر بتفسير البيضاوي أسبابه ومظاهره: محمد إدريس، ص٤٩٧، رسالة ماجستير، إشراف عبد القادر محمد الحسين، كلية الشريعة، جامعة دمشق.

(٢) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: ٣/١.

(٣) تفسير البيضاوي: ٥٨٨/٣.

(٤) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: ٣/١.

واحتوى من قواعد البلاغة والبراعة وفنون البدائع أدقَّها وأسناها... فكان من بين التفاسيرِ كالغُرَّة الغرَّاء، والفريدة البيضاء، ومرآةً لانفهام وجوه البلاغة والإعجاز "[١].

وقال حاجي خليفة مبيناً البلاغة القرآنية في تفسير البيضاوي: "كشف القناع تارة عن وجوه محاسن الإشارة وملح الاستعارة"[٢].

٣. المنهج والأسلوب:

فلقد بلغ تفسير البيضاوي ذروة المنهج العلمي في التفسير، ذلك المنهج الذي درَج عليه العلماء منذ بداية القرن السابع الهجري في عامَّة العلوم، وساعد البيضاوي على ذلك النشأة العلمية التي تربى عليها وهي ما يسمى بـ "الأسلوب الأعجمي" القائم على الجمع بين أصناف العلوم والترقي بها سوية من خلال بعضها ببعض حتى تحصل الملكة العامة في كل هذه العلوم، مع تحرير القوالب التعبيرية بأسلوب واحد[٣].

ظهر هذا المنهج في تفسير البيضاوي جلياً من حيث اعتماده في تأليفه على طريقة جمعت بين الاختصار ودقة التعبير والتزام المصطلح العلمي والإشارة إلى ما يتفرع عن التعبير من معانٍ يكتفى بحضورها في الذهن عند ذكرها، ثم تؤخذ مباني لما يأتي به التعبير بعدها[٤].

ويظهر أيضاً منهج البيضاوي العلمي عند اقتباسه من تفاسير أخرى، فلم يكن مجرد ناقل للآراء والأقوال، فقد حلل البيضاوي ما جمع من أفكار المتقدمين وبحثها ونقدها واستخرج منها أحكاماً، واستظهارات شخصية، وأبدع في كثير من الأحكام والاستظهارات، ما استقل به وانفرد بتحقيقه، وربما جمع الأوجه المتعددة والاحتمالات المختلفة، فرتبها بحسب الرجحان وأشار إلى ما هو المعتمد منها، وما هو ضعيف أو مردود، وسبك تلك الأنظار البعيدة، والتحارير العالية سبكاً دقيقاً رقيقاً، بناء على تنقيح العبارات وضبطها وتهذيبها واختصارها الاختصار المحكم، القابل للبسط والإيضاح، على ما هي الطريقة المختارة المسلوكة يومئذ في تحرير العلوم[٥].

عمد البيضاوي في تفسيره إلى الإيجاز مبتعداً عن التطويل الذي قد يصيب القارئ بالسآمة والنصب عند قراءة الأسانيد والروايات، مراعياً أن يكون ايجازه غير مخلٍّ في بيان الآيات ودلالاتها

---

(١) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: ١/ ٢٢-٢٣.

(٢) كشف الظنون: ١/١٨٧.

(٣) التفسير ورجاله: محمد الفاضل بن عاشور، ص٩٦، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ١٣٩٠هـ، ١٩٧٠م.

(٤) ا اهتمام مفسري القرن الحادي عشر بتفسير البيضاوي أسبابه ومظاهره: ٤٩٨

(٥) التفسير ورجاله: ٩٣

ودقائق معانيها، فقال عن تفسيره: "وقد اتفق إتمام تعليق سواد هذا الكتاب... في تفسير القرآن وتحقيق معانيه... مع الإيجاز الخالي عن الإخلال، والتلخيص العاري عن الإضلال..."[١].

وقد أشار الذهبي رحمه الله إلى الاختصار الذي عمد إليه البيضاوي فقال: "تفسير العلامة البيضاوي، تفسير متوسط الحجم"[٢].

وبذلك أصبح تفسير البيضاوي بمحتواه ومنهجه وأسلوبه أثراً ساميَ القيمة أسدى به القاضي يداً بيضاء للباحثين والدارسين إذ قرَّب منهم المستعصي وجمع لهم المتفرق وضبط لهم تحرير غير المُحرَّر[٣]

٤. انتصاره لأهل السنة والجماعة:

وقف البيضاوي في تفسيره موقف المنتصر لمذهب أهل السنة والجماعة، متصدياً لما قرره الزمخشري في كشافه، الذي يعد من المصادر التي اعتمد عليها البيضاوي في الإعراب والمعاني مع طرحه للأفكار الاعتزالية الموجودة في الكشاف، وهو ما أشار إليه بقوله: "مع التلخيص العاري عن الإضلال"، وقد أشار السيوطي إلى هذا بقوله: "ومازَ فيه أماكن الاعتزال، وطرح موضوع الدسائس وأزال"[٤]

وقال حاجي خليفة مبيناً موقف البيضاوي من اعتزاليَّات الكشاف: "وأورد في المباحث الدقيقة ما يُؤمن به عن الشُّبه المضلة وأوضح له مناهج الأدلة"، وبين في موضع آخر عقيدة البيضاوي التي ظهرت في تفسيره: "لأنه مالك زمام العلوم الدينية والفنون اليقينية على مذهب أهل السنة والجماعة"[٥].

وقال الذهبي: "تفسير العلامة البيضاوي، تفسير متوسط الحجم... وقرر فيه الأدلة على أصول أهل السنة... وقد اختصره البيضاوي من الكشاف للزمخشري ولكنه ترك ما فيه من اعتزاليات، وإن كان أحياناً يذهب إلى ما يذهب إليه صاحب الكشاف..."[٦].

---

(١) تفسير البيضاوي: ٥٨٨/٣.
(٢) التفسير والمفسرون: ٢١١/١.
(٣) التفسير ورجاله: ٩٣-٩٤.
(٤) نواهد الأبكار : ١٣/١
(٥) كشف الظنون: ١٨٧/١.
(٦) التفسير والمفسرون: ٢١١/١.

٥. **المُكنة العلمية**:

تفسير البيضاوي حديقةٌ غنَّاء مليئة بالعلوم الدينية والعلوم الخادمة لها، فقد قال حاجي خليفة: "وقد اعترفوا له قاطبة بالفضل المطلق وسلموا إليه قصب السبق فكان تفسيره يحتوي فنونا من العلم وعرة المسالك وأنواعا من القواعد مختلفة الطرائق، وقلَّ من برز في فن إلا وصدَّه عن سواه وشغله والمرء عدو ما جهله فلا يصل إلى مرامه إلا من نظر إليه بعين فكره وأعمى عين هواه"(١).

وقال القونوي: "فإنه كتابٌ احتوى على معانٍ كثيرة الشعوب متدانية الجنوب، مسوَّمَة المبادئ والمطالع، مقومة الأعالي والقواطع"(٢).

وبذلك فإن القارئ لتفسير البيضاوي ليظهر له من أول وهلة المُكنة العلمية التي لدى هذا العالم، فقد كان واسع الاطلاع عظيم المعرفة، وقد استفاد من هذه العلوم وسخَّرها لتكون خادمةً لتفسير الكتاب العظيم، وجعل منها أدوات يبرز من خلالها نكاته واستنباطاته في تأويل القرآن الكريم، فنجده قد خاض في مسائل اللغة خوض صاحب القدم الراسخة مستعرضاً اشتقاق ألفاظها واستعمالات العرب فيها وشواهدها من أشعارهم، وإذا مر بمسألة نحوية سبر أغوارها وخاض غمارها بمنتهى التحقيق والتدقيق، وإذا ما عرج على شيء من أحكام القرآن نجده قد أبرز شخصيته الفقهية الفذة من خلال استعراض بعض أقوال المذاهب والترجيح بينها، وإذا ما لاحت له بارق مسألة أصولية أنشب لها قوسه ومدَّ في استعراضها نفَسَه، فهو في علم الأصول النهر الذي لا يُجارى والبحر الذي لا يُبارى، وكذلك الشأن في العلوم العقلية والتاريخ والتصوف وعلم الفَلَك(٣).

من خلال ما سبق تتضح بعض المميزات والخصائص التي تميز بها تفسير البيضاوي من بين التفاسير القرآنية، لذلك فإنه تفسير لا يستغني عنه من أراد فهم كتاب الله والوقوف على دقائقه وفهم مراد ربه.

ولهذا فإن تفسير البيضاوي قد لاقى قبولاً عند كثير من العلماء المتأخرين سواء في اعتماده مرجعاً للتدريس في الجوامع لطلاب العلم أو من خلال كثرة الحواشي التي كتبت عليه.

---

(١) كشف الظنون: ١/١٨٧.

(٢) حاشية القونوي على تفسير الإمام البيضاوي: ١/ ٢٢.

(٣) اهتمام مفسري القرن الحادي عشر بتفسير البيضاوي أسبابه ومظاهره: ٤٩٣.

المطلب الثاني: **مظاهر العناية والاهتمام بتفسير البيضاوي**:

أصبح تفسير البيضاوي بمحتواه ومنهجه وأسلوبه أثراً سامي القيمة، أسدى به القاضي يداً بيضاء للباحثين، إذ قرب منهم المستعصي، وجمع لهم المتفرق، وضبط لهم تحرير غير المحرر، فأحلَّه الناس منذ بروزه واشتهاره في النصف الثاني من القرن السابع محل الاعتماد والإقبال، وبذلك فإن تفسير البيضاوي قد أصبح كتاباً عميق الغور، صعب المراس، ثري المطاوع، لذلك تتابعت العناية به تدريساً وتخريجاً وتأليفاً.

فزيادة على الكتب التي ترجع إليه أصالةً من الحواشي والتعاليق التي لا تكاد تدخل تحت حصر فإنه ما من مفسر للقرآن في القرن السابع وما بعده، إلا وتفسير البيضاوي في طليعة مراجعه، ولقد عظم صيت هذا الكتاب وأقبل الناس عليه إذ وجدوا فيه الضالة المنشودة من التفسير العلمي على الطريقة التحليلية اللفظية(١).

وأول ما يطالعنا من مظاهر العناية والاهتمام الذي حازه تفسير البيضاوي المؤلفات التي كتبت عليه سواء كانت تلك المؤلفات حواشي وتعليقات أو تخريج لأحاديثه أو أبياته أو حتى المختصرات التي كتبت عليه.

أولاً: المؤلفات التي كتبت على تفسير البيضاوي:

حظي تفسير البيضاوي بالكثير من العناية والاهتمام من قِبل العلماء في مجال كتابة الحواشي والتعليقات عليه، والمؤلفات التي كتبت عليه بشكل عام، وقلَّما تجد تفسيراً حظي بمثل ما حظي به هذا التفسير، ويدلنا على ذلك كثرة الحواشي التي كتبت عليه سواء كانت تامة أو على أجزاء منه، فقد جاء صاحب كشف الظنون على ذكر أسماء ما يقرب من أربعين حاشية وتعليقة ما بين حواشٍ تامة وأخرى غير تامة، وقد استدرك صاحب إيضاح المكنون نحواً من سبعين حاشية وتعليقة لم يأت على ذكرها صاحب كشف الظنون، في حين أورد الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط أسماء ثلاثمائة وثلاث وثلاثين حاشية(٢).

وكثرة هذه الحواشي تدل على قيمته العلمية وتوحي بمدى الإقبال والعناية اللذين حظي بهما هذا التفسير.

---

(١) التفسير ورجاله: ٩٣-٩٧ (بتصرف).

(٢) انظر: كشف الظنون: ١٨٨/١، وإيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: إسماعيل باشا، ١٣٨/١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الفهرس الشامل للتراث العربي والإسلامي المخطوط:٣٢٠/١.

ولعل الأسباب التي تقف وراء كثرة هذه الحواشي تظهر لنا من خلال ما اتضح سابقاً من القيمة العلمية لهذا التفسير وأسباب أخرى منها:

١. **كان تفسير البيضاوي باباً مهماً للولوج إلى تفسير الكشاف**:

فلقد كان تفسير البيضاوي مدخلاً مهماً للوصول إلى تفسير الكشاف، إذ أن كثيراً من قلوب الناس كانت تهفو إلى تفسير الكشاف، وكان علماء السنة يتعلقون بالكشاف تعلقاً مشوباً بالحب والحذر، وذلك لما حواه من آراء اعتزالية، فكان بروز البيضاوي بتفسيره ملخصاً من الكشاف زائداً عليه مبرأ من سقطاته برداً وسلاماً على تلك القلوب التي كانت تهفو إلى الكشاف وتتهيَّبه.

وبذلك كان تفسير البيضاوي سلماً يصعد من خلاله من رام الوصول إلى الكشاف، وآية ذلك أنه لم تتوفر حواشي الكشاف إلا في القرن الثامن وما بعده، ولم تطلع غالباً إلا من الآفاق العلمية التي كانت مستنيرة بتفسير البيضاوي.

بحيث أصبحت الأنظار متجاذبة والبحوث متبادلة باطراد بين حواشي الكشاف وحواشي البيضاوي كأن محرريها مجتمعون في مجلس واحد، وبذلك كثرت الحواشي كثرة قلَّ أن ترى مثلها في تفسير من التفاسير[١].

٢. **خشية العلماء من ضياع فوائد البيضاوي ونكاته**:

فلقد لوَّحت عبارة البيضاوي لأدباء العلماء بشيء من جمالها، فسعوا إلى تفسيره ليميطوا اللثام عن باقي الجمال، وولجوا بحره ليستخرجوا درره خشية ضياعها في قعر الإهمال، فباشر هؤلاء العلماء العمل وحملوا معاول تنقيبهم وشرحوه ليرصفوا فرائد فوائده في حواشيهم التي كتبوها على تفسيره، وفي ذلك يقول جلال الدين السيوطي: "شغرت الديار المصرية من محقق، وخلت من مدرس يبدي ضمائره مدقق، فصار الكتاب بما فيه من الكنوز كصندوق مقفل، وأصبح لفقد من فيه أهلية لتدريسه كأنه مغفل، فألهمني الله سبحانه وتعالى أن جردت الهمة لتدريسه، وشددت المئزر لتقرير ما فيه وتأسيسه[٢]

(١) التفسير ورجاله: ٩٧-٩٨ (بتصرف).

(٢) اهتمام مفسري القرن الحادي عشر بتفسير البيضاوي أسبابه ومظاهره: ٥٠٠. انظر عبارة السيوطي في نواهد الأبكار: ١٤/١

٣. **خشية العلماء على تفسير البيضاوي من فاقدي الأهلية**:

فمن أسباب كثرة الحواشي ما رآه العلماء من تعرُّض بعض فاقدي الأهلية العلمية إلى هذا التفسير تدريساً وشرحاً، فخشي العلماء أن ينزله هؤلاء في غير منزلته التي يستحقها، ونحن نعلم أن رمد العين ينقلب عمى على يد الطبيب الجاهل... يقول الشهاب الخفاجي مشيراً إلى ذلك: "ولكني رأيت البغاث ربما تفكَّهت بأعذب الثمار، ووردت قبل الضواري غير الأنهار، فحداني ذلك إلى موارده ومصادره، وحثني على الغوص على فرائد جواهره، وأن أكتب عليه حواشي تكون سياجاً لثماره، ومقدمات لنتائج أفكاره، التي تحير فيها البيان، ونادت الفضل للمتقدم في كل زمان" فأراد هؤلاء العلماء من حواشيهم التي كتبوها على البيضاوي أن تكون سياجاً لثماره كما ذكر الشهاب، فيقطعوا بذلك الطريق على كل طفولي يريد أن يتبوأ منزلة لا تنبغي له وهو ليس لها بأهل(١).

٤. **الغزارة العلمية**:

فقد وجد العلماء في هذا التفسير مادة علمية غزيرة وعبارة موجزة جامعة، وجمع لعلوم متنوعة وآراء في فنون جمة، فحاول العلماء شرح تلك العلوم ومناقشة تلك الآراء وفك العبارات المجملة وكشف ما تحويه من نكت وعلوم، فكأنهم يتنافسون في الحواشي والتعليق عليه(٢).

٥. **كان منهجاً مقرراً على طلاب العلم**:

فقد اعتمده كثير من المشايخ والعلماء مرجعاً لتدريس طلابهم وذلك لما فيه من اختصار وجمع للآراء المتنوعة بجزالة لفظ وعذوبة أسلوب، فقد اشتهر تدريسه في كثير من أقطار العالم الإسلامي وخاصة إبان الدولة العثمانية، فعمد العلماء إلى كتابة شروح وحواشٍ عليه ليسهلوا على طلابهم الوصول لهذا التفسير وفهم إشاراته ودقائق معانيه، فكان هذا مدعاة لكثرة الحواشي والتعليقات التي كتبت عليه.

ونظراً لما سبق من أسباب، كثُرَت الحواشي والتعليقات كثرة قل نظيرها ما بين حواشٍ تامة وأخرى ناقصة، وسنورد هنا أسماء أشهر الحواشي والتعليقات.

---

(١) اهتمام مفسري القرن الحادي عشر بتفسير البيضاوي أسبابه ومظاهره: ٥٠٠-٥٠١. انظر عبارة الشهاب في: حاشية الشهاب: ٢/١

(٢) البيضاوي ومنهجه في التفسير: يوسف أحمد علي، ص٣٣٥، رسالة دكتوراة، إشراف الأستاذ محمد شوقي السيد، جامعة أم القرى، السعودية.

١. الحواشي[١]:

حاشية القوجوي (محي الدين شيخ زاده):

العالم الفاضل محيي الدين محمد بن الشيخ مصلح الدين مصطفى القوجوي، المتوفى سنة إحدى وخمسين وتسعمائة، وهي أعظم الحواشي فائدة وأكثرها نفعا وأسهلها عبارة، كتبها أولا على سبيل الإيضاح والبيان للمبتدئ في ثمان مجلدات، ثم استأنفها ثانيا بنوع تصرف فيه وزيادة عليه، فانتشرت هاتان النسختان وتلاعب بهما أيدي النساخ حتى كاد أن لا يُفرق بينهما، ولبعض الفضول منتخب تلك الحاشية ولا يخفى أنها من أعزِّ الحواشي وأكثرها قيمة واعتبارا وذلك لبركة زهده وصلاحه.

حاشية القونوي:

إسماعيل بن محمد بن مصطفى، أبو المفدى، عصام الدين، القونوي وهو مفسر، من فقهاء الحنفية، مولده بقونية ووفاته بدمشق عام (١١٩٥هـ)، وحاشيته على تفسير البيضاوي من الحواشي الجليلة، وطبعت هذه الحاشية باستنبول سنة ١٢٨٣هـ في أربع مجلدات.

حاشية الشهاب الخفاجي:

أحمد بن محمد بن عمر، شهاب الدين الخفاجي المصري قاضي القضاة وصاحب التصانيف في الأدب واللغة، المتوفى (١٠٦٩هـ) له حاشية على تفسير البيضاوي أسماها (عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي)، وهي من أعظم الحواشي وأكثرها نفعاً، "وهي حاشية تامة واسعة كثيرة المباحث والفوائد، وسعت دائرة تفسير البيضاوي علماً، أكثر مما وسعتها نقداً وبحثاً"[٢]. وقد تناولها العلماء بالدراسة والعناية لما فيها من عظيم الفائدة، وقد طبعت ببولاق مصر سنة ١٢٨٢هـ، في ثمانية مجلدات، وهي مصورة حديثاً بالمكتبة الإسلامية في ديار بكر بتركيا.

حاشية السيالكوتي:

عبد الحكيم بن شمس الدين الهندي السيالكوتي البنجابي: فاضل، من أهل سيالكوت التابعة للاهور، بالهند، المتوفى (١٠٦٧هـ)، وقد قال عن حاشيته ابن عاشور: "سارت مثلاً في التحقيق،

(١) انظر حواشي وتعليقات تفسير البيضاوي: كشف الظنون: ١٨٨/١، إيضاح المكنون: ١٣٨/١.

(٢) التفسير ورجاله: ١٠٠.

والتحليل، وصواب النظر، ورشاقة العبارة، والإغراق في الإشارة، حتى اعتبرت عنقاء الدارسين وآبدة الناظرين"[1]، وطبعت هذه الحاشية في استنبول سنة (١٢٧١هـ).

حاشية السيوطي:

الشيخ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي الإمام الحافظ المؤرخ الأديب، المتوفى سنة إحدى عشرة وتسعمائة وهي بعنوان "نواهد الأبكار وشوارد الأفكار".

حاشية ابن التمجيد:

العالم مصلح الدين مصطفى بن إبراهيم المشهور بابن التمجيد معلم السلطان محمد خان الفاتح، المتوفى (٨٨٠هـ) وهي مفيدة جامعة أيضا لخصها من حواشي الكشاف في ثلاث مجلدات، وطبعت هذه الحاشية باستنبول سنة ١٨٢٧م في سبع مجلدات.

حاشية الكازروني:

أبي الفضل القرشي الصديقي الخطيب المشهور بالكازروني المتوفى في حدود سنة أربعين وتسعمائة (٩٤٠هـ) وهي حاشية لطيفة في مجلد أورد فيها من الدقائق والحقائق ما لا يحصى، وطبعت هذه الحاشية على هامش تفسير البيضاوي بدار الكتب المصرية بالقاهرة سنة (١٣٣٠هـ) في خمس مجلدات وصورت حديثاً في بيروت.

حاشية أبي بكر الحنبلي:

وهو الشيخ أبو بكر بن أحمد بن الصائغ الحنبلي المتوفى سنة (٧١٤هـ) واسم حاشيته (الحسام الماضي في إيضاح غريب القاضي)، شرح فيها غريب التفسير وضم إليها فوائد كثيرة.

حاشية الإسنوي:

وهو جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن الإسنوي فقيه أصولي، من علماء العربية، ولد بإسنا، وتوفي سنة (٧٧٢هـ)، له كتب ومصنفات كثيرة وله حاشية على تفسير البيضاوي.

حاشية الكرماني:

وهو الشيخ شمس الدين محمد بن يوسف الكرماني المتوفى سنة (٧٨٦هـ).

---

(١) التفسير ورجاله: ١٠٠.

شرح إمام الكاملية:

كمال الدين محمد بن محمد بن عبدالرحمن المصري المعروف بإمام الكاملية المتوفى سنة (٨٧٤هـ)، له شرحان على أنوار التنزيل مطولا ومختصرا.

حاشية القراماني:

وهو الشيخ جمال الدين إسحق القراماني، المتوفى سنة (٩٣٣هـ)، وهي حاشية مفيدة جامعة.

٢. التعليقات والحواشي غير التامة(١):

وأما التعليقات والحواشي غير التامة فكثيرة جدا فنذكر منها الأشهر فالأشهر فمنها:

تعليقة عجم سنان المحشي:

سنان الدين يوسف البردعي الشهير بعجم سنان المحشي لشرح الفرائض كتبها إلى قوله – سبحانه وتعالى –﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ البقرة: ٧١.

وحاشية الأسفرايني:

الفاضل المحقق عصام الدين إبراهيم بن محمد بن عربشاه الأسفرايني المتوفى سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة وهي مشحونة بالتصرفات اللائقة والتحقيقات الفائقة من أول القرآن إلى آخر الأعراف ومن أول سورة النبأ إلى آخر القرآن أهداها إلى السلطان سليمان خان.

وحاشية سعدي أفندي:

المولى العلامة سعد الله بن عيسى الشهير بسعدي أفندي المتوفى سنة خمس وأربعين وتسعمائة وهي من أول سورة هود إلى آخر القرآن وأما التي وقعت على الأوائل فجمعها ولده بير محمد من الهوامش فألحقها إلى ما علقه وفيها تحقيقات لطيفة ومباحث شريفة لخصها من حواشي الكشاف وضم إليها ما عنده من تصرفاته المسلمة فوقع اعتماد المدرسين عليها ورجوعهم عند البحث والمذاكرة إليها وقد علقوا عليها رسائل لا تحصى.

(١) انظر حواشي وتعليقات تفسير البيضاوي: كشف الظنون: ١٦٣/١، إيضاح المكنون: ١٣٨/١.

وحاشية سنان الدين:

الفاضل سنان الدين يوسف بن حسام المتوفى سنة ست وثمانين وتسعمائة وهي حاشية مقبولة من أول الأنعام إلى آخر الكهف وعلق على سورة الملك والمدثر والقمر وألحقها وأهداها إلى السلطان سليم خان الثاني.

وتعليقة العالم الفاضل مصلح الدين محمد اللاري:

المتوفى سنة سبع وسبعين وتسعمائة وهي إلى آخر الزهراوين مشحونة بالمباحث الدقيقة.

تعليقة الفاضل محمد بن موسى البسنوي:

المتوفى سنة ست وأربعين وألف وهي إلى آخر سورة الأنعام. كتبها على طريق الإيجاز بل على سبيل التعمية والإلغاز.

وتعليقة الفاضل المشهور بالعلائي بن محبي الشيرازي:

علاء الدين علي بن محيي الدين محمد الشريف المتوفى سنة (٩٤٥هـ) وهي على الزهراوين، فرغ عنها في رجب سنة خمس وأربعين وتسعمائة وسماها: (مصباح التعديل في كشف أنوار التنزيل).

تعليقة الشيخ رضي الدين:

محمد بن يوسف الشهير بابن أبي اللطف القدسي المتوفى سنة (١٠٢٨هـ) وهي في مجلد ضخم، علقها في درسه عند الصخرة إلى آخر الأنعام فبيضها وأرسلها إلى المولى أسعد المفتي.

٣. تخريج أحاديث تفسير البيضاوي:

لا شك أن تفسير البيضاوي مع جلالته وقيمته العلمية يبقى عملاً بشرياً لا يخلو من بعض الملاحظات والهنات البسيطة، إلا أنه لا بد من الإشارة إلى أن البيضاوي قد سار في تفسيره على طريقة صاحب الكشاف في ذكره في نهاية كل سورة حديثاً في فضلها، دون مراعاة لدرجة الصحة في هذه الأحاديث.

وقد تحدث ابن عاشور عن هذا الأمر فقال: "على أن القاضي البيضاوي لم يسلم من أمر وقع فيه صاحب الكشاف، وتهاون بأمره العلماء بعد القرن الثامن، وهو عدم التحري في درجة الأحاديث التي يوردها، معرضاً بما عليها من النقد والتزييف، وما يتصل بها من مباحث التجريح والتعديل، وذلك أمر أخذ عليه بحق، وإن حاول صاحب كشف الظنون تخفيف أمره عليه، فإن

الشهاب الخفاجي لم يزل يعلق على حديث مما أورده البيضاوي بأنه موضوع، وخاصة أحاديث فضائل السور"[١].

وبالرجوع إلى كلام حاجي خليفة فيما يخص كلام العلماء على أحاديث فضائل السور ننقل ما قاله فيما يتعلق بهذا الأمر: "وأما أكثر الأحاديث التي أوردها في أواخر السور فإنه لكونه ممن صفت مرآة قلبه، وتعرض لنفحات ربه، تسامح فيه وأعرض عن أسباب التجريح والتعديل، ونحا نحو الترغيب والتأويل، عالماً بأنها مما فاه صاحبه بزور، ودلى بغرور، والله عليم بذات الصدور"[٢].

وبالنظر إلى كلام حاجي خليفة وكلام ابن عاشور يظهر لنا أن حاجي خليفة قد حاول الاعتذار للبيضاوي عما وقع فيه، واعتذاره قد يكون مقبولاً إذا حُمِل على أنه أورد هذه الأحاديث في معرض الترغيب في كتب التفسير لا في كتب الفقه والأصول وما شاكلها، ولكن وإن لم يكن هذا العذر مقبولاً عند بعض العلماء إلا أن هذا لا ينقص من قدر هذا التفسير الذي يعتبر أحد الأعمدة المهمة التي يرتكز عليها علم التفسير.

وقد أولى العلماء والدارسون تفسير البيضاوي بالعناية والاهتمام لاستدراك تلك الأحاديث وتخريجها وقد ظهرت المؤلفات التي كتبت لتخريج أحاديثه.

كتب تخريج أحاديث تفسير البيضاوي:

الفتح السماوي في تخريج أحاديث البيضاوي:

ألفه المحدث الشامي الشيخ زين الدين عبد الرؤوف المناوي (ت١٠٣١هـ). وحققه أحمد مجتبى بن نذير عالم السلفي في طبعته الأولى (١٤٠٩هـ) دار العاصمة – الرياض، وعدد أحاديثه (١٠٥١ حديثاً).

وقد جاء في مقدمة هذا الكتاب: "بسم الله الرحمن الرحيم، اللهَ أحمد أن جعلني من خدام أهل الكتاب و السنة النبوية، وجبلني على الاعتناء بتمييز صحيح الحديث وسقيمه من غير تحامل ولا عصبية، والصلاة والسلام على خير البرية، وعلى آله و صحبه ذوي المناقب العلية، وبعد، فيقول العبد المقصر القاصر، الراجي عفو الرؤوف القادر، إنني قد وقفت على عدة تخاريج للأحاديث الواقعة في (الكشاف)، ولم أقف على من أفرد تخريج الأحاديث الواقعة في (تفسير

(١) التفسير ورجاله: ١٠١.

(٢) كشف الظنون: ١/١٨٨.

القاضي) طيب الله ثراه و جعل الجنة مثواه، بتأليف مستقل، مع دعاء الحاجة بل الضرورة إلى ذلك أشد إذ منها الصحيح والضعيف والموضوع وما لا أصل له، ولم يوقف له على خبر بالكلية فأفردت لذلك هذه العجالة، مع شغل البال، وسوء الحال، وكثرة الهموم، وترادف المصائب والغموم، حتى أصبحت القريحة قريحة، والجوارح جريحة، والدمع منهمل، والخاطر منكسر، إلى الله أشكو صدعة أذهبت بالي، فمن هولها ربع اصطباري غدا بالي، وسميته: (الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي)، ومن ممد الكون أستمد العون، وهو حسبي ونعم الوكيل[١].

تحفة الراوي في تخريج أحاديث البيضاوي:

ألفه الشيخ محمد بن حسن المعروف بابن همات أو محمد همات زاده، الدمشقي من علماء الحديث، توفي سنة (١١٧٥هـ)[٢].

فيض الباري في تخريج أحاديث تفسير البيضاوي:

للشيخ عبد الله بن صبغة المدراسي المتوفي سنة (١٢٨٨هـ) رحمه الله تعالى وصل فيه إلى سورة مريم، مخطوط بقلم المؤلف منه نسخة مصورة في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة[٣].

٤. **مختصراته**:

مواهب الجليل من تفسير البيضاوي أنوار التنزيل وأسرار التأويل:

للشيخ محمد أحمد كنعان طبع في بيروت نشر دار العلم للملايين ودار لبنان للطباعة والنشر سنة(١٤٠٤هـ) في مجلد ضخم على هامش القرآن الكريم .

الإتحاف بتمييز ما تبع فيه البيضاوي صاحب الكشاف:

للشيخ محمد بن علي بن أحمد الداودي من علماء القرن العاشر، مخطوط منه نسخة في دار الكتب المصرية برقم (٢٧٠).

---

(١) الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي: عبد الرؤوف المناوي، تحقيق أحمد مجتبى، ١/٨٧-٩٠/١، دار العاصمة، الرياض.

(٢) الأعلام للزركلي: ٩١/٦.

(٣) الدليل إلى المتون العلمية: عبد العزيز بن إبراهيم بن قاسم.

مختصر تفسير البيضاوي:

لمحمد بن محمد بن عبد الرحمن المعروف بإمام الكاملية الشافعي القاهري المتوفى سنة أربع وسبعين وثمانمائة.

من مظاهر العناية والاهتمام بتفسير البيضاوي:

ثانياً: الدروس التي عُقِدت على تفسير البيضاوي:

كما ظهر سابقاً فإن تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) بما له من مجموع خصائص ميزته عن غيره من كتب التفسير جعلته يحظى بالاهتمام البالغ وبوأته مكانة عالية قلَّ نظيرها، لذلك فقد اعتمده العلماء مادة مهمة لتعليم طلابهم التفسير، ومن هنا كثرت دروس العلم حول تفسير البيضاوي، وبدأ المشايخ يجيزون طلابهم تفسير البيضاوي، ويتناقلونه بالأسانيد الصحيحة خلفاً عن سلف.

أسماء بعض العلماء والمشايخ الذين عقدوا دروساً على تفسير البيضاوي:

١. **أحمد بن الصايغ:** الإمام العلامة شهاب الدين بن الصايغ المصري، الحنفي، كان بارعاً في العلوم الشرعية والعقلية، وكان يدرس في تفسير البيضاوي وغيره[١].
٢. **شهاب الدين الأبشيطي:** الفقيه الشافعي العارف بالحديث المتوفى (٨٨٣هـ)، كان يعقد دروساً في تفسير البيضاوي، فقد جاء في التحفة اللطيفة في ترجمة عمر بن عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي الفرج الزرندي المدني الشافعي أنه حضر دروساً في تفسير البيضاوي على الشهاب الأبشيطي بقراءة حسين الفتحي[٢].
٣. **علي بن حسن الجراعي:** الإمام العلامة المشهور بالقيمري كان قد ولي نصف إمامة الشافعية بالجامع الأموي، وتصدر للإقراء بمقصورة الجامع الأموي في تفسير البيضاوي، ثم في تفسير البغوي، ومات ولم يكمله[٣].
٤. **محمد البليدي:** التونسي المالكي العالم بالعربية والتفسير والقراءات، المغربي الاصل، سكن القاهرة وتوفى فيها سنة (١١٧٦هـ)[٤]، كان يعقد دروساً في تفسير البيضاوي وحضرها الشيخ عبد الوهاب بن عبد السلام العفيفي، فقد جاء في عجائب الآثار: "ولما توفي شيخه الصباغ لازم السيد محمد البليدي في دروسه من ذلك تفسير البيضاوي بتمامه"[٥].

---

(١) الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة: نجم الدين الغزي، ١١٧/٢، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

(٢) انظر: التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة: شمس الدين السخاوي، ٣٤٥/٣، أسعد طرابزوني الحسيني، ١٩٧٩م

(٣) انظر: الكواكب السائرة: ٢٠٣/٢.

(٤) انظر: الأعلام للزركلي: ٦٨/٧.

(٥) انظر: عجائب الآثار في التراجم والأخبار: عبد الرحمن الجبرتي، ٣٠٣/١، دار الجيل، بيروت.

٥. **الشيخ خليل الحمصاني:** الشيخ خليل أفندي المحقق العلامة المدقق الفهامة، الشهير بابن الحمصاني الشافعي المتوفى (١١٢٣هـ)، جاء في كتاب يوميات شامية أنه بقي يخطب في جامع الآغا مثل عادة الخطباء... ووعظ على الكرسي بالجامع في رمضان، وكان ماهراً في تفسير البيضاوي(١).

٦. **الشيخ محرم بن محمد القسطموني:** المتوفى سنة (٩٨٣هـ) جاء في الشقائق النعمانية أنه بعد أن سلك مسلك الوعظ والتفسير عقد المجالس الشريفة ونصح وأفاد وانتصب للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عدة من البلاد ثم عاد الى قسطنطينية وشاع فيها أمره وارتفع ذكره وفوض اليه التدريس بمدرسة محمد باشا الصوفي... ونُصب له به كرسي للوعظ... فكان يدرس تارة ويعظ أخرى وقد أتم مرارا تفسير البيضاوي والكشاف وأحيا سنن الأكارم الأسلاف(٢).

٧. **محمد الرومي:** العلامة المعروف بالملغري، جاء في خلاصة الأثر أن إبراهيم بن عبد الرحمن الخياري المدني الشافعي المتوفى (١٠٨٣هـ)، حضر دروس العلامة الملغري في تفسير القاضي البيضاوي(٣). وقال عنها: "لازمته في قراءته فتحليت بفرائده، ولاحت لي مشرقة في سلك الإفادة جواهر فوائده، فحضرته من أول سورة عم إلى آخر سورة الطارق"(٤).

وقد كثرت في القرن الحادي عشر الدروس حول تفسير البيضاوي منها(٥):

٨. **عبد الرحمن المرشدي:** مفتي الحرم المكي المتوفى (١٠٠٥هـ)، تولى تدريس المدرسة السليمانية الحنفية، وافتتح الدرس في تفسير البيضاوي من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ ﴾ البقرة: ١٨٣، وحضر مجلسه فيها يومئذ جمع من العلماء والأعيان، وكان يوماً مشهوداً(٦).

٩. **شمس الدين الحلبي:** المتوفى (١٠٠٥هـ)، كان يعقد دروساً في تفسير البيضاوي(٧).

١٠. **إسماعيل بن عبد الغني النابلسي:** أملى تفسير البيضاوي بالجامع الأموي، وكان يورد عليه عبارات تفاسير عديدة وكلها إلقاء من حفظه(٨).

---

(١) انظر: يوميات شامية: محمد بن كنّان الصالحي،١/٤٥.

(٢) انظر: الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية: طاشكبري زاده، ١/٤٧٨، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٥م.

(٣) انظر: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر: المحبي، ١/٢٥.

(٤) انظر: خلاصة الأثر: ٤/٣١٢.

(٥) نقلاً عن: اهتمام مفسري القرن الحادي عشر بتفسير البيضاوي أسبابه ومظاهره: ٥٠٩-٥١١. (بتصرف).

(٦) انظر: خلاصة الأثر: ٢/٣٦٩، ٣٧١.

(٧) انظر: خلاصة الأثر: ٤/١١٥.

(٨) انظر: خلاصة الأثر: ١/٤٠٨

١١. **عبد البر الفيومي العوفي:** (المتوفى ١٠٧١هـ)، لزم الشهاب الخفاجي وصيره معيداً لدرسه في حاشيته على البيضاوي[١].

١٢. **علاء الدين الحصني:** المعروف بالحصكفي، المتوفى (١٠٨٨هـ) يقول المحبي: "حضرته أنا بحمد الله تعالى وهو يقرئ تفسير البيضاوي في المدرسة التقوية[٢].

١٣. **يحيى بن عمر المنقاري الرومي:** المتوفى (١٠٨٨هـ)، عندما ولي قضاء مصر عقد بها درساً في تفسير البيضاوي وحضره أكابر علمائها وأذعنوا له بالتحقيق، ثم ولي قضاء مكة ودرس فيها في المدرسة السليمانية في تفسير البيضاوي أيضاً، حيث شرع يقرر من أول سورة مريم[٣].

١٤. **يحيى النابلي الشاوي الملباني:** المتوفى (١٠٩٦هـ) قال المحبي: "شرعت أنا وجماعة من بلدتنا دمشق وغيرها في القراءة عليه عندما كنا في الروم، فقرأنا تفسير سورة الفاتحة من البيضاوي وحاشية العصام"[٤].

١٥. **إبراهيم بن منصور:** المعروف بالفتال الدمشقي، المتوفى (١٠٩٨هـ)، أعطى دروساً في تفسير البيضاوي في داره بالكلاسة[٥].

---

(١) انظر: خلاصة الأثر: ٢/٢٩٢.
(٢) انظر: خلاصة الأثر: ٤/٦٣.
(٣) انظر: خلاصة الأثر: ٤/٤٧٧
(٤) انظر: خلاصة الأثر: ٤/٤٨٧.
(٥) انظر: خلاصة الأثر: ١/٥٢.

ثالثاً : تتلمذ العلماء وطلاب العلم على تفسير البيضاوي:

فقد كان تفسير البيضاوي أحد الركائز الأساسية التي يقوم عليها تنشئة طلاب العلم والعلماء منذ صغرهم بعد أن يحفظوا القرآن ويأخذوا حظوظهم من السنة، وغيرها من العلوم الشرعية فقد كان تفسير البيضاوي أحد الكتب التي يتعلمونها وقت التحصيل.

فقد كان السيوطي رحمه الله من الذين قرأوا تفسير البيضاوي في زمن الطلب، فقد جاء في ترجمته في روضة الطالبين: "كان السيوطي رحمه الله شديد الذكاء، قوي الذاكرة، حفظ القرآن وهو دون ثماني سنين وحفظ عمدة الاحكام وشرحه لابن دقيق العيد، ثم حفظ منهاج الامام النووي في فقه الشافعية، ثم منهاج البيضاوي في الأصول، ثم ألفية ابن مالك في النحو ثم تفسير البيضاوي"(١).

وكان طلاب العلم يقرأون على مشايخهم تفسير البيضاوي من جملة الكتب التي يقرأونها عليهم، فقد جاء في ترجمة الشيخ العالم الشهير منلا زاده السمرقندي أنه "دخل حلب ودمشق... وسأله مفتي حلب البدري حسن السيوفي عن عبارة أشكلت عليه في المطول، فرفع له الإشكال بإرجاع ضمير فيها إلى خلاف ما ظنه السيوفي، فاعتقد فضله، ثم أخذ عنه تفسير البيضاوي"(٢).

ومثل ذلك أيضاً الشيخ العالم المنلا موسى الأول الكردي اللألآني، نزيل حلب اشتغل ببلاده على جماعة منهم المنلا محمد الخبيصي، وأخذ عن الشمس البازلي نزيل حماة، وعن منلا إسماعيل الشرواني أحد مريدي خوجه عبيد النقشبندي أخذ عنه بمكة تفسير البيضاوي(٣).

ومما ورد في ترجمة الشيخ خالد أبو البهاء ضياء الدين النقشبندي العالم الكبير المتوفى (١٢٤٢هـ) أنه قدم بغداد وقرأ فيها مختصر المنتهى في الأصول، ورجع إلى محله المأهول، وحيث حل من المدارس، كان فيها الأتقى الأورع السابق في ميادين التحقيق كل فارس، لا يسأل عن مسألة من العلوم الرسمية إلا ويجيب بأحسن جواب، ولا يمتحن بغويصة من تحفة ابن حجر أو **تفسير البيضاوي** إلا ويكشف عن وجوه خرائد الفوائد النقاب، وهو يستفيد ويفيد، ويقرر ويحرر فيجيد، إلى إنصاف وذكاء خارق، وقوة حافظة بذهن حاذق"(٤).

---

(١) روضة الطالبين وعمدة المفتين: أبو زكريا النووي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، ٩٠/١، على محمد معوض، دار الكتب العلمية.

(٢) الكواكب السائرة: ١٤٠/١.

(٣) الكواكب السائرة: ٣٠٩/١.

(٤) انظر: حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر: عبد الرزاق البيطار، ٥٨٧/١، تحقيق محمد البيطار، ١٣٨٠هـ، ١٩٦١م

وجاء في ترجمة الإمام المحقق المدقق شمس الدين محمد بن محمد التونس المالكي أنه دخل طرابلس ثم دمشق وانتفع به أهلها وشهدوا له بالعلم خصوصا في التفسير والعربية والمنطق والكلام والعروض والقراءات والمعاني والبيان وقرأ عليه العلاء بن عماد الدين الشافعي في أوائل تفسير البيضاوي فأفاد وأجاد حتى أذهل العقول(١).

وجملة القول فإن كثيراً من العلماء وطلاب العلم الذين لا يُحصَوْن عدداً قد تتلمذوا على تفسير البيضاوي وكان منهجَ دراستهم عند طلبهم للعلم، مما يدل دلالة واضحة على قيمة هذا التفسير العلمية ويدل على الإضافة النوعية التي أضافها هذا التفسير إلى المكتبة الإسلامية.

(١) انظر: شذرات الذهب: ٨/٢٧٠.

رابعاً: المناظرات التي وقعت حول تفسير البيضاوي:

ظهرت المناظرات في التاريخ الإسلامي كوجه من وجوه التنافس بين العلماء في شتى المجالات العلمية، وظهورها كان نتيجة توسع العلوم وانتشارها وظهور مدارس مختلفة واختلاف في الآراء ووجهات النظر في شتى العلوم.

وقد عقدت المناظرات في مسائل النحو والفقه وعلم الكلام والشعر والأدب وغيرها من العلوم التي تنوعت واختلفت في تاريخ حضارتنا العربية والإسلامية، على نحو ما جرى بين الكسائي وسيبويه من مناظرة فيما أصبحت معروفة في تاريخ النحو العربي باسم "المسألة الزنبورية".

ولم يكن الهدف من المناظرات مجرد التنازع والاختلاف، بل كان الهدف منها هو الوصول للصواب عبر الحوار والجدال بالتي هي أحسن، **فقد عُرِّفت المناظرة بأنها:** "المحاورة في الكلام بين شخصين مختلفين يقصد كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول الآخر، مع رغبة كل منهما في ظهور الحق، فكأنها بالمعنى الاصطلاحي مشاركتهما في النظر الذي هو النظر المؤدي إلى علم أو غلبة ظن ليظهر الصواب"[(١)].

إذاً فالغاية من المناظرة هو إظهار الحق والوصول للصواب بعيداً عن التنازع والتناجش والجدال الذي لا فائدة منه، ورحم الله الشافعي الذي كان يقول: "ما ناظرني أحدٌ فباليت أظهرت الحجة على لسانه أو على لساني".

ولم يكن علم التفسير أقل حظاً من العلوم المختلفة فقد عقدت مناظرات حول تفسير البيضاوي، فقد جرت مناظرة بين شمس الدين محمد بن القاسم بن المنقار الحلبي (ت١٠٠٥هـ)، وبين نجم الدين الغزي (ت١٠٦١هـ)، وكان بينهما خصام ومنافسة كما هو العادة بين العلماء، "ثم آل الأمر أن عقد له – ابن منقار الحلبي– مجلس عند قاضي القضاة مصطفى بن بستان وحضر جماعة من أعيان العلماء منهم الجد القاضي محب الدين، والشهاب العيثاوي فأصلحوا بينهما ثم طلبوا المناظرة بينهما فتناظرا في عبارة من تفسير البيضاوي، وكانت الغلبة للنجم وألف العيثاوي رسالة حافلة فيما وقع بينهما، وكان ذلك اليوم قد ظهرت نجوم السماء نهاراً لقوة الكسوف، فقال بعض الأدباء مصراعاً أجاد فيه وهو قوله: (وعند كسوف الشمس قد ظهر النجم)

فسبكه النجم في أبيات هي قوله:

(١) آداب البحث والمناظرة: محمد الأمين الشنقيطي، ص٤، تحقيق سعود العريفي، دار عالم الفوائد.

بعامِ ثمانٍ بعد تسعين حجة ... وتسعمائة مرَّت جرى الأمرُ والحُكْمُ
بأن حضر الشَّمسُ ابنُ منقار الذي ... تحرَّى جِدالاً حين زايلَهُ الحَزْمُ
وناظَرَنا يوم الكُسوفِ فلم يُطِقْ ... لنا جَدَلاً بل خانه الفِكرُ والفهمُ
فقيل وبعض القول لا شكَّ حكمةٌ ... وعند كُسوفِ الشَّمسِ قد ظهر النَّجمُ
ولولا تلافى الله جلَّ جلالُه ... أصاب تلافاً حين تابَعَه الرَّجْمُ[1]

(١) خلاصة الأثر: ٤/١١٧.

المبحث الثالث: مصادر تفسير البيضاوي

اعتمد البيضاوي في تفسيره على مصادر مختلفة ومتنوعة فقد جعل من القرآن الكريم مصدراً يفسر فيه القرآن بالقرآن، وكذلك جعل من السنة النبوية مصدراً لكثير من توجيهاته التفسيرية وذِكْر أسباب النزول وما ورد من الأحاديث النبوية التي تشرح وتفسر الآيات، واعتمد أيضاً على كتب معاصرة وسابقة، وأقوال علماء سابقين، وحتى معاصرين؛ لتكون مصادر له في تفسيره. فنراه قد اعتمد على مصادر معينة يرجع إليها في تقرير الأمور الفقهية، وأخرى في تقرير علم أصول الفقه ويدلل عليها من أقواله، ومصادر أخرى لتقرير علوم اللغة العربية، واستعان أيضاً بتفاسير لتكون مرجعه ومصدره في تأليفه لتفسيره بشكل عام واعتمد عليها اعتماداً كبيراً.

أولاً: من القرآن الكريم:

يعد تفسير القرآن بالقرآن من أهم طرق التفسير وأحسنها فقد قال ابن كثير: "فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أُجمل في مكان ، فإنه قد فُسِّر في موضع آخر... بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله تعالى: كل ما حَكَم به رسول الله، صلى الله عليه وسلم ، فهو مما فهمه من القرآن"(١).

وقال بدر الدين الزركشي في البرهان: " أحسن طريق التفسير أن يُفسَّر القرآنُ بالقرآن فما أُجمل في مكان فقد فُصِّل في موضع آخر وما اختُصِر في مكان فإنه قد بُسِط في آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضِّحةٌ له، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۙ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ النحل: ٦٤ (٢).

ولهذا كان لا بد لمن يعترض لتفسير كتاب الله تعالى أن ينظر في القرآن أولاً، فيجمع ما تكرر منه في موضوع واحد، ويقابل الآيات بعضها ببعض، ليستعين بما جاء مسهبَاً على معرفة ما جاء موجَزاً، وبما جاء مُبيَّناً على فهم ما جاء مُجمْلاً، وليحمل المُطْلَق على المقيَّد، والعام على الخاص، وبهذا يكون قد فسرَّ القرآن بالقرآن، وفهم مراد الله بما جاء عن الله، وهذه مرحلة لا يجوز

(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، تحقيق مصطفى السيد محمد وآخرون، ٦/١، مؤسسة قرطبة.

(٢) البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي، ١٧٥/٢-١٧٦، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م

لأحد مهما كان أن يعرض عنها، ويتخطاها إلى مرحلة أخرى، لأن صاحب الكلام أدرى بمعاني كلامه، وأعرف به من غيره(١).

لذلك فقد اعتمد البيضاوي في تفسيره كثيراً على القرآن الكريم وأخذ يُفسِّرُ القرآنَ بالقرآنِ بطرقٍ مختلفة.

فنجد البيضاوي يفسر الآية ويبين المراد منها على ما ظهر من معناها اللغوي، ويؤيد تفسيره للآية بآية أخرى تعضد ما ذهب إليه(٢)، ومثال ذلك ما جاء عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ البقرة: ٤٥ قال: "لكبيرة" لثقيلة شاقة كقوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ الشورى: ١٣ (٣).

ومن الأمثلة التي تدل على اعتماده على القرآن الكريم ليوضح معنى لغوي لآية أخرى هو تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ الفاتحة: ٢ قال: "الرب في الأصل مصدر بمعنى التربية وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئا فشيئا ثم وصف به للمبالغة كالصوم والعدل وقيل هو نعت من ربه يربه فهو رب كقولك نم ينم فهو نم ثم سمى به المالك لأنه يحفظ ما يملكه ويربيه ولا يطلق على غيره تعالى إلا مقيدا كقوله: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يوسف: ٥٠ "(٤).

وعند حديثه على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ البقرة: ٦ قال: "والفعل إنما يمتنع الإخبار عنه إذا أريد به تمام ما وضع له، أما لو أطلق وأريد به اللفظ أو مطلق الحدث المدلول عليه ضمناً على الاتساع فهو كالاسم في الإضافة والإسناد إليه كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟﴾ البقرة: ١٣ ، وقوله: ﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ المائدة: ١١٩ وقولهم: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه"(٥).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ البقرة: ٢١ قال: "نداء المعرف باللام فإن إدخال يا عليه متعذر لتعذر الجمع بين حرفي التعريف فإنهما كمثلين وأعطي

(١) التفسير والمفسرون: ٣١/١.
(٢) الاستنباط عند القاضي البيضاوي من خلال تفسيره أنوار التنزيل وأسرار التأويل: يوسف السلمي، ص ٤٨، رسالة دكتوراة، إشراف عبد العزيز محمود، جامعة أم القرى، السعودية، ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م
(٣) تفسير البيضاوي: ٩٨/١.
(٤) تفسير البيضاوي: ١٣/١.
(٥) تفسير البيضاوي: ٤٠/١.

حكم المنادى وأجري عليه المقصود بالنداء وصفا موضحا له والتزام رفعه إشعارا بأنه المقصود وأقحمت بينهما هاء التنبيه تأكيدا وتعويضا عما يستحقه أي من المضاف إليه وإنما كثر النداء على هذه الطريقة في القرآن لاستقلاله بأوجه من التأكيد وكل ما نادى الله له عباده من حيث إنها أمور عظام من حقها أن يتفطنوا إليها ويقبلوا بقلوبهم عليها وأكثرهم عنها غافلون حقيق بأن ينادي له بالآكد الأبلغ والجموع وأسماؤها المحلاة باللام للعموم حيث لا عهد ويدل عليه صحة الاستثناء منها أو التأكيد بما يفيد العموم، كقوله تعالى: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ الحجر: ٣٠[١].

﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ البقرة: ٢٦ أي الخارجين عن حد الإيمان كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ التوبة: ٦٧ من قولهم فسقت الرطبة عن قشرها إذا خرجت، وأصل الفسق الخروج عن القصد قال رؤبة " فواسقا عن قصدها جوائرا "[٢].

وقد يفسر الآية بذكر آية تماثلها في المعنى من غير أن يذكر تفسيراً من عنده[٣].

وقد يتصدى البيضاوي إلى آية تدل على حكم فقهي فيتخذ فيها مذهباً، ويأتي بآية أخرى دليلاً إلى ما ذهب إليه.

ثانياً: من السنة النبوية[٤]:

من مصادره السنة النبوية فهو يورد الأحاديث صحيحَها، وحسنها، ومعلولها، وضعيفها، ويستشهد بها في تفسيره للآيات على الرغم من أن تفسيره لا يعد تفسيراً بالمأثور، ولكنه يورد الأحاديث لأغراض في التفسير منها:

١. أن يورد الحديث لبيان ما تدل عليه الآية.

مثاله قوله: ﴿ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ البقرة: ٢٣٨، أي الوسطى بينها أو الفضلى منها خصوصاً وهي صلاة العصر لقوله عليه الصلاة والسلام يوم الأحزاب: "شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله بيوتهم ناراً"[٥].

---

(١) تفسير البيضاوي: ٥٩/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٧٧/١.

(٣) الاستنباط عند القاضي البيضاوي: ٤٨

(٤) انظر: البيضاوي ومنهجه في التفسير: ٤٨-٥٧.

(٥) تفسير البيضاوي: ٢٠٦/١.

٢. **يورد الحديث لتسهيل فهم الآية، وتوضيح معناها**.

مثاله قوله: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ﴾ آل عمران: ٣٦، أجيرها بحفظك، وذريتها من الشيطان الرجيم، المطرود وأصل الرجم الرمي بالحجارة وعن النبي صلى الله عليه وسلم "ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل من مسه إلا مريم وابنه"(١).

٣. **يورد الحديث ليعضِّد به حجته ويؤيد ما ذهب إليه من قوله، ويرد على من خالفه**:

مثاله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ الطلاق: ١ أي وقت عدتهن والطلاق المشروع لا يكون في الحيض وأما ما روي من قوله عليه الصلاة والسلام "طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان" فلا يقاوم ما رواه الشيخان في قصة ابن عمر: "مره فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعد وإن شاء طلق قبل أن يمس، فتلك العدة التي أمر الله تعالى أن تطلق لها النساء"(٢).

٤. **وقد يأتي البيضاوي بالحديث لبيان ما لا يُعلم إلا من النقل، وليس للعقل ولا للرأي فيه مجال**:

وهو على ضربين: الإخبار عن قصة في العصور السابقة في زمان مضى، والإخبار عن مشهد من مشاهد يوم القيامة.

٥. **أن يذكر الحديث لتبيين سبب نزول الآية**:

مثاله: قال البيضاوي قوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هود: ١١٤ وفي سبب النزول أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "إني قد أصبت من امرأة غير أني لم آتها فنزلت"(٣).

٦. **ومن استدلاله بالحديث أيضاً أن يذكر الحديث للدلالة على فضل السورة**:

وهي من المآخذ عليه كما قرره أهل العلم، لأن بعض الأحاديث في فضائل السور يكثر فيها الضعف.

---

(١) تفسير البيضاوي: ٢٥٧/١.

(٢) تفسير البيضاوي: ٩٥/١.

(٣) تفسير البيضاوي: ٢ /١٥٤.

ثالثاً: من أقوال الصحابة:

نرى البيضاوي يستدل بأقوال الصحابة عند تفسيره وذلك ليعضد ما ذهب إليه وليوضح المعنى لأن الصحابة كما هو معلوم هم أكثر الناس فهماً لكتاب الله بعد النبي صلى الله عليه وسلم، فهم الذين نزلت فيهم الآيات وهم الذين تلقوا علم الكتاب والسنة عن النبي صلى الله عليه وسلم، فنجد البيضاوي يستدل بأقوالهم لإثبات ما يذهب إليه في تفسيره.

من ذلك ما جاء عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ البقرة: ١٩٥ قال البيضاوي: (وأنفقوا في سبيل الله) ولا تمسكوا كل الإمساك. (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) بالإسراف وتضييع وجه المعاش أو بالكف عن الغزو والإنفاق فيه فإن ذلك يقوي العدو ويسلطهم على إهلاكهم، ويؤيده ما روي عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه قال: لما أعزَّ الله الإسلام وكثُر أهله رجعنا إلى أهالينا وأموالنا نقيم فيها ونصلحها فنزلت"(١).

ومثال آخر لاستشهاد البيضاوي بقول الصحابة ليدعم رأيه فيما يذهب إليه من تفسير هو عند تعرضه لتفسير قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾ البقرة: ٢٦٧. قال البيضاوي: (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم) من حلاله أو جياده، (ومما أخرجنا لكم من الأرض) أي ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمرات والمعادن... (ولا تيمموا الخبيث منه) أي ولا تقصدوا الرديء منه أي من المال أو مما أخرجنا لكم... (ولستم بآخذيه) أي وحالكم أنكم لا تأخذونه في حقوقكم لردائته. (إلا أن تغمضوا فيه) إلا أن تتسامحوا.... **وعن ابن عباس رضي الله عنه كانوا يتصدقون بحشف التمر وشراره فنهوا عنه**(٢).

ومثاله أيضاً استدلاله بقول عثمان وعلي رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

---

(١) تفسير البيضاوي: ١ /١٧٤.

(٢) تفسير البيضاوي: ١ /٢٢٦.

النساء: ٢٣، قال البيضاوي: (وأن تجمعوا بين الأختين) في موضع الرفع عطفا على المحرمات والظاهر أن الحرمة غير مقصورة على النكاح فإن المحرمات المعدودة كما هي محرمة في النكاح فهي محرمة في ملك اليمين ولذلك قال عثمان وعلي رضي الله تعالى عنهما: حرمتهما آية وأحلتهما آية يعنيان هذه الآية. وقوله: (أو ما ملكت أيمانكم) فرجح علي كرم الله وجهه التحريم وعثمان رضي الله عنه التحليل، وقول علي أظهر لأن آية التحليل مخصوصة في غير ذلك ولقوله (صلى الله عليه وسلم) ما اجتمع الحلال والحرام إلا غلب الحرام(١).

ومثاله أيضاً إيراده لقول عبد الله بن مسعود عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ النحل: ٩٠. قال البيضاوي: ولا يوجد من الإنسان شر إلا وهو مندرج في هذه الأقسام – يقصد الفحشاء والمنكر والبغي– صادر بتوسط إحدى هذه القوى الثلاث –يقصد العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى– ولذلك **قال ابن مسعود رضي الله عنه: هي أجمع آية في القرآن للخير والشر**، وصارت سبب إسلام عثمان بن مظعون رضي الله تعالى عنه ولو لم يكن في القرآن غير هذه الآية لصدق عليه أنه تبيان لكل شيء وهدى ورحمة للعالمين(٢).

رابعاً: من كتب الفقهاء(٣):

كان البيضاوي في نقله للأحكام الفقهية يعتمد على فقه الشافعية والحنفية ولا يذكر سواهما إلا قليلاً، ولعل ذلك يرجع إلى أنهما المذهبان السائدان في تلك المناطق من بلاد فارس وخراسان.

ومن أمثلة نقله من كتب الفقهاء ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩﴾ الأنبياء: ٧٨ – ٧٩.

قال البيضاوي: "رُوي أن داود حكم بالغنم لصاحب الحرث، فقال سليمان – وهو ابن إحدى عشرة سنة– غير هذا أرفق بهما. فأمر بدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها

(١) تفسير البيضاوي: ١ /٣٤٤.
(٢) تفسير البيضاوي: ٢ /٢٧٦-٢٧٧.
(٣) انظر: البيضاوي ومنهجه في التفسير: ٧٥-٧٩.

وأشعارها، والحرث إلى أرباب الغنم يقومون عليه حتى يعود إلى ما كان، ثم يترادَّان. ولعلهما قالا اجتهادا.

والأول نظير قول أبي حنيفة في العبد الجاني والثاني مثل قول الشافعي بغرم الحيلولة في العبد المغصوب إذا أَبق، وحكمه في شرعنا عند الشافعي، وجوب ضمان المُتلَف بالليل، إذ المعتاد ضبطَ الدوابِّ ليلاً، وهكذا قضى النبي (صلى الله عليه وسلم) لمَّا دخلَت ناقةُ البراءِ حائطاً وأفسدته، فقال: على أهل الأموال حفظها بالنَّهار وعلى أهل الماشية حفظهما باللَّيل، وعند أبي حنيفة لا ضمان إلا أن يكون معها حافظ لقوله (صلى الله عليه وسلم) جُرحُ العجماء جبار"(١).

وأما مصادره من فقه المالكية ما جاء في تفسير قوله تعالى: " ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ النحل: ١٤. قال البيضاوي: تمسك به مالك والثوري على أن من حلف ألَّا يأكل لحماً حنث بأكل السمك، وأجيب عنه بأن مبنى الإيمان على العرف وهو لا يفهم منه عند الإطلاق ألا ترى أن الله سمى الكافر دابة ولا يحنث الحالف على أن لا يركب دابه بركوبه"(٢).

وأما مصادره من فقه الحنابلة ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾ البقرة: ١٧٢ -١٧٣.

قال البيضاوي: "فمن اضطر غير باغ بالاستئثار على مضطر آخر... ولا عاد سد الرمق أو الجوعة. وقيل غير باغ على الوالي ولا عاد بقطع الطريق فعلى هذا لا يباح للعاصي بالسفر وهو ظاهر مذهب الشافعي وقول أحمد رحمهما الله تعالى"(٣).

خامساً: من كتب الأصول(٤):

أخذ البيضاوي من كتب أصول الفقه كثيراً من الاستدلال بالآيات على الأحكام الأصولية، بل وأكثر من ذلك تأثره بأقوال الذين ناقشوا الاستدلال بتلك الآيات وردوا على المعترضين وكان أهم كتاب اعتمد عليه البيضاوي في ذلك هو كتاب المحصول للفخر الرازي.

---

(١) تفسير البيضاوي: ٤٢٨/٢.
(٢) تفسير البيضاوي: ٢/ ٢٥٥.
(٣) تفسير البيضاوي: ١/ ١٥٩.
(٤) البيضاوي ومنهجه في التفسير: ٨٠-٨٣.

ففي قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ النساء: ١١٥، قال: "الآية تدل على حرمة مخالفة الإجماع لأنه سبحانه وتعالى رتب الوعيد الشديد على المشاقة واتباع غير سبيل المؤمنين وذلك إما لحرمة كل منهما أو أحدهما أو الجمع بينهما، والثاني باطل إذ يقبح أن يقال من شرب الخمر وأكل الخبز استوجب الحد، وكذا الثالث لأن المشاقة محرمة ضُمَّ إليها غيرها أو لم يضم، وإذا كان اتباع غير سبيلهم محرماً، كان اتباع سبيلهم واجباً لأن ترك اتباع سبيلهم ممن عرف سبيلهم اتباع غير سبيلهم"(١).

وقال الرازي في المحصول بعد ذكر الآية: "جمع الله تعالى بين مشاقة الرسول، واتباع غير سبيل المؤمنين من الوعيد. فلو كان اتباع غير سبيل المؤمنين مباحاً، لما جمع بينه وبين المحظور كما لا يجوز أن يقال: إن زنيت وشربت الماء عاقبتك، فثبت أن متابعة غير سبيل المؤمنين محظورة، ومتابعة غير سبيل المؤمنين عبارة عن متابعة قول أو فتوى غير قولهم وفتواهم، وإذا كانت تلك محظورة وجب أن تكون متابعة قولهم وفتواهم واجبة، ضرورة، لأنه لا خروج من القسمين"(٢).

ومسألة ثبوت الإجماع بدليل من الكتاب اختلف فيها العلماء.

وممن خالف مذهب البيضاوي في الاستدلال على الإجماع من الكتاب، إمام الحرمين الجويني، وأبو حامد الغزالي، قال الجويني: "تمسك القائلون بآي من كتاب الله، ونحن نذكر أوقعها، فما استدل به الشافعي قول الله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ النساء: ١١٥ ، فإذا أجمع المؤمنون على حكم في قضية، فمن خالفهم فقد شاقهم، واتبع غير سبيلهم، وتعرض للوعيد المذكور في سياق الخطاب، وقد أكثر المعترضون، وظني أن معظم تلك الاعتراضات فاسدة تكلفها المصنفون، حتى ينتظم لهم أجوبة عنها ولست لأمثالها.

بل أوجه سؤالاً واحداً يسقط الاستدلال بالآية فأقول: إن الرب تعالى أراد بذلك من أراد الكفر، وتكذيب المصطفى صلى الله عليه وسلم والحيد عن سنن الحق، وترتيب المعنى: ومن يشاقق الرسول ويتبع غير سبيل المؤمنين المقتدين به، نوله ما تولى، فإن سلم ظهور ذلك فذلك،

(١) تفسير البيضاوي: ٣٩١/١.

(٢) المحصول: فخر الدين الرازي، ٣٦/٤ ، تحقيق طه العلواني، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

وإلا فهو وجه في التأويل لائح، ومسلك في الإمكان واضح، فلا يتبقى للمتمسك بالآية إلا ظاهر معرض للتأويل، ولا يسوغ التمسك بالمحتملات، في مطالب القطع، وليس على المعترض إلا أن يظهر وجهاً في الإمكان، ولا يقوم للمحصل عن هذا جواب إن أنصف"(١).

وقال أبو حامد الغزالي: "والذي نراه أن الآية ليست نصاً في الغرض، بل الظاهر أن المراد بها أن من يقاتل الرسول ويشاقه ويتبع غير سبيل المؤمنين في مشايعته ونصرته، ودفع الأعداء عنه نوله ما تولى، فكأنه لم يكتف بترك المشاقة حتى تنضم إليه متابعة غير سبيل المؤمنين في نصرته والذب عنه والانقياد له فيما يأمر وينهى، وهذا هو الظاهر السابق للفهم، فإن لم يكن ظاهراً فهو محتمل ولو فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية بذلك لقبل، ولم يجعل ذلك رفعا للنص، كما لو فسر المشاقة بالموافقة، واتباع سبيل المؤمنين بالعدول عن سبيلهم"(٢).

فالذين يرفضون الاستدلال على الإجماع من الكتاب، قد استدلوا بأدلة غير الكتاب، فمنهم من استدل على الإجماع بحديث النبي صلى الله عليه وسلم لا تجتمع أمتي على ضلالة، كالغزالي وغيره، ومنهم من استدل على الاجتماع بالإجماع نفسه كالجويني، وعلى كل فالإجماع ثابت إما بالكتاب أو بالحديث أو بالإجماع.

سادساً: من كتب اللغة(٣):

تأثر البيضاوي بأهل اللغة ونقل عنهم ويبدو ذلك واضحاً في تفسيره فنقل عن الخليل وسيبويه وثعلب والزجاج والمبرد والأزهري وغيرهم. فكان يذكر من أخذ عنه في بعض الأحيان، وفي أحيان كثيرة لا يذكر اسم من أخذ عنه ويورده بصفة قيل.

ومن أمثلة ما أخذه من كتاب سيبويه ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ... الآية ﴾ (آل عمران: ٢٦). قال البيضاوي: " الميم عوض عن يا ولذلك لا يجتمعان وهو من خصائص هذا الاسم كدخول يا عليه مع لام التعريف وقطع همزته وتاء القسم وقيل أصله يا الله أمنا بخير فخفف بحذف حرف النداء ومتعلقات الفعل وهمزته. (مالك الملك) يتصرف فيما يمكن

(١) البرهان في أصول الفقه: عبد الملك الجويني، ٢٦٢/١، تحقيق صلاح عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

(٢) المستصفى: أبو حامد الغزالي، ١٣٨/١، تحقيق محمد عبدالسلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.

(٣) البيضاوي ومنهجه في التفسير: ٨٤

التصرف فيه تصرف الملاك فيما يملكون وهو نداء ثان عند سيبويه فإن الميم عنده تمنع الوصفية" [١].

أي أن الاسم الواقع بعد ميم اللهم لا يكون صفة لما قبله فهو نداء ثان حذف منه حرف النداء تخفيفاً، فكأن ترتيب الآية يا الله يا مالك الملك. "وقد يقال لا هم واللهم فالميم بدل من حرف النداء وربما جمع بين البدل والمبدل منه في ضرورة الشعر كقول الراجز: (عفوت أو عذيت يا اللهما)" [٢].

وقال سيبويه في كتابه: "وقال الخليل رحمه الله اللهم نداء والميم ها هنا بدل من يا فهي ها هنا فيما زعم الخليل رحمه الله آخر الكلمة بمنزلة يا في أولها، إلا أن الميم ها هنا في الكلمة كما أن نون المسلمين في الكلمة بنيت عليها، فالميم في هذا الاسم حرفان أولهما مجزوم والهاء مرتفعة لأنه وقع عليها الإعراب، وإذا ألحقت الميم لم تصف الاسم من قِبَلِ أنه صار مع الميم عندهم بمنزلة صوت كقولك يا هناه، وأما قوله عز وجل: ﴿ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الزمر: ٤٦ فعلى يا"[٣].

ومن أمثلة ما أخذه عن المبرد ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ المائدة: ٣٨ ، قال البيضاوي: "جملتان عند سيبويه إذ التقدير فيما يتلى عليكم السارق والسارقة أي حكمهما، وجملة عند المبرد والفاء للسببية دخل الخبر لتضمنها معنى الشرط إذ المعنى والذي سرق والتي سرقت"[٤].

وقال المبرد في كتاب الكامل في قوله تعالى: (﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ المائدة: ٣٨. وكذلك: (﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٖ﴾ النور: ٢ فليس على هذا، والرفعُ الوجه، لأن معناهُ الجزاءُ، كقوله: الزانيةُ أي التي تزني، فإما وجب القطع للسرق والجلد للزنا، فهذا مجازاة، ومن ثم جاز: الذي يأتيني فله درهمٌ، فدخلت الفاءُ لأنه استحق الدرهم بالإتيان، فإن لم ترد هذا المعنى قلت الذي يأتيني له درهمٌ، ولا يجوزُ: زيدٌ فله درهمٌ، أو هذا زيدٌ، فحسن جميلٌ، جازَ، على أن زيداً خبرٌ. وليس بابتداءٍ، للإشارة دخلت الفاءُ،

(١) تفسير البيضاوي: ٢٥٢/١.

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: أبو نصر الفارابي، (ليه): ص ٢٢٤٨، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

(٣) الكتاب: سيبويه، ١٩٦/٢-١٩٧، عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م

(٤) تفسير البيضاوي: ٤٣٥/١.

وفي القرآن: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ البقرة: ٢٧٤ ودخلتِ الفاءُ لأن الثواب دخل للإنفاق"

فسيبويه يقول السارق والسارقة هذه جملة كاملة حذف صدرها الذي تقديره فيما يتلى عليكم حكم السارق والسارقة وجملة فاقطعوا مستأنفة، وعند المبرد والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جملة واحدة من مبتدأ وخبر دخلت فاء السببية على الخبر لتضمنه معنى الشرط إذ المعنى الذي سرق والتي سرقت فجزاؤهما الجلد.

وتأثر البيضاوي بأبي البقاء العكبري من ناحية اللغة والإعراب في التفسير، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ البقرة: ٨٣ قال: "قيل تقديره لا تعبدوا فلما حذف أن رفع كقوله:

ألا أيها الزاجري أحضر الوغى وأني أشهد اللذات هل أنت مخلدي

ويدل عليه قراءة أن لا تعبدوا فيكون بدلاً من الميثاق، أو معمولاً له بحذف الجار، وقيل أنه جواب قسم دل عليه المعنى، كأنه قال: أحلفناهم لا تعبدون. وقرأ نافع وابن عامر وأبوعمرو وعاصم ويعقوب بالتاء حكاية لما خوطبوا به، والباقون بالياء لأنهم غيب"[1].

وهو كلام العكبري غير أنه فيه تقديم وتأخير قال العكبري: (لا تعبدون إلا الله) يقرأ بالتاء على تقدير قلنا لهم لا تعبدون، وبالياء لأن بني إسرائيل اسم ظاهر فيكون الضمير حرف المضارعة بلفظ الغيبة لأن الأسماء الظاهرة كلها غيب، وفيه من الإعراب أربعة أوجه أحدها: أنه جواب قسم دل عليه المعنى، وهو قوله: (أخذنا ميثاقهم) أن معناه أحلفناهم، أو قلنا لهم بالله لا تعبدون.

والثاني أنَّ (أنْ) مراده التقدير أخذنا ميثاق بني إسرائيل على أن لا تعبدوا إلا الله، فحذف حرف الجر ثم حذف أن فارتفع الفعل ونظيره (ألا أيها الزاجري أحضر الوغى) بالرفع والتقدير عن أن أحضر الوغى.

والثالث أنه في موضع نصب على الحال، تقديره: أخذنا ميثاقهم موحدين، وهي حال مصاحبة ومقدرة، لأنهم كانوا وقت أخذ العهد موحدين، والتزموا الدوام على التوحيد.

(١) تفسير البيضاوي: ١/١١٥.

الرابع: أن يكون لفظه لفظ الخبر، ومعناه النهي، والتقدير قلنا لهم لا تعبدوا"[١].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ البقرة: ٨، قال البيضاوي: "والناس أصله أُناس، لقولهم: إنسان، وأُنس، وأناسي، فحذفت الهمزة حذفها في لوقة وعوض عنها حرف التعريف ولذلك لا يكاد يجمع بينهما"[٢].

وقال العكبري: "أصل الناس عند سيبويه أُناس، فحذفت همزته، وهي فاء الكلمة، وجعلت الألف واللام عوض منها، فلا يكاد يستعمل الناس إلا بالألف واللام، ولا يكاد يستعمل أُناس بالألف واللام، فالألف في الناس على هذا زائدة واشتقاقه من الأُنس بضم الهمزة"[٣].

ونقل البيضاوي عن الزجاج والفراء، بل وتبنى مذهب البصريين ورد على أهل الكوفة، يظهر ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ﴾ الأنعام: ١٥٠ قال البيضاوي: "أحضروهم وهو اسم فعل لا يتصرف عند أهل الحجاز وفعل يؤنث ويجمع عند بني تميم وأصله عند البصريين ها لم من لم إذا قصد حذفت الألف لتقدير السكون في اللام فإنه الأصل وعند الكوفيين هل أم فحذفت الهمزة بإلقاء حركتها على اللام وهو بعيد لأن هل لا تدخل الأمر ويكون متعديا كما في الآية ولازما كقوله هلم إلينا"[٤].

وقال الزجاج: "وفي قوله هلم إلينا وهي ها ضمت إلى لم فجعلا كالشئ الواحد وفيه لغتان أحدهما وهو قول أهل الحجاز، ولغة التنزيل أن يكون في جميع الأحوال للواحد والواحدة والآثنين والآثنتين والجماعة من الرجال والنساء على لفظ واحد، لا تظهر فيه علامة تثنية ولا جمع، كقولهم هلم إلينا فيكون بمنزلة رويد، وصه، ومه، ونحو ذلك، نحو الأسماء التي سميت بها الأفعال، وتستعمل للواحد والجمع، والتأنيث والتذكير على صورة واحدة والأخرى أن تكون بمنزلة رد في ظهور علامات الفاعلين، على حسب ما تظهر في رد وسائر ما أشبهها من الأفعال وهي في اللغة الأولى وفي اللغة الثانية، إذا كانت للمخاطب، مبنية مع الحرف الذي بعدها على الفتح كما أن هل تفعلن مبنى مع الحروف على الفتح وإن اختلف موقع الحرفين في الكلمتين، فلم يمنع الاختلاف من البناء على الفتح ولخفة ها المنبهة، لكون الأمر موضعا للاستعطاف، كما لحقت يا ألا يا اسجدوا وها هاأنتم فحذف لكثرة استعمال الألف من ها ك لا أدري، ولم أبل ولأن الألف حذفت لما

(١) التبيان في إعراب القرآن: أبو البقاء العكبري، ١/٨٣-٨٤، تحقيق علي البجاوي، الناشر عيسى البابي الحلبي وشركاه.
(٢) تفسير البيضاوي: ١/٤٤.
(٣) التبيان في إعراب القرآن: ١/٢٤.
(٤) تفسير البيضاوي: ٢/٥٢٥.

كانت اللام في نية السكون، وكأنه هلمم والساكن معتبر بدليل جيل، ومول، فلم يعلوا اعتباراً بسكون الياء والواو في موئل، وجيأل وحسن حذف الألف جعلها مع لم كخمسة عشر، بدلالة اشتقاقهم الفعل منه فيما حكى الأصمعي إذا قيل لك هلم فقال ما أهلم، فاشتقاقهم الفعل نظير أهريق زيادة لا معنى له ويكون اشتقاق هلل، وحوقل، وهو أحسن، لأنهم لم يغيروه في التثنية والجمع وقال الفراء إن أصله هل أم وأم، من قصدت والدليل على فساد هذا القول أن هل لا يخلو من أحد أمرين إما أن يكون بمعنى قد، وهذا يدخل في الخبر وأما أن يكون بمعنى الاستفهام، وليس لواحد من الحرفين تعلق بالأمر وإن قلت هو خبر بمعنى الأمر؛ فإن ذلك لا يدخل عليه هل لأن من قال رحم الله لا يقول هل رحم الله"(١).

ومن كل ما سبق يتبين لنا أن البيضاوي استفاد من أقوال اللغويين والنحاة فنقل منها واختصر بعضها وتبنى أقوال البعض، فكانت كتب اللغة مصدراً من مصادر البيضاوي في التفسير.

سابعاً: من كتب التفسير:

من كتب التفسير الأساسية التي اعتمد عليها البيضاوي كمصادر في تفسيره التفاسير الثلاثة المشهورة وهي: تفسير الراغب الأصفهاني (مفردات القرآن)، وتفسير الزمخشري (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل)، وتفسير الفخر الرازي (مفاتيح الغيب).

وقد اختص كل واحد من هذه التفاسير بفن من الفنون، برع فيه حتى صار تفسيره مشتهراً بهذا الفن الذي توسع فيه وأتقنه، فتفسير الزمخشري اهتم بعلمي المعاني والبيان، وتفسير الرازي اهتم بإبراز روح الحكمة القرآنية، وعرض نظرياتها من نواحي الفلسفة وأصول الدين وأصول الفقه، وتفسير الراغب اهتم بجانب اللغة وبيان المفردات(٢).

أولاً: الكشاف للزمخشري:

اعتمد البيضاوي على تفسير الكشاف اعتماد كبيراً حتى أن كثيراً من أهل العلم يعدون تفسير البيضاوي اختصارا لهذا التفسير، فقد قال جلال الدين السيوطي: "وسيد المختصرات منه –

(١) إعراب القرآن: المنسوب إلى للزجاج: ١/١٥٤-١٥٦، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني.

(٢) اهتمام مفسري القرن الحادي عشر بتفسير البيضاوي أسبابه ومظاهره: ٤٩٤.

أي من تفسير الكشاف– كتاب أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضي ناصر الدين البيضاوي، لخصه فأجاد، وأتى بكل مستجاد"[١].

والاسم الكامل لهذا التفسير هو (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل)، ومصنفه هو "محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، جار الله، أبو القاسم: من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب. ولد في زمخشر (من قرى خوارزم) وسافر إلى مكة فجاور بها زمنا فلقب بجار الله. وتنقل في البلدان، ثم عاد إلى الجرجانية (من قرى خوارزم) فتوفى فيها"[٢].

والمتفحص لتفسير البيضاوي يرى حضوراً بارزاً لتفسير الزمخشري في ثناياه، والسؤال الذي يقفز إلى الأذهان هو: ما السبب الذي أهَّل تفسير الزمخشري لأن يحتل هذه المكانة عند القاضي البيضاوي في تفسيره؟

والجواب عن هذا السؤال يجيبنا عنه الزمخشري نفسه، حيث يقول: "ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما علم المعاني وعلم البيان"، والزمخشري كان ذلك الرجل، فقد كان غواصاً على دقائق معاني القرآن العظيم، مستخرجاً لنكاته البيانية وأسراره البلاغية، مما دفع أبا حيان الأندلسي إلى أن يثني عليه فيقول: "أجل من صنف في علم التفسير، وأفضل من تعرض للتنقيح فيه والتحرير"، وكيف لا يستحق الزمخشري هذا الثناء من أبي حيان وهو الذي عد علم المعاني والبديع أحد الوجوه السبعة التي يصح من خلالها النظر في تفسير الكتاب العزيز[٣].

ولكن الزمخشري كان معتزلي الاعتقاد قد حشا تفسيره هذا بمسائله الاعتزالية، بل ربما دس سم اعتزاله في دسم نكاته وتحريراته، فالتبس الأمر على لب الحليم، وخفي الخطب عن نظر الرجل الحكيم، فأحجم الناس عن تفسيره خشية الوقوع في شيء من اعتزاله، وأسدل الستار بينه وبين أن يرد الناس موارد نكاته ويستقوا من معين تحريراته، فبات هذا التفسير أشبه ما يكون بكنز مرصود أو در مفقود.

---

(١) نواهد الأبكار وشوارد الأفكار: جلال الدين السيوطي، ١٣/١، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٥م

(٢) الأعلام للزركلي: ١٧٨/٧.

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري، ٢/١، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ

وهنا برز دور القاضي البيضاوي حيث لخص تفسير الزمخشري وانتقى منه تحريراته البلاغية ونكاته البيانية مهذباً إياها، مخلصاً تفسيره من سقطات الزمخشري الاعتزالية، فرُفع الستار بعد انسداله، وأُبيح الكنز بعد رصده، ووُجد الدر بعد فقده؛ فأقدم الناس إليه بعد إحجامهم، ووردوا حياضه بعد امتناعهم، وقد وجد بعضهم في تفسير القاضي البيضاوي ما يغنيهم عن خوض غمار الكشاف، في حين انتهز آخرون الفرصة ليجعلوا من تفسير البيضاوي سُلَّماً يرقِّيهم إلى النظر في تفسير الزمخشري نظر المحقق المدقق(١).

ومن أمثلة تأثر البيضاوي ونقله من تفسير الكشاف ما جاء في تفسير سورة الفاتحة، قال البيضاوي: "الحمد هو الثناء على الجميل الاختياري من نعمة أو غيرها والمدح هو الثناء على الجميل مطلقا تقول حمدت زيدا على علمه وكرمه ولا تقول حمدته على حسنه بل مدحته وقيل هما أخوان والشكر مقابلة النعمة قولا وعملا واعتقادا قال:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

فهو أعم منهما من وجه وأخص من آخر ولما كان الحمد من شعب الشكر أشيع للنعمة وأدل على مكانها لخفاء الاعتقاد وما في آداب الجوارح من الاحتمال جعل رأس الشكر والعمدة فيه فقال عليه الصلاة والسلام الحمد رأس الشكر وما شكر الله من لم يحمده. والذم نقيض الحمد والكفران نقيض الشكر ورفعه بالابتداء وخبره لله وأصله النصب وقد قرىء به وإنما عدل عنه إلى الرفع ليدل على عموم الحمد وثباته له دون تجدده وحدوثه وهو من المصادر التي تنصب بأفعال مضمرة لا تكاد تستعمل معها والتعريف فيه للجنس ومعناه الإشارة إلى ما يعرف كل أحد أن الحمد ما هو أو للاستغراق إذ الحمد في الحقيقة كله له إذ ما من خير إلا وهو موليه بوسط أو بغير وسط كما قال تعالى: (وما بكم من نعمة فمن الله) وفيه إشعار بأنه تعالى حي قادر مريد عالم إذ الحمد لا يستحقه إلا من كان هذا شأنه(٢)

وقال الزمخشري في معنى الحمد لله: "الحمد والمدح أخوان وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها، تقول حمدت الرجل على إنعامه وحمدته على حسبه وشجاعته، وأما الشكر فعلى النعمة خاصة وهو بالقلب واللسان والجوارح قال:

---

(١) اهتمام مفسري القرن الحادي عشر بتفسير البيضاوي أسبابه ومظاهره: ٤٩٥، نقلاً عن نواهد الأبكار: ١٣/١، والتفسير ورجاله: ٩٤، والبيضاوي مفسراً: ٣٩٨.

(٢) تفسير البيضاوي: ١٢/١

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

والحمد باللسان وحده فهو إحدى شعب الشكر ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: (الحمد رأس الشكر ما شكر الله عبد لم يحمده). وإنما جعله رأس الشكر لأن ذكر النعمة باللسان والثناء على موليها أشيع لها وأدل على مكانها من الاعتقاد وآداب الجوارح لخفاء عمل القلب وما في عمل الجوارح من الاحتمال بخلاف عمل اللسان وهو النطق الذي يفصح عن كل خفي ويجلي كل مشتبه. والحمد نقيضه الذم والشكر نقيضه الكفران وارتفاع الحمد بالابتداء وخبره الظرف الذي هو (لله)، وأصله النصب الذي هو قراءة بعضهم بإضمار فعله على أنه من المصادر التي تنصبها العرب بأفعال مضمرة في معنى الإخبار كقولهم: شكرا وكفرا وعجبا وما أشبه ذلك، ومنها سبحانك ومعاذ الله ينزلونها منزلة أفعالها ويسدون بها مسدها لذلك لا يستعملونها معها ويجعلون استعمالها كالشريعة المنسوخة والعدل بها عن النصب الى الرفع على الابتداء للدلالة على ثبات المعنى واستقراره ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ ﴾ هود: ٦٩، رفع السلام الثاني للدلالة على ان إبراهيم عليه السلام حياهم بتحية أحسن من تحيتهم لأن الرفع دال على معنى ثبات السلام لهم دون تجدده وحدوثه، والمعنى نحمد الله حمدا، ولذلك قيل (إياك نعبد وإياك نستعين) لأنه بيان لحمدهم له، كأنه قيل كيف تحمدون؟ فقيل إياك نعبد. فإن قلت ما معنى التعريف فيه؟ قلت: هو نحو التعريف في: (أرسلها العراك) وهو تعريف الجنس ومعناه الإشارة إلى ما يعرفه كل أحد من أن الحمد ما هو والعراك ما هو من بين أجناس الأفعال، والاستغراق الذي يتوهمه كثير من الناس وهمٌ منهم"(١).

هكذا نجد البيضاوي يلخص كلام الزمخشري فيخالفه حيناً ويوافقه أحياناً، فمثلاً نجده يخالفه في معنى الحمد فقال البيضاوي: هو الثناء على الجميل الاختياري، وقال الزمخشري هو الثناء على الجميل مطلقاً، والشيء المهم الذي خالفه فيه، أن التعريف في الحمد يفيد الاستغراق فخالف فيه مذهب الاعتزال القائل بأن العبد يخلق أفعاله الاختيارية. قال الشريف الجرجاني في حاشيته على الكشاف: "اختيار الجنس على الاستغراق مبني على طريقة الاعتزال، فإن أفعال العباد لما كانت مخلوقة لهم كانت المحامد راجعة إليهم، فلا يصح جعل المحامد كلها مختصة به تعالى. وفساده ظاهر، لأن اختصاص الجنس به تعالى مستلزم اختصاص أفراده أيضاً، إذ لو وجد فرد منه لغيره لثبت الجنس له في ضمنه"(٢).

(١) الكشاف: ١/١١١-١١٢.

(٢) البيضاوي ومنهجه في التفسير: ٦٧

أما من ناحية اللغة فقد ترسم خطى الزمخشري في كثير من المعاني ففي تفسير قوله تعالى: ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ البقرة: ٢٠ قال البيضاوي: "استئناف ثالث كأنه قيل ما يفعلون في تارتي خفوق البرق وخفيته فأجيب بذلك وأضاء إما متعد والمفعول محذوف بمعنى كلما نور لهم ممشى أخذوه أو لازم بمعنى كلما لمع لهم مشوا في مطرح نوره وكذلك أظلم فإنه جاء متعديا منقولا من ظلم الليل ويشهد له قراءة أظلم على البناء للمفعول وقول أبي تمام:

هما أظلما حالي ثمة أجليا ظلاميهما عن وجه أمرد أشيب

فإنه وإن كان من المحدثين لكنه من علماء العربية فلا يبعد أن يجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه وإنما قال مع الإضاءة) كلما (ومع الإظلام) إذا (لأنهم حراص على المشي فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها ولا كذلك التوقف ومعنى قاموا وقفوا ومنه قامت السوق إذا ركدت وقام الماء إذا جمد".

وقال الزمخشري في الآية: "استئناف ثالث كأنه جواب لمن يقول كيف يصنعون في تارتي خفوق البرق وخفيته وهذا تمثيل لشدة الأمر على المنافقين بشدته على أصحاب الصيب وما هم فيه من غاية التحير والجهل بما يأتون وما يذرون اذا صادفوا من البرق خفقة مع خوف ان يخطف أبصارهم انتهزوا تلك الخفقة فرصة فخطوا خطوات يسيرة فاذا خفى وفتر لمعانه بقوا واقفين متقيدين عن الحركة ولو شاء الله لزاد في قصيف الرعد فأصمهم او في ضوء البرق فأعماهم وأضاء إما متعد بمعنى كلما نور لهم ممشى ومسلكا أخذوه والمفعول محذوف وإما غير متعد بمعنى كلما لمع لهم (مشوا) في مطرح نوره وملقى ضوئه ويعضده قراءة ابن أبي عبلة كلما ضاء لهم والمشي جنس الحركة المخصوصة فاذا اشتد فهو سعي فاذا ازداد فهو عدو فإن قلت كيف قيل مع الاضاءة كلما ومع الإظلام اذا قلت لأنهم حراص على وجود ما همهم به معقود من إمكان المشي وتأتيه فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها وليس كذلك التوقف والتحبس وأظلم يحتمل ان يكون غير متعد وهو الظاهر وأن يكون متعديا منقولا من ظلم الليل وتشهد له قراءة يزيد بن قطيب أظلم على ما لم يسم فاعله وجاء في شعر حبيب بن أوس:

هما أظلما حالي ثمت أجليا ظلاميهما عن وجه امرد أشيب

وهو وإن كان محدثا لا يستشهد بشعره في اللغة فهو من علماء العربية فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه ألا ترى الى قول العلماء الدليل عليه بيت الحماسة فيقتنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه ومعنى (قاموا) وقفوا وثبتوا في مكانهم ومنه قامت السوق إذا ركدت وقام الماء إذا جمد.

انظر كيف لخص البيضاوي كلام الزمخشري وأتى بقوله في إعراب أضاء وأظلم ثم قراءة أظلم على البناء للمفعول والاستشهاد بشعر أبي تمام ثم الحكم على شعره إنه لا يستدل به ولكن يعتمد عليه بناء على أنه عالم لغة يوافق قوله روايته ذكر البيضاوي ذلك كله من غير أن يذكر شيئاً من عنده.

وحديثنا السابق عن أن البيضاوي قد ترك في نقولاته من تفسير الكشاف ما فيه من اعتزالات هو في العموم الأغلب إلا أنه كما يرى الذهبي كان يتابع الزمخشري في بعض اعتزالاته فقال: "كان يذهب أحياناً إلى ما ذهب إليه صاحب الكشاف ومن ذلك أنه عندما فسَّر قوله تعالى فى الآية [٢٧٥] من سورة البقرة: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ البقرة: ٢٧٥، وجدناه يقول: "إلا قياماً كقيام المصروع، وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيُصرَع".. ثم يفسِّر المس بالجنون ويقول: "وهذا أيضاً من زعمانهم أنَّ الجني يمس الرجل فيختلط عقله".

ولا شك أن هذا موافق لما ذهب إليه الزمخشري من أن الجن لا تسلط لها على الإنسان إلا بالوسوسة والإغواء.

كما أننا نجد البيضاوي قد وقع فيما وقع فيه صاحب الكشاف، من ذكره في نهاية كل سورة حديثاً في فضلها وما لقارئها من الثواب والأجر عند الله، وهي أحاديث موضوعة باتفاق أهل الحديث، ولستُ أعرف كيف اغترَّ بها البيضاوي فرواها وتابع الزمخشري في ذكرها عند آخر تفسيره لكل سورة، مع ما له من مكانة علمية، وسيأتي اعتذار بعض الناس عنه في ذلك، وإن كان اعتذاراً ضعيفاً، لا يكتفى لتبرير هذا العمل الذى لا يليق بعالم كالبيضاوي له قيمته ومكانته"(١).

وبما يخص ما قاله الذهبي في العبارة السابقة من اعتذار بعض الناس عما وقع فيه البيضاوي من روايته في آخر تفسير كل سورة من أحاديث ضعيفة، فيقصد بذلك ما قاله حاجي خليفة: "وأما أكثر الأحاديث التي أوردها في أواخر السور فإنه لكونه ممن صفت مرآة قلبه، وتعرض

(١) التفسير والمفسرون: ١/٢١١-٢١٢.

لنفحات ربه، تسامح فيه وأعرض عن أسباب التجريح والتعديل، ونحا نحو الترغيب والتأويل، عالماً بأنها مما فاه صاحبه بزور، ودلى بغرور، والله عليم بذات الصدور"[١].

ولا بد من الإشارة إلى أن البيضاوي لم يكن مجرد ناقل من هذه التفاسير وإنما جمع أفكار المتقدمين وبحثها ونقدها واستخرج منها أحكاماً، واستظهارات شخصية، وأبدع في كثير من الأحكام والاستظهارات، ما استقل به وانفرد بتحقيقه، وربما جمع الأوجه المتعددة والاحتمالات المختلفة، فرتبها بحسب الرجحان وأشار إلى ما هو المعتمد منها، وما هو ضعيف أو مردود، وسبك تلك الأنظار البعيدة، والتحارير العالية سبكاً دقيقاً رقيقاً، بناء على تنقيح العبارات وضبطها وتهذيبها واختصارها الاختصار المحكم، القابل للبسط والإيضاح، على ما هي الطريقة المختارة المسلوكة يومئذ في تحرير العلوم، وهي المشتهرة عند العلماء بالطريقة الأعجمية"[٢].

ثانياً: مفاتيح الغيب للرازي:

المصدر الثاني الذي اعتمد عليه البيضاوي في تفسيره هو تفسير مفاتيح الغيب للفخر الرازي، وهو "أبو عبد الله، محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن ابن علىّ، التميمى، البكرى، الطبرستاني، الرازي، الملقَّب بفخر الدين، والمعروف بابن الخطيب الشافعي، المولود سنة ٥٤٤هـ.

كان رحمه الله فريد عصره، ومتكلم زمانه، جمع كثيراً من العلوم ونبغ فيها، فكان إماماً في التفسير والكلام، والعلوم العقلية، وعلوم اللغة، ولقد أكسبه نبوغه العلمي شهرة عظيمة، فكان العلماء يقصدونه من البلاد، ويشدون إليه الرحال من مختلف الأقطار، وقد أخذ العلم عن والده ضياء الدين المعروف بخطيب الري، وعن الكمال السمعاني، والمجد الجيلي، وكثير من العلماء الذين عاصرهم ولقيهم، وله فوق شهرته العلمية شهرة كبيرة في الوعظ، حتى قيل إنه كان يعظ باللسان العربي واللسان العجمي، وكان يلحقه الوجد في حال الوعظ ويكثر البكاء"[٣].

"وخصائص تفسيره (مفاتيح الغيب) كثيرة من أهمها الاستطراد وتصريف الأقوال والابعاد في الجدل والنقاش، ولذلك قال الصفدي في كتابه الوافي بالوفيات: "أتى الرازي في كتبه بما لم يُسبق إليه، لأنه يذكر المسألة ويفتح باب تقسيمها، وقسمة فروع ذلك التقسيم، ويستدل بأدلة السبر

(١) كشف الظنون: ١٨٨/١.
(٢) التفسير ورجاله: ٩٣.
(٣) التفسير والمفسرون: ٢٠٦/١

والتقسيم، فلا يشذ فيه عن تلك المسألة فرع له بها علاقة، فانضبطت له القواعد، وانحصرت المسائل.

ومن خصائصه أنه عرض للقراءات المختلفة وقد يخرج المعاني على كل قراءة، وربما أعرب الآيات بحسب تلك القراءات، وقد يحتج للقراءة بما قاله النحويون، وكثيراً ما يستشهد الرازي بالشعر للاستدلالات اللغوية أو البلاغية أو في مناسبة أدبية أو خلقية أو دينية، وهذا ما يدل على ثقافته الواسعة في آداب اللغة العربية وتذوق علومها، وإلى جانب كل هذا نجد هذا التفسير غني بأسباب النزول"(١).

ومجموع هذه الخصائص لا شك تجعل منه مصدراً مهماً لكل التفاسير التي كتبت بعده وليس تفسير البيضاوي إلا واحداً من هذه التفاسير التي وردت هذا المعين فنقلت منه ما يروي الظمآن ويشبع الجوعان.

"وكان تفسير الفخر الرازي قائماً على أساس استنباط المعاني الكثيرة من الألفاظ القرآنية المعدودة والعبارات القصيرة، وقد أبرز الرازي في تفسيره الفلسفة على أنها خادمة للشريعة لا حاكمة عليها واضعاً القرآن العظيم موضع الدراسة على منهج يرى تفوق الحكمة القرآنية على سائر الطرق الفلسفية.

ولكن الرازي أسهب في تفسيره وأطال بذكر الاستدلالات الفلسفية واستعراض الآيات الكونية معتذراً لنفسه بأن الله سبحانه وتعالى مدح المتفكرين في خلق السماوات والأرض، وأنه من يعتقد عظمة الخالق بعد تفكر وتأمل إيمانه أقوى وأوفى من إيمان من يعتقد هذه العظمة دون تفصيل وتعيين.

فجاء القاضي البيضاوي في تفسيره مهذباً لعبارة الرازي في بعض المواطن، ملخصاً شيئاً من إسهاباته، محرراً لفيوضاته، دارجاً على نفس طريقة الرازي في إبراز روح الحكمة القرآنية وعرض نظرياتها من نواحي الفلسفة وأصول الدين وأصول الفقه؛ ولكن بطريقة مهذبة محررة"(٢).

---

(١) مقدمة مفاتيح الغيب: ٨/١.

(٢) انظر: التفسير ورجاله: ٧٢-٧٨ (بتصرف).

ثالثاً: مفردات القرآن للراغب الأصفهاني:

ومؤلفه هو الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهاني (أو الأصبهاني) المعروف بالراغب: أديب، من الحكماء العلماء من أهل (أصبهان) سكن بغداد، واشتهر، حتى كان يقرن بالإمام الغزالي[١]، وهو من مشاهير المفسرين من أهل السنة في القرن الرابع.

فقد اتخذ القاضي البيضاوي من تفسير الراغب الأصفهاني رافداً ثالثاً لتفسيره ليضفي عليه مزيداً من تحرير رونق الكلام، واستجلاء إشارات البيان، مع الاهتمام ببيان المفردات واللغة[٢].

فقد لخص البيضاوي من تفسير الراغب ما يتعلق بالاشتقاق، وغوامض الحقائق، ولطائف الإشارات، وتحرير المعاني الذوقية[٣].

ويظهر تأثر البيضاوي بالراغب الأصفهاني في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة: ٣٠ قال البيضاوي: "والخليفة من يخلف غيره وينوب منابه والهاء فيه للمبالغة والمراد به آدم عليه الصلاة والسلام لأنه كان خليفة الله في أرضه وكذلك كل نبي استخلفهم الله في عمارة الأرض وسياسة الناس وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم لا لحاجة به تعالى إلى من ينوبه بل لقصور المستخلف عليه عن قبول فيضه وتلقي أمره بغير وسط ولذلك لم يستنبئ ملكا كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ الأنعام: ٩ ألا ترى أن الأنبياء لما فاقت قوتهم واشتعلت قريحتهم بحيث يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار أرسل إليهم الملائكة ومن كان منهم أعلى رتبة كلمة بلا واسطة كما كلم موسى عليه السلام في الميقات ومحمدا (صلى الله عليه وسلم) ليلة المعراج ونظير ذلك في الطبيعة أن العظم لما عجز عن قبول الغذاء من اللحم لما بينهما من التباعد جعل الباري تعالى بحكمته بينهما الغضروف المناسب لهما ليأخذ من هذا ويعطي ذلك[٤].

وقال الراغب الأصفهاني في الآية السابقة: والخليفة والخلف يتقاربان من قولك: خلف فلان فلاناً إذا قام مقامه، والخلف والسلف يتناقضان كخلف وقدام، فإن قيل: ما وجه استخلاف الله تعالى، والخلافة إنما تكون للنيابة عن الغري؟ إما لغيبته أو موته أو عجزه، وذلك لا يجوز على الله تعالى قيل: بل قد يكون على غير ذلك، وهو أن يستخلف المستخلف غيره امتحاناً للمستخلف،

(١) الأعلام للزركلي: ٢/٢٥٥.
(٢) انظر: التفسير ورجاله: ٩٣.
(٣) الاستنباط عند القاضي البيضاوي: ١٣٢.
(٤) تفسير البيضاوي: ١/٨٢.

أو تهذيباً له، أو يستخلفه لقصور المستخلف عليه من قبول التأثير من المستخلف لا لعجز المستخلف وذلك ظاهر في الأشياء المهينة والطبيعية، فإن السلطان جعل الوزير بينه وبين رعيته، إذ هو يقبلون من الواعظ ماله قرب إلى قبولهم منه، وكذا الواعظ جعل بين العامة والحكماء، فإن العامة لا يقبلونه من الحكيم، وليس ذلك لعجز الحكيم، بل لعجز العامة عن القبول منه، وعلى هذا اللحم والعظم لما تباعد ما بينهما عجز العظم عن قبول الغذاء من اللحم، فجعل الله تعالى بحكمته بينهما الغضاريف التي بينهما، ولها مناسبة إليهما لتأخذ ذلك من اللحم وتعطيه العظم، وكذلك جعل تعالى الرسل بين الملك الذي هو من قبله تعالى وبين العباد لفضل قوة أعطاها ليأخذوا منه الحكمة ويوصلوها إلى الناس، وبهذا الوجه قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ الأنعام:٩[1]

(١) تفسير الراغب الأصفهاني: الراغب الأصفهاني، ١٣٨/١، تحقيق محمد بسيوني وعادل الشدي، كلية الآداب جامعة طنطا، ودار الوطن الرياض.

المبحث الرابع: منهج البيضاوي في التفسير

بنى البيضاوي رحمه الله تفسيره على منهج صرَّح بجزء منه في مقدمة كتابه، إذ يقول: ولطالما أحدث نفسي بأن أصنف في هذا الفن كتابا يحتوي على صفوة مما بلغني من عظماء الصحابة، وعلماء التابعين، ومن دونهم من السلف الصالحين، وينطوي على نكت بارعة، ولطائف رائعة، استنبطتها أنا ومن قبلي من أفاضل المتأخرين، وأماثل المحققين، ويعرب عن وجوه القراءات المشهورة المعزوّة إلى الأئمة الثمانية المشهورين، والشواذ المروية عن القراء المعتبرين.

ففي مقدمته جاء على ذكر بعض ملامح منهجه، وسأحاول ترتيبها في نقاط والتمثيل على كل نقطة من هذه النقاط، مقسماً منهجه في التفسير إلى قسمين: (منهجه العام، ومنهجه البلاغي).

أولاً: منهجه العام:

يسير البيضاوي في تفسيره على طريقة معينة يلتزمها في أكثر تفسيره، ومنها:

١. معلومات السورة:

يفتتح البيضاوي رحمه الله تفسيره للسورة بذكر كونها مكية أو مدنية، وعدد آياتها، ويذكر أسماءً أخرى للسورة إن وجد.

من أمثلة إيراده لمعلومات السورة قوله في مقدمة سورة الأعراف: مكية غير ثمان آيات من قوله: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ ﴾ الأعراف: ١٦٣ إلى قوله: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ ﴾ الأعراف: ١٧١ محكمة كلها. وقيل إلا قوله تعالى: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ الأعراف: ١٩٩ ، وآيها مائتان وخمس أو ست آيات[١].

وفيما يخص إيراده أسماء السور الأخرى التي تعرف بها قوله في مقدمة سورة التوبة: هي آخر ما نزل ولها أسماء أخر، «التوبة» و «المقشقشة» و «البحوث» و «المبعثرة» و «المنقرة» و «المثيرة» و «الحافرة» و «المخزية» و «الفاضحة» و «المنكلة» و «المشردة» و «المدمدمة» و «سورة العذاب» لما فيها من التوبة للمؤمنين والقشقشة من النفاق وهي التبري منه، والبحث عن حال المنافقين وإثارتها، والحفر عنها وما يخزيهم ويفضحهم وينكلهم ويشردهم ويدمدم عليهم[٢]

(١) تفسير البيضاوي: ٥٣٣/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٣٥/٢

٢. سبب النزول:

سبب النزول من علوم القرآن التي لا غنى لأي مفسر عنه، إذ إنه في كثير من الأحيان الركيزة الأساسية في فهم معنى الآية فهماً دقيقاً.

لذلك لم يهمل البيضاوي ذكر أسباب النزول فمن ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ هود: ١١٤، قال البيضاوي: وفي سبب النزول أن رجلاً أتى النبي صلّى الله عليه وسلّم فقال إني قد أصبت من امرأة غير أني لم آتها فنزلت»[١].

ومثاله أيضاً ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴿٤﴾ ﴾ النحل: ٤، قال البيضاوي: روي أن أُبَي بن خلف أتى النبي صلّى الله عليه وسلّم بعظم رميم وقال: يا محمد أترى الله يحيي هذا بعد ما قد رمّ. فنزلت[٢].

٣. الجمع بين التفسير بالرواية والدراية:

فالبيضاوي لا يعتمد في تفسيره على ذكر الروايات والأقوال فقط، ولكنه يجتهد في بيان المعاني الخفية المستنبطة من الآيات ومراميها البلاغية.

فنراه يذكر الروايات التي يبين بها معنى الآية، كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِ ﴾ البقرة: ٢١٧، قال البيضاوي رحمه الله: عن ابن عباس رضي الله عنهما (لما نزلت أخذ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الغنيمة وهي أول غنيمة في الإسلام[٣].

ومن بيانه للمعاني الخفية وذكره لدلالة الآيات وما وراءها وما يُفهم منها، ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ آل عمران: ١٧، قال البيضاوي رحمه الله: حصر لمقامات السالك على أحسن ترتيب، فإن معاملته مع الله تعالى إما توسل وإما طلب، والتوسل إما بالنفس وهو منعها عن الرذائل وحبسها على الفضائل والصبر يشملهما، وإما بالبدن، وهو إما قولي وهو الصدق وإما فعلي وهو القنوت الذي هو ملازمة الطاعة، وإما بالمال وهو الإنفاق في سبل الخير، وإما الطلب فبالاستغفار لأن المغفرة أعظم المطالب بل الجامع لها وتوسيط الواو بينهما للدلالة على استقلال كل واحد منها وكمالهم فيها أو

(١) تفسير البيضاوي: ١٥٤/٢
(٢) تفسير البيضاوي: ٢٥٢/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ١٨٦/١

لتغاير الموصوفين بها، وتخصيص الأسحار لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة، لأن العبادة حينئذ أشق والنفس أصفى والروع أجمع للمجتهدين[١].

٤. أحاديث فضائل السور:

من منهج البيضاوي أنه يذكر في نهاية تفسير كل سورة حديثاً في فضلها، وقد عُدَّ هذا من المآخذ التي أُخذت عليه، لأن أكثرها أحاديث ضعيفة كما تقرر ذلك سابقاً.

فمن ذلك ما جاء في نهاية سورة المائدة حيث يقول البيضاوي رحمه الله: عن النبي صلّى الله عليه وسلّم "من قرأ سورة المائدة أعطي من الأجر عشر حسنات ومحي عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات بعدد كل يهودي ونصراني يتنفس في الدنيا"[٢]

٥. المسائل الفقهية:

البيضاوي رحمه الله كما تقدم في ترجمته من كبار فقهاء عصره، لذلك فإننا نرى في تفسيره تعرضه لبعض المسائل الفقهية خصوصاً عند آيات الأحكام، ويذكر آراء العلماء فيها، لكنه لا يتوسع بل يذكرها بإيجاز دون إسهاب.

ومن ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ﴾ المائدة: ٨٩، قال البيضاوي رحمه الله: (لاَّ يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ) هو ما يبدو من المرء بلا قصد كقول الرجل: لا والله وبلى والله، وإليه ذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه، وقيل الحلف على ما يظن أنه كذلك ولم يكن، وإليه ذهب أبو حنيفة رحمه الله تعالى[٣].

ومثاله أيضاً قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ ﴾ المجادلة: ٣ ، (ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا) أي إلى قولهم بالتدارك...وهو بنقض ما يقتضيه وذلك عند الشافعي بإمساك المظاهر عنها في النكاح زماناً يمكنه مفارقتها فيه، إذ التشبيه يتناول حرمته لصحة استثنائها عنه وهو أقل ما ينتقض به. وعند أبي حنيفة باستباحة استمتاعها ولو بنظرة شهوة. وعند مالك بالعزم على الجماع، وعند الحسن بالجماع[٤].

---

(١) تفسير البيضاوي: ٢٤٩/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٤٧٦/١
(٣) تفسير البيضاوي: ٤٥٩/١
(٤) تفسير البيضاوي: ٣٨٠/٣

٦. القراءات:

اهتم البيضاوي بذكر القراءات المختلفة التي تجيء عليها الآية وذكر صاحب هذه القراءة، لكنه لم يلتزم بالقراءات المتواترة فقط، بل ضم إليها الشاذة، كما نص على ذلك في مقدمته إذ يقول: "ويعرب –يعني تفسيره– عن وجوه القراءات المشهورة المعزوّة إلى الأئمة الثمانية المشهورين، والشواذ المروية عن القراء المعتبرين"(١)

مما جاء في تفسير البيضاوي من ذكرٍ للقراءات ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ الفاتحة: ٤، قال البيضاوي رحمه الله: مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ قراءة عاصم والكسائي ويعقوب ويعضده قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾ الانفطار: ١٩. وقرأ الباقون: مَلِكِ. وهو المختار لأنه قراءة أهل الحرمين ولقوله تعالى: ﴿ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ﴾ غافر: ١٦ ولما فيه من التعظيم... وقرئ ملك بالتخفيف وملك بلفظ الفعل(٢)

٧. المعنى اللغوي للكلمة:

من منهج البيضاوي رحمه الله أنه يوضح المعنى اللغوي للكلمة في أصل وضعها ليتضح معناها في سياق الآية، فمن ذلك مثلاً ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ البقرة: ٦، قال البيضاوي رحمه الله: **والإنذار: التخويف أريد به التخويف من عذاب الله**(٣)

ومثال ذلك أيضاً قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ البقرة: ١٠٦، قال البيضاوي رحمه الله: والنسخ في اللغة: إزالة الصورة عن الشيء وإثباتها في غيره، كنسخ الظل للشمس والنقل، ومنه التناسخ. ثم استعمل لكل واحد منهما كقولك: نسخت الريح الأثر، ونسخت الكتاب. ونسخ الآية بيان انتهاء التعبد بقراءتها، أو الحكم المستفاد منها، أو بهما جميعاً(٤)

---

(١) تفسير البيضاوي: ١/٥-٦
(٢) تفسير البيضاوي: ١/١٤
(٣) تفسير البيضاوي: ١/٤١
(٤) تفسير البيضاوي: ١/١٢٧

٨. الاستشهاد بالشعر لبيان معنى الكلمة:

من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾ الكهف: ٩، قال البيضاوي رحمه الله: والرَّقِيمِ اسم الجبل أو الوادي الذي فيه كهفهم، أو اسم قريتهم أو كلبهم. قال أمية بن أبي الصلت:

وَلَيْسَ بِهَا إِلاَّ الرَّقِيمُ مُجَاوِرا وَصَيْدَهُمُو وَالقَوْمُ فِي الكَهْفِ هُجَّدٌ[١]

٩. الاستشهاد بأقوال اللُّغويين:

من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ البقرة: ١ – ٢، قال البيضاوي رحمه الله: الم وسائر الألفاظ التي يتهجى بها، أسماء مسمياتها الحروف التي ركبت منها الكلم لدخولها في حد الاسم، واعتوار ما يخص به من التعريف والتنكير والجمع والتصغير ونحو ذلك عليها، وبه صرح الخليل وأبو علي[٢].

١٠. بيان الاشتقاقات والأبنية الصرفية:

من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ الأنعام: ٩٨ ، قال البيضاوي رحمه الله: وقرأ ابن كثير والبصريان بكسر القاف على أنه اسم فاعل، والمستودع اسم مفعول أي فمنكم قار ومنكم مستودع[٣]

١١. بيان التغيرات الصرفية:

من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ﴾ الكهف: ١٧، قال البيضاوي رحمه الله: (إِذا طَلَعَتْ تَتَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ) تميل عنه...وأصله تتزاور فأدغمت التاء في الزاي[٤]

١٢. الصناعة النحوية:

اهتم البيضاوي رحمه الله بالصناعة النحوية اهتماماً واضحاً، وذلك لأهميتها في بيان المعنى وإيضاحه، لكنه لم يتوسع في هذا الأمر.

---

(١) تفسير البيضاوي: ٣٢٨/٢
(٢) تفسير البيضاوي: ٢٤/١
(٣) تفسير البيضاوي: ٥٠٧/١-٥٠٨
(٤) تفسير البيضاوي: ٣٣١/٢

من أمثلة اهتمامه بالصناعة النحوية ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ البقرة: ١٤، قال البيضاوي رحمه الله: (إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ) تأكيد لما قبله، لأن المستهزئ بالشيء المستخف به مُصِرٌّ على خلافه. أو بدل منه لأن من حقر الإسلام فقد عظم الكفر. أو استئناف فكأن الشياطين قالوا لهم لمَّا (قالوا إنا معكم) إن صح ذلك فما بالكم توافقون المؤمنين وتدعون الإيمان فأجابوا بذلك[١].

فقد أعرب البيضاوي جملة (إنما نحن مستهزئون) ثلاثة إعراباتٍ الآية تحتملهن جميعاً، بما لا يناقض المعنى، بل كل إعرابٍ يؤدي معنى دقيق لا يُتوصَّل إلى فهمه إلا بمعرفة هذه الإعرابات جميعاً.

ومن منهج البيضاوي في الصناعة النحوية، استشهادُه بآراء أئمة النحو، كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا ﴾ البقرة: ٢٦، قال البيضاوي رحمه الله: **وأَنْ بِصِلَتِها مخفوض المحل عند الخليل بإضمار من، منصوب بإفضاء الفعل إليه بعد حذفها عند سيبويه**[٢]

ثانياً: منهجه البلاغي:

مما تقرَّر سابقاً أن تفسير البيضاوي من التفاسير التي اهتمت بالناحية البلاغية واللغوية، لذا سأحاول إيضاح منهج البيضاوي رحمه الله في عرضه للمسائل البلاغية في تفسيره، وأهم ملامح هذا المنهج:

١. اهتمامه بعلمي المعاني والبيان أكثر من البديع:

الدَّارس لتفسير البيضاوي يتضح له أن البيضاوي رحمه الله اهتم بعلمي المعاني والبيان أكثر من علم البديع، فتجِدْه قد أتى على أكثر موضوعات علم المعاني من خبر وإنشاء وتقديم وتاخير، وتعريف وتنكير، وخروج الكلام عن مقتضى الظاهر...إلخ، وكذلك على أكثر موضوعات علم البيان من مجاز واستعارة وكناية وتعريض، لكنْ إذا ما استقرأنا علم البديع وجدنا مباحثه قليلة تبدو على استحياء.

(١) تفسير البيضاوي: ٥٠/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٧٤/١

ولعلَّ السبب في ذلك هو أن علم البديع أكثرُه قائمٌ على المحسنات اللفظية، والبيضاوي يريد أن يوظف البلاغة لإيضاح المعاني القرآنية ويتحقق له ذلك بعلمي المعاني والبيان أكثر من البديع.

٢. التعريفات الاصطلاحية البلاغية:

من منهج البيضاوي رحمه الله أنه يُعرِّف بعض المصطلحات البلاغية ويترك تعريف بعضها الآخر.

فمن تعريفاته البلاغية تعريفه (للتعريض) إذ يقول فيه: التعريض والتلويح إيهام المقصود بما لم يوضع له حقيقة ولا مجازاً، كقول السائل جئتك لأسلم عليك[١].

وعرَّف البيضاوي (الكناية) فقال: والكناية هي الدلالة على الشيء بذكر لوازمه وروادفه، كقولك الطويل النجاد للطويل، وكثير الرماد للمضياف[٢].

وعرَّف البيضاوي (الأمر) فقال: والأمر هو للقول الطالب للفعل، وقيل: مع العلو، وقيل: مع الاستعلاء، وبه سمي الأمر الذي هو واحد الأمور تسمية للمفعول به بالمصدر، فإنه مما يؤمر به كما قيل: له شأن وهو الطلب[٣].

وعرَّف التشبيه المُركَّب حيث سماه بالتشبيه المؤلَّف، فقال: والظاهر أن التمثيلين من جملة التمثيلات المؤلفة، وهو أن يشبه كيفية منتزعة من مجموع تضامت أجزاؤه وتلاصقت حتى صارت شيئاً واحداً بأخرى مثلها، كقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ الجمعة: ٥[٤]

وعرَّف التمثيل المفرد فقال: ويمكن جعلهما من قبيل التمثيل المفرد، وهو أن تأخذ أشياء فرادى فتشبهها بأمثالها كقوله تعالى﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ ﴾ فاطر: ١٩ – ٢١ [٥]

(١) تفسير البيضاوي: ٢٠٣/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٢٠٣/١
(٣) تفسير البيضاوي: ٧٨/١
(٤) تفسير البيضاوي: ٥٨/١
(٥) تفسير البيضاوي: ٥٨/١

لكن فيما عدا ذلك لم نقف على تعريفاتٍ بلاغية لمباحث مهمة في علم البلاغة مثل (الخبر، الإنشاء، التعريف، التنكير، المجاز، تأكيد المدح بما يشبه الذم)، ولعلَّ السبب في ذلك أن البيضاوي بصدد تفسير كتاب الله وإيضاح المعنى وبيان الدقائق البلاغية، وليس مقصده الأساس تأصيل علم البلاغة والكتابة في تفريعاته وتعريفاته.

٣. عدم التفصيل في تسمية الفن البلاغي:

لم يكن البيضاوي يذكر الفن البلاغي بشكل مفصل بل كان يأتي على ذكره بوجه عام، فيقول مثلاً استعارة ولا يبين نوعها تصريحية أومكنية، أو يفريق بين المجاز المرسل والعقلي.

من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ومنها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ المدثر: ١ – ٢، قال البيضاوي رحمه الله: **(يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ)** أي المتدثر وهو لابس الدثار... وقيل المراد بالمدثر المتدثر بالنبوة والكمالات النفسانية، أو المختفي فإنه كان بحراء كالمختفي فيه على سبيل الاستعارة(١).

٤. استشهاده بالشعر:

يستشهد البيضاوي بالشعر لدعم توجيهاته البلاغية، من ذلك استشهاده على الالتفات في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ الفاتحة: ٢ – ٥ ، قال البيضاوي: ومن عادة العرب التفنن في الكلام والعدول من أسلوب إلى آخر تطرية له وتنشيطاً للسامع، فيعدل من الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم وبالعكس، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ يونس: ٢٢ وقوله﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ ﴾فاطر: ٩، وقول امرئ القيس:

تطاوَلَ ليلُكَ بالإثمدِ ... ونـامَ الخـليُّ ولـم تَرْقُـدِ
وباتَ وباتَتْ له ليلة ... كَلَيْلَةِ ذي العائرِ الأرْمَدِ
وَذَلِكَ منْ نَبَأ جاءني ... وَخبرْتهُ عَن أَبي الأَسْودِ(٢)

(١) تفسير البيضاوي: ٣/٤٦٤
(٢) تفسير البيضاوي: ١/١٥-١٦

٥. ربط الآية بلاغياً بآية أخرى:

يعمد البيضاوي عند تقريره لمسألة بلاغية بربطها وتشبيهها بآية أخرى أكثر وضوحاً في بابها البلاغي بحيث تصبح علامة يُحال إليها أمثالها.

من ذلك ما جاء في المجاز العقلي حيث جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ الأعراف: ٨٥، قال البيضاوي رحمه الله: (بَعْدَ إِصْلاحِها) بعد ما أصلح أمرها أو أهلها الأنبياء وأتباعهم بالشرائع، أو أصلحوا فيها والإضافة إليها كالإضافة في ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ سبأ: ٣٣. (١)

٦. ذكر الأغراض البلاغية للفن البلاغي:

لم يكن البيضاوي يتوقف عند ذكر الفن البلاغي الموجود في الآية، بل كان يذكر غرضه البلاغي وفائدته المعنوية، من ذلك تعليل الالتفات في قوله تعالى: ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ البقرة: ٢٠ – ٢١، قال البيضاوي رحمه الله: **(يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ)** لما عدد فرق المكلفين وذكر خواصهم ومصارف أمورهم، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات هَزّاً للسامع وتنشيطاً له **واهتماماً بأمر العبادة**، وتفخيماً لشأنها، وجبراً لكلفة العبادة بلذة المخاطبة(٢).

٧. ذكر الوجوه البلاغية المتعددة:

قد تحتمل الآية أكثر من وجه بلاغي فكان البيضاوي يأتي على ذكر الوجهين جميعاً، كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾ النور: ٤٥، قال البيضاوي رحمه الله: **وإنما سمي الزحف مشياً على الاستعارة أو المشاكلة**(٣)

(١) تفسير البيضاوي: ٥٥٧/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٥٩/١
(٣) تفسير البيضاوي: ٥٠٣/٢

ومن ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ الحج: ٦٠، قال البيضاوي رحمه الله: وإنما سمي الابتداء بالعقاب الذي هو الجزاء للازدواج أو لأنه سببه[١]

٨. اعتراضه على آراء بلاغية:

من منهج البيضاوي رحمه الله أنه قد يذكر رأياً بلاغياً في الآية ويعترض عليه، من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ سبأ: ٢٤، قال البيضاوي رحمه الله: وهو بعد ما تقدم من التقرير البليغ الدال على من هو على الهدى ومن هو في الضلال أبلغ من التصريح لأنه في صورة الانصاف المسكت للخصم المشاغب، ونظيره قول حسان:

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بكفء فشرّكما لخير كما الفِدَاءُ

وقيل إنه على اللف والنشر وفيه نظر[٢].

٩. تعليل توجيهاته البلاغية:

من منهج البيضاوي رحمه الله في تفسيره أنه يعلِّل أحكامه وتوجيهاته البلاغية، ولا يطلقها جزافاً، فمن ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ البقرة: ١٤٥، قال البيضاوي رحمه الله: **إِ(نَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِين)** أكد تهديده وبالغ فيه من سبعة أوجه: أحدها: الإتيان باللام الموطئة للقسم: ثانيها: القسم المضمر. ثالثها: حرف التحقيق وهو أن. رابعها: تركيبه من جملة فعلية وجملة اسمية.

وخامسها: الإتيان باللام في الخبر. وسادسها: جعله من الظَّالِمِينَ، ولم يقل إنك ظالم لأن في الاندراج معهم إيهاماً بحصول أنواع الظلم. وسابعها: التقييد بمجيء العلم تعظيماً للحق المعلوم، وتحريصا على اقتفائه وتحذيراً عن متابعة الهوى، واستفظاعاً لصدور الذنب عن الأنبياء[٣]

(١) تفسير البيضاوي: ٤٥٦/٢
(٢) تفسير البيضاوي: ١٠٧/٣
(٣) تفسير البيضاوي: ١٤٨/١

الفصل الثاني

"مباحث علم المعاني في تفسير البيضاوي"

- مقدمة في علم المعاني (الفصاحة والبلاغة)
- المبحث الأول: الخبر والإنشاء.
- المبحث الثاني: التعريف والتنكير.
- المبحث الثالث: التقديم والتأخير.
- المبحث الرابع: الاعتراض.
- المبحث الخامس: خروج الكلام عن مقتضى الظاهر.
- المبحث السادس: الإيجاز والإطناب والمساواة.

الفصل الثاني: مباحث علم المعاني في تفسير البيضاوي

الفصاحة والبلاغة لغة:

الفصاحةُ: البيان، فصُح الرجلُ فصاحةً، فهو فصيح من قوم فُصَحاء، تقول: رجلٌ فصيح وكلامٌ فصيحٌ أي بليغ، ولسانٌ فصيحٌ أي طَلْقٌ، وأفصحَ تكلَّم بالفَصَاحة، وأفصَح عن الشيء إفصاحاً إذا بيَّنه وكشفه، والفصيح في اللغة: المنطلِقُ اللسان في القول، الذي يعرف جيد الكلام من رديئه، وأفصح اللبن: ذهب اللبأ عنه، وفُصِح اللبن إذا أخذت عنه الرغوة، وأفصحت الشاة والناقة: خلص لبنهما، وأفصح الصبح: بدا ضوءه واستبان، وكل ما وضح فقد أفصح، ويقال: قد فصحك الصبح أي بان لك وغلبك ضوءه[1].

وقد ورد ذكر الفصاحة في القرآن الكريم في قول الله تعالى: ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ (القصص: ٣٤)، وقال عليه الصلاة والسلام: "أنا أفصح العرب بيد أني من قريش"[2].

وموسى عليه السلام حين ذكر أن أخاه هارون هو أفصح منه لساناً في الآية السابقة يشير إلى العقدة التي كانت في لسانه والتي جاءت في قوله تعالى: ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ ﴾ طه: ٢٧، "وذلك أن موسى عليه السلام كان في لسانه لثغة بسبب ما كان تناول تلك الجمرة حين خير بينها وبين التمرة أو الدرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، فحصل فيه شدة في التعبير"[3]، فكان دعاء موسى عليه السلام الله عز وجل أن يحل عقدة لسانه "رغبة منه في غاية الإفصاح بالحجة، والمبالغة في وضوح الدلالة، لتكون الأعناق إليه أميل، والعقول عنه أفهم، والنفوس إليه أسرع، وإن كان قد يأتي من وراء الحاجة، ويبلغ أفهامهم على بعض المشقة"[4]

أما البلاغة في اللغة فتعني: الانتهاء والوصول، وتعني أيضاً الفصاحة وحسن الكلام، يقال: بلغ الشيء يبلغ بلوغاً وبلاغاً: وصل وانتهى إلى مراده، والبلاغ: ما يتبلغ به ويتوصل إلى

---

(١) لسان العرب (فصح): جمال الدين ابن منظور، ٥٤٤/٢ بتصرف، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ

(٢) شرح السنة للبغوي: الحسين البغوي، ٢٠٢/٤، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

(٣) تفسير القرآن العظيم (ابن كثير): أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، ٢١٢/٦، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٩ هـ

(٤) البيان والتبيين: عمرو بن بحر المشهور بالجاحظ، ٣١/١، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ

الشيء المطلوب، والبلاغة: الفصاحة، ورجل بليغ وبَلْغ وبُلغْ: حسن الكلام، فصيحه يبلغ بعبارة لسانه كُنْه ما في قلبه، والجمع: بلغاء، وقد بلغ بلاغة: صار بليغاً[1].

وقد وردت مادة (بلغ) في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴾ (النساء: ٦٣).

والناظر إلى التعريف اللغوي لكل من الفصاحة والبلاغة يلحظ تشابهاً وترادفاً فيهما، "والمقصود منهما: الظهور والبيان والانتهاء إلى المعنى وبلوغ المراد باللفظ الجيد والقول البليغ المؤثر، والتعبير الحسن الفصيح، ولذا فإن أكثر البلاغيين يرون أن الفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد، وإن اختلف أصلهما، لأن المراد بهما: الإبانة عن المعنى والإظهار له وحسن التعبير عنه.

الفصاحة اصطلاحاً:

الفصاحة في اصطلاح أهل المعاني، عبارة عن الألفاظ البيّنة الظاهرة، المتبادرة إلى الفهم، والمأنوسة الاستعمال بين الكُتَّاب والشعراء لمكان حسنها[2].

والفصاحة كما سبق تقع وصفاً للكلمة وللكلام وللمتكلم، **فالكلمة الفصيحة** يجب أن تخلُصَ من الأمور التالية:

١. من تنافر الحروف: لتكون رقيقة عذبة، تَخِفُّ على اللسان ولا تَثْقُل على السَّمع.
٢. من الغرابة، وتكون مألوفة الاستعمال.
٣. من مخالفة القياس الصرفي، حتى لا تكون شاذة.
٤. من الكراهة في السمع.

أما فيما يخص "**تنافر الحروف**": فهو وصف في الكلمة يوجب ثقلها على السمع وصعوبة أدائها باللسان، بسبب كون حروف الكلمة متقاربة المخارج، مثل كلمة (هعخع)، من قول أعرابي: (تركت ناقتي ترعى الهعخع)، وهو نبت ترعاه الإبل.

(١) لسان العرب (بلغ): ٤٢٠/٨ بتصرف.
(٢) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: أحمد الهاشمي،ص١٩، المكتبة العصرية بيروت.

و"**غرابة الاستعمال**": فهي كون الكلمة غير ظاهرة المعنى، ولا مألوفة الاستعمال عند العرب الفصحاء، وهو قسمان: **القسم الأول** ما يوجب حيرة السامع في فهم المعنى المقصود من الكلمة لترددها بين معنيين أو أكثر بلا قرينة، ومثاله كلمة "مسرَّج" من قول رؤبة بن العجاج:

ومقلةً وحاجباً مزججاً وفاحماً ومرسناً مسرَّجاً

والقسم الثاني من غرابة الاستعمال: ما يعاب استعماله لاحتياجه إلى تتبع اللغات وكثرة البحث والتفتيش في المعاجم والقواميس، ومثاله: "تكأكأتم" وهي بمعنى اجتمعتم، من قول عيسى بن عمرو النحوي: (ما لكم تكأكأتم علي كتكأكئكم على ذي جنة افرنقوا عني).

وأما "**مخالفة القياس**": فهو كون الكلمة شاذة غير جارية على القانون الصرفي المستنبط من كلام العرب، مثل كلمة (الأجلل)، في قول أبي النجم:

الحمد لله العلي الأجلل الواحد الفرد القديم الأول

فإن القياس (الأجلِّ) بالإدغام ولا مسوغ لفكه.

وأما "**الكراهة في السمع**": فهو كون الكلمة وحشية، وتأنفها الطباع، وتمجُّها الأسماع، وتنبو عنه، كما ينبو عن سماع الأصوات المنكرة، مثل كلمة (الجرشيَّ) ومعناها النفس، في قول أبي الطبيب المتنبي يمدح سيف الدولة:

مُباركُ الاسمِ أغرُّ اللقبْ كريمُ الجِرِشيَّ شريفُ النسبْ[1]

البلاغة اصطلاحاً:

عرَّف الخطيب القزويني البلاغة بأنها: مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته[2].

والكلام حتى يكون بليغاً لا بد له من دعائم وهي[3]:

١. اختيار اللفظة.
٢. حسن التركيب وصحته.

(١) جواهر البلاغة: ٢٠-٢١
(٢) الإيضاح في علوم البلاغة: جلال الدين القزويني،٤١/١، محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل بيروت، الطبعة الثالثة.
(٣) البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني: فضل حسن عباس، ٥٨، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م، الأردن.

٣. اختيار الأسلوب الذي يصلح للمخاطبين، مع حسن ابتداء، وحسن انتهاء.

وبقدر ما يتهيأ من هذه الدعائم، يكون الكلام مؤثراً في النفوس، والتأثير هو الدعامة الرابعة من دعائم البلاغة.

فالبلاغة إذن لا بد فيها من ذوق وذكاء، بحيث يدرك المتكلم متى يتكلم، ومتى ينتهي، وما هي القوالب التي يصب فيها المعاني التي رتبها في نفسه، فرب كلام يكون جميلاً في نفسه ومعناه لكنه لم تراع فيه هذه الظروف ومقتضى الحال فلا يكون مؤثراً في النفوس.

فالبلاغة ليست منحصرة في إيجاد معانٍ جليلة، ولا في اختيار ألفاظ واضحة جزيلة، بل هي تتناول مع هذين الأمرين أمراً ثالثاً، وهو إيجاد أساليب مناسبة للتأليف بين تلك المعاني والألفاظ، مما يكسبها قوة وجمالاً[(١)].

بعد ما تقرر من تعريف الفصاحة والبلاغة لغة واصطلاحاً، يظهر أن من العلماء من فرق بينهما ومنهم من جعلهما بمعنى واحد، ويظهر لنا أن الكلام قد يكون فصيحاً أو لا يكون فصيحاً بناء على ما اشترط علماؤنا الأجلَّاء في فصاحة الكلمة والكلام، وقد يكون الكلام بليغاً أو لا بالنظر إلى الدعائم التي وضعوها وأصَّلوها.

هذا كله فيما يخص كلام البشر، لكن وجب العلم أن كل معاني الفصاحة والبلاغة حاصلة وثابتة لكلام مَن خلق الإنسان وعلَّمه البيان، كلام الله عز وجل المتمثل في القرآن الكريم، "فيجب القضاء بكونه فصيحاً، سواء قلنا إن الفصاحة راجعة إلى الألفاظ، والبلاغة راجعة إلى المعاني، أو سواء قلنا إنهما شيء واحد يقعان على فائدة واحدة، فكل كلام فصيح فهو بليغ، وكل بليغ من الكلام فهو فصيح، فعلى جميع وجوههما فهما حاصلان في القرآن على أوضح محصول وأكمله، فيجب القضاء بكونه فصيحاً"[(٢)].

والقرآن كله فصاحة وبلاغة، لا يعرفها إلَّا من حذق أساليب العرب ومَهَر فيها وتمكَّن منها، لذلك كان العرب بما جُبلوا عليه من فصاحة وبلاغة – حتى الكفار منهم– لا يتمالك نفسه عند سماع القرآن، فتراه يخِرُّ ساجداً، كما حكى أبو عبيدة أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ: ﴿ **فَٱصۡدَعۡ بِمَا**

(١) جواهر البلاغة: ٤٢

(٢) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: يحيى بن حمزة العلوي، ١٢٠/٣، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

﴿تُؤْمَرُ﴾ (الحجر: ٩٤) فسجد وقال: سجدت لفصاحة هذا الكلام، "وعندما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم سورة النجم بحضور كفار قريش وانتهى إلى قوله تعالى: ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ﴾ (النجم: ٦٢) قال ابن عباس رضي الله عنه كما جاء عند البخاري: "سجد النبي صلى الله عليه وسلم بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس"(١).

فالقرآن فصيح بليغ، فصيح في ألفاظه، بليغ في معانيه التي كانت تتنزل وفق مقتضى الحال، وكما يقول القزويني: "فمقتضى الحال مختلف، فإن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الذكر يباين مقام الحذف، ومقام القصر يباين مقام خلافه، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة، وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي"(٢).

"لذلك فإن الخطاب الموجه إلى المؤمنين يخالف في طريقته وأسلوبه وألفاظه ومعانيه الخطاب الموجه للكافرين، "ففي قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ الطارق: ١١ – ١٧، فالوعيد والتهديد في هذه الآيات كأنه الصواعق التي تنخلق لها قلوب الكافرين الملحدين.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾فصلت: ٢٦ – ٢٩، فهو خطاب للكافرين فيه من التهديد والوعيد والإهانة والتحقير، فمن يحارب الإسلام في الدنيا سيداس بالأقدام يوم القيامة.

فجاء الكلام مراعياً لحال المخاطبين مراعاة تامة، ولكن لو انتقلنا لنرى كيف تغير الكلام، فنقف قليلاً مع المؤمنين، ونتأمل في كيفية الخطاب الموجه إليهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا

(١) صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري، ١٤٢/٦، حديث رقم (٤٨٦٢)، تحقيق محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

(٢) الإيضاح: ٤٢/١-٤٣.

مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ فصلت: ٣٠ – ٣٥، فالخطاب كله رحمة ولين، لأن الحال تقتضي هذا الخطاب، والفرق واضح بين الخطابين، فهذا مقام وذاك مقام، وهذا مقال وذاك مقال"(١).

حديث البيضاوي عن الفصاحة والبلاغة القرآنية:

تحدث البيضاوي في تفسيره عن فصاحة القرآن وبلاغته حديثاً مباشراً وإن كان كل تفسيره يشير إلى بلاغة القرآن وفصاحته فقال تعليقاً على قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ هود: ٤٤، قال: والآية في غاية الفصاحة لفخامة لفظها وحسن نظمها والدلالة على كنه الحال، مع الإيجاز الخالي عن الإخلال(٢).

وقال مقرراً وجه التحدي والإعجاز الحاصل في القرآن الكريم عندما علَّق على قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ البقرة: ٢٣، لمَّا قرر وحدانيته تعالى وبيَّن الطريق الموصل إلى العلم بها، ذكر عَقيبه ما هو الحُجَّة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وهو القرآن المعجز بفصاحته التي بذَّت فصاحةَ كلِّ مُنطِق، وإفحامُه من طُولب بمعارضته من مصاقِع الخطباء من العرب العرباء مع كثرتهم وإفراطهم في المضادَّة والمُضارَّة، وتهالكهم على المعازَّة والمعارَّة، وعُرِف ما يَتعرف به إعجازه ويُتيقنُ أنه من عند الله كما يدعيه(٣).

وقال في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ يونس: ١٦، فإنه إشارة إلى أن القرآن معجز خارق للعادة فإن من عاش بين أظهرهم أربعين سنة لم يمارس فيها علماً، ولم يشاهد عالماً، ولم ينشئ قريضاً ولا خطبة، ثم قرأ عليهم كتاباً بزت فصاحتُه فصاحةَ كل مِنطِيق وعَلَا عن كل منثور ومنظوم

(١) من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان، ص١٥-١٦، الطبعة الرابعة، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.
(٢) تفسير البيضاوي: ١٣٢/٢.
(٣) تفسير البيضاوي:٦٦/١.

واحتوى على قواعد علمي الأصول والفروع وأعرب عن أقاصيص الأولين وأحاديث الآخرين على ما هي عليه، عُلِم أنه معلوم به من الله تعالى[١].

علم المعاني:

عرَّف السكاكي علم المعاني بأنه: "تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره"[٢].

أما الخطيب القزويني فقال عنه: "علم يعرف به أحوال اللفظ التي بها يطابق مقتضى الحال"[٣].

"وقد كانت البلاغة العربية بفروعها الثلاثة: المعاني والبيان والبديع أول الأمر كلها وحدة شاملة دون تمييز أو تحديد، فتجد في كتب المتقدمين خير شاهد على هذا إذ تجدها مختلطة ببعضها البعض دون فصل بينها.

وشيئاً فشيئاً أخذ المشتغلون بالبلاغة العربية ينحون بها منحى التخصص والاستقلال، كما أخذت مسائل كل فن بلاغي تتبلور وتتلاحق واحدة بعد الأخرى، وظل الأمر كذلك حتى جاء عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري (٤٧١هـ) ووضع نظرية علم المعاني في كتابه "دلائل الإعجاز" ونظرية علم البيان في كتابه "أسرار البلاغة"، كما وضع ابن المعتز من قبله أساس علم البديع.

إذن الإمام عبد القاهر الجرجاني هو واضع أصول علمي المعاني والبيان ومؤسسها في العربية، وقد جعل من مباحث كلا العلمين وحدة يمكن النظر فيها نظرة شاملة"[٤].

نعود إلى تعريف القزويني لعلم المعاني والذي هو من أدق التعاريف لهذا العلم حيث يقول: "**علم يعرف به أحوال اللفظ التي بها يطابق مقتضى الحال**".

---

(١) تفسير البيضاوي:٢/٩٤.

(٢) مفتاح العلوم: يوسف بن أبي بكر السكاكي، ص١٦١، ضبط نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة: ١/٥٢.

(٤) علم المعاني والبيان والبديع: عبد العزيز عتيق، ص٢٣، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

وأحوال اللفظ هي الأمور التي تعرض له من التقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والخبر والإنشاء، والحذف والذكر، والفصل والوصل، والإيجاز والإطناب والمساواة، وخروج الكلام عن مقتضى الظاهر إلى غير ذلك من الموضوعات[1].

وقد تعرض الإمام البيضاوي في تفسيره لكثير من هذه الموضوعات وبين الأغراض البلاغية التي يخرج إليها كل فن من هذه الفنون مع بيان سر البلاغة والجمال في الآيات القرآنية، وسأعرض هذه الموضوعات بقدر ما تهيأ لي من الوقوف عليه في هذا البحث.

(١) من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان: ١٩.

المبحث الأول: الخبر والإنشاء:

المطلب الأول: الخبر:

يُعرَّف الخبر بأنه كل كلام يحتمل الصدق أوالكذب لذاته، أي بقطع النظر عن الذي ينطق بالخبر سواء كان مقطوعاً بصدقه أو كذبه، وبقطع النظر عن البدهيات كالسماء فوقنا والأرض تحتنا، فهذه مما لا يشك أحد في صدقها، ولكننا نعتبرها خبراً إلى ذات الكلام نفسه(١).

فالخبر إذن ما احتمل الصدق أوالكذب لذاته، ولكن قد يسأل سائل: متى نعد الخبر صادقاً أو غير صادق؟ ورأي جمهور البلاغيين أن الخبر يكون صادقاً إذا طابق الواقع، ويكون كاذباً إذا لم يكن كذلك، فإذا قال قائل: جاء أخوك من السفر. وكان هذا الخبر يؤيده الواقع، بمعنى أن أخاك قد جاء بالفعل من سفره، فذلك هو الصدق، ويسمى الخبر صادقاً، أما إذا لم يكن كذلك، فلم يقدم أخوك من سفره، فهنا يكون الخبر كاذباً(٢).

المقاصد والأغراض التي من أجلها يُلقى الخبر:

الأصل في الخبر أن يلقى لأحد غرضين(٣):

١. إما إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة، إذا كان جاهلاً له، ويسمى هذا النوع: "**فائدة الخبر**" نحو: "الدين المعاملة".
٢. وإما إفادة المخاطب أن المتكلم عالم أيضاً بأنه يعلم الخبر، كما تقول لتلميذ أخفى عليك نجاحه في الامتحان: أنت نجحت في الامتحان. ويسمى هذا النوع: "**لازم الفائدة**".

وقد يخرج الخبر عن الغرضين السابقين إلى أغراض بلاغية أخرى تستفاد من القرائن، ومن سياق الكلام.

---

(١) من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان: ٢٠.
(٢) البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني: ٩٩-١٠٠.
(٣) جواهر البلاغة: ٥٦ بتصرف.

الأغراض البلاغية للخبر:

١. التهكم:

والتهكُّم: الاستهزاء، وعرَّفه ابن معصوم المدني في كتابه "أنوار الربيع" فقال: "هو في الاصطلاح أخص منه في اللغة، لأنه في اللغة بمعنى الاستهزاء مطلقاً، وفي الاصطلاح: هو الخطاب بلفظ الإجلال في موضع التحقير، والبشارة في موضع التحذير، والوعد في مكان الوعيد، والعذر في موضع اللوم، والمدح في موضع السخرية، ونحو ذلك"(١).

فيتضح من هذا التعريف أشكالاً كثيرة يأتي عليها أسلوب التهكم، والتي منها المدح في موضع السخرية، وهذا ما رآه البيضاوي عند تعرضه لقول الله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ هود: ٨٧، قال البيضاوي: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾: تهكموا به وقصدوا وصفه بضد ذلك(٢)، وقال الزمخشري: "نسبته إلى غاية السفه والغيّ ، فعكسوا ليتهكموا به ، كما يتهكم بالشحيح الذي لا يبَضُّ حجره(٣)، فيقال له : لو أبصرك حاتم لسجد لك"(٤).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ﴾ الإسراء: ٣٧، قال البيضاوي: "﴿وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ﴾: بتطاولك، وهو تهكم بالمختال وتعليل للنهي بأن الاختيال حماقة مجرَّدة لا تعود بجدوى"(٥).

والسر الكامن وراء وصف الله عز وجل المتكبر بأنه لن يخرق الأرض ولن يبلغ الجبال طولا، هو أن المتكبر دائماً يحاول الاعتزاز بنفسه والتفاخر على الناس وهذا يجعله يحاول دائماً أن يتطاول على الناس ويمد عنقه إلى أعلى وذلك يجعله يدفع بقدمه في الأرض محاولاً الوصول لأعلى نقطة يمكنه الوصول لها، فجاء القرآن مبيناً أن حالته هذه لن تفيده بشيء.

---

(١) أنوار الربيع في أنواع البديع: ابن معصوم المدني،٨٥/٢، تحقيق شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م

(٢) تفسير البيضاوي: ١٤٥/٢.

(٣) في الصحاح: بض الماء بضيضاً: سال قليلاً قليلاً، (الصحاح: ١٠٦٦/٣)، والمعنى: الرجل شديد البخل.

(٤) الكشاف: ٤٢٠/٢

(٥) تفسير البيضاوي: ٣٠٣/٢.

ومن أساليب التهكم التي تأتي بطريق الخبر: **وضع البشارة موضع الإنذار والتحذير**، كما في قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ الواقعة: ٥٦، قال البيضاوي: "وفيه تهكم كما في قوله ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ آل عمران: ٢١، لأن النزل ما يُعَدُّ للنازل تكرمة له"(١).

٢. التحسر:

قال ابن منظور في مادة (حسر): وحَسِرَ يَحْسَرُ حَسَراً وحَسْرَةً وحَسَراناً فهو حَسِيرٌ وحَسْرانُ إذا اشتدّت ندامته على أَمرٍ فاته. لذلك فإن التحسر معناه الندامة على أمر فات عن المتكلم، ونرى أخباراً كثيرة أتت في القرآن على هذا المعنى(٢).

من الأخبار التي تأتي لغرض التحسر قول الله تعالى: ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ الشعراء: ٩٤ – ٩٨ الشعراء: ٩٤ - ٩٨، قال البيضاوي: "والخطاب – أي ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ – للمبالغة في التحسر والندامة، والمعنى: أنهم مع تخاصمهم في مبدأ ضلالهم معترفون بانهماكهم في الضلالة متحسرون عليها"(٣).

ونلحظ أن صيغة الخبر في الآيتين السابقتين في قوله تعالى: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، قد جاءت بأقوى صيغ الإخبار، إذ اجتمع في هذا الخبر ثلاثة مؤكِّدات، وهي القسم، وإن المؤكدة المخففة من الثقيلة، واللام المؤكدة أيضاً في جواب القسم، وهذا يدل على شدة حسرتهم وندمهم على ما وقعوا فيه من عبادتهم غيرَ الله عز وجل.

ولا بد من وقفة ثانية عند قوله تعالى: (فكبكبوا) فتكرار الحروف في هذه الكلمة توحي بتكرار الإطاحة بهم في نار جهنم مرة بعد مرة وهذا يشير إلى مدى الإهانة التي سيكون عليها هؤلاء يوم القيامة، ومن هنا يتضح المعنى البلاغي الذي أضافه تكرار هذه الحروف.

ولو رجعنا إلى أسلوب التحسر بطريق الإخبار وفيه يتحسر المتكلم على نفسه كما مرَّ معنا، وقد يرد من المتكلم المدلي بالخبر تحسراً على غيره، كما يظهر من تفسير البيضاوي لقوله تعالى في قصة صالح عليه السلام مع قومه: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى

(١) تفسير البيضاوي: ٣/٣٦٥.
(٢) لسان العرب (حسر): ٢/٨٦٩.
(٣) تفسير البيضاوي: ٢/٥٤٥

﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ الأعراف: ٧٩، قال البيضاوي: "ظاهره أن توليه عنهم كان بعد أن أبصرهم جاثمين، ولعله خاطبهم به بعد هلاكهم كما خاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم قليب بدر، وقال: "إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً"، **أو ذكر ذلك على سبيل التحسر عليهم**"(١).

٣. التحسير:

وهذا الغرض يشبه إلى حد ما الغرض السابق وهو التحسر، حيث يتفقان في كون كلٍ منهما يدل على الندم، لكنهما يختلفان من حيث أن الخبر الذي يأتي للتحسر يكون واقعا على المتكلم، سواء كان ندما وحسرة على نفسه أو على غيره، أما الخبر الذي يأتي بغرض التحسير، فالغرض منه إيقاع الحسرة والندامة على المخاطب لا على المتكلم به، وهنا يتبين لنا الفرق بينهما.

ومما جاء في القرآن على هذا الغرض قوله تعالى في المسلمين المتخلفين عن اللحاق بجيش المسلمين الذين لاحقوا المشركين إلى حمراء الأسد عقب غزوة أحد: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ آل عمران: ١٧٣ – ١٧٤، قال البيضاوي رحمه الله: " ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ قد تفضل عليهم بالتثبيت وزيادة الإيمان والتوفيق للمبادرة إلى الجهاد والتصلب في الدين وإظهار الجراءة على العدو وبالحفظ عن كل ما يسوءهم وإصابة النفع مع ضمان الأجر حتى انقلبوا بنعمة من الله وفضل، **وفيه تحسير للمتخلف وتخطئة رأيه حيث حرم نفسه ما فازوا به**"(٢).

ونظير هذا المعنى ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الأعراف: ٤٤، قال البيضاوي: "إنما قالوه تبجحاً بحالهم وشماتة بأصحاب النار، **وتحسيراً** لهم"(٣).

والمعنى أن أصحاب الجنة خاطبوا أصحاب النار وأخبروهم بأنهم متنعمون فيما آتاهم الله من فضله على عكس ما هم فيه من العذاب الشديد، وكأنهم أرادوا بهذا الخطاب أن يوقعوا الحسرة والندامة في قلوبهم وذلك بذكر ما فاتهم من النعيم، وتذكيرهم بما هم فيه من الجحيم، لأن معنى

(١) تفسير البيضاوي: ١/٥٥٥.
(٢) تفسير البيضاوي: ١/٣١٤.
(٣) تفسير البيضاوي: ١/٥٤٤.

الاستفهام في ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ تقريرهم أن وعد الله لهم في الدنيا قد وقع عليهم في الآخرة.

٤. الوعد:

قال الجوهري الوَعْدُ يستعمل في الخير والشرّ، قال ابن سيده: في الخير الوَعْدُ والعِدةُ، وفي الشر الإيعادُ والوَعِيدُ(١).

والأخبار التي جاءت على سبيل الوعد من الله تعالى لعباده المتقين كثيرة لا تكاد تدخل تحت حصر، ومن ذلك قوله تعالى:﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ الفتح: ١ ، قال البيضاوي في تفسيرها: "وعدٌ بفتح مكة"(٢).

وذلك لأنه لم يكن قد فتح الله لنبيه على الحقيقة وقت نزول هذه الآية، فيكون هذا الخبر على سبيل وعد الله لنبيه بأن ذلك كائن لا محالة، وقد أورد هذا الخبر مؤكداً بـ(إنَّ)، وأضاف إليها ضمير الجمع (نا) الدال على الله عز وجل وهو ضمير يدل على العظمة والقدرة، وكأن المراد أن الله عز وجل منجز لك يا محمد هذا الوعد لا محالة.

ومن ذلك وعد الله عز وجل لنبيه بالحفظ من أذى المشركين كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ المائدة: ٦٧، قال البيضاوي: **عِدةٌ** وضمانٌ من الله سبحانه وتعالى بعصمة روحه صلى الله عليه وسلم من تعرض الأعادي"(٣).

ومن ذلك وعد موسى عليه السلام لقومه بأن الله ناصرهم على فرعون وقومه وذلك عندما توعدهم فرعون بالقتل في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ الأعراف: ١٢٧، عندها وعد موسى قومه بقوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الأعراف: ١٢٨، قال البيضاوي: "﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ **وعد** لهم بالنصرة وتذكير لما وعدهم من إهلاك القبط وتوريثهم ديارهم"(٤).

---

(١) لسان العرب (وعد): ٤٨٧٢/٦.
(٢) تفسير البيضاوي: ٢٩٣/٣.
(٣) تفسير البيضاوي: ٤٥١/١
(٤) تفسير البيضاوي: ٥٦٦/١.

٥. الوعيد والتهديد:

والوعيد يقابل الوعد، كما عرفناه سابقاً، ويكون الوعيد في الشر، وقد وردت هذه اللفظة في القرآن الكريم في مواضع عدة منها: ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ إبراهيم: ١٤، وقوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ق: ٤٥.

ومن أمثلة الأخبار التي جاءت لغرض الوعيد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾يونس: ٤٤، قال البيضاوي رحمه الله: "﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بإفسادها وتفويت منافعها عليهم، وفيه دليل على أن للعبد كسباً، وأنه ليس بمسلوب الاختيار بالكلية كما زعمت المجبرة، ويجوز أن يكون **وعيداً** لهم بمعنى أن ما يحيق بهم يوم القيامة من العذاب عدل من الله لا يظلمهم به، ولكنهم ظلموا أنفسهم باقتراف أسبابه"(١).

ومما جاء في القرآن على الوعيد قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ الأعراف: ٥٩، قال البيضاوي: "﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ إن لم تؤمنوا، وهو **وعيد** وبيان للداعي إلى عبادته"(٢).

والمعنى: أني أحذركم وأتوعدكم بعذاب الله إن أنتم كذبتم الرسالة التي أرسلت بها ولم تعبدوا الله عز وجل.

وقد يرد الخبر في القرآن الكريم محتملاً الوعد والوعيد معاً كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ المائدة: ٤٨، قال البيضاوي: ﴿ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ فابتدروها انتهازاً للفرصة وحيازة لفضل السبق والتقدم. ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾، استئناف فيه تعليل الأمر بالاستباق ووعد ووعيد للمبادرين والمقصرين"(٣).

---

(١) تفسير البيضاوي: ١٠٣/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ٥٥٠/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٤٠/١

وعلى هذا الضرْب قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ البقرة: ١٣٧، قال البيضاوي: "﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ تسلية وتسكين للمؤمنين، ووعد لهم بالحفظ والنصرة على من ناوأهم. ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ إما من تمام الوعد، بمعنى أنه يسمع أقوالكم ويعلم إخلاصكم وهو مجازيكم لا محالة، أو وعيد للمعرضين، بمعنى أنه يسمع ما يبدون ويعلم ما يخفون وهو معاقبهم عليه"(١).

وقريبا من معنى الوعيد التهديد، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ الشعراء: ٢٢٧، قال البيضاوي: تهديد شديد لما في "**سيعلم**" من الوعيد البليغ وفي "**الذين ظلموا**" من الإطلاق والتعميم، وفي "**أي منقلب ينقلبون**" أي بعد الموت من الإيهام والتهويل"(٢). وقال الزمخشري في هذه الآية: "ختم السورة بآية ناطقة بما لا شيء أهيب منه وأهول، ولا أنكى لقلوب المتأمّلين ولا أصدع لأكباد المتدبرين"(٣).

ومن أمثلة الأخبار التي جاءت لغرض التهديد ما جاء في معرض أمر الله للناس أن يحسنوا إلى والديْهم فقال: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ الإسراء: ٢٤ – ٢٥، قال القاضي رحمه الله: "﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ﴾من قصد البر إليهما واعتقاد ما يجب لهما من التوقير، وكأنه تهديد على أن يُضمر لهما كراهةً أو استثقالاً"(٤).

٦. الأمر:

قد يأتي الخبر ويكون الغرض منه الأمر، ويكون مجيئه بهذه الطريقة أبلغ منه بطريق الأمر المباشر، وذلك كقول الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ الصف: ١٠ – ١١، قال البيضاوي: ﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾استئنافٌ مبيّنٌ للتجارة وهو الجمع

(١) تفسير البيضاوي: ١٤٣/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٥٥٨/٢.
(٣) الكشاف: ٣٤٥/٣
(٤) تفسير البيضاوي: ٢٩٨/٢.

بين الإيمان والجهاد المؤدي إلى كمال عزهم، والمراد به الأمر، **وإنما جيء بلفظ الخبر** إيذاناً بأن ذلك مما لا يترك"(١).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ البقرة: ٢٢٨، قال البيضاوي رحمه الله: "﴿يَتَرَبَّصْنَ ﴾ خبر بمعنى الأمر، وتغيير العبارة للتأكيد والإشعار بأنه مما يجب أن يُسارَع إلى امتثاله، وكأن المخاطِب قصد أن يُمتثل الأمر فيخبر عنه كقولك في الدعاء (رحمك الله)، وبناؤه على المبتدأ يزيده فضل تأكيد"(٢).

ومن هنا يتضح أن الأمر إذا جاء بصيغة الخبر كان أبلغ مما لو جاء بصيغة من صيغ الأمر المعروفة، إذ يوحي ذلك بأن المأمور حري به أن يجيب الآمر إلى أمره بسرعة لا تقبل التأخير حتى يغدو وكأنه انتقل من كونه أمراً إلى الخبر الذي حصل ووقع وانتهى في وقت سابق، إذ من المعلوم أن الأمر إنما يكون على وجه يطلب فيه الآمر من المأمور فعل شيء لم يكن قد حصل وقت الطلب، بخلاف الخبر فهو حاصل وقت التكلم إن كان مثبتاً عند الإخبار به.

ومنه أيضاً قوله جلَّ اسمه: ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ الروم: ١٨، قال البيضاوي: "إخبار في معنى الأمر بتنزيه الله تعالى والثناء عليه في هذه الأوقات التي تظهر فيها قدرته وتتجدد فيها نعمته"(٣).

٧. النهي:

يأتي الخبر أيضاً في القرآن الكريم لغرض النهي، وهو أبلغ من صريح النهي كما يقول البيضاوي رحمه الله، ونرى ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ البقرة: ٨٣، إذ يقول البيضاوي فيها: "إخبار في معنى النهي كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ البقرة: ٢٨٢، وهو أبلغ من صريح النهي لما فيه من إيهام أن المنهي سارع إلى الانتهاء فهو يخبر عنه"(٤).

---

(١) تفسير البيضاوي: ٤٠٢/٣.
(٢) تفسير البيضاوي: ١٩٤/١.
(٣) تفسير البيضاوي: ٤٨/٣.
(٤) تفسير البيضاوي: ١١٥/١.

ومن أمثلته أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ التوبة: ٨٣ قال البيضاوي: (فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا) إخبار في معنى النهي للمبالغة"[١].

ومن أشباهه في القرآن ما جاء في قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ البقرة: ١٩٧، قال القاضي البيضاوي رحمه الله: "نفى الثلاثة على قصد النهي للمبالغة والدلالة على أنها حقيقة بأن لا تكون"[٢].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ﴾ النساء: ٩٢، قال البيضاوي: "قيل: (ما كان) نفي في معنى النهي"[٣].

والمعنى أنه لا يُتصور أن رجلاً مؤمناً يقتل أخاه إلا أن يكون خطأ ويُفهم من هذه الآية النهي عن مقاتلة المؤمن وهو أبلغ لما فيه من تنكير كلمة (مؤمن)، وكأنه نفى صفة الإيمان عنه بالكلية إذ من المعلوم أن الإيمان مراتب والإيمان يزيد وينقص كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ الأنفال: ٢.

٨. التحريض:

جاء في تاج العروس: "حَرَّضَهُ تَحْرِيضاً: حَثَّه على القِتَالِ وأَحْمَاهُ عَلَيْه، كما في الصّحاح وقال ابنُ سيدَه: التَّحْرِيضُ: التَّحْضِيضُ. قال اللهُ تَعَالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾ الأنفال: ٦٥. وقال الزَّجَّاجُ: تَأْوِيلُه: حُثَّهُمْ على القِتَالِ قال: وتَأْوِيلُ التَّحْرِيضِ في اللُّغَةِ أَن تَحُثَّ الإِنْسَانَ حَثّاً يَعْلَمُ منه أَنَّه حارِضٌ إِن تَخَلَّفَ عَنْه"[٤].

يتبين من التعريف اللغوي للتحريض أنه بمعنى **الحث والتحضيض والترغيب**، ونرى أن البيضاوي في تفسيره قد أخرج أخباراً على أنها بغرض التحريض وأخرى بغرض التحضيض وثالثة

(١) تفسير البيضاوي: ٧٠/٢.
(٢) تفسير البيضاوي: ١٧٧/١.
(٣) تفسير البيضاوي: ٣٧٩/١.
(٤) تاج العروس (حرض): الزبيدي، مجموعة محققين، ٢٩٠/١٨، دار الهداية.

بغرض الحث ورابعة بغرض الترغيب، وجميعها بنفس المعنى تقريباً، لذلك وضعنا هذه المعاني تحت غرض واحد.

ويأتي الخبر بغرض **التحريض**، كما قد جاء في سورة آل عمران في الآيات التي أنزلها الله عقب غزوة أحد بعدما شاع أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قتل، قال الله عز وجل: ﴿ **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ** ﴾ آل عمران: ١٤٥، قال البيضاوي: "وفيه تحريض وتشجيع على القتال، ووعد للرسول صلى الله عليه وسلم بالحفظ وتأخير الأجل"(١).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ** ﴾ آل عمران: ١٤، قال البيضاوي: ﴿ **وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ** ﴾ أي المرجع، وهو تحريض على استبدال ما عنده من اللذات الحقيقية الأبدية بالشهوات المخدجة الفانية"(٢).

ومما جاء في تفسير البيضاوي من الأخبار بغرض **التحضيض** قوله تعالى: ﴿ **لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ** ﴾ المائدة: ٦٣، قال البيضاوي: "تحضيض لعلمائهم على النهي عن ذلك فإن لولا إذا دخل على الماضي أفاد التوبيخ وإذا دخل على المستقبل أفاد التحضيض"(٣).

ويأتي الخبر بغرض الحث كما في قوله تعالى: ﴿ **إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا** ﴾ النساء: ١٤٩، قال البيضاوي: ﴿ **فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا** ﴾ : أي يكثر العفو عن العصاة مع كمال قدرته على الانتقام، فأنتم أولى بذلك، وهو حث للمظلوم على العفو، بعدما رخَّص له في الانتظار حملاً على مكارم الأخلاق"(٤).

وقد أشار البيضاوي إلى خبر غرضه **الترغيب**، في قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا** ﴾

---

(١) تفسير البيضاوي: ٣٠١/١.
(٢) تفسير البيضاوي: ٢٤٨/١.
(٣) تفسير البيضاوي:٤٤٩/١.
(٤) تفسير البيضاوي: ٤٠٥/١.

النساء: ٦٩، قال البيضاوي: "﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم ﴾ مزيد ترغيب في الطاعة بالوعد عليها مرافقة أكرم الخلائق وأعظمهم قدراً"(١).

٩. التسلية:

جاء في لسان العرب: "سَلاَّني من همِّي تَسلِيةً وأَسْلاني: أَي كشَفَه عني، وانْسَلَى عن الهَمُّ وتَسَلَّى يمعنًى أَي انكشَف، وقال أَبو زيد: معنى سَلَوْت إذا نَسِيَ ذِكْره وذَهِلَ عنه"(٢)

يفهم مما جاء في لسان العرب أن معنى التسلية هي إزالة الهم وكشفه عن الإنسان، وقد جاءت أخبار كثيرة في القرآن الكريم على هذا المعنى، فمنه قوله جلَّ ذكره: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ الأعراف: ١٢٨، قال القاضي رحمه الله: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْ ﴾ لما سمعوا قول فرعون وتضجروا منه تسكيناً لهم ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ تسلية لهم وتقرير للأمر بالاستعانة بالله والتثبت في الأمر"(٣).

فعندما يعلم المؤمن أن الأرض كلها بمن عليها هي لله يتصرف بها كيف يشاء يعز من يشاء ويذل من يشاء وأن من يعادونه هم خلق من خلق الله قادر على إهلاكهم وقتما شاء تسكن نفسه وتطمئن ويهون عليه كل ما يلقى في سبيل دينه.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ فاطر: ٤، قال البيضاوي: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ ﴾ أي فتأس بهم في الصبر على تكذيبهم...وتنكير رسل للتعظيم المقتضي زيادة التسلية والحث على المصابرة"(٤).

(١) تفسير البيضاوي: ٣٦٩/١.
(٢) لسان العرب (سلا): ٢٠٨٥/٣.
(٣) تفسير البيضاوي: ٥٦٦/١.
(٤) تفسير البيضاوي: ١١٥/٣.

١٠. التعجب:

العُجْبُ والعَجَبُ: إنكارُ ما يَرِدُ عليك لقِلَّةِ اعْتِيادِه... قال الزجاج: أَصلُ العَجَبِ في اللغة أَن الإنسان إذا رأَى ما ينكره ويَقِلُّ مِثْلُه قال: قد عَجِبْتُ من كذا... قال ابن الأَعرابي: العَجَبُ النَّظَرُ إلى شيءٍ غير مأْلوف ولا مُعتادٍ(١).

وقد وردت مادة (عجب) في القرآن الكريم، فقال الله تعالى: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ الأعراف: ٦٣، فقال ابن عاشور في تفسير هذه الآية: "وحقيقة العَجَب أنّه انفعال نفساني يحصل عند إدراك شيء غير مألوف، وقد يكون العجب مشوباً بإنكار الشّيء المتعجب منه واستبعاده وإحالته"(٢).

إذن يتبين مما سبق أن التعجب إنكار لشيء غير معتاد وغير مألوف. وهناك صيغتان تستخدمان للتعجب، الأولى: **(ما أفعله)**، والثانية: **(أفعل به)**، لكن قد يأتي الخبر بغرض التعجب، وهو كثير في القرآن الكريم.

فمنه قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ النور: ١٦، قال البيضاوي: "﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾: تعجبٌ من ذلك الإفك، أو ممن يقول ذلك، وأصله أن يُذكر عند كل متعجَّبٍ، أو تنزيها لله تعالى من أن يصعب عليه مثله، ثم كثُر فاستعمل لك مُتعجَّب"(٣).

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ التوبة: ٣٠، قال البيضاوي: ﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ دعاء عليهم بالإهلاك، فإن من قاتله الله هلك، أو **تعجبٌ** من شناعة قولهم"(٤).

---

(١) لسان العرب (عجب): ٢٨١١/٤ بتصرف.

(٢) التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، ١٩٥/٨، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤هـ.

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٨٩/٢

(٤) تفسير البيضاوي: ٤٩/٢.

ونظير هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾ المائدة: ٥٣، قال البيضاوي: وفيه معنى التعجب، كأنه قيل: ما أحبط أعمالهم فما أخسرهم"(١).

١١. الاستهزاء:

الهُزْءُ والهُزُؤُ: السُّخْرِيةُ، هُزِئَ به ومنه. واسْتَهْزَأَ به سَخِرَ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ البقرة: ١٤ – ١٥(٢).

ومن الأخبار التي جاءت في القرآن الكريم على جهة الاستهزاء قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ١١ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ﴾ النازعات: ١٠ – ١٢، قال البيضاوي:﴿ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ﴾ ذات خسران أو خاسر أصحابها، والمعنى أنها إن صحت فنحن إذا خاسرون لتكذيبنا بها **وهو استهزاء منهم**"(٣).

ونظيره أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ سبأ: ٣، قال البيضاوي: (وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ) إنكار لمجيئها أو استبطاءٌ استهزاءً بالوعد به"(٤).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥ ﴾ النحل: ٣٥ ، قال البيضاوي: "إنما قالوا ذلك استهزاء"(٥).

---

(١) تفسير البيضاوي: ٤٤٣/١.
(٢) لسان العرب (هزأ): ٤٦٥٩/٦.
(٣) تفسير البيضاوي: ٤٩٤/٣
(٤) تفسير البيضاوي: ١٠٠/٣.
(٥) تفسير البيضاوي: ٢٦٠/٢.

١٢. الفخر:

جاء في الصحاح: التَفَخُّرُ: التعظُّم والتكبُّر، وقال ابن السكِّيت: فاخَرتُ الرجل فَفَخَرْتُهُ أَفْخُرُهُ فَخْراً، إذ كنت أكرم منه أباً وأمًّا[١]، وجاء في لسان العرب: الفَخْرُ ادّعاء العظم والكبر والشرف[٢].

ويأتي الخبر في معنى الفخر، وذلك كقول عمرو بن كلثوم في معلقته الشهيرة:

إذا بلغ الفطام لنا صبي تخر له الجبابر ساجدينا

ومما جاء في التنزيل الحكيم على هذا الغرض قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ سبأ: ٣٤، قال البيضاوي في هذه الآية: تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما مُني به من قومه وتخصيص المتنعمين بالتكذيب، لأن الداعي المعظم إليه التكبر والمفاخرة بزخارف الدنيا والانهماك في الشهوات والاستهانة بمن لم يحظ منها، **ولذلك ضموا التهكم والمفاخرة إلى التكذيب فقالوا: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾**"[٣].

١٣. التعليل:

والتعليل أن يأتي الخبر لإظهار العلة والسبب، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ النساء: ١٠٤، قال البيضاوي في معنى الآية: " إلزام لهم وتقريع على التواني فيه بأن ضرر القتال دائر بين الفريقين غير مختص بهم وهم يرجون من الله بسببه من إظهار الدين واستحقاق الثروات ما لا يرجو عدوهم فينبغي أن يكونوا أرغب منهم في الحرب وأصبر عليها. وقرئ أن تكونوا بالفتح، بمعنى: ولا تهنوا لأن تكونوا تألمون، ويكون قوله: ﴿فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَ ﴾ **علة للنهي عن الوهن لأجله**"[٤].

وكأن الخبر في ﴿فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَ ﴾ جواب لسؤال سائل: لماذا تنهانا يا رب عن الوهن والضعف ونحن نقاتل أعداءنا؟

(١) الصحاح (فخر): ٣٤٣/٣.
(٢) لسان العرب (فخر): ٤٩/٥
(٣) تفسير البيضاوي: ١٠٩/٣.
(٤) تفسير البيضاوي: ٣٨٨/١.

ونظيره أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ المائدة: ١٣، قال البيضاوي رحمه الله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ تعليل للأمر بالصفح وحث عليه وتنبيه على أن العفو عن الكافر الخائن إحسانٌ فضلا عن العفو عن غيره"(١).

ومن الأخبار التي جاءت في القرآن على جهة التعليل أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ التوبة: ٥، أمر الله المسلمين أن يخلوا سبيل المشركين وذلك إذا تابوا وأقاموا الصلاة ثم استأنف أمره لهم (فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ) بجملة أخرى وهي (إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) وفي هذا يقول البيضاوي رحمه الله: "**تعليل للأمر أي فخلوهم لأن الله غفور رحيم غفر لهم ما قد سلف وعدلهم الثواب بالتوبة**"(٢).

فالأخبار إذا جاءت بعد أمر أو نهي تكون للتعليل.

١٤. المدح:

المدح من مدح يمدح: أحسن الثناء عليه(٣)، وهو نقيض الهجاء، والمدح حسن الثناء(٤).

ومما جاء من الأخبار على غرض المدح قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ آل عمران: ٧، قال البيضاوي: (وَما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ) مدحٌ للراسخين بجودة الذهن وحسن النظر وإشارة إلى ما استعدوا به للاهتداء إلى تأويله، وهو تجرد العقل عن غواشي الحس(٥).

---

(١) تفسير البيضاوي: ٤٢٦/١.

(٢) تفسير البيضاوي: ٣٨/٢.

(٣) المعجم المفصل في علوم البلاغة: إنعام عكاوي، ص٦٤٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

(٤) لسان العرب (مدح): ٤١٥٦/٦.

(٥) تفسير البيضاوي: ٢٤٤/١.

١٥. التوبيخ:

جاء في لسان العرب: "**وبَّخَه لامَه وعذله**"، وعلى ذلك يكون معنى التوبيخ مخاطبة الغير على جهة اللوم والتخطئة على فعل أو قول قام به(١).

فمن الأخبار التي جاءت على هذا النحو قوله تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ آل عمران: ١١٩، قال البيضاوي في تفسيره لهذه الآية: "أي أنتم أولاء الخاطئون في موالاة الكفار و(تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ) بيان لخطئهم في موالاتهم...وتؤمنون (وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ) بجنس الكتاب كله وهو حال من لا يحبونكم والمعنى إنهم لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابهم أيضا، فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بكتابكم، **وفيه توبيخ بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم**"(٢).

ومن أمثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴾ آل عمران: ١٤٢ – ١٤٣، قال البيضاوي: والخطاب للذين لم يشهدوا بدرا وتمنوا أن يشهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهدا لينالوا ما نال شهداء بدر من الكرامة فألحوا يوم أحد على الخروج... (**فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ**) أي فقد رأيتموه معاينين له حين قتل دونكم من قتل من إخوانكم، **وهو توبيخ** لهم على أنهم تمنوا الحرب وتسببوا لها ثم جبنوا وانهزموا عنها أو على تمني الشهادة فإن في تمنيها تمني غلبة الكفار(٣).

١٦. التبجح:

والتبجح هو إظهار الفرح والغبطة، فقد جاء في لسان العرب: **وبَجَحَ يَبْجَحُ وابْتَجَحَ: فَرِحَ، وبَجَّحَه: أَفرحه**(٤).

---

(١) لسان العرب (وبخ): ٤٧٥١/٦.
(٢) تفسير البيضاوي: ٢٩٠/١.
(٣) تفسير البيضاوي: ٣٠١/١.
(٤) لسان العرب (بجح): ٢١٠/١.

ويأتي الخبر أحياناً بغرض إظهار الفرح والغبطة كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴾ الحاقة: ١٩، قال البيضاوي: فيقول **تبجحا** هاؤم اقرؤوا كتابيه"[١].

فيكون حال المؤمن في ذلك اليوم حال من فاز فوزاً عظيماً فيكون في غاية الفرح والسرور ويود أن يُظهر هذا الفرح، ويُعلم به كل مخلوق فلذلك ينادي ويقول **(هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ)**

ومن الأخبار التي جاء لغرض التبجح أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ الشعراء: ٦٩ – ٧١، قال البيضاوي: **قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ** فأطالوا جوابهم بشرح حالهم معه **تبجحا** به وافتخارا". والمعنى أنهم سئلوا عما يعبدونه وكان حق الجواب أن يكون على قدر السؤال فيكون **(نعبد أصناماً)**، لكنهم أطالوا الجواب فقالوا أيضاً: **(فنظل لها عاكفين)**، وكأنهم فرحون مفتخرون بهذه العبادة[٢].

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الأعراف: ٤٤، قال البيضاوي رحمه الله: "إنما قالوه تبجحا بحالهم وشماتة بأصحاب النار وتحسيرا لهم"[٣]. فالمؤمنون أرادوا أن يظهروا مقدار ما هم فيه من السعادة والفرح فلذلك قالوا: ﴿ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا ﴾، وأرادوا الشماتة وتحسير أصحاب النار فقالوا: ﴿ فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ﴾.

١٧. التهيئة وتوطين النفس:

يأتي الخبر أيضاً لغرض بلاغي وهو تهيئة المُخبَر بطريق الخبر عما سيحصل ليستعد للأمر ويوطن نفسه على الصبر والبلاء، وجاء في لسان العرب معنى التوطين في مادة (وطن)، قال ابن منظور[٤]: **وتَوْطِينُ النفس على الشيء كالتمهيد. قال ابن سيده: وَطَّنَ نفسَهُ على الشيء وله فتَوَطَّنَتْ: حملها عليه فتحَمَّلَتْ وذَلَّتْ له، وقيل: وَطَّنَ نفسه على الشيء وله فتَوَطَّنَت حملها عليه، قال كُثَيِّرٌ:**

فقُلْتُ لها يا عَزَّ كلُّ مُصيبةٍ ... إذا وُطِّنتْ يوماً لها النَّفْسُ ذَلَّتِ

(١) تفسير البيضاوي: ٤٤١/٣.
(٢) تفسير البيضاوي: ٥٤٣/٢.
(٣) تفسير البيضاوي: ٥٤٤/١.
(٤) لسان العرب (وطن): ٤٨٦٨/٦.

وقد جاءت أخبار في القرآن لغرض التهيئة والتمهيد وتوطين النفس، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ البقرة: ١٥٥، قال البيضاوي: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم ﴾ ولنصيبنكم إصابة من يختبر لأحوالكم، هل تصبرون على البلاء وتستسلمون للقضاء، ﴿ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ ﴾ بقليل من ذلك...وإنما أخبرهم به قبل وقوعه ليوطِّنوا عليه نفوسهم(١).

وفائدة مثل هذه الأخبار التي تأتي للتهيئة وتوطين النفس أن يجعل المُخبِرُ المُخبَرَ على علم بما سيحصل حتى يأخذ الأهبة ويستعد لذلك كما هو الحال في الآية السابقة فإن الله أخبرهم بأن الابتلاء لاحق بهم، حتى يصبروا ويجهزوا أنفسهم لهذا الأمر، فإن المصائب أو الابتلاءات يتلقاها الإنسان المؤمن بالصبر والاحتساب إذا تهيأ لها وعلم أنها من الله ليمتحن إيمانه ويرى صدقه وإخلاصه، بعكس الذي لم يوطِّنْ نفسه على الصبر والاحتساب فتجده متسخطاً غاضباً معترضاً على تقادير الله وابتلائه، مع أن المصيبة واقعة واقعة رضي بها أم لم يرضَ، وكما جاء في الحديث: "**عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له**".

وقد علَّق ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير على الآية السابقة تعليقاً بليغاً جميلاً يحسُن إيراده فيقول: "وجيءَ بكلمة (**بِشَيْءٍ**) تهويناً للخبر المفجع ، وإشارة إلى الفرق بين هذا الابتلاء وبين الجوع والخوف اللذين سلطهما الله على بعض الأمم عقوبة، كما في قوله : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ النحل: ١١٢ ، ولذلك جاء هنا بكلمة (شيءٍ) وجاء هنالك بما يدل على الملابسة والتمكن، وهو أن استعار لها اللباس الملازم للاَّبس، لأن كلمة (شيء) من أسماء الأجناس العالية العامَّة، فإذا أضيفت إلى اسم جنس أو بُيِّنت به، عُلم أن المتكلم ما زاد كلمة (شيء) قبل اسم ذلك الجنس إلاّ لقصد التقليل؛ لأن الاقتصار على اسم الجنس الذي ذكره المتكلم بعدها لو شاء المتكلم لأغنى غَناءَها، فما ذكر كلمة شيء إلاّ والقصد أن يدل على أن تنكير اسم الجنس ليس للتعظيم ولا للتنويع، فبقي له الدلالة على التحقير"(٢).

---

(١) تفسير البيضاوي: ١٥١/١.

(٢) التحرير والتنوير: ٥٤/٢.

١٨. الاستدراك:

الاستدراك: رفع ما يُتوهَّم ثبوتُه، نحو: الكتاب ممزقٌ لكنَّه مفيدٌ، أو أن تَنسبَ لما بعدها حكماً يخالف الحكمَ الثابتَ لما قبلها، نحو: الماءُ عكرٌ لكنَّه طاهرٌ[١].

ويأتي الخبر حاملاً معنى الاستدراك كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ الأنعام: ٥٧ – ٥٨، قال البيضاوي: (قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي) أي في قدرتي ومكنتي. (مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ) من العذاب. (لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) لأهلكتكم عاجلاً غضباً لربي، وانقطع ما بيني وبينكم (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ) في معنى الاستدراك، كأنه قال: ولكن الأمر إلى الله سبحانه وتعالى وهو أعلم بمن ينبغي أن يؤخذ وبمن ينبغي أن يُمهل منهم[٢].

أضرب الخبر:

للخبر ثلاثة أضرب، وهي: (الابتدائي، والطلبي، والإنكاري)، ويجب على المخبر أن يعرف حال المخاطب عندما يلقي إليه الخبر لأن لكل حال ما يناسبه من أضرب الخبر.

فالخبر الابتدائي: وهو الخبر الذي يكون فيه المخاطب خالي الذهن من الخبر، غير متردد فيه ولا منكر له، وفي هذه الحال لا يؤكد له الكلام، لعدم الحاجة إلى التوكيد، نحو قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الكهف: ٤٦.

والخبر الطلبي: هو الذي يكون المخاطب متردداً في الخبر، طالباً الوصول لمعرفته، والوقوف على حقيقته، فيُستحسن تأكيد الكلام المُلقى إليه تقوية للحكم، ليتمكن من نفسه ويطرح الخلاف وراء ظهره، نحو: (إن الأمير منتصرٌ).

(١) المعجم الوافي في أدوات النحو العربي: علي توفيق الحمد ويوسف الزعبي، ص٢٨٣، دار الأمل، الأردن، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م

(٢) تفسير البيضاوي: ١/٤٩٥.

والخبر الإنكاري: هو أن يكون المخاطب منكراً للخبر الذي يُراد إلقاؤه إليه، معتقداً خلافه، فينبغي تأكيد الكلام له بمؤكد، أو مؤكدين أو أكثر، على حسب حاله من الإنكار قوة وضعفاً، نحو: إن أخاك قادمٌ، أو إنه لقادمٌ، أو والله إنه لقادم(١).

شواهد على أضرب الخبر في تفسير البيضاوي:

وقد أشار الإمام البيضاوي رحمه الله إلى أضرب الخبر هذه عند تعرضه لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ البقرة: ٦.

قال البيضاوي: "و(إنَّ) من الحروف التي تشابه الفعل في عدد الحروف، والبناء على الفتح، ولزوم الأسماء، وإعطاء معانيه والمتعدي خاصة في دخولها على اسمين... وفائدتها تأكيد النسبة وتحقيقها، **ولذلك يُتلقى بها القسم، ويُصدَّر بها الأجوبة، وتُذكَر في مَعرِض الشَّكِّ** مثل قوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا ٨٣ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الكهف: ٨٣ – ٨٤، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الأعراف: ١٠٤، قال المبرد: قولك: (عبدالله قائم) إخبار عن قيامه، (وإن عبدالله قائم) جواب سائل عن قيامه، (وإن عبدالله لقائم) جواب منكر لقيامه"(٢).

فكلام البيضاوي قد نص على عدة أمور في باب الخبر يحسن الوقوف عليها وهي:

أولاً: أن (إنَّ) حرف يفيد التوكيد والتحقيق.

ثانياً: أشار البيضاوي إلى استعمال (إنَّ)، ويكون في الخبر الطلبي وذلك عندما يكون المخاطب متردداً وهو ما عبر عنك بقوله: (وتذكر في معرض الشك).

ثالثاً: الآية التي استشهد بها البيضاوي على أن (إنَّ) تأتي في معرض الشك، قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الأعراف: ١٠٤، وقد يسأل سائل أيضاً: كيف يصح أن يكون هذا الخبر مساقاً في معرض الشك، وفرعون كان منكراً تمام الإنكار لما جاء به موسى عليه السلام، بل كان يدّعي أنه هو الإله لا غير، كما حكى الله عز وجل لنا، فقال: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ القصص: ٣٨.

---

(١) انظر: جواهر البلاغة: ٥٧–٥٨

(٢) تفسير البيضاوي: ٣٩/١.

وقد يكون الجواب أيضاً: أن قول موسى عليه السلام لم يكن موجهاً لفرعون فقط، بل كان موجهاً لفرعون وملأه، وكذلك بني إسرائيل الذين استعبدهم فرعون، والدليل على ذلك أن هذه الآية ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قد سبقت بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٠٣﴾ الأعراف: ١٠٣، وأُتبعت بقوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ الأعراف: ١٠٥، فالخطاب وإن كان موجهاً لفرعون فالرسالة لمن تحته من الناس سواء من ملأه أو من بني إسرائيل المُستعبَدين بدليل قوله: (قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ).

ومن المعلوم أن بني إسرائيل كانوا مترددين في اللحاق بموسى عليه السلام خوفاً من بطش فرعون كما قال الله عز وجل: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ يونس: ٨٣، فيكون الخطاب من موسى موجهاً **للمترددين منهم ويكون الخبر خبراً طلبياً** كما قرره الإمام البيضاوي رحمه الله، يطلب فيه موسى عليه السلام من قومه أن ينزعوا عنهم لباس الخوف والتردد بقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ويلحقوا به مؤمنين بالله عز وجل.

ومما جاء عن الخبر الإنكاري في تفسير البيضاوي ما جاء في قوله تعالى في الحوار الذي دار بين المرسلين وأصحاب القرية في سورة يس فقال الله تعالى﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ١٥ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦﴾ يس: ١٣ – ١٦، قال البيضاوي: (قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ) استشهدوا بعلم الله وهو يجري مجرى القسم، وزادوا اللام المؤكِّدة لأنه جواب عن إنكارهم"[1].

ومعنى كلام البيضاوي في قوله: (وزادوا اللام المؤكِّدة لأنه جواب عن إنكارهم)، أن رد الرسل بعد تكذيب أصحاب القرية في المرة الأولى اقتصر على مؤكِّد واحد وهو (إنَّ) في قوله: (فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ) لأنهم كانوا في بداية الدعوة وقد يكون تكذيب أصحاب القرية تكذيب تردد لأن هذه دعوة جديدة لم تتجلي حقائقها ولم تظهر صحتها، ولكن بعد أن ظهر تكذيبهم أنه تكذيب

(١) تفسير البيضاوي: ٣/١٢٩.

إنكار مع سبق إصرار كما يقال، صحَّ أن يُؤكد الخبر لهم بزيادة تناسب إنكارهم فزادوا القسم وزادوا اللام المؤكدة في قولهم في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾.

توكيد الخبر:

لتوكيد الخبر أدوات كثيرة، وأشهرها: إنَّ، وأنَّ، ولام الابتداء، وأحرف التنبيه، والقسم، ونونا التوكيد، والحروف الزائدة (كتفعَّل واستفعل)، والتكرار، وقد، وأما الشرطية، وإنما، واسمية الجملة، وضمير الفصل، وتقديم الفاعل المعنوي(١).

وسنأتي على بعض الآيات التي ذكرت فيها مؤكِّدات الخبر كما أوردها الإمام الجليل ناصر الدين البيضاوي.

١. **القسم**:

من أهم طرق التوكيد: القسم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾ سبأ: ٣ ، قال البيضاوي: (وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عالِمِ الْغَيْبِ) تكرير لإيجابه مؤكَّداً بالقسم مقرراً لوصف المقسم به بصفات تقرر إمكانه واستبعاده"(٢).

٢. **كلمة** (**سوف**):

من طرق توكيد الخبر: (**سوف**)، وقد أشار البيضاوي لها عند تعرضه لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ ﴾ النساء: ١٥٢، قال البيضاوي: أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ) الموعودة لهم، وتصديره بسوف لتأكيد الوعد، والدلالة على أنه كائن لا محالة وإن تأخر(٣).

٣. (**السين**):

ومنه أيضاً: (السين)، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ التوبة: ٧١، قال البيضاوي رحمه الله: أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ لا محالة، فإن السين مؤكدة للوقوع(٤)

---

(١) جواهر البلاغة: ٥٨
(٢) تفسير البيضاوي: ١٠٠/٣
(٣) تفسير البيضاوي: ٤٠٥/١
(٤) تفسير البيضاوي: ٦٤/٢

٤. (**قد**):

ومن طرق توكيد الخبر أيضاً: (قد)، فقال البيضاوي في قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾ ﴾ النور: ٦٤، "وإنما أكد علمه بقد لتأكيد الوعيد"[١].

٥. (**التكرار**):

ومن طرق التوكيد: **التكرار**، وقد يكون بتكرار مادة الكلمة بصيغ أخرى كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾ النساء: ٥٧، قال البيضاوي: **لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا** ، فيْناننا لا جوب فيه، ودائماً لا تنسخه الشمس، وهو إشارة إلى النعمة التامة الدائمة. والظليل صفة مشتقة من الظل **لتأكيده** كقولهم: شمس شامس، وليل أليل، ويوم أيوم[٢].

٦. (**الجملة الإسمية**):

ومن طرق التوكيد: **الجملة الإسمية**، كما في قوله تعالى: ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ آل عمران: ٩٧، قال البيضاوي رحمه الله: وقد أُكِّدَ أمر الحج في هذه الآية من وجوه: الدلالة على وجوبه بصيغة الخبر، **وإبرازه في الصورة الاسمية**، وإيراده على وجه يفيد أنه حق واجب لله تعالى في رقاب الناس، وتعميم الحكم أولاً ثم تخصيصه ثانياً فإنه كإيضاح بعد إبهام، وتثنية وتكرير للمراد"[٣].

٧. **حروف التنبيه**:

ومن مؤكدات الخبر أيضاً: **حروف التنبيه**، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ ﴾ الواقعة: ٧٥، قال البيضاوي: **فَلَآ أُقْسِمُ** إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم، أو فأقسم ولا مزيدة للتأكيد"[٤].

---

(١) تفسير البيضاوي: ٥١١/٢
(٢) تفسير البيضاوي: ٣٦٤/١
(٣) تفسير البيضاوي: ٢٨١/١
(٤) تفسير البيضاوي: ٣٦٧/٣

٨. ضمير الفصل:

ومن طرق التوكيد أيضاً **ضمير الفصل**، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ الصافات: ١٦٤ – ١٦٦، قال البيضاوي: وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ حكاية اعتراف الملائكة بالعبودية للرد على عبدتهم والمعنى وما منا أحد إلا له مقام معلوم في المعرفة والعبادة والانتهاء إلى أمر الله في تدبير العالم... وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ في أداء الطاعة ومنازل الخدمة وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ المنزهون الله عما لا يليق به ولعل الأول إشارة إلى درجاتهم في الطاعة وهذا في المعارف، وما في إن واللام **وتوسيط الفصل من التأكيد والاختصاص** لأنهم المواظبون على ذلك دائما من غير فترة دون غيرهم"[١].

٩. الباء المؤكدة:

ومن المؤكِّدات أيضاً: **الباء المؤكدة**، مثل قوله تعالى في قصة ابني آدم: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ المائدة: ٢٨، قال البيضاوي: قيل كان هابيل أقوى منه، ولكن تحرج عن قتله واستسلم له خوفا من الله سبحانه وتعالى؛ لأن الدفع لم يُبح بعد، أو تحريا لما هو الأفضل، قال صلى الله عليه وسلم: كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل، وإنما قال ما مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ في جواب لَئِنۢ بَسَطتَ للتبري عن هذا الفعل الشنيع رأسا والتحرز من أن يوصف به ويطلق عليه، **ولذلك أكد النفي بالباء**. [٢]

١٠. اللام:

ومن مؤكدات الخبر أيضاً: **اللام**، كما في قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ الأعراف: ١٠١، قال البيضاوي: بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ بما كذبوه من قَبْلِ الرسل، بل كانوا مستمرين على التكذيب، أو فما كانوا ليؤمنوا مدة عمرهم بما كذبوا به أولا حين جاءتهم الرسل، ولم تؤثر فيهم قط دعوتهم المتطاولة والآيات المتتابعة، **واللام لتأكيد النفي** والدلالة على أنهم ما صلحوا للإيمان لمنافاته لحالهم في التصميم على الكفر والطبع على قلوبهم[٣].

---

(١) تفسير البيضاوي: ١٦٢/٣

(٢) تفسير البيضاوي: ٤٣٢/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٥٦١/١

المطلب الثاني: الإنشاء:

الإنشاء لغة:

جاء في لسان العرب في مادة (نشأ): وأَنْشَا السَّحابُ يَمطُرُ: بَدَأَ. وأَنْشَأَ دَارًا: بَدَأَ بِناءَها. وَقَالَ ابْنُ جِنِّي فِي تأْدِيةِ الأَمْثالِ عَلَى مَا وُضِعَت عَلَيْهِ: يُؤَدَّى ذَلِكَ فِي كلِّ مَوْضِعٍ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي أُنْشِئَ فِي مَبْدَئِه عَلَيْهَا، فاسْتَعْمَلَ الإِنْشَاءَ فِي العَرَضِ الَّذِي هُوَ الْكَلَامُ. وأَنْشَأَ يَحْكِي حَدِيثًا: جَعَل. وأَنْشَأَ يَفْعَلُ كَذَا وَيَقُولُ كَذَا: ابتَدَأَ وأَقْبَلَ. وَفُلَانٌ يُنْشِئُ الأَحاديث أَي يضعُها. قَالَ اللَّيْثُ: أَنْشَأَ فُلَانٌ حَدِيثًا أَي ابْتَدأَ حَدِيثًا ورَفَعَه[١].

يشير المعنى اللغوي للإنشاء إلى معنى الابتداء والتكلم، ولذلك استعير هذا المعنى ليدل على مصطلح بلاغي يقابل الخبر وهو الإنشاء.

والإنشاء اصطلاحاً: ما ليس يحتمل صدقا ولا كذبا[٢]، وقيل: الكلام الذي لا يحتمل الصدق والكذب لذاته، وذلك لأنه ليس لمدلول لفظه قبل النطق به وجود خارجي يطابقه أو لا يطابقه[٣]

أقسام الإنشاء:

الإنشاء قسمان: طلبي وغير طلبي، فالطلبي ما يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب، وله خمسة أنواع: الأمر والنهي والاستفهام والنداء والتمني.

أما الإنشاء غير الطلبي: فهو ما لا يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب وله أنواع منها: صيغ التعجب، والقسم، وصيغ المدح والذم، وصيغ العقود، والرجاء[٤]

والإنشاء غير الطلبي ليس مما يبحث عنه علماء البلاغة لأن أكثر صيغه في الأصل أخبار نُقلت إلى الإنشاء، وإنما المبحوث عنه في علم المعاني هو الإنشاء الطلبي لما يمتاز به من لطائف بلاغية[٥]

---

(١) لسان العرب (مادة نشأ): ٤٤١٩/٦

(٢) الطراز: ١٦٢/٣

(٣) البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني: ٩٩

(٤) انظر: الإيضاح: ٥٢/٣، وانظر أيضاً: من بلاغة القرآن: د.محمد ونعمان علوان: ٢٧-٢٩

(٥) جواهر البلاغة: ٧٦

أنواع الإنشاء الطلبي:

أولاً: الأمر:

الأمر لغة: الأَمْرُ: مَعْرُوفٌ، نَقِيضُ النَّهْيِ[1]. واصطلاحاً فهو: وهو صيغة تستدعى الفعل، أو قول ينبىء عن استدعاء الفعل من جهة الغير على جهة الاستعلاء[2]

ونجد في تفسير البيضاوي حديثاً عن التعريف الاصطلاحي للأمر عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ الرعد: ٢٥، قال البيضاوي رحمه الله: والأمر: هو للقول الطالب للفعل، وقيل مع العلو وقيل مع الاستعلاء[3]

صيغ الأمر:

للأمر صيغ أربع هي: فعل الأمر كقوله تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ مريم: ١٢، والمضارع المجزوم بلام الأمر كقوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ الطلاق: ٧، واسم فعل الأمر نحو: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ المائدة: ١٠٥ والمصدر النائب عن فعل الأمر نحو: سعياً في سبيل الخير[4]

الأغراض البلاغية للأمر:

يخرج الأمر عن معناه الحقيقي وهو طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام إلى أغراض بلاغية أخرى، جاء البيضاوي في تفسيره على بعض منها وهي:

١. التهديد:

التهديد لغة: من الوعيد والتخويف[5].

وقد جاءت أوامر كثيرة في القرآن الكريم بغرض التهديد والوعيد، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ الأنعام: ١٣٥، قال البيضاوي رحمه الله: **(قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ)** على غاية تمكنكم

(١) لسان العرب (أمر): ٢٧/٤
(٢) الطراز: ١٥٥/٣
(٣) تفسير البيضاوي: ٧٨/١
(٤) جواهر البلاغة: ٧١
(٥) لسان العرب (هدد): ٦٤٦٣١

واستطاعتكم...وهو أمر تهديد...والتهديد بصيغة الأمر مبالغة في الوعيد كأن المهدد يريد تعذيبه مجمعاً عليه فيحمله بالأمر على ما يفضي به، إليه، وتسجيل بأن المهدد لا يتأتى منه إلا الشر كالمأمور به الذي لا يقدر أن ينقضي عنه(١).

والآية تهديد للكافرين أن يعملوا باستفراغ طاقتهم من أعمال الكفر والعداوة للنبي صلى الله عليه وسلم، ولدين الإسلام، فإن ما سيلاقونه من العذاب لا يوصف، ولذلك تهددهم الله بالعذاب دون أن يُصرِّح به وإنما بطريقة الأمر لأن التلميح أبلغ من التصريح وليدل على أن العذاب المهددين به لا يعلم كنهه إلا الله.

وقد علَّق ابن عاشور على هذه الآية بقوله: وهو الأمر المستعمل في الإنذار والتهديد، ليملي لهم في ضلالهم إملاء يشعر، في متعارف بالتخاطب، بأن المأمور به مما يزيد المأمور استحقاقا للعقوبة، واقترابا منها. أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يناديهم ويهددهم. وأمر أن يبتدىء خطابهم بالنداء للاهتمام بما سيقال لهم، لأن النداء يسترعي إسماع المناديْن(٢)

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ الأنعام: ٧٠، قال البيضاوي رحمه الله: والمعنى أعرض عنهم ولا تبال بأفعالهم وأقوالهم، ويجوز أن يكون تهديداً لهم كقوله تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ المدثر: ١١.

٢. التعجيز:

جاء في مادة (عجز) في لسان العرب: العجز عدم القدرة، وأعجز الشيء عجز عنه والتعجيز التثبيط، وكذلك إذا نسبته إلى العجز، وقال الليث: أعجزني فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه(٣).

ويُفهم مما جاء في لسان العرب أن التعجيز هو طلب الأمر من المأمور بغرض إظهار عجزه عن تحقيقه.

مما جاء في تفسير البيضاوي من الأمر لغرض التعجيز والتحدي قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ هود: ١٣،

(١) تفسير البيضاوي: ١/٥١٩-٥٢٠
(٢) التحرير والتنوير: ٨/٩٠
(٣) لسان العرب (عجز): ٤/٢٨١٧

قال البيضاوي: **(قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ)** في البيان وحسن النظم تحداهم أولاً بعشر سور ثم لما عجزوا عنها سهل الأمر عليهم وتحداهم بسورة[١]

والآية غاية في التحدي والتعجيز، إذ أن كفار قريش زعموا أنه أساطير الأولين وزعموا أن النبي ساحر تارة، وأن النبي شاعر تارة أخرى، وأن هذا القرآن افتراء من النبي صلى الله عليه وسلم، فتحداهم الله عز وجل في مواضع عدة في القرآن الكريم، فتحداهم ابتداء أن يأتوا بمثل هذا القرآن فقال: ﴿ **قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ** ﴾ الإسراء: ٨٨، ثم لما ظهر ضعفهم وعجزهم تحداهم الله بأقل من ذلك وهو أن يأتوا بعشر سور مثله فقال: ﴿ **قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ** ﴾ هود: ١٣، ثم حداهم الله أن يأتوا بسورة واحدة مثله فقال: ﴿ **قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ** ﴾ يونس: ٣٨، ثم لما ظهر ضعفهم وانتفاء حجتهم تحداهم الله بأن يأتوا بأقل من سورة فقال: ﴿ **فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ** ﴾ البقرة: ٢٣، ولذلك فإن عجز كفار قريش كان ظاهراً وواضحاً، وكان الله يقلل مقدار الآيات والسور التي طلب من الكفار أن يشابهوها في الفصاحة والنظم والبلاغة، وهذا دليل على بلاغة هذا القرآن وإعجازه وفصاحته، وأنه ليس من كلام البشر.

ونلحظ أن الآية الأخيرة في قوله تعالى: ﴿ **فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ** ﴾ لم يحدد فيها الله عز وجل طول هذه السورة ولم يقل بسورة من طواله أو أواسطه، بل أطلق إطلاقاً، وهذا يُظهر أن العرب الذين قامت الحجة بعجزهم قد استوت قدرتهم أمام طواله وقصاره فلم يعارضوا هذه ولا تلك[٢]

٣. الخبر:

يأتي الأمر بغرض الإخبار، أي أنه يكون أمراً لفظاً لكنه خبرٌ معنىً.

من الأوامر التي جاءت لغرض الخبر في تفسير البيضاوي ما جاء في قوله تعالى: **(فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (التوبة: ٨٢)** قال البيضاوي: إخبارٌ عما يؤول إليه حالهم في الدنيا والآخرة، أخرجه على صيغة الأمر للدلالة على أنه حتمٌ واجب[٣]

وقال أبو السعود في هذه الآية: إخبارٌ عن عاجل أمرهم وآجله من الضحك القليل والبكاء الطويل المؤدي إليه أعمالهم السيئة[٤]

---

(١) تفسير البيضاوي: ١٢٤/٢
(٢) انظر: النبأ العظيم: ١٣٧
(٣) تفسير البيضاوي: ٧٠/٢
(٤) تفسير أبي السعود: ٨٨/٤

ومثالٌ آخر على هذا الغرض ما جاء في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾ التوبة: ٥٣، قال البيضاوي: أمرٌ في معنى الخبر، أي لن يتقبل منكم نفقاتكم أنفقتم طوعاً أو كرها، وفائدته المبالغة في تساوي الإنفاقيْن في عدم القَبول[١]

٤. الإهانة:

جاء في لسان العرب: الهُونُ: الخِزْيُ. وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ ﴾ فصلت: ١٧ ، أَي ذِي الْخِزْيِ. والهُونُ، بِالضَّمِّ: الهَوَانُ. والهُونُ والهَوانُ: نَقِيضُ العِزِّ...وتَهاوَنَ بِهِ: استخفَّ بِهِ، وَالِاسْمُ الهَوَانُ والمَهانة. وَرَجُلٌ فِيهِ مَهانة أَي ذُلٌّ وَضَعْفٌ...لإهانة الاستخفافِ بِالشَّيْءِ وَالِاسْتِحْقَارِ[٢]

يتضح مما جاء في لسان العرب أن معنى الإهانة هو التحقير والاستخفاف بالغير، وهو نقيض العز والإكرام بدليل أن الله عز وجل قال: ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ ﴾ الفجر: ١٥ – ١٦، وتكون الإهانة في باب الأمر بأن يوقع الآمر على المأمور الإهانة والتحقير بطريق الأمر.

ومن ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ آل عمران: ١٠٦، قال البيضاوي رحمه الله: (فذوقوا العذاب) أمر إهانة[٣]

ونظير الآية السابقة قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ السجدة: ٢٠ ، قال البيضاوي رحمه الله: (ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ) إهانة لهم وزيادة في غيظهم[٤]

(١) تفسير البيضاوي: ٥٨/٢
(٢) لسان العرب (هون): ٤٧٢٤/٦
(٣) تفسير البيضاوي: ٢٨٦/١
(٤) تفسير البيضاوي: ٧٣/٣

٥. الدعاء:

يأتي الأمر أيضاً لغرض بلاغي بديع وهو الدعاء، إذ من المعلوم أن الأمر في الأصل طلب الفعل من الأعلى للأدنى على جهة الاستعلاء والإلزام، ولكن إن كان طلب الفعل من الأدنى إلى الأعلى على طريق المسألة فيكون بغرض الدعاء والتضرع والمسألة.

وقد عرَّف القزويني الأمر للدعاء فقال: إذا استعملت في طلب الفعل على سبيل التضرع نحو: ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ ﴾ نوح: ٢٨[١].

من الآيات التي ورد فيها الأمر لغرض الدعاء قوله تعالى: ﴿ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ يونس: ٨٥ – ٨٦ ، قال البيضاوي رحمه الله: وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ من كيدهم ومن شؤم مشاهدتهم، وفي تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعي ينبغي له أن يتوكل أولاً لتجاب دعوته[٢].

فيتضح من كلام البيضاوي رحمه الله أن موسى عليه السلام أمر قومه بالتوكل على الله فقال: ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ ثم بعد التوكل على الله شرع في الدعاء، وقد جاء الدعاء بصيغتين مختلفتين من صيغ الإنشاء، وهي: النهي والأمر، وهما متقاربتان من حيث المعنى كما قرر البلاغيون، إذ أن الأمر بالشيء يستلزم النهي عن ضده.

والصيغة الأولى هي النهي في قوله: لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ، والثانية الأمر في قوله: وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ، فالأمر والنهي هنا بمعنى الدعاء.

ومثال الأمر الذي جاء لغرض الدعاء قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ إبراهيم: ٣٧، قال البيضاوي رحمه الله: لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ اللام لام كي وهي متعلقة بـ (أَسْكَنْتُ) أي ما أسكنتهم بهذا الوادي البلقع من كل مرتفق ومرتزق إلا لإقامة الصلاة عند بيتك المحرم... وقيل لام الأمر والمراد هو الدعاء لهم بإقامة الصلاة كأنه طلب منهم الإقامة وسأل من الله تعالى أن يوفقهم لها[٣].

---

(١) الإيضاح: ٨٦/٣

(٢) تفسير البيضاوي: ١١٣/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٢٢٧/٢

٦. الإقناط والتيئيس:

القُنُوط: اليأْس، وَفِي التَّهْذِيبِ: اليأْس مِنَ الْخَيْرِ، وَقِيلَ: أَشدّ اليأْس مِنَ الشيء وَفِي التَّنْزِيلِ: قَالَ ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ الحجر: ٥٦[١]

فمعنى الإقناط هو التيئيس، ويأتي الأمر بغرض الإقناط والتيئيس وذلك حين يُلقى الأمر على المخاطَب أو المأمور بغرض إيقاعه في اليأس والقنوط من حصوله على أي خير، كما يُفهم من التعريف، وقد جاءت آيات عديدة على هذا الغرض.

منها قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾ الزمر: ٨ ، قال البيضاوي رحمه الله: أمرُ تهديدٍ فيه إشعارٌ بأن الكفر نوع تشهٍّ لا سند له، وإقناط للكافرين من التمتع في الآخرة[٢]

فالأمر هنا كما أشار البيضاوي جاء لغرض الإقناط والتيئيس وذلك لأن حال الكافر أو المشرك بالله كان بين الإنابة لله في حال الضراء، واتخاذ الشركاء والأنداء مع الله في حال السراء، ويظن الكافر يوم القيامة أن الحال التي كان عليها في الإنابة لله ستعود عليه بالخير والجزاء الحسن من الله في الآخرة، لذلك جاء الأمر من الله لتيئيس وإقناط ذلك الكافر من الخير، وأنه لن ينال من ذلك شيئاً فقال الله: **(قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا)** بل أنه سيكون من أصحاب النار.

ومثال الأمر لغرض الإقناط والتيئيس قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ غافر: ٤٩ – ٥٠.

قال البيضاوي رحمه الله: **(قالُوا بَلى قالُوا فَادْعُوا)** فإنا لا نجترئ فيه إذ لم يؤذن لنا في الدعاء لأمثالكم، وفيه إقناط لهم عن الإجابة[٣].

أي أن خزنة جهنم من الملائكة عندما قالوا للكافرين (فادعوا) كان ذلك بصيغة الأمر بغرض إقناطهم وتيئيسهم من إجابة الدعاء، أي أنه مهما دعوتم فإن الله قد قضى وقدَّر أنكم

(١) لسان العرب (قنط): ٣٧٥٢/٥
(٢) تفسير البيضاوي: ١٨٣/٣
(٣) تفسير البيضاوي: ٢١٢/٣

ماكثون فيها كما جاء في سورة الزخرف﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ الزخرف:٧٧.

٧. الإباحة:

من المعاني البلاغية التي يخرج إليها الأمر الإباحة، "فصيغة الأمر قد تستعمل في غير طلب الفعل استعلاء، بحسب مناسبة المقام؛ كالإباحة؛ كقولك في مقام الإذن: جالس الحسن أو ابن سيرين"(١)

مثال الأمر الذي جاء بغرض الإباحة ما جاء في تفسير قوله تعالى: **(وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ)** (الحج: ٢٧-٢٨). قال البيضاوي رحمه الله: **(فَكُلُوا مِنْها)** من لحومها أمر بذلك إباحة وإزاحة لما عليه أهل الجاهلية من التحرج فيه، أو ندباً إلى مواساة الفقراء ومساواتهم، وهذا في المتطوع به دون الواجب(٢)

ومن الأمر للإباحة قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ الأنعام: ١١، قال البيضاوي رحمه الله: **(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)** كيف أهلكهم الله بعذاب الاستئصال كي تعتبروا، والفرق بينه وبين قوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا ﴾ الروم: ٤٢ أن السير ثمة لأجل النظر ولا كذلك ها هنا، ولذلك قيل معناه إباحة السير للتجارة وغيرها وإيجاب النظر في آثار الهالكين(٣).

والمعنى الذي أشار له البيضاوي أن الأمر في **(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا)** يختلف عن الأمر **في (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فانْظُرُوا)**، ووجه ذلك الاختلاف ما أحدثه حرف العطف "ثم" وهو حرف عطف يفيد التراخي، فقد عطف الله تعالى النظر على السير، أي أن المقصود الأول من الأمر هو إباحة السير في الأرض والتمتع بما أحل الله لنا منها كالتجارة وغيرها، والمقصود الثاني هو الاعتبار بما حصل للأقوام المكذبة برسالات الأنبياء.

(١) الإيضاح: ٨٢/٣
(٢) تفسير البيضاوي: ٤٤٥/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ٤٨٠/١-٤٨١

أما الآية الثانية (**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فانْظُرُوا**) فقد استخدم الله عز وجل حرف الفاء الذي يفيد السببية، أي أن الله أمرهم بالسير لينظروا إلى عاقبة الذين كذبوا، فهو المقصد الأول والأخير من الأمر، وبهذا يتضح الفرق بين الأمرين.

٨. الندب:

والنَّدْبُ: أَن يَنْدُبَ إنسانٌ قَوْمًا إلى أَمر، أَو حَرْبٍ، أَو مَعُونةٍ أَي يَدْعُوهم إليه، فيَنْتَدِبُون لَهُ أَي يُجِيبونَ ويُسارِعُون. ونَدَبَ القومَ إلى الأَمْر يَنْدُبهم نَدْباً. دَعَاهُمْ وحَثَّهم. وانْتَدَبُوا إليه: أَسْرَعُوا[١]

ويكون الأمر للندب أن يحث الآمر المأمور بطريق الأمر على وجه الاستحباب، وأمثلته كثيرة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿**وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ**﴾ النور: ٣٣.

قال البيضاوي رحمه الله: (**وَآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللَّهِ الَّذِي آتاكُمْ**) أمرٌ للموالي كما قبله بأن يبذلوا لهم شيئاً من أموالهم...وقيل ندبٌ لهم إلى الإنفاق عليهم بعد أن يؤدوا ويعتقوا[٢] فيكون إعطاء المؤمن للمكاتَب مالاً بعد المكاتبة على وجه الاستحباب والندب، وليس عليه إثمٌ إن لم يفعل.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ** ﴾الطلاق: ٢، قال القاضي البيضاوي رحمه الله: (وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ) على الرجعة أو الفرقة تبرياً عن الريبة وقطعاً للتنازع، وهو ندب كقوله: ﴿**وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ** ﴾البقرة: ٢٨٢[٣]

٩. التهكم والاستهزاء:

التهكم والاستهزاء في اللغة بمعنى واحد[٤]، قال ابن معصوم المدني بأنه: في الاصطلاح أخص منه في اللغة، لأنه في اللغة بمعنى الاستهزاء مطلقا، وفي الاصطلاح هو الخطاب بلفظ الإجلال في موضع التحقير، والبشارة في موضع التحذير؛ والوعد في مكان الوعيد، والعذر في موضع اللوم؛ والمدح في معرض السخرية، ونحو ذلك[٥].

---

(١) لسان العرب (ندب): ٤٣٨٠/٦
(٢) تفسير البيضاوي: ٤٩٦/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ٤١٥/٣
(٤) انظر: لسان العرب (كهم): ٥٢٩/١٢
(٥) أنوار الربيع في أنواع البديع: ٨٥/٢

فالتهكم والاستهزاء بمعاني متقاربة نوعاً معاً، ومما جاء من الأمر على هذا الغرض قوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ الدخان: ٤٩، قال البيضاوي رحمه الله: **(ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ)** أي وقولوا له ذلك استهزاء به وتقريعا على ما كان يزعمه.

وقيل إن هذه الآية نزلت في أبي جهل فقد قال الزمخشري: "وروي أن أبا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين جبليها أعز ولا أكرم مني فوا الله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئا"(١)

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾ ص: ١٦، قال القاضي البيضاوي رحمه الله: **(وَقالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا)** قسطنا من العذاب الذي توعدنا به، أو الجنة التي تعدها للمؤمنين **(قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ)** استعجلوا ذلك استهزاء(٢).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ البقرة: ٢٣، قال البيضاوي رحمه الله: ادْعُوا من دون الله شهداء يشهدون لكم بأن ما أتيتم به مثله...وفي أمرهم أن يستظهروا بالجماد في معارضة القرآن العزيز غاية التبكيت والتهكم بهم(٣).

١٠. التبكيت والتوبيخ:

والتَّبْكِيتُ: كالتَّقْرِيعِ والتَّعْنِيفِ... بَكَّتَه تَبْكِيتاً إِذا قَرَّعَه بالعَذْل تَقْريعاً... وبَكَتَه بالحُجَّة أَي غَلَبه. وبَكَتَه يَبْكُتُه بَكْتاً، وبَكَّتَه: كِلَاهُمَا اسْتَقْبَلَهُ بِمَا يَكْرَه(٤).

وجاء في لسان العرب أيضاً: (وبَّخَه: لامَه وَعَذَلَهُ)، وعلى ذلك يكون معنى التوبيخ مخاطبة الغير على جهة اللوم والتخطئة على فعل أو قول قام به(٥)

أما التقريع فقد جاء في لسان العرب: والتقريع التأنيب والتعنيف وقيل هو الإيجاع باللوم وقَرَعْتُ الرجل إذا وبخته وعذلته(٦)

---

(١) الكشاف: ٤٧٧/٥
(٢) تفسير البيضاوي: ١٦٨/٣
(٣) تفسير البيضاوي: ٦٥/١
(٤) لسان العرب (بكت): ٣٣٢/١
(٥) لسان العرب (وبخ): ٤٧٥١/٦
(٦) لسان العرب (قرع): ٣٥٩٦/٥

فيتضح من المعاني اللغوية للتبكيت والتوبيخ والتقريع أنها كلها متقاربة في المعنى، وهو التأنيب واستقباله بما يكره وإيقاع اللوم عليه.

مما جاء في كتاب الله من الأوامر لغرض التبكيت قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ البقرة: ٣١، قال البيضاوي رحمه الله: (فَقالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ) تبكيت لهم وتنبيه على عجزهم عن أمر الخلافة[١].

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾ البقرة: ٢٥٩.

قال القاضي البيضاوي: (**قالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) وقرأ حمزة والكسائي قالَ اعْلَمُ على الأمر والأمر مخاطبه، أو هو نفسه خاطبها به على طريق التبكيت[٢]

وكأنَّ الرجل كان يخاطب نفسه ويلومها على سؤالها الذي سألته في البداية **أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا** حيث كان سؤاله سؤال إنكار واستبعاد، فبعد أن تبين له ما تبين من قدرة الله عز وجل خاطبها بهذا الخطاب على طريقة الأمر الذي غرضه التبكيت والتقريع والتوبيخ.

أمَّا ما جاء من الأوامر لغرض التقريع فقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ ﴾ المرسلات: ٣٨ – ٣٩، قال البيضاوي رحمه الله: (**فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ**) تقريع لهم على كيدهم للمؤمنين في الدنيا وإظهار لعجزهم[٣].

والمعنى أنكم كنتم تكيدون للمؤمنين وتعادوهم في الدنيا وكنتم تنكرون البعث والحساب فها قد حضر ذلك اليوم، فأمرهم رب العزة أن يكيدوه أمر تبكيت وتقريع وتوبيخ على ما فعلوه من كفر بالله واستهزاء بالمؤمنين في الدنيا.

(١) تفسير البيضاوي: ٨٥/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٢٢٢/١
(٣) تفسير البيضاوي: ٤٨٥/٣

١١. الاستهانة والاستخفاف:

مما جاء في مادة (هون) في لسان العرب: استهان به وتهاون به استخف به، وفي الحديث: ليس بالجافي ولا المهين، يُروى بفتح الميم وضمها، فالفتح من المَهانة والضم من الإهانة الاستخفاف بالشيء والاستحقار والاسم الهوان، وهذا موضعه واستهان به وتهاون به استحقره(١).

أمَّا الاستخفاف فقد جاء في لسان العرب: واسْتَخَفَّ فُلَانٌ بِحَقِّي إِذَا اسْتَهانَ بِهِ، ومنه ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ الزخرف: ٥٤ أي حملهم على الخفة والجهل، يقال استخفه عن رأيه واستفزَّه عن رأيه: إذا حمله على الجهل وأزاله عما كان عليه من الصواب، واستخف به وأهانه(٢).

من كل ما سبق يتضح لنا أن الاستخفاف والاستهانة بمعنى واحد تقريباً، ولو نزلنا المعنى اللغوي للاستخفاف والاستهانة على الأمر، فهو طلب الأمر على جهة الاستحقار، وعدم المبالاة، فكأن المتكلم لا يعبأ بالمخاطَب ولا يلقي له بالاً ولا يخافه، فيقول له مثلاً: افعل ما بدا لك، وكأن المتكلم يَعُدُّ المخاطب أحقر وأقل من أن يسبب له ضرراً.

ومما جاء من الأوامر لغرض الاستهانة والاستخفاف في الذكر الحكيم قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ المائدة: ٢٤، قال البيضاوي رحمه الله: قالوا ذلك استهانة بالله ورسوله وعدم مبالاة بهما(٣).

فهذه الآية توضح جِبِلَّة بني إسرائيل وصَلَفهم وعُتوّهم حتى مع الأنبياء ومع الله عز وجل، فقد قالوا ما قالوه استهانة بالله واستخفافاً بقدرته، وقد حقق لهم من المعجزات ما لم يحقق لكثير من الأمم التي سبقتهم، من فلق البحر، وإنجائهم من بطش فرعون، وإطعامهم المن والسلوى، وتفضيلهم على كثير ممن خلق تفضيلاً، إلا أنهم لم يرعو نعم الله عليهم في هذا كُلِّه.

ولم يعلموا ضعفهم وقلة حيلتهم أمام قوة الله عز وجل، والوجه الصحيح أن يكون الاستخفاف والاستهانة من الغير عندما يكون الإنسان على جهة من المَنَعة والقوة، تريه كل تهديد ووعيد صغيراً وحقيراً فلا يعبأ به، إذ إنه يأوي إلى ركن شديد، فيدفعه ذلك إلى الاستهانة والاستخفاف بأعدائه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في قوم لوط عليه السلام في القرآن الكريم عندما أتاه قومه

(١) لسان العرب (هون): ٤٧٢٤/٦
(٢) لسان العرب (خفف): ١٢١٢/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ٤٣٠/١

يريدون الفاحشة فقال: ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ هود: ٨٠، قال النبي صلى الله عليه وسلم كما جاء عند ابن كثير في تفسيره: عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد- يعني الله عز وجل[١].

أما نوح عليه السلام فقد تحدى قومه واستهان بما توعدوه به، قال الله حكاية عن نبيه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ ﴾ يونس: ٧١، قال البيضاوي: (فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ) والمعنى أمرهم بالعزم أو الاجتماع على قصده والسعي في إهلاكه على أي وجه يمكنهم ثقة بالله وقلة مبالاة بهم[٢].

١٢. التفويض:

سمَّاه بعض العلماء التسليم، ومما جاء في لسان العرب في مادة (فوض): فوَّض إليه الأمر صيره إليه وجعله الحاكم فيه[٣]. وجاء في مادة (سلم) سلَّمت إليه الشيء فتسلَّمه أي أخذه التسليم بذل الرضا بالحكم[٤].

إذن يتضح تقارب التفويض والتسليم في المعنى اللغوي، وهنا يظهر وجه إطلاق العلماء التفويض تارة والتسليم تارة أخرى، ومعناه في باب الأمر: أن يأتي الأمر من المتكلم للمخاطب لتوكيله في الأمر وأن راضٍ بما سيفعله.

وقد ذكر هذا الغرض البلاغي ابن فارس في كتابه "الصاحبي"، وقال: "ويكون اللفظ أمراً والمعنى تسليم، نحو قوله جل ثناؤه: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ﴾ طه: ٧٢[٥]

ومما جاء في تفسير البيضاوي من الأمر لغرض التفويض قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

(١) تفسير ابن كثير: ٢٩١/٤
(٢) تفسير البيضاوي: ١١٠/٢
(٣) لسان العرب (فوض): ٣٤٨٥/٥
(٤) لسان العرب (سلم): ٢٠٨٠/٣
(٥) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها: ابن فارس الرازي، ص١٣٩، الناشر محمد علي بيضون، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م

﴿رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ النور: ٦٢، قال البيضاوي: (فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ) تفويض للأمر إلى رأي الرسول صلّى الله عليه وسلّم، واستدل به على أن بعض الأحكام مفوضة إلى رأيه[١].

١٣. التسوية:

وتكون في مقام يُتوهم فيه أن أحد الشيئين أرجح من الآخر[٢] فيأتي الأمر ليدل على أن الأمر وعدمه سيَّان فلا فرق أفعل أم لم يفعل.

ومثاله قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ التوبة: ٨٠، قال البيضاوي: (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ) يريد به التساوي بين الأمرين في عدم الإفادة لهم كما نص عليه بقوله: (إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ). روي أن عبد الله بن عبد الله بن أبي وكان من المخلصين سأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في مرض أبيه أن يستغفر له، ففعل عليه الصلاة والسلام فنزلت، فقال عليه الصلاة والسلام: لأزيدن على السبعين فنزلت: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾﴾ المنافقون: ٦[٣]

ومثاله أيضاً ما جاء في القرآن الكريم بحق المكذبين فيُقال لهم يوم القيامة: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ الطور: ١٦، قال القاضي البيضاوي رحمه الله: (اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصْبِرُوا) أي ادخلوها على أي وجه شئتم من الصبر وعدمه فإنه لا محيص لكم عنها[٤]

فالأمر والنهي في هاتين الآيتين جاءا ليدل على التسوية فلا ينفع استغفار النبي للمنافقين أو عدم استغفاره، وكذا لا ينفع صبر الكافرين أو عدم صبرهم في نار جهنم فهم معذبون فيها على كل حال.

---

(١) تفسير البيضاوي: ٥١٠/٢
(٢) علم المعاني والبيان والبديع، عبد العزيز عتيق: ٧٧
(٣) تفسير البيضاوي: ٦٩/٢
(٤) تفسير البيضاوي: ٣٢٩/٣

ثانياً: النهي:

ومن أنواع الإنشاء الطلبي النهي، والنهي من فعل نهى ينهى نهياً ونهاه، والعامة تقول: ينهيه عن الأمر: زجره عنه بالفعل(١).

وقد قال القزويني في النهي اصطلاحاً: له حرف واحد، وهو "لا" الجازمة في نحو قولك: لا تفعل، وهو كالأمر في الاستعلاء، وقد يستعمل في غير طلب الكف أو الترك(٢).

وقفة بين الأمر والنهي:

من التعريف السابق للنهي يلحظ أن النهي يشبه الأمر في أنهما يأتيان على وجه الاستعلاء والإلزام، ويختلفان من حيث أن الأمر يكون طلب للفعل والثاني طلب للكف عن الفعل.

وهذا ما قرره القاضي البيضاوي في تفسيره عندما قال: إن الأمر بالشيء يستلزم النهي عن ضده، أي أن الكلام إذا كان على الأمر فإنه يُفهم منه ويكون من لوازمه النهي عن ضده، فلو أمر الأب ابنه أن: "قم إلى الصلاة" فهو في الحقيقة نهيٌ عن الجلوس وترك الصلاة.

لكن قد يجتمع أحياناً الأمر بالشيء والنهي عن ضده في خطاب واحد، ويكون لذلك فضل تأكيد الأمر وتقريره، لأنه ورد أولاً بطريق المنطوق ثم بطريق المفهوم.

ومثال ذلك قول الله تعالى في آية المداينة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ البقرة: ٢٨٢، قال البيضاوي رحمه الله: (وَلا يَأْبَ كاتِبٌ) ولا يمتنع أحد من الكتاب. (أَنْ يَكْتُبَ كَما عَلَّمَهُ اللَّهُ) مثل ما علمه الله من كتبة الوثائق، أو لا يأب أن ينفع الناس بكتابته كما نفعه الله بتعليمها... (فَلْيَكْتُبْ) تلك الكتابة المُعلَّمة. أمر بها بعد النهي عن الإباء عنها تأكيداً (٣)

ومع كل أوجه الاتفاق بين الأمر والنهي والتقرير بأن الأمر بالشيء نهي عن ضده، إلا أن السياق يوجب أن تكون الصيغة بالأمر أحياناً، وأن تكون بالنهي أحياناً أخرى، وذلك بحسب ما يكون عليه مقتضى الحال الذي هو مقصدٌ مهم يدور في فلكه علم البلاغة.

---

(١) المعجم المفصل في علوم البلاغة: ٦٦٨
(٢) الإيضاح: ٨٨/٣
(٣) تفسير البيضاوي: ٢٣٤/١

وفيما يخص هذا الموضوع نرى رائعة من روائع البلاغة القرآنية ماثلةً في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ الأنعام: ١٥١.

يقول البيضاوي في هذه الآية: **(وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً)** أي وأحسنوا بهما إحساناً وضعه موضع النهي عن الإساءة إليهما للمبالغة وللدلالة على أن ترك الإساءة في شأنهما غير كاف بخلاف غيرهما(١).

فالآية واردة لذكر المحرمات التي حرمها الله عز وجل، وهي آية محكمة جامعة يقول عنها ابن مسعود فيما رُوي عن داود الأودي عن الشعبي عن علقمة عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا- إلى قوله- لعلكم تتقون(٢).

فالآيات كلها محرمات وجاءت بصيغة النهي، فقد نهى الله عز وجل عن الإشراك به، وعن قتل الأولاد خشية الفقر، وعن إتيان الفواحش والاقتراب منها، وقتل النفس التي حرم الله، لكنَّ وصية واحدة من تلك الوصايا خرجت من صيغة النهي إلى صيغة الأمر، وهي قوله تعالى: (وبالوالدين إحسانا)، إذ من المعلوم أن من صيغ الأمر المصدر النائب عن الفعل، والمعنى: "أحسنوا إليهما إحساناً"، وكان حقُّ النظم كما سبق أن يأتي بالنهي عن الإساءة إلى الوالدين، لكنَّ النهي عن الإساءة إليهما ليس هو مراد الله في الآية، وليس ذلك من البر بهما، وهو غير كافٍ في حقهما، لذلك كان الأمر بالإحسان أبلغ وأكثر دلالة على مراد الله من وجوب الإحسان في معاملتهما، لأن الإحسان الزيادة في التودد والمعاملة اللطيفة الكريمة التي مهما كانت فلن تُوفي الوالديْن حقهما.

الأغراض البلاغية للنهي:

يخرج النهي عن معناه الأصلي والحقيقي الذي هو طلب كف الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام لأغراض بلاغية عدة، منها:

(١) تفسير البيضاوي: ٥٢٦/١
(٢) تفسير ابن كثير: ٣٢٢/٣

١. الدعاء:

يأتي النهي لغرض الدعاء كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾ يونس: ٨٨، قال البيضاوي رحمه الله: (فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ) جواب للدعاء أو دعاء بلفظ النهي[١].

ومن الدعاء الذي جاء بصيغة النهي أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُمْ بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ يونس: ٨٤ – ٨٦، قال القاضي البيضاوي رحمه الله: وفي تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعي ينبغي له أن يتوكل أولا لتجاب دعوته[٢].

يقصد أن موسى أمر قومه في البداية أن يتوكلوا على الله ثم شرع بالدعاء، وجاء الدعاء بصيغتين الأولى بالنهي في قوله: **(ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين)**، والثانية بالأمر في قوله: **(ونجنا برحمتك من القوم الكافرين)**.

ومن النهي الذي جاء لغرض الدعاء قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ البقرة: ٢٨٦، حيث جمعت الآية بين الأمر والنهي معاً بغرض الدعاء، وقد عقَّب البيضاوي رحمه الله على هذه الآية فقال: "روي أنه عليه الصلاة والسلام لما دعا بهذه الدعوات قيل له عند كل كلمة فعلت"[٣]، لذلك فقد اشتملت الآية على ثلاثة نواهٍ غرضها الدعاء.

٢. التهكم والاستهزاء:

من النواهي التي جاءت لغرض التهكم والاستهزاء قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ الأنبياء: ١١ – ١٣، قال البيضاوي رحمه الله: (فَلَمَّا أَحَسُّوا

(١) تفسير البيضاوي: ١١٤/٢
(٢) تفسير البيضاوي: ١١٣/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ٢٤٠/١

بَأْسَنا) فلما أدركوا شدة عذابنا إدراك المشاهد المحسوس... (إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ) يهربون مسرعين راكضين دوابهم، أو مشبهين بهم من فرط إسراعهم. (لاَ تَرْكُضُوا) على إرادة القول أي قيل لهم استهزاء لا تركضوا إما بلسان الحال أو المقال، والقائل ملك أو من ثم من المؤمنين(١).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ البقرة: ٢١ – ٢٢، قال القاضي البيضاوي رحمه الله: والند: المثل المناوئ...من ند يند ندوداً: إذا نفر، ونادت الرَجُلَ خالفته، خص بالمخالف المماثل في الذات كما خص المساوي بالمماثل في القدر، وتسمية ما يعبده المشركون من دون الله (أنداداً)، وما زعموا أنها تساويه في ذاته وصفاته وَلاَ أنها تخالفه في أفعاله لأنهم لما تركوا عبادته إلى عبادتها، وسموها آلهة شابهت حالهم حال من يعتقد أنها ذوات واجبة بالذات، قادرة على أن تدفع عنهم بأس الله، وتمنحهم ما لم يرد الله بهم من خير، فتهكم بهم وشنع عليهم بأن جعلوا أنداداً لمن يمتنع أن يكون له ند(٢).

٣. التأديب:

قال ابن منظور في لسان العرب: وأَدَّبه فَتَأَدَّب: عَلَّمه، وَاسْتَعْمَلَهُ الزَّجَّاجُ فِي اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ: وَهَذَا مَا أَدَّبَ اللهُ تَعَالَى بِهِ نَبِيَّه، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... وَفِي الْحَدِيثِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: إِنَّ هَذَا القرآنَ مَأْدَبةُ اللَّهِ فِي الأَرض فتَعَلَّموا مِنْ مَأْدَبَتِه يَعْنِي مَدْعاتَه(٣).

يُفهم مما جاء في لسان العرب أن التأديبَ معناه التعليم، وقد جاء في القرآن الكريم النهي لغرض التأديب، وليس نهياً على الحقيقة في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾ ﴾ الكهف: ٢٣ – ٢٤، **قال البيضاوي رحمه الله: (وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ الله)** نهيُ تأديبٍ من الله تعالى لنبيه حين قالت اليهود لقريش: سلوه عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين، فسألوه فقال: «ائتوني غداً أخبركم» ولم يستثن فأبطأ عليه الوحي بضعة عشر يوماً حتى شق عليه وكذبته قريش(٤).

---

(١) تفسير البيضاوي: ٤١٥/٢
(٢) تفسير البيضاوي: ٦٢/١-٦٣
(٣) لسان العرب (أدب): ٤٣/١
(٤) تفسير البيضاوي: ٣٣٥/٢

٤. الاعتذار:

العُذر الحجة التي يُعتذر بها...ولي في هذا الأمر عُذرٌ وعُذرى ومعذرة: أي خروج من الذنب[١].

والنهي يأتي غرضه الاعتذار إذا جاء بصيغة النهي وواقع الحال يدل على أنه يطلب فيه المتكلم من المخاطب أن يخرجه من الذنب أو الخطأ وأن لا يلومه عليه، كما جاء على لسان موسى عليه السلام في قصته مع الخضر، قال الله تعالى: ﴿ **قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا** ﴿٧٣﴾ ﴾ الكهف: ٧٣، قال البيضاوي رحمه الله: **(قالَ لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ)** بالذي نسيته أو بشيء نسيته، يعني وصيته بأن لا يعترض عليه أو بنسياني إياها، وهو اعتذار بالنسيان أخرجه في معرض النهي عن المؤاخذة مع قيام المانع لها[٢].

٥. التهييج:

والمراد بالتهييج الإثارة والتحريض كما جاء في لسان العرب: هاجت الأرضُ تهيجُ هياجاً، وهاج الشيء واهتاج وتهيَّج: ثار[٣].

والنهي يكون للتهييج إذا كان يُقصد منه التحريض والتثبيت على ترك الفعل المنهي عنه، وأن يداوم المنهي عنه على تركه، أي أنه لا ينهاه، لأنه ليس مقيماً على فعله حالاً، بل يطلب منه الاستمرار في الكف عنه.

ومن النهي الذي جاء لغرض التهييج قوله تعالى: ﴿ **فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ** ﴿٢١٣﴾ ﴾ الشعراء: ٢١٣، قال البيضاوي رحمه الله: تهييج لازدياد الإخلاص، ولطف لسائر المكلفين[٤].

المكلفين[٤].

فقد نهى الله نبيه والمؤمنين من ورائه عن أن يدعوا مع الله إلهاً آخر، ليس لأن النبي والمؤمنين يقومون بهذا العمل فيطلب منهم الكف عنه، ولكنه نهي يراد به حث المؤمنين وتهييجهم على الازدياد من الإخلاص في العبادة والطاعة والثبات عليها، كما هو الحال في قوله تعالى في باب الأمر: ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴿٦﴾ ﴾ الفاتحة: ٦، فسؤال المؤمن ربه الهداية ليس لأنه غير

(١) لسان العرب (عذر): ٢٨٥٤/٤
(٢) تفسير البيضاوي: ٣٤٨/٢
(٣) لسان العرب (هيج): ٤٧٣٣/٦
(٤) تفسير البيضاوي: ٥٥٥/٢

حاصل له في الوقت الحالي، ولكنه طلبٌ للثبات والدوام على الهداية، فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبهما كيف يشاء، فلذلك كان دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: "يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك".

ومن النهي الذي جاء لغرض التهييج قوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ الأنعام: ١١٤، قال البيضاوي رحمه الله: **(فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)** في أنهم يعلمون ذلك، أو في أنه منزل لجحود أكثرهم وكفرهم به، فيكون من باب التهييج كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ الأنعام: ١٤[١]

٦. التسوية:

يكون في مقام يُتوهم فيه أن أحد الشيئين أرجح من الآخر، فيأتي النهيُ ليدل على أن الأمرَ وعدمه سيَّان فلا فرق أفعل أم لم يفعل.

ومثاله قوله تعالى: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ التوبة: ٨٠، قال البيضاوي رحمه الله: (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ) يريد به التساوي بين الأمرين في عدم الإفادة لهم كما نص عليه بقوله: (إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) روي أن عبد الله بن عبد الله بن أبي وكان من المخلصين سأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في مرض أبيه أن يستغفر له، ففعل عليه الصلاة والسلام فنزلت، فقال عليه الصلاة والسلام: لأزيدن على السبعين فنزلت: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾ المنافقون: ٦[٢]

٧. التهديد والوعيد:

ويكون النهي غرضه التهديد عندما يقصد المتكلم أن يخوِّف من هو دونه قدراً ومنزلةً، عاقبة القيام بفعل لا يرضى عنه المتكلم[٣]، كأن يقول الأب لابنه وقد أذَّن المؤذن ورآه يلعب: لا تصلِّ، فهو بهذا النهي يتهدده ويتوعده عاقبة عدم ذهابه للصلاة.

(١) تفسير البيضاوي:٥١٣/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٦٩/١
(٣) علم المعاني والبيان والبديع: عبد العزيز عتيق: ٨٤

ومن النهي الذي جاء لغرض التهديد قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ إبراهيم: ٤٢، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)** خطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والمراد به تثبيته على ما هو عليه من أنه تعالى مطلع على أحوالهم وأفعالهم لا يخفى عليه خافية، والوعيد بأنه معاقبهم على قليله وكثيره لا محالة، أو لكل من توهم غفلته جهلاً بصفاته واغتراراً بإمهاله. وقيل إنه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم(١).

فالنهي وإن كان موجهاً للنبي صلى الله عليه وسلم لكنه تهديدٌ للظالمين، ومن جميل ما قاله الشيخ ابن عاشور في التحرير والتنوير على هذه الآية: وصيغة (لا تحسبن) ظاهرها نهي عن حسبان ذلك. وهذا النهي كناية عن إثبات وتحقيق ضد المنهي عنه في المقام الذي من شأنه أن يثير للناس ظن وقوع المنهي عنه لقوة الأسباب المثيرة لذلك. وذلك أن إمهالهم وتأخير عقوبتهم يشبه حالة الغافل عن أعمالهم، أي تحقق أن الله ليس بغافل، وهو كناية ثانية عن لازم عدم الغفلة وهو المؤاخذة، فهو كناية بمرتبتين، ذلك لأن النهي عن الشيء يأذن بأن المنهي عنه بحيث يتلبس به المخاطب، فنهيه عنه تحذير من التلبس به بقطع النظر عن تقدير تلبس المخاطب بذلك الحسبان(٢).

٨. الإخبار:

يأتي النهي أحياناً حاملاً معنى الخبر، ليؤكده ويحققه، كما في قوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾ النور: ٥٧، قال البيضاوي رحمه الله: **(لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ)** وقرأ ابن عامر وحمزة بالياء على أن الضمير فيه لمحمّد صلّى الله عليه وسلّم... والمعنى ولا يحسبن الكفار في الأرض أحداً معجزاً لله...**(وَمَأْواهُمُ النَّارُ)** عطف عليه من حيث المعنى كأنه قيل: الذين كفروا ليسوا بمعجزين ومأواهم النار، لأن المقصود من النهي عن الحسبان تحقيق نفي الإعجاز(٣). أي أن الله لا يعجزه أن ينتقم من الذين كفروا، فهو خبرٌ بلفظ النهي.

(١) تفسير البيضاوي: ٢٢٨/٢
(٢) التحرير والتنوير: ٢٤٥/١٣
(٣) تفسير البيضاوي: ٥٠٦/٢

٩. الاستهانة والاستخفاف:

كما أن الأمر يأتي لغرض الاستهانة والاستخفاف، ويعني الاستحقار وعدم الخوف من المخاطب، كذلك يأتي النهي لهذا الغرض، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥ ﴾ الأعراف: ١٩٤ – ١٩٥، يقول البيضاوي رحمه الله: **(قُلِ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ)** واستعينوا بهم في عداوتي. (ثُمَّ كِيدُونِ) فبالغوا فيما تقدرون عليه من مكر، وهي أنتم وشركاؤكم. (فَلا تُنْظِرُونِ) فلا تمهلون فإني لا أبالي بكم لوثوقي على ولاية الله تعالى وحفظه(١).

فعدم المبالاة هو من باب الاستخفاف والاستهانة والاستحقار من المؤمنين للذين يعبدون غير الله عز وجل، وكذلك للشركاء الذين أشركهم مع الله في العبادة.

١٠. النصح والإرشاد:

وذلك عندما يكون النهي يحمل بين ثناياه معنىً من معاني النصح والإرشاد، وذلك لأن المتكلم لا يقصد بهذا النهي أن يُلزم المخاطَب بما ينهاه عنه وإنما يكون ذلك من باب النصيحة لما يراه المتكلم أنه أفضل وأرشد للمخاطب فإن شاء أخذه وإلا تركه.

ومثاله من القرآن الكريم: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ ﴾ الأعراف: ٣١، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا)** ما طاب لكم. روي: أن بني عامر في أيام حجهم كانوا لا يأكلون الطعام إلا قوتاً ولا يأكلون دسماً يعظمون بذلك حجهم فهم المسلمون به، فنزلت. (وَلا تُسْرِفُوا) بتحريم الحلال، أو بالتعدي إلى الحرام، أو بإفراط الطعام والشره عليه(٢).

أي أن الله عز وجل قد نهى عن الإسراف في الطعام والشراب، أو الإسراف في التحريم والتشدد في الدين على ما رآه البيضاوي من معنى الآية، وعلى هذا يكون النهيُ نهيَ نصحٍ وإرشاد، وهذا ما رآه ابن عاشور في هذه الآية إذ يقول: "والإسراف والسرف: تجاوز الكافي من إرضاء النفس بالشيء المشتهى... وهو نهي إرشاد وإصلاح(٣).

(١) تفسير البيضاوي: ٥٨٩/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٥٤١/١
(٣) التحرير والتنوير: ١٢٣/٨

١١. المبالغة:

بالَغَ يبالغ مبالغة وبلاغاً إذا اجتهد في الأمر...والمبالغة أن تبلُغَ في الأمر[١].

ويكون النهي غرضه المبالغة إذا قام المتكلم فنهى المخاطب عن مقدمات الشيء الذي يريد منه الانتهاء عنه، وكأنه لا يريد منه مباشرة المقدمات فضلاً عن إتيان المنهي عنه نفسه، وهو زيادة في النهي ومبالغة فيه.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾التوبة: ٢٨، قال البيضاوي رحمه الله: (فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ) لنجاستهم، وإنما نهى عن الاقتراب للمبالغة أو للمنع عن دخول الحرم[٢].

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ البقرة: ٢٣٥، قال البيضاوي رحمه الله: (وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكاحِ) ذكر العزم مبالغة في النهي عن العقد، أي ولا تعزموا عقد عقدة النكاح[٣].

١٢. الإباحة:

يأتي النهي لغرض الإباحة، وفيه يكون المخاطَب على اعتقاد أن الشيء المنهيَّ عنه ممنوع فيأتي النهي ليدل على إباحته.

وذلك كقوله تعالى على لسان نَصَحَة قارون: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ القصص: ٧٧، قال البيضاوي رحمه الله: (وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ) من الغنى. (الدَّارَ الْآخِرَةَ) بصرفه

(١) لسان العرب (بلغ): ٣٤٦/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٤٧/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ٢٠٤/١

فيما يوجبها لك فإن المقصود منه أن يكون وصلة إليها. (وَلا تَنْسَ) ولا تترك ترك المنسي. (نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا) وهو أن تحصل بها آخرتك وتأخذ منها ما يكفيك[١].

فقوم قارون –الصالحون منهم– قدَّموا له عدة نصائح، فقد نصحوه أن يستخدم أمواله ويسخرها فيما يعود عليه بالنفع ابتداء، ثم لما خافوا أن يتوهم أن هذه النصيحة تُحرِّم الاستمتاع بالمال فيما أحل الله له، أتبعوها نصيحة أخرى مفادُها: لأن لا ينسَ نصيبه من الدنيا، بأن يُحصِّل منها ما يشاء بما أحل الله له، فيكون النهي في (ولا تنس نصيبك من الدنيا) غرضه الإباحة.

وقال ابن عاشور في هذه الآية: قال مالك: في رأيي معنى (ولا تنس نصيبك من الدنيا) تعيش وتأكل وتشرب غير مضيق عليك. وقال قتادة: نصيب الدنيا هو الحلال كله. وبذلك تكون هذه الآية مثالا لاستعمال صيغة النهي لمعنى الإباحة[٢].

١٣. التيئيس:

ويكون النهي من المتكلم للمخاطَب الذي يَهُمُّ بفعل أمر لا يقوى عليه، أو لا نفع له فيه من وجهة نظر المتكلم بغرض إيقاع اليأس في نفسه.

مثاله قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧ ﴾ التحريم: ٧، قال البيضاوي رحمه الله: أي يقال لهم ذلك عند دخولهم النار، والنهي عن الاعتذار لأنه لا عذر لهم أو العذر لا ينفعهم[٣].

فمهما أتوا بالمعاذير فلا تنفعهم وقت إذ، لأنها معاذير كاذبة، فيُقال لهم يوم القيامة (لا تعتذروا اليوم) لأنهم يرون في الاعتذار نجاةً لهم مما هم فيه من العذاب، فيقال لهم ذلك على سبيل التيئيس والإقناط.

ويقول الشوكاني في هذه الآية: أي يقال لهم هذا القول عند إدخالهم النار تأييساً لهم وقطعاً لأطماعهم[٤].

---

(١) تفسير البيضاوي: ٢٤/٣
(٢) التحرير والتنوير: ١٧٩/٢٠
(٣) تفسير البيضاوي: ٤٢١/٣
(٤) فتح القدير: ٣٣٧/٥

١٤. التعظيم والتغليظ:

كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾ البقرة: ١١٩، قال البيضاوي رحمه الله: (وَلا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ) ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلغت. وقرأ نافع ويعقوب: (لا تَسأل)، على أنه نهي للرسول صلّى الله عليه وسلّم عن السؤال عن حال أبويه. أو تعظيم لعقوبة الكفار كأنها لفظاعتها لا يقدر أن يخبر عنها، أو السامع لا يصبر على استماع خبرها فنهاه عن السؤال(١).

وقد علَّق ابن عاشور على هذه الآية: هو كناية عن فظاعة أحوال المشركين والكافرين حتى إن المتفكر في مصير حالهم ينهى عن الاشتغال بذلك لأنها أحوال لا يحيط بها الوصف ولا يبلغ إلى كنهها العقل في فظاعتها وشناعتها، وذلك أن النهي عن السؤال يرد لمعنى تعظيم أمر المسئول عنه نحو قول عائشة: "يصلي أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن"(٢).

١٥. التثبيط:

جاء في لسان العرب: ثَبَّطَه عَنِ الشَّيْءِ تَثْبِيطاً إِذا شغَلَه عَنْهُ. وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ ﴾ التوبة: ٤٦ قال أَبو إِسحق: التَّثْبِيطُ رَدُّكَ الإِنسانَ عَنِ الشَّيْءِ يَفْعَلُهُ، أَي كَرِهَ اللَّهُ أَن يَخْرجوا مَعَكُمْ فردَّهم عَنِ الْخُرُوجِ. وثَبَطَه عَنِ الشَّيْءِ ثَبْطاً وثَبَّطَه: رَيَّثه وثَبَّته. وثَبَّطه عَلَى الأَمر فتَثَبَّط: وقَّفه عَلَيْهِ فتوَقَّف(٣).

ومعنى ذلك أن النهي يأتي لغرض التثبيط إذا كان المتكلم يريد أن يُشغل المخاطب أو أن يردَّه عن عمل همَّ به، فينهاه عما همَّ به دفعاً له للكسل والجلوس عما أراد.

وذلك كقول الله عز وجل حكاية لحال المتخلفين القاعدين عن الجهاد: ﴿ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ التوبة: ٨١، قال البيضاوي رحمه الله: (وقالوا لا تنفروا في الحر) أي قال بعضهم لبعض، أو قالوه للمؤمنين تثبيطاً (٤)

(١) تفسير البيضاوي: ١٣٣/١
(٢) التحرير والتنوير: ٦٩٢/١
(٣) لسان العرب (ثبط): ٢٦٧/٧
(٤) تفسير البيضاوي: ٦٩/٢

١٦. التسلية:

ومعنى التسلية: كشف الهم والغم كما جاء في لسان العرب: وسلَّاني من همِّي تسليةً وأسلاني أي كشفه عني[١].

ويأتي النهي لغرض التسلية، إذا كان المتكلم ينهى المخاطب عن قول أو فعل يوقعه في الحزن، فيكون نهيه عن ذلك تسلية له مما وقع أو سيقع به من الحزن.

وذلك كقول الله عز وجل: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ يونس: ٦٥، قال القاضي البيضاوي: **(وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ)** إشراكهم وتكذيبهم وتهديدهم. (إن الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً) استئناف بمعنى التعليل ويدل عليه القراءة بالفتح كأنه قيل لا تحزن بقولهم ولا تبال بهم لأن الغلبة لله جميعاً لا يملك غيره شيئاً منها فهو يقهرهم وينصرك عليهم[٢].

فغاية النهي هو تسلية النبي صلى الله عليه وسلم مما وقع عليه من أذى الكفار، ووقوفهم في وجه دعوته، وقتلهم وتعذيبهم للمؤمنين.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ إبراهيم: ٤٢، قال البيضاوي رحمه الله: وقيل إنه تسلية للمظلوم وتهديدٌ للظالم [٣]

(١) لسان العرب (سلا): ٣٩٤/١٤
(٢) تفسير البيضاوي: ١٠٨/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ٢٢٨/٢

ثالثاً: الاستفهام:

عرَّف العلوي الاستفهام فقال: هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل وذلك بأداة من إحدى أدواته الآتية وهي: الهمزة، وهل، وما، ومتى، وأيَّان، وكيف، وأين، وأنَّى، وكم، وأَ٨ي[١]

ويقول السكاكي في باب الاستفهام: للاستفهام كلمات موضوعة، وهي: الهمزة وأم وهل وما من وأي وكم وكيف وأين وأنى ومتى وأيان بفتح الهمزة وبكسرها...وهذه الكلمات ثلاثة أنواع: أحدها يختص طلب حصول التصور، وثانيها يختص طلب حصول التصديق، وثالثها لا يختص[٢]

وللاستفهام أدوات كثيرة كما أشار السكاكي، منها ما يفيد التصور، ومنها ما يفيد التصديق، ومنها ما يفيد التصور والتصديق معاً.

أما التصور: فهو طلب تعيين المفرد، نحو: أزيد ناجح أم أسامة؟ أما التصديق: فهو طلب تعيين النسبة أو الحكم، نحو: أقام محمد؟ وأفهمت الدرس؟

وأداة الاستفهام التي تفيد التصور والتصديق معاً هي: الهمزة فقط، أما أداة الاستفهام التي تفيد التصديق فهي: هل[٣].

والأدوات التي تفيد التصور هي[٤]:

١. (ما): ويطلب بها شرح الشيء، وأكثر ما يستفهم بها عن غير العاقل.
٢. (من): وأكثر ما يستفهم بها عن العاقل.
٣. (متى): ويسأل بها عن الزمان ماضياً كان أو مستقبلاً.
٤. (أيَّان): ويسأل بها عن المستقبل.
٥. (أين): ويسأل بها عن المكان.
٦. (أنى): ويسأل بها عن الحال، فتستعمل بمعنى كيف.
٧. (كيف): ويسأل بها عن الحال.
٨. (كم): ويسأل بها عن العدد.
٩. (أي): وهي للسؤال عما يميز أحد المتشاركين في أمر يعمهما

---

(١) الطراز: ٧٨/١
(٢) مفتاح العلوم: ٣٠٨
(٣) انظر: من بلاغة القرآن: أ.د محمد علوان، أ. د نعمان علوان: ٤١ بتصرف.
(٤) السابق: ٤٢-٤٤ (بتصرف)

الأغراض البلاغية للاستفهام:

١. التوبيخ والتقريع والتبكيت:

والتَّبْكِيتُ: كالتَّقْرِيعِ والتَّعْنِيفِ، بَكَّتَه تَبْكِيتاً إذا قَرَّعَه بالعَذْل تَقْريعاً، وبَكَتَه بالحُجَّة أَي غَلَبه. وبَكَتَه يَبْكُتُه بَكْتاً، وبَكَّتَه: كِلَاهُمَا اسْتَقْبَلَهُ بِمَا يَكْرَه(١).

وجاء في لسان العرب: **(وبَّخَه: لامَه وَعَذَلَهُ)**، وعلى ذلك يكون معنى التوبيخ مخاطبة الغير على جهة اللوم والتخطئة على فعل أو قول قام به(٢)

أما التقريع فقد جاء في لسان العرب: والتقريع التأنيب والتعنيف وقيل هو الإيجاع باللوم وقَرَعْتُ الرجل إذا وبخته وعذلته(٣)

فيتضح من المعاني اللغوية للتبكيت والتوبيخ والتقريع أنها كلها متقاربة في المعنى، وهو التأنيب واستقباله بما يكره وإيقاع اللوم عليه، وكلها معانٍ متقاربة.

ومن الاستفهام الذي جاء لغرض التوبيخ قوله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾** ﴾ التوبة: ٣٨، قال البيضاوي رحمه الله: و(اثاقلتم) على الاستفهام للتوبيخ(٤).

ومن الاستفهام الذي غرضه التقريع قوله تعالى: ﴿ **قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٩﴾** ﴾ آل عمران: ٩٨ – ٩٩، قال البيضاوي رحمه الله: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ) كرر الخطاب والاستفهام مبالغة في التقريع ونفي العذر لهم، وإشعاراً بأن كل واحد من الأمرين مستقبح في نفسه مستقل باستجلاب العذاب، وسبيل الله في دينه الحق المأمور بسلوكه وهو الإسلام. قيل كانوا يفتنون المؤمنين ويحرشون بينهم حتى أتوا الأوس

(١) لسان العرب (بكت): ٣٣٢/١
(٢) لسان العرب (وبخ): ٤٧٥١/٦
(٣) لسان العرب (قرع): ٣٥٩٦/٥
(٤) تفسير البيضاوي: ٥٣/٢

والخزرج فذكروهم ما بينهم في الجاهلية من التعادي والتحارب ليعودوا لمثله ويحتالون لصدهم عنه[١].

ومثال ما غرضه التبكيت والتقريع قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾ الفرقان: ١٧، قال البيضاوي رحمه الله: **(أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ)** لإخلالهم بالنظر الصحيح وإعراضهم عن المرشد النصيح، وهو استفهام تقريع وتبكيت للعبدة[٢].

٢. التهكم والاستهزاء:

يأتي الاستفهام لغرض التهكم والاستهزاء "والتهكم في الاصطلاح: هو الخطاب بلفظ الإجلال في موضع التحقير، والبشارة في موضع التحذير، والوعد في مكان الوعيد، والعذر في موضع اللوم، والمدح في موضع السخرية، ونحو ذلك[٣].

ومنه قوله جل اسمه: **(وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ)** (الزخرف:١٩)، قال البيضاوي رحمه الله: (أشهدوا خلقهم) أحضروا خلق الله إياهم فشاهدوهم إناثاً، فإن ذلك مما يعلم بالمشاهدة وهو تجهيل وتهكم بهم[٤].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾ الفرقان: ١٥، قال البيضاوي رحمه الله: (قُلْ أَذلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ) الإشارة إلى العذاب والاستفهام والتفضيل والترديد للتقريع مع التهكم[٥].

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾ الفرقان: ٤١، قال البيضاوي رحمه الله: **(أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا)** محكي بعد قول مضمر والإشارة للاستحقار...وهم على غاية الإنكار تهكم واستهزاء ولولاه لقالوا أهذا الذي زعم أنه بعثه الله رسولاً[٦].

---

(١) تفسير البيضاوي: ٢٨٢/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٥١٧/٢
(٣) المعجم المفصل في علوم البلاغة: ٤٤١
(٤) تفسير البيضاوي: ٢٤٧/٣
(٥) تفسير البيضاوي: ٥١٦/٢
(٦) تفسير البيضاوي: ٥٢٤/٢

٣. التشويق:

الشوق والاشتياق نزاع النفس إلى الشيء، والشوق حركة الهوى[١]، ويأتي الاستفهام بغرض التشويق عند إيراد السؤال من المتكلم إلى المخاطب بغرض تشويقه وإثارة دافعيته للانتباه للموضع المتحدَّث عنه، أو إلى فعل يريده أن يفعله.

ومن الاستفهام الذي جاء لغرض التشويق قولُه تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ ﴾ص: ٢١، قال البيضاوي رحمه الله: (وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ) استفهام معناه التعجيب والتشويق إلى استماعه[٢].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ ﴾ الغاشية: ١، قال عنها صاحب فتح القدير: (هل أتاك حديث الغاشية) قال جماعة من المفسرين: هل هنا بمعنى قد، وبه قال قطرب، أي: قد جاءك يا محمد حديث الغاشية، وهي القيامة لأنها تغشى الخلائق بأهوالها. وقيل: إن بقاء هل هنا على معناها الاستفهامي المتضمن للتعجيب مما في خبره، والتشويق إلى استماعه[٣].

٤. التحضيض والتحريض:

الحَضُّ: ضرْبٌ مِنَ الْحَثِّ فِي السَّيْرِ وَالسَّوْقِ وَكُلِّ شَيْءٍ، قال الأزهري: الحَضُّ الحَثُّ عَلَى الْخَيْرِ. وَيُقَالُ: حَضَّضْت الْقَوْمَ عَلَى الْقِتَالِ تَحْضِيضاً إذا حَرَّضْتهم...وحضَّضه أي حرَّضه[٤].

والتحريض: التحضيض، قال الجوهري: التحريض على القتال: الحث والإحماء عليه، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾ الأنفال: ٦٥، قال الزجاج: تأويله حُثَّهم على القتال. قال وتأويل التحريض في اللغة: أن تَحُثَّ الإنسان حثاً يعلم معه أنه حارضٌ إن تخلَّف عنه[٥]

مما سبق يتضح لنا تقارب معنيي التحريض والتحضيض، لذلك يمكن جعل الاستفهام الذي يجيء لغرض التحضيض والتحريض تحت غرض واحد لتقارب المعنيين.

(١) لسان العرب (شوق): ٢٣٦١/٤
(٢) تفسير البيضاوي: ١٦٩/٣
(٣) فتح القدير: ٥٧١/٥
(٤) لسان العرب (حضض): ٩١٠/٢
(٥) لسان العرب (حرض): ٨٣٦/٢

وبذلك يأتي الاستفهام لغرض التحضيض، إذا جاء طلب الفعل مصحوباً بالحث والإحماء عليه، وله أدوات منها: "لولا" و"لوما" و"هلَّا" و"ألَّا".

ومثاله قوله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾ التوبة: ١٠٣ – ١٠٤، قال البيضاوي رحمه الله: (أَلَمْ يَعْلَمُوا) الضمير إما للمتوب عليهم والمراد أن يمكن في قلوبهم قبول توبتهم والاعتداد بصدقاتهم، أو لغيرهم والمراد به التحضيض عليهما(١).

فالله عز وجل يحض المؤمنين ويحثهم على التوبة، وعلى ما توجب قَبولها عند الله وهي الصدقات وصلوات النبي صلى الله عليه وسلم والتي هي الدعاء لهم.

ومن الاستفهام الذي يجيء للتحريض، قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ يوسف: ٨٨ – ٨٩، قال البيضاوي رحمه الله: (قالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ) أي هل علمتم قبحه فتبتم عنه وفعلهم بأخيه إفراده عن يوسف وإذلاله حتى لا يستطيع أن يكلمهم إلا بعجز وذلة. (إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ) قبحه فلذلك أقدمتم عليه أو عاقبته، وإنما قال ذلك تنصيحاً لهم وتحريضاً على التوبة، وشفقة عليهم لما رأى من عجزهم وتمسكنهم لا معاتبة وتثريباً(٢).

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ ﴾ النساء: ٣٩، قال البيضاوي رحمه الله: أي تبعة تحيق بهم بسبب الإيمان والإنفاق في سبيل الله، وهو توبيخ لهم على الجهل بمكان المنفعة والاعتقاد في الشيء على خلاف ما هو عليه، وتحريض على الفكر لطلب الجواب لعله يؤدي بهم إلى العلم بما فيه من الفوائد الجليلة، والعوائد الجميلة. وتنبيه على أن المدعو إلى أمر لا ضرر فيه ينبغي أن يجيب إليه احتياطاً، فكيف إذا تضمن المنافع(٣).

(١) تفسير البيضاوي: ٧٧/٢
(٢) تفسير البيضاوي: ١٨٩/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ٣٥٧/١

٥. النهي:

قد يخرج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى معنى النهي، أي طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ البقرة: ٧٦، قال البيضاوي رحمه الله: (وَإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا) يعني منافقيهم. (قالُوا آمَنَّا) بأنكم على الحق، وإن رسولكم هو المبشر به في التوراة (وَإِذا خَلا بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ قالُوا) أي الذين لم ينافقوا منهم عاتبين على من نافق. (أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ) بما بين لكم في التوراة من نعت محمد صلّى الله عليه وسلّم، أو الذين نافقوا لأعقابهم إظهاراً للتصلب في اليهودية، ومنعاً لهم عن إبداء ما وجدوا في كتابهم، فينافقون الفريقين. فالاستفهام على الأول تقريع وعلى الثاني إنكار ونهي[١].

٦. الإنكار:

قد يخرج الاستفهام عن معناه الأصلي للدلالة على أن المستفهم عنه أمرٌ منكرٌ عرفاً أو شرعاً، ويأتي على نوعين:

النوع الأول: إنكار توبيخ: ويأتي بوجهين، فهو إما إنكار للتوبيخ على أمر وقع في الماضي، بمعنى ما كان ينبغي أن يكون ذلك الأمر الذي كان، أو إنكار توبيخ على أمر وقع في الحال، أو خيف وقوعه في المستقبل.

النوع الثاني: إنكار تكذيب: ويأتي بوجهين أيضاً، فهو إما إنكار للتكذيب في الماضي، بمعنى لم يكن، أي أن المخاطب إن ادعى وقوع شيء فيما مضى، أُتي بالاستفهام الإنكاري تكذيباً له في دعواه، وإما إنكار للتكذيب في الحال أو في المستقبل.

فمن الإنكار التوبيخي قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ ﴾ النساء: ٢٠، قال البيضاوي رحمه الله: (**أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً**) إستفهام إنكار وتوبيخ، أي تأخذونه باهتين وآثمين...قيل كان

(١) تفسير البيضاوي: ١/١١٣

الرجل منهم إذا أراد امرأة جديدة بهت التي تحته بفاحشة حتى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها ليصرفه إلى تزوج الجديدة، فنهوا عن ذلك[1].

ومن الانكار التكذيبي قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ الصافات: ١٥١ – ١٥٣، قال البيضاوي رحمه الله: **(أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ)** استفهام إنكار واستبعاد، والاصطفاء أخذ صفوة الشيء[2].

٧. الأمر والحث:

يأتي الاستفهام أيضاً لغرض الأمر، ويكون معنى الاستفهام طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام، ويأتي أيضاً للدلالة على الحث، والحث والأمر معنيان متقاربان.

ومما جاء من الاستفهام لغرض الأمر قوله تعالى عن سيدنا داود عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ الأنبياء: ٨٠، قال البيضاوي رحمه الله: **(فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ)** ذلك أمر أخرجه في صورة الاستفهام للمبالغة والتقريع[3]

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾ آل عمران: ٢٠، قال البيضاوي رحمه الله: **(أَأَسْلَمْتُمْ)** كما أسلمت لما وضحت لكم الحجة، أم أنتم بعد على كفركم ونظيره وقوله: (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) وفيه تعيير لهم بالبلادة أو المعاندة[4]

وإن لم يُصرّح البيضاوي بأن الاستفهام في (أأسلمتم) للأمر والحث لكنه يُفهم من ذكر نظيره وهو (فهل أنتم منتهون) أنه للأمر والحث.

ومن الاستفهام الذي جاء للحث قوله تعالى عن سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ الذاريات: ٢٦ – ٢٧، قال صاحب أنوار التنزيل: (فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ) بأن وضعه بين أيديهم. (قالَ أَلا تَأْكُلُونَ) أي منه، وهو مشعر بكونه حنيذا، والهمزة

(١) تفسير البيضاوي: ٣٤٢/١
(٢) تفسير البيضاوي: ١٦١/٣
(٣) تفسير البيضاوي: ٤٢٩/٢
(٤) تفسير البيضاوي: ٢٥٠/١

فيه للعرض والحث على الأكل على طريقة الأدب إن قاله أول ما وضعه، وللإنكار إن قاله حينما رأى إعراضهم[١]

٨. **النفي**:

يأتي الاستفهام ويكون الغرض منه النفي كما في قوله تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ** ﴿١٣٥﴾ ﴾ آل عمران: ١٣٥، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ)** استفهام بمعنى النفي معترض بين المعطوفين، والمراد به وصفه تعالى بسعة الرحمة وعموم المغفرة والحث على الاستغفار والوعد بقبول التوبة[٢]. والمعنى: لا أحد يغفر الذنوب إلا الله.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ **صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ** ﴿١٣٨﴾ ﴾ البقرة: ١٣٨، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً)** لا صبغة أحسن من صبغته[٣].

٩. **التعجب**:

العُجْبُ والعَجَبُ: إنكارُ مَا يَرِدُ عَلَيْكَ لقِلَّةِ اعْتِيادِه... قَالَ الزَّجَّاجُ: أَصلُ العَجَبِ فِي اللُّغَةِ، أَن الإنسان إذا رأَى مَا يُنْكِرُهُ ويَقِلُّ مِثْلُه، قَالَ: قَدْ عَجِبْتُ مِنْ كَذَا...قال ابن الأعرابي: العَجَبُ النَّظَرُ إِلى شيءٍ غَيْرِ مأْلوف وَلَا مُعتادٍ[٤].

إذاً يأتي الاستفهام بغرض التعجب إذا جاء ليدل على شيء غير مألوف ولا معتاد، ومثاله قوله تعالى في مريم عليها السلام: ﴿ **قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ** ﴿٤٧﴾ ﴾ آل عمران: ٤٧، قال البيضاوي رحمه الله: **(قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ)** تعجب، أو استبعاد عادي، أو استفهام عن أنه يكون بتزوج أو غيره[٥] والمعنى أن غرضها من الاستفهام إظهار تعجبها، لأنه ليس من المألوف والمعتاد أن يكون لها ولد وهي لم تتزوج، ولم يمسسها بشر.

(١) تفسير البيضاوي: ٣٢٣/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٢٩٨/١
(٣) تفسير البيضاوي: ١٤٣/١
(٤) لسان العرب (عجب): ٢٨١١/٤
(٥) تفسير البيضاوي: ٢٦٢/١

ومثاله أيضاً قوله تعالى على لسان والد إبراهيم عليه السلام: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ ﴾ مريم: ٤٦، قال البيضاوي رحمه الله: **(قالَ أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ)** قابل استعطافه –أي إبراهيم عليه السلام– ولطفه في الارشاد بالفظاظة وغلظة العناد فناداه باسمه ولم يقابل (يَا أَبَتِ): بيا بني، وأخره وقدم الخبر على المبتدأ وصدره بالهمزة لإنكار نفس الرغبة على ضرب من التعجب، كأنها مما لا يرغب عنها عاقل(١).

فوالد إبراهيم عليه السلام تعجب من رغبة إبراهيم عن عبادة الأصنام، كأن عبادتها هو الأمر الصحيح الذي لا يجوز أن يحيد عنها عاقل، على عادة أهل الباطل، فهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً كما قال الله عنهم: ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ الكهف: ١٠٤، ويتهمون كل من حاد عن عبادة الأصنام بأنه أتى أمراً عجاباً مع أنهم أحق بالتعجب من حالهم، فقد قال الله عنهم يحكي قولهم وتعجبهم: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾ ص: ٥

١٠. التعجيب:

يأتي الاستفهام ويراد به التعجيب، وهو يشبه التعجب في كونه إيراد الاستفهام بغرض إنكار شيء غير مألوف ولا معتاد، ويختلف عنه في أن التعجيب يراد به إيقاع العُجب على المخاطب.

ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ ﴾ الشعراء: ١٠ – ١١، قال البيضاوي رحمه الله: **(أَلا يَتَّقُونَ)** استئناف أتبعه إرساله إليهم للإنذار تعجيباً له من إفراطهم في الظلم واجترائهم عليه(٢).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ المائدة: ٧٤، قال البيضاوي رحمه الله: **(أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ)** أي أفلا يتوبون بالانتهاء عن تلك العقائد والأقوال الزائغة ويستغفرونه بالتوحيد والتنزيه عن الاتحاد والحلول بعد هذا التقرير والتهديد...وفي هذا الاستفهام تعجيب من إصرارهم(٣)

(١) تفسير البيضاوي: ٣٦٩/٢
(٢) تفسير البيضاوي: ٥٣٥/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ٤٥٤/١

١١. التقرير:

أورد الإمام عبد القاهر الجرجاني الاستفهام للتقرير في دلائل الإعجاز فقال: واعلمْ أَنَّ هذا الذي ذكرتُ لك في "الهمزة وهي للاستفهام" قائمٌ فيها إذا هيَ كانت للتقرير. فإذا قلتَ: "أَأَنْتَ فعلتَ ذاك؟ "، كان غرضك أن تقرره بأنه الفاعل. يُبَيِّنُ ذلكَ قولُه تعالى، حكايةً عن قَوْل نمروذ: ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾ الأنبياء: ٦٢ لا شبْهةَ في أنَّهم لم يقولوا ذلك له عليه السلامُ وهم يُريدون أنْ يُقِرَّ لهم بأَنَّ كَسْرَ الأصنام قد كانَ، ولكنْ أن يقر بأنه منه كان، وكيف؟ وقد أشاروا له إلى الفِعل في قولهم: (أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا) (١)

لذلك فإن المقصود بالاستفهام الذي يجي لغرض التقرير هو حمل المخاطب على الاعتراف بالشيء المُستفهم عنه.

وأورد ابن فارس الاستفهام لغرض التقرير في كتابه الصاحبي حيث يقول: "ويكون استخباراً، والمعنى تقرير. نحو قوله جلّ ثناؤه: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ الأعراف: ١٧٢"(٢)

مما جاء في كتاب الله من الاستفهام لغرض التقرير قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ يوسف: ٨٩ – ٩٠، قال البيضاوي رحمه الله: (قالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ) استفهام تقرير ولذلك حقق بأن ودخول اللام عليه(٣).

فإخوة يوسف عليه السلام بعد أن كشف لهم عن نفسه وذكَّرهم بما فعلوا، سألوه هذا السؤال، سؤال تقرير، ليتأكدوا يقيناً أنه هو، وفي هذا يقول ابن عاشور: "وأدخل الاستفهام التقريري على الجملة المؤكدة لأنهم تطلبوا تأييده لعلمهم به"(٤)

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ الأعراف: ١٧٢، قال البيضاوي رحمه الله: (وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا) أي ونصب لهم دلائل ربوبيته

(١) دلائل الإعجاز: ١١٣
(٢) الصاحبي: ١٣٥
(٣) تفسير البيضاوي: ١٨٩/٢
(٤) التحرير والتنوير: ٤٩/١٣

وركب في عقولهم ما يدعوهم إلى الاقرار بها حتى صاروا بمنزلة من قيل لهم: (**أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى**) فنزل تمكينهم من العلم بها وتمكنهم منه بمنزلة الإشهاد والاعتراف على طريقة التمثيل[1].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ **أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾** ﴾ البقرة: ١٣٣، قال البيضاوي رحمه الله: (مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي) أي: أي شيء تعبدونه، أراد به تقريرهم على التوحيد والإسلام، وأخذ ميثاقهم على الثبات عليهما[2].

١٢. التحقير:

ويكون الاستفهام لغرض التحقير عندما يخرج الاستفهام عن معناه الأصلي للدلالة على ضآلة المسؤول عنه وصِغَر شأنه، مع معرفة المتكلم أو السائل به[3].

ومما جاء في القرآن الكريم من الاستفهام لغرض التحقير قوله تعالى: ﴿ **قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾** ﴾ عبس: ١٧ – ١٩، قال البيضاوي رحمه الله: (مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) بيان لما أنعم عليه خصوصاً من مبدأ حدوثه، والاستفهام للتحقير ولذلك أجاب عنه بقوله: (مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ) فهيأه لما يصلح له من الأعضاء والأشكال، أو فَقَدَّرَهُ أطواراً إلى أن تم خلقته[4].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾** ﴾ الأنبياء: ٥١ – ٥٢، قال البيضاوي رحمه الله: (مَا هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ) تحقير لشأنها وتوبيخ على إجلالها، فإن التمثال صورة لا روح فيها لا يضر ولا ينفع[5].

١٣. التهويل:

أشار القزويني في الإيضاح إلى أن الاستفهام يأتي لغرض التهويل ومثَّل له بقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾** ﴾ الدخان: ٣٠ –

(١) تفسير البيضاوي: ٥٨١/١
(٢) تفسير البيضاوي: ١٤١/١
(٣) علم المعاني والبيان والبديع: عبد العزيز عتيق: ٩٥
(٤) تفسير البيضاوي: ٥٠٠/٣
(٥) تفسير البيضاوي: ٤٢٣/٢

٣١، وقال: كقراءة ابن عباس رضي الله عنهما: (وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بنِي إِسْرائيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ مَنْ فِرْعَوْنَ) ، بلفظ الاستفهام، لما وصف الله تعالى العذاب بأنه مهين لشدته وفظاعة شأنه، أراد أن يصور كنهه، فقال: (مَن فرعون؟) أي أتعرفون من هو في فرط عتوه وتجبره، ما ظنكم بعذاب يكون هو المعذب به، ثم عرف حاله بقوله (إنه كان عاليا من المسرفين) [١]

ويسمي البيضاوي هذا الغرض (الاستعظام) ومثاله ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ آل عمران: ٢٤ – ٢٥، قال البيضاوي رحمه الله: (فَكَيْفَ إِذا جَمَعْناهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ) استعظام لما يحيق بهم في الآخرة وتكذيب لقولهم (لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات) [٢].

فإنهم لما أنكروا هول عذاب الله عز وجل الذي سيحيق بهم في الآخرة لتكذيبهم بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم، واستهانتهم بالنار زاعمين أنها لن تكون إلا أياماً معدودة، فكأنهم قادرون على احتمال هذه الأيام إن كانت معدودة كما يزعمون، فردَّ الله عليهم بالاستفهام الذي يدلُّ على تهويل يوم الجمع، الذي هو قبل دخول النار، فإذا كان الله قد دلَّنا على أن يوم الجمع يوم مَهول، فما بالك بما بعده من عذاب سرمدي في النار، وهنا تكمن بلاغة القرآن في الدلالة على المعاني مع شدة الإيجاز والإعجاز.

١٤. الاستبعاد:

أورد هذا الغرض من أغراض الاستفهام القزويني في الإيضاح ومثَّل له بقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾ الدخان: ١٣[٣]

وقيل: هو عدُّ الشيء بعيداً حساً أو معنىً، وقد يكون منكراً مكروهاً غير منتظر أصلاً[٤].

(١) الإيضاح: ٧٨/٣
(٢) تفسير البيضاوي: ٢٥٢/١
(٣) الإيضاح: ٧٩/٣
(٤) علم المعاني والبيان والبديع: عبد العزيز عتيق: ٩٨

ومما جاء في تفسير البيضاوي على هذا الغرض قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ الإسراء: ٤٩، قال البيضاوي رحمه الله: (أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً) على الإنكار والاستبعاد لما بين غضاضة الحي ويبوسة الرميم، من المباعدة والمنافاة[١].

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ الأعراف: ٧٠، قال البيضاوي رحمه الله: استبعدوا اختصاص الله بالعبادة والأعراض عما أشرك به آباؤهم انهماكاً في التقليد وحباً لما ألفوه[٢].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾ المائدة: ٨٣ – ٨٤، قال البيضاوي رحمه الله: استفهام إنكار واستبعاد لانتفاء الإيمان مع قيام الداعي وهو الطمع في الانخراط مع الصالحين، والدخول في مداخلهم[٣].

١٥. العَرْض:

أشار السكَّاكي إلى الاستفهام لغرض العرض فقال: كما إذا قلت لمن تراه لا ينزل ألا تنزل فتصيب خيرا امتنع أن يكون المطلوب بالاستفهام التصديق بحال نزول صاحبك لكونه حاصلا ويوجه بمعونة قرينة الحال على نحو ألا تحب النزول مع محبتنا إياه، وولَّد معنى العرض[٤]

وقد عقَّب البيضاوي على آية: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ طه: ٤٣ – ٤٤، قال البيضاوي: (فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً) مثل ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ النازعات: ١٨ – ١٩ فإنه دعوة في صورة عرض ومشورة حذراً أن تحمله الحماقة على أن يسطو عليكما[٥].

(١) تفسير البيضاوي: ٣٠٥/٢
(٢) تفسير البيضاوي: ٥٥٢/١
(٣) تفسير البيضاوي: ٤٥٦/١
(٤) مفتاح العلوم: ٣٠٤
(٥) تفسير البيضاوي: ٣٩٢/٢

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ الذاريات: ٢٧، قال البيضاوي رحمه الله: (فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ) بأن وضعه بين أيديهم. (قالَ أَلا تَأْكُلُونَ) أي منه، وهو مشعر بكونه حنيذا، والهمزة فيه للعرض والحث على الأكل على طريقة الأدب[١].

١٦. الاستبطاء:

وهو عدُّ الشيء بطيئاً في زمن انتظاره[٢].

ومثاله قوله تعالى: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾ ﴾ البقرة: ٢١٤، قال البيضاوي رحمه الله: (مَتى نَصْرُ اللَّهِ) استبطاء له لتأخره[٣].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴾ الشعراء: ٣٨ – ٣٩، قال البيضاوي رحمه الله: (**وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ**) فيه استبطاء لهم في الاجتماع حثاً على مبادرتهم إليه كقول تأبط شراً:

هَلْ أَنْتَ بَاعِثُ دِينَارٍ لحَاجَتِنَا أَوْ عَبْدَ رَبٍّ أَخَا عَوْنِ بن مِخْرَاقِ[٤]

(١) تفسير البيضاوي: ٣/٣٢٣
(٢) علم المعاني والبيان والبديع: عبد العزيز عتيق: ٩٧
(٣) تفسير البيضاوي: ١/١٨٥
(٤) تفسير البيضاوي: ٣/٥٣٩

رابعاً: التمني:

عرَّف العلوي التمني فقال: هو عبارة عن توقع أمر محبوب فى المستقبل[1]. وقيل هو: هو طلب حصول شيء محبوب لا يرجى حصوله، إما لكونه مستحيلا، كقول المتنبي:

فليت وقارك فرقته وحملت أرضك ما تحمل

وإما لكونه بعيد التحقق والحصول نحو: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ القصص: ٧٩ [2]

ويُلاحظ من التعريف أن التمني طلب حصول شيء محبوب لذلك فهو يُعد من الأساليب الإنشائية الطلبية التي سمَّاها العلوي صاحب الطراز بالطلب الإيجابي فقال عند حديثه عن الطلب: وينقسم إلى طلب سلبي، وإلى طلب إيجابي فالطلب الإيجابي: هو الأمر، والتمني، والطلب السلبي هو النهي، وكلا الأمرين وارد في كتاب الله تعالى[3].

فالتمني والنداء وإن اتفقا مع النهي في كونهما من الأساليب الإنشائية لكن يختلفان في أن الأمر والتمني يُطلب بهما حصول أمر غير حاصل فبذلك سُمي طلباً إيجابياً، بينما النهي يُطلب به عدم حصول الشيء ولذلك سماه العلوي طلباً سلبياً.

تعريف التمني عند البيضاوي:

القاضي البيضاوي رحمه في تفسيره ألمح إلى تعريف التمني وهو يُقارب التعريف الذي استقر عليه العلماء بعد ذلك، ونرى ذلك عند تعرَّضه لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٣٢﴾ النساء: ٣٢.

قال البيضاوي: وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ من الأمور الدنيوية كالجاه والمال، فلعل عدمه خير والمقتضي للمنع كونه ذريعة إلى التحاسد والتعادي، معربة عن عدم الرضا بما قسم الله له، وأنه تشهٍ لحصول الشيء له من غير طلب وهو مذموم، لأن تمني ما لم يقدر له

(١) الطراز: ٣/١٦٠.
(٢) علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع»: أحمد المراغي، ص٦٢.
(٣) الطراز: ٣/١٥٥.

معارضة لحكمة القدر، وتمني ما قدر له بكسب بطالة وتضييع حظ، وتمني ما قدر له بغير كسب ضائع ومحال(١).

فعبارة البيضاوي السابقة تحمل عدة معانٍ مهمة يحسن الوقوف عليها، التي منها قوله في التمني: "**وأنه تشهٍ لحصول الشيء له من غير طلب وهو مذموم**" وبهذا يوافق البيضاوي العلماء في تعريفهم للتمني من كونه طلب حصول شيء محبوب، لكن البيضاوي علَّق في عبارته السابقة على قضية تمني الممكن وتمني المستحيل من وجهة شرعية لا بلاغية، فالتمني عند البلاغيين يكون في الأمر المستحيل، أو فيما هو ممكن بعيد التحقق والحصول، وقد أشار البيضاوي إلى أن تمني المستحيل معارضة لحكمة القدر، فاختلاف البيضاوي على التمني الذي يكون مستحيلاً اختلاف شرعي لا بلاغي، لأن الإسلام حثنا على الاجتهاد وعدم الاتكال على التمني الذي لا ينفع الإنسان كما قال عليه الصلاة والسلام: "**لَيْسَ الإِيمَانُ بِالتَّمَنِّي، وَلا بِالتَّحَلِّي، لَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ، وَصَدَّقَهُ الْفِعْلُ**"(٢).

ألفاظ التمني:

١. ليت:

ومما جاء من التمني بـ "**ليت**" في القرآن الكريم قوله تعالى حكاية عن قول حبيب النجار عندما دعا قومه إلى عبادة الله عز وجل: ﴿ **إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾** ﴾ يس: ٢٥ – ٢٦، قال البيضاوي رحمه الله: **قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ** قيل له ذلك لما قتلوه بشرى له بأنه من أهل الجنة، أو إكراماً وإذناً في دخولها كسائر الشهداء... وإنما **تمنى علم قومه** بحاله ليحملهم على اكتساب مثلها بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان والطاعة على دأب الأولياء في كظم الغيظ والترحم على الأعداء، أو ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم في أمره وأنه كان على حق(٣).

---

(١) تفسير البيضاوي: ٥٣/١

(٢) أمالي ابن بشران: أبو القاسم ابن بشران ١٤١/٢، تحقيق أحمد بن سليمان، دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م

(٣) تفسير البيضاوي: ١٣٠/٣

فحبيب النجار تمنَّى بقوله: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾ أن يعلم قومه بحاله، وتمنيه هذا هو طلب محبوب إلى نفسه، فإنه تمنى أن يعلم قومه ما هو فيه من النعيم والثواب في الآخرة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ليدفعهم هذا العلم إلى الإيمان بالله عز وجل.

٢. **هل**:

واللفظة الثانية الموضوعة للتمني هي: "**هل**" والأصل أنها للاستفهام، وسبب العدول عن "ليت" إلى "هل" إبراز المُتمنَّى لكمال العناية به في صورة الممكن الذي لا يجزم بانتفائه(١).

والذي يحدد أن معنى هل الاستفهام أو التمني هو مقتضى الحال الذي ترد فيه كما يقول السكَّاكي رحمه الله: "كما إذا قلت هل لي من شفيع في مقام لا يسع إمكان التصديق بوجود الشفيع امتنع إجراء الاستفهام على أصله وولَّد بمعونة قرائن الأحوال معنى التمني"(٢).

ومما جاء في القرآن الكريم من التمني بـ "هل" قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٥٣﴾ الأعراف: ٥٣، قال البيضاوي رحمه الله: (فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا) اليوم. (أَوْ نُرَدُّ) أو هل نرد إلى الدنيا. وقرئ بالنصب عطفاً على (فَيَشْفَعُوا)، أو لأن أَوْ بمعنى إلى أن، فعلى الأول المسؤول أحد الأمرين الشفاعة أو ردهم إلى الدنيا، وعلى الثاني أن يكون لهم شفعاء إما لأحد الأمرين أو لأمر واحد وهو الرد(٣).

فيُفهم من كلام البيضاوي رحمه الله أن استعمال "هل" هنا للسؤال، ولكن ليس سؤال علم، فهم يعلمون يقيناً أن لا شفيع لهم كما قال الله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ١٠١﴾ الشعراء: ١٠٠ – ١٠١ ، ولكنَّه سؤال تمنٍ للرَّجْعَة إلى الدنيا ليُحصِّلوا ما فاتهم مما يُستجلب به رضى الله عز وجل ودخول الجنة.

وقد أشار الطاهر ابن عاشور إلى ذلك فقال: والاستفهام يجوز أن يكون حقيقيا يقوله بعضهم لبعض، لعل أحدهم يرشدهم إلى مخلِّص لهم من تلك الورطة، وهذا القول يقولونه في ابتداء

(١) جواهر البلاغة: ٨٧.
(٢) مفتاح العلوم: ٣٠٤/١.
(٣) تفسير البيضاوي: ٥٧٤/١.

رؤية ما يهددهم قبل أن يوقنوا بانتفاء الشفعاء المحكي عنهم في قوله تعالى: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ الشعراء: ١٠٠ – ١٠١، **ويجوز أن يكون الاستفهام مستعملا في التمني**[١].

٣. لو:

تُستعمل لو للتمني بدلاً من ليت لإظهار المُتمنَّى في صورة الممتنع علماً بأن لو في أصل استعمالها حرف امتناع لامتناع[٢].

ومن التمني بـ "لو" في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفۡسٌ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ الزمر: ٥٥ – ٥٨ ، قال البيضاوي رحمه الله: ﴿ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي ﴾ بالإرشاد إلى الحق. ﴿ لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ الشرك والمعاصي. ﴿ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ الزمر: ٥٩ ، ردٌّ من الله عليه لما تضمنه قوله ﴿ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي ﴾ من معنى النفي، وفَصَله عنه لأن تقديمه يفرق القرائن وتأخير المودود يخل بالنظم المطابق للوجود لأنه يتحسر بالتفريط ثم يتعلل بفقد الهداية ثم يتمنى الرجعة[٣].

فالبيضاوي يشير إلى أن لو استعملت هنا للتمني بقوله: "**يتمنى الرجعة**" ويقصد بها قوله تعالى: ﴿ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ ، فالمفرط في جنب الله يتمنى أن يرجع إلى الدنيا ليؤمن بالله حق الإيمان، ويستجلب رضى الله عز وجل.

٤. لعلَّ:

الأصل في لعلَّ أنها للترجي وليست للتمني، وهنا لا بد من التفريق بين التمني والترجي.

فالتمني قسم من أقسام الإنشاء الطلبي، والترجي قسم من أقسام الإنشاء غير الطلبي، وأفعال الرجاء: عسى وحرى واخلولق، ولهذا فإن الذي استقر عند بعض الناس من أن التمني طلب

(١) التحرير والتنوير: ١٥٦/٨.
(٢) من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان: ٥٩.
(٣) تفسير البيضاوي: ١٩٤/٣

المستحيل والترجي طلب الممكن خال من الدقة، لأن التمني قد يكون لغير المستحيل، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن الترجي ليس طلباً، وإنما هو ترقب حصول الشيء(١).

ويُتمنى ب "**لعل**" إذا كان المرجو بعيداً ميئوساً من حصوله، فصار شبيها بالمحالات والممكنات التي لا طماعية في حصولها(٢).

ومن الآيات التي أوردها العلماء على التمني بـ "لعل" قوله تعالى: ﴿ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾** ﴾ غافر: ٣٦، قال البيضاوي: **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا** بناء مكشوفاً عالياً من صرح الشيء إذا ظهر. **لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ** الطرق.... وقرأ حفص بالنصب على جواب **الترجي** ولعله أراد أن يبني له رصداً في موضع عال يرصد منه أحوال الكواكب التي هي أسباب سماوية تدل على الحوادث الأرضية، فيرى هل فيها ما يدل على إرسال الله إياه، أو أن يرى فساد قول موسى بأن أخباره من إله السماء يتوقف على اطلاعه ووصوله إليه، وذلك لا يتأتى إلا بالصعود إلى السماء **وهو مما لا يقوى عليه الإنسان**، وذلك لجهله بالله وكيفية استنبائه (٣).

فتعليق البيضاوي على هذه الآية يشير إلى أنه اعتبر "لعل" للترجي، مع أنه صرَّح بأنَّ المرجو – وهو الصعود إلى السماء– أمرٌ لا يقوى عليه الإنسان، وكأنه يريد أن يعتبره من المستحيلات، والترجي لا يكون في المستحيلات وإنما هو ترقُّبٌ لحدوث الممكنات، وهنا يصح أن يكون قد قصد أن أصل ما وضعت له للترجي ولكن استخدمت هنا للتمني فيما هو من المستحيلات.

وذلك إبرازاً للمستحيل في صورة الممكن كما أورد ذلك صاحب فن البلاغة بقوله تعليقاً على هذه الآية: "فبلوغ فرعون أسباب السماوات أمر مستحيل، وهذا يقتضي استعمال الأداة التي وضعت للتمني وهي ليت، ولكنه استعمل بدلاً منها لعل التي تفيد الرجاء، وسبب هذا العدول هو إبراز المستحيل في صورة الممكن إظهاراً لكمال العناية به والتشويق إليه"(٤).

ولا بد من الإشارة إلى أن حروف التمني: "هل، لو" ركبت منها حروفٌ أخرى وهي حروف التنديم والتحضيض، وهي دالة على التمني أيضاً، وفي ذلك يقول السكاكي رحمه الله: "وكأن الحروف المسماة بحروف التنديم والتحضيض وهي: هلا وألا ولولا ولوما مأخوذة منهما مركبة مع

---

(١) من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان: ٥٩ (بتصرف).
(٢) علوم البلاغة للمراغي: ٦٢/١.
(٣) تفسير البيضاوي: ٢٠٩/٣-٢١٠
(٤) فن البلاغة: عبد القادر حسين، ص١٥٠، عالم الكتب، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٤م.

لا وما المزيدتين مطلوبا بالتزام التركيب التنبيه على إلزام هل ولو معنى التمني، فإذا قيل هلا أكرمت أو ألا بقلب الهاء همزة أو لولا أو لوما فكأن المعنى ليتك أكرمت متولداً منه معنى التنديم، وإذا قيل هلا تكرم أو لولا فكأن المعنى ليتك تكرمه متولداً من معنى السؤال"(١).

"والتنديم معناه جعل السامع نادماً على ترك فعله في الماضي نحو: هلَّا أكرمت زيداً، على معنى ليتك أكرمته؛ قصداً إلى جعله نادماً على ترك الإكرام.

والمراد بالتحضيض: حث السامع على فعل في المستقبل نحو: هلَّا تقوم، على معنى ليتك تقوم، قصراً إلى حثه على القيام"(٢).

ومما جاء في القرآن من التمني بأدوات التنديم والتحضيض قوله تعالى: ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ المائدة: ٦٣، قال البيضاوي رحمه الله: لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ تحضيض لعلمائهم على النهي عن ذلك فإن لولا إذا دخل على الماضي أفاد التوبيخ وإذا دخل على المستقبل أفاد التحضيض(٣).

فقد دخلت لولا هنا على فعل الاستقبال وبذلك دلت على التحضيض، وأشار البيضاوي إلى أن الفعل إذا دخل على الماضي أفاد التوبيخ وهو ما أطلق العلماء عليه فيما بعد بـ "التنديم".

ومن التمني بـ "لوما" قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ ﴾ الحجر: ٦ – ٧، قال البيضاوي رحمه الله: لَّوْ مَا تَأْتِينَا رُكِّب لَوْ مع مَا كما رُكِّبت مع لا لمعنيين امتناع الشيء لوجود غيره والتحضيض(٤).

ومن التمني ما جاء بـ"ألَّا" كقوله تعالى في قصة الهدهد مع نبي الله سليمان عليه السلام: ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ النمل: ٢٥، قال البيضاوي رحمه الله: وقرئ «هلا» و «هلا» بقلب الهمزة هاء و «ألا تسجدون» و «هلا تسجدون» على الخطاب. (الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَما تُعْلِنُونَ) وصف له

(١) مفتاح العلوم: ٣٠٧.
(٢) خلاصة المعاني: الحسن المفتي، تحقيق عبد القادر حسين، ص٢٢٨، الناشرون العرب، السعودية.
(٣) تفسير البيضاوي: ٤٤٩/١
(٤) تفسير البيضاوي: ٢٣٤/٢

تعالى بما يوجب اختصاصه باستحقاق السجود من التفرد بكمال القدرة والعلم **حثاً على سجوده** ورداً على من يسجد لغيره[١].

فقد أفادت ألَّا أو هلَّا –على اختلاف القراءات– معنى الحث على السجود كما أشار البيضاوي، الذي هو التحضيض على السجود والطاعة والتسليم لله عز وجل.

خامساً: النداء:

والنداء: هو طلب المتكلم إقبال المخاطب بحرف نائب مناب أدعو لفظاً، نحو: يا زيد، أو تقديراً نحو: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾ يوسف: ٢٩"[٢].

وأدوات النداء: (الهمزة، أي، يا، آي، أيَا، هيَا، وا)، وهي في كيفية الاستعمال نوعان: (الهمزة وأي) لنداء القريب، وباقي الأدوات لنداء البعيد[٣].

لكن قد تستعمل تلك الأدوات لغير ما اختصت له من حيث نداء القريب والبعيد للدلالة على معنى بلاغي كما نرى ذلك في حرف النداء (يا)، فأصل وضعه أنه لنداء البعيد لكنه ينادى به القريب لمعانٍ دلنا عليها البيضاوي في تعليقه على قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ البقرة: ٢١ قال البيضاوي رحمه الله: و (يا) حرف وضع لنداء البعيد، وقد يُنادي به القريب تنزيلاً له منزلة البعيد؛ **إما لعظمته** كقول الداعي: يا رب، ويا الله، هو أقرب إليه من حبل الوريد. أو **لغفلته وسوء فهمه**، أو **للاعتناء بالمدعو له وزيادة الحث عليه**[٤].

كما أن حروف نداء البعيد تستعمل لنداء القريب، فإنه قد تستعمل أدوات نداء القريب لنداء البعيد لغرض بلاغي وهو الإشارة إلى استحضار المنادى في ذهن المتكلم فكأنه كالحاضر معه لا يغيب عن القلب، وكأنه ماثل أمام العين، كقول الشاعر:

أسكان نعمان الأراك تيقنوا بأنكم في ربع قلبي سكان[٥].

---

(١) تفسير البيضاوي: ٥٥٦/٢
(٢) خلاصة المعاني: ٢٤٧.
(٣) جواهر البلاغة: ٨٩ بتصرف.
(٤) تفسير البيضاوي: ٥٩/١
(٥) جواهر البلاغة: ٨٩

ويخرج النداء من معناه الأصلي الذي هو طلب إقبال المخاطب إلى معانٍ أخرى تستفاد من السياق، ومنها:

١. **الإغراء**:

وهو حث المخاطب على الفعل الطيب والبعد عن الفعل السيء(١).

ومن النداء الذي جاء لغرض الإغراء قوله تعالى حكاية لقول هدهد سليمان عليه السلام: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾ النمل: ٢٥.

قال البيضاوي رحمه الله: وقرأ الكسائي ويعقوب إلا بالتخفيف على أنها للتنبيه ويا للنداء ومناداه محذوف أي: ألا يا قوم اسجدوا كقوله:

وَقَالَتْ أَلاَ يَا اسْمَعْ أَعِظكَ بِخطَّةٍ فَقُلْتُ سَمِيعاً فَانْطِقِي وَأَصِيبِي(٢).

وقد جاء في فتح القدير تعليقاً على هذه الآية: قال الكسائي: ما كنت أسمع الأشياخ يقرئونها إلا بالتخفيف على نية الأمر، فتكون «ألا» على هذه القراءة حرف تنبيه واستفتاح **وما بعدها حرف نداء**، واسجدوا فعل أمر، وكان حق الخط على هذه القراءة أن يكون هكذا «ألا يا اسجدوا» ، ولكن الصحابة رضي الله عنهم أسقطوا الألف من يا وهمزة الوصل من اسجدوا ووصلوا الياء بسين اسجدوا، فصارت صورة الخط ألا يسجدوا، والمنادى محذوف، وتقديره: ألا يا هؤلاء اسجدوا، وقد حذفت العرب المنادى كثيرا في كلامها(٣).

وبهذا يكون الغرض من النداء في هذه الآية الإغراء والحث على السجود وعبادة الله عز وجل وليس الغرض منه طلب إقبال المخاطب.

٢. **التحسر**:

يأتي النداء لغرض إظهار الحسرة وذلك كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾﴾ يس: ٢٨ – ٣٠، قال البيضاوي رحمه الله: (مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا

(١) من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان: ٦١.

(٢) تفسير البيضاوي: ٥٦٥/٢

(٣) فتح القدير: محمد بن علي الشوكاني، ١٥٤/٤، دار ابن كثير ودار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ) فإن المستهزئين بالناصحين المخلصين المنوط بنصحهم خير الدارين أحقاء بأن يتحسروا ويتحسر عليهم، وقد تلهف على حالهم الملائكة والمؤمنون من الثقلين، ويجوز أن يكون تحسراً من الله عليهم على سبيل الاستعارة لتعظيم ما جَنوْه على أنفسهم ويؤيده قراءة (يا حَسْرَتى)[1].

٣. **الاختصاص**:

وهو ذكر اسم ظاهر بعد ضمير لأجل بيانه[2].

ومثاله قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾ ﴾ هود: ٧٣ ، قال البيضاوي رحمه الله: وأهل البيت نصب على المدح أو **النداء لقصد التخصيص** كقولهم: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة[3].

وقفات بلاغية على النداء:

الوقفة الأولى: حذف أداة النداء:

وعند الحديث على النداء والبلاغة القرآنية فيه لا بد من الإشارة إلى أن حرف النداء يُحذف ويكون لغرض بلاغي بديع كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ ﴾ يوسف: ٢٨ – ٢٩، فقد تبين للعزيز أن يوسف عليه السلام بريء من التهمة المنسوبة إليه، بشهادة الشاهد من أهلها، فلما تبين له ذلك بالدليل القاطع نادى يوسفَ عليه السلام وحذف حرف النداء ليدلل على أنه أسرَّ بالحديث ليوسف لأن هذه القضية تمس شرفه ومكانته، وكأنه يريد منه أن يبقي الأمر طي الكتمان، ولا يستجلب الأنظار بأداة النداء.

ولقد علَّق البيضاوي رحمه الله على هذه الآية بقوله: **يُوسُفُ** حَذَفَ منه حرف النِّداء لقُربِه وتفطُّنه للحديث. **أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَا** اكتمه ولا تذكره[4].

ومن جميل ما عُلِّق على هذه الآية ما جاء في كتاب خصائص التراكيب قال: والشاهد حذف حرف النداء، وله هنا رمز لطيف، وكأنه يهمس بهذا الخبر في أذن يوسف محاذراً أن يسمعه

(١) تفسير البيضاوي: ١٣١/٣
(٢) جواهر البلاغة: ٩٠.
(٣) تفسير البيضاوي: ١٤٠/٢
(٤) تفسير البيضاوي: ١٧٠/٢

أحد، ثم فيه تقريب، وملاطفة ليوسف عليه السلام، وإيماء خفي بأن الخبر كله يجب أن يُضمر في السرائر، وألا يجري به لسان، وكان المجتمع المصري في فجر التاريخ مجتمع سيادة وشرف وثراء وملك ونعمة، وقيم وأخلاق(١).

الوقفة الثانية: **تكرار أداة النداء**:

فحرف النداء قد يُحذف كما مضى ويؤدي إلى معنى بلاغي بديع، وقد يُكرَّر لمعنى بديع أيضاً كما جاء في قصة الرجل المؤمن الذي هو من آل فرعون وقد كان يكتم إيمانه: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ غافر: ٢٨، فقد نادى قومه مراراً وتكراراً وأعاد حرف النداء في كل مرة، فالنداء الأول قول الله تعالى: ﴿ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾ غافر: ٢٩، والنداء الثاني: ﴿ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾ غافر: ٣٠، والنداء الثالث: ﴿ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ ﴾ غافر: ٣٢، والرابع ﴿ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾ غافر: ٣٨، والخامس: ﴿ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾ غافر: ٣٩، والنداء السادس: ﴿ وَيَـٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ ﴾ غافر: ٤١.

ويكشف لنا البيضاوي رحمه الله السر وراء تكرار النداء في هذه الآيات فيقول: كرَّر نداءهم إيقاظاً لهم عن سِنَة الغفلة واهتماماً بالمنادى له، ومبالغة في توبيخهم على ما يقابلون به نصحه(٢).

(١) خصائص التراكيب: محمد أبو موسى، ص١٥٨، مكتبة وهبة، الطبعة السابعة.

(٢) تفسير البيضاوي: ٣/٢١٠

المبحث الثاني: التعريف والتنكير

من الأساليب البلاغية البديعة التي عرفت في بلاغتنا العربية التعريف والتنكير، وهو أسلوب بديع يتعلق بمقتضى حال السياق، فقد يصلح التعريف في مقام لا يصلح فيه التنكير وعلى العكس أيضاً، ونرى ذلك واضحاً وماثلاً في كثير من آيات القرآن الكريم.

فنقرأ تارة قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ البقرة: ١٢٦، ونقرأ في موضع آخر قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ إبراهيم: ٣٥.

ونقرأ أيضاً قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ الفاتحة: ٦ ، وفي آية أخرى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ ﴾ الفتح: ١ – ٢ .

فأسلوب التعريف والتنكير واردٌ في لغة العرب وفي كتاب الله عز وجل فحري بنا أن نبحث عن أسراره ودقائقه لنقف على روعته وأثره في الدلالة على المعنى المراد(١).

والسر في مجيء آية ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ البقرة: ١٢٦ نكرة، ومجيء آية ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ إبراهيم: ٣٥ معرفة، هو أن الأولى كانت من دعاء إبراهيم عليه السلام في قدومه الأول إلى مكة، عندما ترك فيها زوجته وابنه إسماعيل عليه السلام، حيث لم تكن البلد بلداً معروفة محددة المعالم بل كانت وادياً لذلك جاءت نكرة، فلذلك يكون المدعو به هنا في هذه الآية من إبراهيم عليه السلام أمرين: الأمر الأول أن تصبح بلداً في المستقبل، والثاني أن تصبح آمنة.

أما الآية الثانية فقد كانت من دعاء إبراهيم عليه السلام بعد أن أصبحت بلداً معروفة باسمها وهيئتها فلذلك عرَّفها بأل التعريف التي هي للعهد، ويكون المدعو به هنا في هذه الآية الأمن فقط(٢).

---

(١) انظر: البلاغة فنونها وأفناها علم المعاني: ٢٩٥.

(٢) انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين الألوسي، ٣٧٩/١، تحقيق علي عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

أما سبب مجيء ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ الفاتحة: ٦ معرفة، و﴿ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ۝٢ ﴾الفتح: ١ – ٢ نكرة، فالسبب هي أن الهداية المطلوبة في الفاتحة هي الهداية العامة والمقصود فيها بالصراط المستقيم هو طريق الحق، الذي هو طريق واحد لا يتعدد، أما (ويهديكم صراطاً مستقيماً) فقد جاءت نكرة لأنها جاءت في معرض امتنان الله على النبي والمؤمنين بعد صلح الحديبية حيث كان هذا الصلح علامة فارقة في تاريخ المسلمين لأنهم فتحوا من بعدها مكة، فالمقصود بـ(يهديك صراطاً مستقيماً) "**يزيدك هديا لم يسبق وذلك بالتوسيع في بيان الشريعة والتعريف بما لم يسبق تعريفه به منها، فالهداية إلى الصراط المستقيم ثابتة للنبيء صلى الله عليه وسلم من وقت بعثته ولكنها تزداد بزيادة بيان الشريعة وبسعة بلاد الإسلام وكثرة المسلمين**"[١]

التعريف والتنكير اصطلاحاً:

المعرفة ما دلت على شيء بعينه، والنكرة ما دلت على شيء لا بعينه[٢].

فالتعريف هو التمييز، وهو الإفراد، وهو التخصيص بعد التعميم، هو أن يكون شيء ما محدداً بين المتكلم والسامع، فيدور حوله الكلام، هذا يتحدث عنه وذاك يفكر فيه[٣].

وفائدة التعريف أن المعرفة أخص من النكرة، وكلما كانت أخص كانت أتم دلالة على المراد، لكونه أقل احتمالاً على المراد من النكرة[٤].

أدوات التعريف:

١. الضمير:

وهو إما للمتكلم، أو المخاطب، أو الغائب، ومثال المعرف بضمير المتكلم قوله تعالى: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٩ ﴾ النمل: ٩ ، ومثال المعرف بضمير المخاطب ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝١٢٧ ﴾ البقرة: ١٢٧، ومثال المعرف بضمير الغائب: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧ ﴾ البقرة: ٣٧. فكل من (أنا)، و(أنت)، و(هو) ضمائر دلت على معرفة وفي جميعها تدل على الله عز وجل الذي هو أعرف

(١) التحرير والتنوير: ١٤٨/٢٦

(٢) الطراز: ٨/٢

(٣) بلاغة الكلمة والجملة والجمل: منير سلطان، ص٣٣، منشأة المعارف، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، الإسكندرية.

(٤) الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة: محمد الجرجاني، ص٣٦، تحقيق الدكتور عبد القادر حسين، دار نهضة مصر، القاهرة.

المعارف. "يُحْكى أن سِيبوِيه رُئِيَ في المنام فقيل له: ما فعلَ اللهُ بك؟ فقال: خيراً كثيراً، لجَعْلِي اسمَه أعرفَ المعارفِ"(١).

٢. العَلَمية:

العلم هو الذي يعين مسماه مطلقاً، ويؤتى به ليميز مسماه عن غيره(٢). والعلم قد يكون اسماً مثل محمد وخالد وعائشة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ غافر: ٣٤، وقد يكون كنية وهو العلم المصدر بأب أو أم مثل: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ المسد: ١، وقد يكون لقباً مثل الفاروق والصديق.

٣. اسم الإشارة:

يأتي التعريف بأسماء الإشارة ومنها: هذا، هذان، أولئك، تلك، ذلك...، ومثال المعرف باسم الإشارة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ البقرة: ٢، و﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝١٢١﴾ البقرة: ١٢١.

٤. الاسم الموصول:

الاسم الموصول من الأسماء المبهمة، ولذا فهو محتاج إلى الصلة دائماً، فالصلة هي التي تزيل إبهامه، ألا ترى أنك إذا قلت: جاء الذي، فكأنك لم تقل شيئاً، فإذا قلت: علم ولدك، فإن هذه الصلة بددت هذا الإبهام(٣).

ومثال التعريف باسم الموصول قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٣﴾ يوسف: ٢٣

٥. التعريف بـ"أل":

يأتي التعريف بـ"أل" لإفادة معنى من المعاني التي تفيدها اللام.

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: شهاب الدين الحلبي، ٢٤/١، تحقيق أحمد الخراط، دار القلم، دمشق.
(٢) البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني:٣٠١.
(٣) انظر: البلاغة فنونها وأفناها علم المعاني: ٣٠٧.

أنواع أل التعريف[1]:

١. لام العهد الصريحي:

وهي ما يتقدم مدخولها صراحة كما في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾ النور: ٣٥ ، فقد ذكر المصباح والزجاج منكرين ثم أعيدا مُعرَّفيْن.

٢. لام العهد الكنائي:

هي ما تقدم ذكرها كناية، أي مبهماً، تعينه القرائن، كقوله تعالى: ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ آل عمران: ٣٦، فالذكر وإن لم يتقدم صريحاً قد استفيد من (ما) في قولها: ﴿ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا ﴾ آل عمران: ٣٥، إذ التحرير وهو العتق لخدمة بيت المقدس لم يكن إلا للذكور.

٣. لام العهد الحضوري:

هي ما علم مدخولها عند المخاطب سواء أكان حاضراً أم لا، نحو: ﴿ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ الفتح: ١٨، أي الشجرة المعهودة لديك.

٤. لام الحقيقة:

هي ما يشار بها إلى الحقيقة، بقطع النظر عن عمومها، وخصوصها، وتسمى لام الجنس، وهي كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ الأنبياء: ٣٠، إذ المراد جعلنا مبدأ كل شيء حي هذا الجنس وهو الماء.

٥. لام الحقيقة في ضمن فرد مبهم:

إذا قامت القرينة على ذلك، وتسمى لام العهد الذهني، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ يوسف: ١٣.

١. لام الاستغراق الحقيقي:

وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ الأنعام: ٧٣، أي كل غيب وكل شهادة.

(١) علوم البلاغة للمراغي ١١٨-١٢٠ (بتصرف).

لام التعريف في تفسير البيضاوي:

وقد أشار البيضاوي إلى أنواعٍ من لامات التعريف في تفسيره؛ فنجده مثلاً يتطرق إلى لامي الجنس والاستغراق عند تعرضه لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ الفاتحة: ٢، قال البيضاوي رحمه الله: **والتعريف فيه للجنس** ومعناه: الإشارة إلى ما يعرف كل أحد أن الحمد ما هو؟ **أو للاستغراق**، إذ الحمد في الحقيقة كله له، إذ ما من خير إلا وهو موليه بوسط أو بغير وسط كما قال تعالى: وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وفيه إشعار بأنه تعالى حي قادر مريد عالم. إذ الحمد لا يستحقه إلا من كان هذا شأنه. وقرئ الحمد لله بإتباع الدال اللام وبالعكس تنزيلاً لهما من حيث إنهما يستعملان معاً منزلة كلمة واحدة(١).

ويأتي البيضاوي على ذكر لام العهد ولام الجنس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ البقرة: ٦، قال البيضاوي رحمه الله: وتعريف الموصول: إما **للعهد**، والمراد به ناس بأعيانهم كأبي لهب، وأبي جهل، والوليد بن المغيرة، وأحبار اليهود، أو **للجنس**، متناولاً من صمَّم على الكفر، وغيرهم، فخص منهم غير المصرين بما أسند إليه(٢).

وقد أشار البيضاوي أيضاً إلى لام العهد الصريحي – وهو الذي يتقدم ذكره – في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝١٦﴾ المزمل: ١٥ – ١٦، قال البيضاوي رحمه الله: **إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا** يا أهل مكة. **شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ** يوم القيامة بالإجابة والامتناع، **كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا** يعني موسى عليه الصلاة والسلام يشهد عليكم ولم يعينه لأن المقصود لم يتعلق به، **(فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ) عرَّفه لسبق ذكره.**(٣).

الأغراض البلاغية للتعريف:

يأتي التعريف دالاً على المعاني الأصلية التي وضعت له كالدلالة على الجنس أو العهد، ويأتي للدلالة على أغراض بلاغية أخرى تستفاد من السياق، ونرى ذلك كثيراً في القرآن الكريم، جاء على ذكرها البيضاوي في تفسيره أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ومن تلك الأغراض:

(١) تفسير البيضاوي: ١٣/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٤٠/١
(٣) تفسير البيضاوي: ٤٦١/٣

١. **التكثير**:

يأتي الاسم معرفاً للدلالة على الكثرة كما في قوله تعالى حكاية عن آل فرعون: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ الأعراف: ١٣١، قال البيضاوي رحمه الله: وإنما **عرف الحسنة** وذكرها مع أداة التحقيق **لكثرة وقوعها**، وتعلُّق الإرادة بإحداثها بالذات، ونكَّر السيئة وأتى بها مع حرف الشك لندورها وعدم القصد لها إلا بالتبع [١].

فالله عز وجل في هذه الآية يقُصُّ علينا أحوال آل فرعون، وكفرهم بالله عز وجل، فعندما أراد الله تعداد نعمه عليهم وصفها بـ(الحسنة)، مُعرَّفة ليدل على كثرة ما أنعم الله عليهم من النعم التي لا تُحصى، وعندما أراد –جلَّ اسمه – ذِكر ما ابتلاهم به قابل الحسنة المعرفة الدالة على الكثرة بـ(سيئة) النكرة الدالة على قلة تلك الابتلاءات والمصائب لأنه لو أراد أن يبتليهم ويعذبهم بما استحقوه من العذاب لهلكوا جميعاً وإنما يُعذِّبُ ببعض الذنوب لا جميعها كما قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ المائدة: ٤٩، وكما قال: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الروم: ٤١.

٢. **التعظيم**:

من الأسماء التي جاءت معرفة لأجل التعظيم قوله تعالى: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ النجم: ١٢ – ١٦، قال البيضاوي غفر الله له: **إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ تعظيم** وتكثير لما يغشاها بحيث لا يكتنهها نعتٌ ولا يحصيها عدٌ، وقيل يغشاها الجم الغفير من الملائكة يعبدون الله عندها[٢].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ الأعراف: ١٧٨، قال البيضاوي رحمه الله: تصريحٌ بأن الهدى والضلال من الله، وأن هداية الله تختص ببعض دون بعض، وأنها مستلزمة للاهتداء، والإفراد في الأول والجمع في الثاني باعتبار اللفظ، والمعنى تنبيه على أن المهتدين كواحد لاتحاد طريقهم بخلاف الضالين، **والاقتصار في**

(١) تفسير البيضاوي: ٥٦٦/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٣٣٧/٣

الإخبار عمن هداه الله بالمهتدي تعظيم لشأن الاهتداء، وتنبيه على أنه في نفسه كمال جسيم ونفع عظيم لو لم يحصل له غيره لكفاه وأنه المستلزم للفوز بالنعم الآجلة والعنوان لها(١).

فيُفهم من كلام البيضاوي رحمه الله أن مجيء كلمة (المهتدي) معرفة تفيد تعظيم شأن الاهتداء وأنه أمرٌ إذا حصَّله الإنسان يكون قد حصَّل أمراً عظيماً لا يضره ما فاته من أمور الدنيا بعد ذلك.

٣. **التشريف**:

يأتي الاسم معرفة ليدل على معنى شرف وعلو مكانة المُعرَّف كما في قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ** ﴿٥٦﴾ ﴾ المائدة: ٥٦، قال البيضاوي رحمه الله: وضع الظاهر موضع المضمر تنبيهاً على البرهان عليه فكأنه قيل: ومن يتول هؤلاء فهم حزب الله وحزب الله هم الغالبون وتنويهاً بذكرهم وتعظيماً لشأنهم **وتشريفاً** لهم بهذا الاسم(٢).

فقد كان حق النظم والسياق أن يكون: (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإنهم هم الغالبون)، لكنه عدل عن الضمير إلى إعادة اللفظ بطريقة بليغة بديعة، وهي بتسميتهم حزبه، فعرَّف الله عز وجل الـ "حزب" بعد أن كان نكرة وذلك بإضافتهم إلى نفسه العليَّة، وذلك تشريفاً لهم وتعظيماً.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ** ﴿٩١﴾ ﴾ النمل: ٩١، قال البيضاوي رحمه الله: أُمِرَ الرسول صلّى الله عليه وسلّم بأن يقول لهم ذلك بعد ما بين المبدأ والمعاد وشرح أحوال القيامة، إشعاراً بأنه قد أتم الدعوة وقد كملت وما عليه بعد إلا الاشتغال بشأنه والاستغراق في عبادة ربه، وتخصيص مكة بهذه الإضافة **تشريف لها** وتعظيم لشأنها(٣).

فالله عز وجل قد أمر نبيه عليه السلام أن يقول لهم أنه يعبد رباً يخالف تلك الأرباب التي تعبدونها والتي لا تملك لأنفسها نفعاً ولا ضراً، وأراد من نبيه أن يُعرِّفَهم على ربهم الذي يستحق

(١) تفسير البيضاوي: ٥٨٣/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٤٤٦/١
(٣) تفسير البيضاوي: ٥٧٧/٢

العبادة منفرداً دون غيره، عرَّفه بأنه ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾ ، وتعريف (رب) بإضافة (هذه البلدة) وهي مكة تشريفٌ وتعظيم لها.

ولعل هناك معنىً آخر في تخصيص إضافة (هذه البلدة) – والتي هي مكة – دون غيرها مما يصح أن يضاف إليها لفظ رب، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أُمِر بأن ينقل هذه الكلمات لكفار قريش، في معرض دعوتهم لعبادة الله، والمعلوم أنهم كانوا يُولون مكةَ منزلةً ومكانة عظيمة، فمقتضى الحال يناسب أن يُستثمر تعظيمهم وتقديسهم لمكة والبيت المحرم، فيما يقربهم من الإيمان بالله، وذلك لأن المعنى المفهوم من هذه الإضافة: أن الذي خلق وأوجد هذا المكان وهذه البلدة التي تعظمونها وتقدسونها وتوقِّرون حرمتها أولى بالتعظيم والعبادة.

٤. التهويل:

ومعنى التهويل التخويف والتفزيع فقد جاء في لسان العرب: والتَّهْوِيل: التَّفْزِيعُ والأَهْوَال؛ هِيَ جَمْعُ هَوْل وَهُوَ الْخَوْفُ والأَمرُ الشَّدِيدُ(١).

ويأتي الاسم معرَّفاً في القرآن الكريم لإفادة تهويل هذا الاسم وإظهاره في مظهر الخوف والدلالة على شدته وصعوبته، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ۝٥١ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ۝٥٢ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾ النجم: ٥٠ – ٥٤.

فقد عدَّد الله في هذه الآيات ما فعله بالأقوام التي كفرت وقابلت الرسالات بالتكذيب والعَداء، فذكر عاداً وثمودَ، وقومَ نوح، ثم أتى على ذكر المؤتفكة وهم قوم لوط فقال عنهم: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾، قال البيضاوي رحمه الله عن التعريف في هذه الآية: فيه **تهويل وتعميم لما أصابهم**(٢).

والمعنى أنه أصاب قوم لوط عاذبٌ مَهولٌ مخوف لا يكاد يوصف، ولذلك عرفه الله تبارك وتعالى باسم الموصول الذي يفيد التهويل والتعميم.

ومما جاء في كتاب الله من هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾ ق: ١٩، قال البيضاوي رحمه الله: وقرئ **(سكرة الحق بالموت)** على أنها لشدتها اقتضت

(١) لسان العرب (هول): ٧١٢/١١
(٢) تفسير البيضاوي: ٣٤٢/٣

الزهوق أو لاستعقابها له كأنها جاءت به، أو على أن الباء بمعنى مع، وقيل سَكْرَةُ الحق سكرة الله **وإضافتها إليه للتهويل**(١).

فهي سكرة عظيمة مَهولة لأنها جاءت من الله عز وجل على اعتبار أن المقصود في (سكرة الحق) على هذه القراءة هو الله عز وجل، بعظمته وجبروته وقوته، ولذلك فالتعريف بالإضافة في هذه الآية أفاد التهويل والتفزيع، لعلَّ الإنسان يحسِبُ حساباً لهذا اليوم ويُعِدُّ له عُدَّته لينجوَ ويسعد.

٥. الاستعطاف:

يأتي التعريف لغرض بلاغي بديع وهو الاستعطاف، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ) (البقرة: ٢٣٣).

فلو تأملنا قوله تعالى **لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ** لوجدنا كلمة (ولد) في كلمتي **(بولدها) و(بولده)**، قد عُرِّف بالإضافة إلى أمه تارة وإلى أبيه تارة أخرى، وكان يمكن أن يكون النظم **(لا تضارُّون في أولادكم)**، لكن هذه العبارة لا تحمل المعنى المراد ولا تكون بليغة كما هو الحال فيما جاء به النظم، والسِّرُ وراء تفصيل الإضافة وتعدادها أوضحه لنا البيضاوي بقوله: وإضافة الولد إليها تارة وإليه أخرى **استعطافٌ لهما عليه**، وتنبيه على أنه حقيق بأن يتفقا على استصلاحه والإشفاق فلا ينبغي أن يضرا به، أو أن يتضارَّا بسببه(٢).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ **وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾** ﴾ مريم: ٤١ – ٤٢، قال البيضاوي رحمة الله عليه: **إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ** التاء معوضة من ياء الإضافة ولذلك لا يقال يا أبتي ويقال يا أبتا، وإنما تذكر **للاستعطاف** ولذلك كررها(٣).

٦. الشمول:

يأتي التعريف لغرض إظهار شمول المُعرَّف لجميع ما يدل عليه، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ **وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ** ﴾

(١) تفسير البيضاوي: ٣/٣١٥
(٢) تفسير البيضاوي: ١/٢٠١
(٣) تفسير البيضاوي: ٢/٣٦٨

البقرة: ١٤٨، قال البيضاوي رحمه الله: **فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ** من أمر القبلة وغيره مما ينال به سعادة الدارين، أو الفاضلات من الجهات[١].

فمجيء كلمة **(الخيرات)** مُعرَّفة بأل التعريف دعوة من الله عز وجل إلى التسابق إلى جميع الخيرات وهذا ما أشار له البيضاوي بقوله: **(وغيره مما ينال به سعادة الدارين)**، فما ينال به سعادة الدارين تشمل كل الطاعات المأمورين بها من صيام وصلاة وزكاة وحج وأعمال قلبية وغيرها، وبهذا تكون كلمة "الخيرات" معرفة شاملة لكل تلك الطاعات والأعمال على تنوعها.

٧. **التحقير**:

يأتي التعريف بقصد التحقير كما في قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا** ﴿٤١﴾ ﴾ الفرقان: ٤١، قال البيضاوي رحمه الله: **وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا** ما يتخذونك إلا موضع هزء أو مهزوءاً به.**أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا والإشارة للاستحقار**[٢].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ **تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ** ﴿١﴾ ﴾ المسد: ١، قال البيضاوي رحمه الله: وإنما كناه والتكنية تكرمة لاشتهاره بكنيته ولأن اسمه عبد العزى فاستكره ذكره، ولأنه لما كان من أصحاب النار كانت الكنية أوفق بحاله، أو ليجانس قوله: ذاتَ لَهَبٍ[٣].

فالتعريف بالعلمية وهي الكنية في (أبي لهب) أتت لقصد تحقيره لأنه كان يُسمى عبد العزى، وهو اسمٌ يفتخر به صاحبه على اعتقاده بأن العزى إلهٌ، فلما قيل له (أبي لهب)، كان ذلك تحقيراً له.

٨. **المبالغة**:

يأتي الاسم مُعرفاً ليدل على المبالغة، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ** ﴿١٥﴾ ﴾ فاطر: ١٥ ، قال البيضاوي رحمه الله: **وتعريف الفقراء للمبالغة** في فقرهم كأنهم لشدة افتقارهم وكثرة احتياجهم هم الفقراء، وأن افتقار سائر الخلائق بالإضافة إلى فقرهم غير معتد به[٤].

---

(١) تفسير البيضاوي: ١٤٩/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٥٢٤/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ٥٨١/٣
(٤) تفسير البيضاوي: ١١٨/٣

ومنه قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾ الزمر: ١٤ – ١٥، قال البيضاوي رحمه الله: (قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ) الكاملين في الخسران. (الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ) بالضلال. (وَأَهْلِيهِمْ) بالإضلال... (أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ) مبالغة في خسرانهم لما فيه من الاستئناف والتصدير ب أَلا، وتوسيط الفصل وتعريف الخسران ووصفه ب الْمُبِينُ[١].

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾ ﴾ الإسراء: ٢٤، قال البيضاوي رحمه الله: وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ تذلَّل لهما وتواضع فيهما...وأمره بخفضه مبالغة... **وإضافته إلى الذل للبيان والمبالغة** كما أضيف حاتم إلى الجود، والمعنى واخفض لهما جناحك الذليل[٢].

٩. الوصف:

يأتي التعريف للدلالة على وصفٍ في الاسم المُعرَّف، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ الأنعام: ٩٣، قال البيضاوي رحمه الله: تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ أي الهوان يريدون العذاب المتضمن لشدة وإهانة، فإضافته إلى الهون لعراقته وتمكنه فيه[٣].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ فصلت: ١٦، قال البيضاوي رحمه الله: أضاف العَذابَ إلى الْخِزْيِ وهو الذل على قصد وصفه به[٤].

فكلمة (عذاب) في الآيتين عُرِّفت بالإضافة إلى الهون تارة وإلى الخزي تارة أخرى وتعريفها جاء لغرض وصف ذلك العذاب، حتى يكون رادعاً ونذيراً للعاصين والكافرين بالله عز وجل.

(١) تفسير البيضاوي: ١٨٥/٣
(٢) تفسير البيضاوي: ٢٩٨/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ٥٠٦/١
(٤) تفسير البيضاوي: ٢٢٣/٢

والتعريف يكون كما في الأمثلة السابقة مغنياً عن التوصيف عندما يأتي معرَّفاً بالإضافة إلى الصفة، وقد يأتي مغنياً عن التوصيف عندما يأتي معرفاً بأل التعريف وهذا ما نص عليه البيضاوي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ الأنعام: ٤٩، قال البيضاوي رحمه الله: جعل العذاب ماسَّاً لهم كأنه الطالب للوصول إليهم، **واستغنى بتعريفه عن التوصيف**[١].

١٠. الاختصاص:

يأتي التعريف للدلالة على الاختصاص ومعناه كما جاء في لسان العرب: "**اخْتصّه: أَفْرَدَه بِهِ دُونَ غَيْرِهِ، وَيُقَالُ: اخْتصّ فلانٌ بالأَمر وتخصّصَ لَهُ إِذا انْفَرَدَ**"، وبهذا يكون معنى الاختصاص هو أن يأتي الاسم معرفاً لغرض إظهار تفرد الاسم في الدلالة على المسمى به دون غيره.

ومثاله قوله تعالى: ﴿ الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾ الرعد: ١، قال البيضاوي رحمه الله:(وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ) هو القرآن كله ومحله الجر بالعطف على الْكِتابِ ... أو الرفع بالابتداء، وخبره الْحَقُّ ... وتعريف الخبر وإن دل على اختصاص المنزل بكونه حق فهو أعم من المنزل صريحاً أو ضمناً[٢].

أي أن ما أنزله الله عز وجل وهو القرآن الكريم هو الحق وحده، وبهذا يكون القرآن ناسخاً لكل الكتب السابقة ولا حق في الأرض إلا ما جاء في هذا الكتاب الكريم.

ومثاله الاختصاص أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ الأعراف: ١٦٣ ، قال البيضاوي رحمه الله: (يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً) الإضافة لاختصاصهم بأحكام فيه[٣].

فكلمة (سبتهم)، مُعرفة بالإضافة للدلالة على يوم السبت، وهو اليوم المعروف الذي هو من أيام الأسبوع، فجاءت الكلمة هنا معرفة للدلالة على أن الله قد خصهم بأحكام في يوم السبت وهو الامتناع عن الصيد امتحاناً لهم وابتلاءً، هذه الأحكام خاصة بهم دون غيرهم مأمورين بها في يوم السبت دون سائر الأيام، فلذلك ميز الله يوم السبت عند اليهود بتعريفها بإضافتها إلى الضمير

(١) تفسير البيضاوي: ٤٩١/١
(٢) تفسير البيضاوي: ١٩٦/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ٥٧٨/١

الدال عليهم في (سبتهم)، وبهذه الإضافة يتضح أن سبت اليهود في أحكامه يخالف يوم السبت عند سائر الأمم، وهذه دلالة الاختصاص في الإضافة.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ محمد: ٢٤، قال البيضاوي رحمه الله: **أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ** لا يصل إليها ذكر ولا ينكشف لها أمر... وتنكير القلوب لأن المراد قلوب بعض منهم أو للإشعار بأنها لإبهام أمرها في القساوة، أو لفرط جهالتها ونكرها كأنها مبهمة منكورة **وإضافة الأقفال إليها للدلالة على أقفال مناسبة لها مختصة** بها لا تجانس الأقفال المعهودة[1].

وكأن مجيء كلمة (أقفالها) معرفة بالإضافة أفادت أن هذه الأقفال خاصة بتلك القلوب التي رفضت وأعرضت عن تدبر القرآن الكريم، وهذه الأقفال لا تتعداهم إلى غيرهم، فالقرآن مفتوحة أبواب كنوزه وروائعه وأحكامه وكل ما فيه لمن أراد التدبر، أما ذلك الذي وضع على قلبه قفل فلن يجني من ثمار القرآن شيئاً.

(١) تفسير البيضاوي: ٣/٢٨٩

أغراض التنكير:

يأتي التنكير لأغراض بلاغية منها:

١. التعظيم:

ومن الآيات التي جاء فيها الاسم معرفاً لغرض التنكير قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ البقرة: ١٧٩، قال البيضاوي: وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ كلامٌ في غاية الفصاحة والبلاغة من حيث جعل الشيء محل ضده، وعرَّفَ القَصَاص ونكَّر الحياة، ليدل على أن في هذا الجنس من الحُكْمِ **نوعاً من الحياة عظيماً**، وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل، فيكون سبب حياة نفسين. ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل، والجماعة بالواحد، فتثور الفتنة بينهم. فإذا اقتص من القاتل سلم الباقون فيكون ذلك سبباً لحياتهم. وعلى الأول فيه إضمار وعلى الثاني تخصيص. وقيل: المراد بها الحياة الأخروية، فإن القاتل إذا اقتص منه في الدنيا لم يؤاخذ به في الآخرة[١].

٢. التقليل:

يأتي التنكير لغرض تقليل الاسم المنكر، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ الإسراء: ١، قال البيضاوي رحمه الله: وفائدته **الدلالة بتنكيره على تقليل** مدة الإسراء، ولذلك قرئ: «من الليل» أي بعضه كقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ ﴾ الإسراء: ٧٩[٢].

فمجيء كلمة ليلاً نكرة دلت على أن الإسراء كان في جزء قليل من الليل للدلالة على عظيم قدرة الله وعظم هذه المعجزة.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ ﴾ النحل: ٩٤، قال البيضاوي: فَتَزِلَّ قَدَمٌ و**إنما وحَّد ونكَّر** للدلالة على أن زلل قدم واحدة عظيم فكيف بأقدام كثيرة[٣].

---

(١) تفسير البيضاوي: ١٦٤/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٢٨٩/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٢٧٨/٢

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ يونس: ٦١ ، قال البيضاوي رحمه الله: (وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ) ولا تكون في أمر... والضمير في (وَما تَتْلُوا مِنْهُ) له لأن تلاوة القرآن معظم شأن الرسول، أو لأن القراءة تكون لشأن فيكون التقدير من أجله ومفعول تتلو مِنْ قُرْآنٍ على أن مِنْ تبعيضية أو مزيدة لتأكيد النفي أو للقُرْآنِ، وإضماره قبل الذكر ثم بيانه تفخيم له أو لله(١).

فمجيء كلمة (قرآن) نكرة مسبوقة بحرف التبعيض (من) دلت على التقليل، أي أن الله شاهدٌ عليكم ومجازيكم بقراءة القرآن ولو كان جزءاً يسيراً.

٣. التحقير:

يأتي الاسم منكراً للدلالة على تحقيره وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ ﴾ المائدة: ٩٤

قال البيضاوي رحمه الله: نزلت في عام الحديبية ابتلاهم الله سبحانه وتعالى بالصيد، وكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم بحيث يتمكنون من صيدها أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم وهم محرمون، **والتقليل والتحقير** في (بِشَيْءٍ) للتنبيه على أنه ليس من العظائم التي تدحض الأقدام كالابتلاء ببذل الأنفس والأموال، فمن لم يثبت عنده كيف يثبت عند ما هو أشد منه(٢).

فإيراد كلمة (بشيء) نكرة دلت على أن ما ابتلاهم الله به من تحريم الصيد، هو شيء حقيرٌ وقليل لا يقارن بابتلاءات أخرى رصدها الله للمؤمنين كالجهاد بالمال والنفس والتضحية في سبيل الله وهذه الأمور لا يستطيعها كل المؤمنين، ومن هنا كان أجر المجاهدين عظيماً عند الله، ولا يُقارن حتى بالصدقة وإطعام الحجاج وعمار بيت الله الحرام ولذلك قال الله تعالى: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ التوبة: ١٩.

---

(١) تفسير البيضاوي: ١٠٧/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ٤٦٢/١

ومن التنكير الذي جاء لغرض التحقير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ آل عمران: ٢٣، قال البيضاوي: وتنكير النصيب يحتمل التعظيم والتحقير[١].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ الجاثية: ١٤، قال البيضاوي رحمه الله: **لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** علة للأمر، والقوم هم المؤمنون أو الكافرون أو كلاهما فيكون التنكير للتعظيم أو **التحقير** أو الشيوع[٢].

٤. التعميم:

ومثاله قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾﴾ الحجرات: ٦، **وتنكير الفاسق والنبأ للتعميم** وتعليق الأمر بالتبين على فسق المخبر يقتضي جواز قبول خبر العدل من حيث إن المعلق على شيء بكلمة إن عدم عند عدمه، وأن خبر الواحد لو وجب تبينه من حيث هو كذلك لما رتب على الفسق، إذ الترتيب يفيد التعليل وما بالذات لا يعلل بالغير[٣].

والمعنى أنه إن كان الذي جاء بالخبر فاسقاً، وجب عليكم التبين من خبره، بقطع النظر عن درجة فسقه أو مكانته في المجتمع، وبهذا يكون معنى التنكير في (فاسق) التعميم لتفيد كل من انطبقت عليه صفة الفسق.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ البقرة: ٤٨، قال البيضاوي: **لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا** وإيراده منكراً مع تنكير النفسين **للتعميم** والإقناط الكلي[٤].

---

(١) تفسير البيضاوي: ٢٥١/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٢٦٩/٣
(٣) تفسير البيضاوي: ٣٠٦/٣
(٤) تفسير البيضاوي: ٩٩/١

٥. المبالغة:

يأتي الاسم منكراً لغرض إظهار المبالغة في صفة الاسم وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ المائدة: ٥٤ المائدة: ٥٤.

قال البيضاوي: **وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ** عطف على يجاهدون بمعنى أنهم الجامعون بين المجاهدة في سبيل الله والتصلب في دينه، أو حال بمعنى أنهم مجاهدون وحالهم خلاف حال المنافقين، فإنهم يخرجون في جيش المسلمين خائفين ملامة أوليائهم من اليهود فلا يعملون شيئاً يلحقهم فيه لوم من جهتهم، واللومة المرة من اللوم وفيها **وفي تنكير لائم مبالغتان** (١).

والمبالغتان التي يتحدث عنهما البيضاوي فسرها الشهاب ووقف عليهما في حاشيته إذ يقول: (وفيها وفي تنكير لائم مبالغتان) لأنه نفى عنهم مخافة اللوم من أيّ لائم كان، وبانتفاء الخوف من اللومة الواحدة ينتفي خوف جميع اللومات لأنّ النكرة في سياق النفي تعم فإذا انضم إليها تنكير فاعلها استوعب خوف جميع اللوّام.

فالمبالغة الأولى في قوله: (لومة) إذ أن هؤلاء القوم الذين سيأتي الله بهم لا يخافون أي نوع من اللومات كان، والمبالغة الثانية في قوله: (لائم) فهم لا يخافون أي لائم كان بغض النظر كان قوياً أو ضعيفا غنياً أو فقيراً، وهذا ما أفاده التنكير في الكلمتين.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ ﴾ يس: ٦١، قال البيضاوي رحمه الله: **هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ** إشارة إلى ما عهد إليهم أو إلى عبادته، فالجملة استئناف لبيان المقتضي للعهد بشقيه أو بالشق الآخر، **والتنكير للمبالغة والتعظيم**(٢).

٦. النوعية:

من الأغراض التي يأتي لإفادتها التنكير بيان النوعية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ البقرة:

(١) تفسير البيضاوي: ٤٤٥/١

(٢) تفسير البيضاوي: ١٣٧/٣

١٩، قال البيضاوي رحمه الله: **وتنكيره** – يقصد تنكير (صيب)– لأنه أريد به **نوع** من المطر شديد[١].

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ نوح: ٢٥، قال البيضاوي رحمه الله: وتنكير النار للتعظيم أو لأن **المراد نوع** من النيران[٢].

ومنه قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ البقرة: ٧، قال البيضاوي رحمه الله: ومعنى التنكير في الآية أن **على أبصارهم نوع غشاوة** ليس مما يتعارفه الناس، وهو التعامي عن الآيات، ولهم من الآلام العظام نوع عظيم لا يعلم كنهه إلا الله[٣].

٧. التهويل:

كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾ الفتح: ١٣، قال البيضاوي رحمه الله: وتنكير سعيراً **للتهويل** أو لأنها نار مخصوصة[٤].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ يوسف: ١٨، قال البيضاوي في هذه الآية: **بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا** أي سهلت لكم أنفسكم وهونت في أعينكم أمراً عظيماً من السول وهو الاسترخاء[٥].

ويُفهم من كلام البيضاوي في قوله (أمراً عظيماً) أي أنه أمر مَهول مخيف، وذلك كما جاء عند الطاهر ابن عاشور في تعليقه على هذه الآية فقال: **وتنكير (أمرا) للتهويل**[٦].

---

(١) تفسير البيضاوي: ٥٥/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٤٥٣/٣
(٣) تفسير البيضاوي: ٤٤/١
(٤) تفسير البيضاوي: ٢٩٦/٣
(٥) تفسير البيضاوي: ١٦٥/٢
(٦) التحرير والتنوير: ٢٣٩/١٢.

٨. الإبهام:

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾ يوسف: ٩، قال البيضاوي رحمه الله: **أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا** منكورة بعيدة من العمران، وهو معنى تنكيرها وإبهامها ولذلك نصبت كالظروف المبهمة[١].

وقد وافق تعليق البيضاوي على هذه الآية ما جاء في فتح القدير للشوكاني حيث قال: **والتنكير للإبهام أي أرضاً مجهولة**[٢].

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ ﴾ البروج: ١ – ٣، قال البيضاوي رحمه الله: **وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ** ومن يشهد في ذلك اليوم من الخلائق وما أحضر فيه من العجائب، **وتنكيرهما للإبهام** في الوصف أي وَشاهِدٍ وَمَشْهُودٍ لا يكتنه وصفهما[٣].

٩. التكثير:

ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ الشمس: ٧ – ٨، قال البيضاوي رحمه الله: **وتنكير نَفْسٍ للتكثير**[٤].

ومثاله أيضاً قوله تبارك اسمه: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ الزمر: ٥٦، قال البيضاوي رحمه الله: **أَن تَقُولَ نَفْسٌ** كراهة أن تقول وتنكير نَفْسٌ لأن القائل بعض الأنفس **أو** للتكثير كقول الأعشى:

وَرُبَّ بَقِيعَ لَوْ هَتَفْتُ بِجَوِّهِ ... أَتَانِي كَرِيمٌ يَنْفُضُ الرَّأْسَ مُغْضبا[٥].

---

(١) تفسير البيضاوي: ١٦٢/٢
(٢) فتح القدير: ١٠/٣
(٣) تفسير البيضاوي: ٥١٧/٣
(٤) تفسير البيضاوي: ٣/ ٥٣٨
(٥) تفسير البيضاوي: ١٩٤/٣

المبحث الثالث: التقديم والتأخير

التقديم والتأخير لغة:

جاء في لسان العرب في مادة (قدم): وقَدَمَهم يَقْدُمُهم قَدْماً وقُدُوماً وقَدِمَهم، كِلَاهُمَا: صَارَ أَمامهم... وَقِيلَ: مُقَدِّمةُ كُلِّ شَيْءٍ أَوله، ومُقَدَّم كُلِّ شَيْءٍ نَقِيضُ مُؤَخَّرِهِ... الْجَوْهَرِيُّ قَدَم، بِالْفَتْحِ، يَقْدُم قُدوماً أَي تَقَدَّمَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ هود: ٩٨ أَي يَتقدَّمُهم إِلَى النَّارِ[١].

أما التأخير لغة فقد قال عنه ابن منظور: فِي أَسماء اللَّهِ تَعَالَى: الآخِرُ والمؤخِّرُ، فالآخِرُ هُوَ الْبَاقِي بَعْدَ فَنَاءِ خلقِه كُلِّهِ ناطقِه وصامتِه، والمؤخِّرُ هوَ الَّذِي يُؤَخِّرُ الأَشياءَ فَيضعُها فِي مواضِعها، وَهُوَ ضِدُّ المُقَدِّمِ، والأُخُرُ ضِدُّ القُدُمِ... والتأَخر ضِدُّ التَّقَدُّمِ... والتأْخيرُ: ضدُّ التَّقْدِيمِ[٢].

التقديم والتأخير اصطلاحاً:

عرَّف الطوفي البغدادي التقديم والتأخير فقال: هو جعل اللفظ في رتبة قبل رتبته الأصلية أو بعدها، لعارض اختصاص أو أهمية أو ضرورة[٣].

مبحث التقديم والتأخير مبحثٌ دقيق بديع من مباحث علم المعاني تظهر فيه روعة البلاغة العربية، فقد وقف عنده العلماء كثيراً في القرآن الكريم وفي اللغة العربية بشكل عام، فقد قال عنه الإمام الشيخ عبد القاهر الجرجاني: هو بابٌ كثيرُ الفوائد، جَمُّ المَحاسن، واسعُ التصرُّف، بعيدُ الغاية، لا يَزالُ يَفْتَرُّ لك عن بديعةٍ، ويُفْضي بكَ إِلى لَطيفة، ولا تَزال تَرى شِعراً يروقُك مسْمَعُه، ويَلْطُف لديك موقعُه، ثم تنظرُ فتجدُ سببَ أَنْ راقكَ ولطفَ عندك، أن قُدِّم فيه شيءٌ، وحُوِّل اللفظُ عن مكانٍ إلى مكان[٤].

وقد أشار العلوي في الطراز إلى بلاغة التقديم والتأخير فقال: اعلم أن منزلة المعنى من اللفظ هي منزلة الروح من الجسد، فكل لفظ لا معنى له فهو بمنزلة جسد لا روح فيه ومفهوم علم المعاني، هو إدراك خواص مفردات الكلم بالتقديم والتأخير، وفهم مركباتها، ونعني بقولنا إدراك خواص المفردات في التقديم والتأخير ما يفهم من قولنا زيد منطلق، ومنطلق زيد، ومن الكرام زيد،

(١) لسان العرب (قدم): ٤٦٥/١٢.

(٢) لسان العرب (أخر): ١١/٤.

(٣) الإكسير في علم التفسير: سليمان الطوفي، ص١٨٩، تحقيق عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الثانية.

(٤) دلائل الاعجاز في علم المعاني: عبد القاهر الجرجاني، ص١٠٦، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة ودار المدني بجدة، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

وزيد من الكرام، وبقولنا وفهم مركباتها، وهو ما في قولك زيد قائم، وإن زيدا لقائم، فكل واحد من هذه الصور يفيد معنى غير ما يفيده الآخر من أجل التركيب، وهكذا القول في جميع التراكيب، فإنها دالة على معان بديعة، ومرشدة إلى أسرار عجيبة(١).

أما الزركشي فقال في التقديم والتأخير: هُوَ أَحَدُ أَسَالِيبِ الْبَلَاغَةِ فَإِنَّهُمْ أَتَوْا بِهِ دَلَالَةً عَلَى تَمَكُّنِهِمْ فِي الْفَصَاحَةِ وَمَلَكَتِهِمْ فِي الْكَلَامِ وَانْقِيَادِهِ لَهُمْ وَلَهُ فِي الْقُلُوبِ أَحْسَنُ مَوْقِعٍ وَأَعْذَبُ مَذَاقٍ.

وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي عَدِّهِ مِنَ الْمَجَازِ فَمِنْهُمْ مَنْ عَدَّهُ مِنْهُ لِأَنَّهُ تَقْدِيمُ مَا رُتْبَتُهُ التَّأْخِيرُ كَالْمَفْعُولِ وَتَأْخِيرُ مَا رُتْبَتُهُ التَّقْدِيمُ كَالْفَاعِلِ نُقِلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنْ رُتْبَتِهِ وَحَقِّهِ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْهُ فَإِنَّ الْمَجَازَ نَقْلُ مَا وُضِعَ لَهُ إِلَى مَا لَمْ يُوضَعْ(٢).

والتقديم والتأخير مبحث قرر قواعده وبيَّنها أفضل بيان الإمام عبد القاهر الجرجاني – رحمه الله – وكان الناس من قبل عبد القاهر يتحدثون عن التقديم والتأخير حديثاً عاماً، فيقولون: إنما يُقدَّم الشيء للاهتمام به(٣).

فقد قسَّم الإمام عبد القاهر الجرجاني التقديم والتأخير إلى قسمين فقال: واعلمْ أَنَّ تقديمَ الشيء على وجهينِ: **تقديمٌ يُقال إنه على نيَّةِ التأخير**، وذلك في كلَّ شيءٍ أَقرَرْتَه معَ التقديمِ على حُكْمِه الذي كان عليه، وفي جنسهِ الذي كانَ فيه، كخبرِ المبتدأ إذا قدَّمْتَه على المبتدأ، والمفعولِ إذا قدَّمتَه على الفاعل كقولك: "منطلق زيد" و "ضرب عمرًا زيد"، معلوم أن "منطلق" و "عمرًا" لم يَخْرجا بالتقديم عمَّا كانا عليه، من كونِ هذا خبرَ مبتدأ ومرفوعاً بذلك، وكونَ ذلك مفعولاً ومنْصوباً من أجله كما يكونُ إذا أَخَّرْتَ.

وتقديمٌ لا على نيَّةِ التأخيرِ، ولكنْ على أنْ تَنقُلَ الشيءَ عن حُكْمٍ إلى حكمٍ، وتجعلَ له بابا غيرَ بابهِ، وإعراباً غيرَ إعرابهِ، وذلك أَن تجيءَ إلى اسمين يُحتملُ كلُّ واحدٍ منهما أَنْ يكونَ مبتدأً ويكونُ الآخرُ خبراً له، فتُقَدِّمُ تارةً هذا على ذاك، وأخرى ذاكَ على هذا. ومثالُه ما تَصْنعه بزيدٍ والمنطلقِ، حيث تقولُ مرة: "زيدٌ المنطلقُ"، وأُخرى، "المنطلقُ زيدٌ"، فأنتَ في هذا لم تُقدِّمْ "المنطلقَ" على أن يكونَ مَتروكاً على حُكْمه الذي كان عليه معَ التأخير، فيكونَ خبرَ مبتدأ كما كانَ، بل

(١) الطراز: ١٣١/٣
(٢) البرهان في علوم القرآن: ٢٣٣/٣.
(٣) البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني: ٢١٠.

على أَنْ تَنْقلَه عن كَونه خبراً إلى كونهِ مبتدأً، وكذلك لم تؤخِّر "زيداً" على أن يكون مُبتدأ كما كان، بل على أن تُخرجَه عن كونِه مبتدأً إلى كونِه خبراً(١).

فالألفاظ عند نظمها في اللغة لا بد من ترتيبها وفق المعنى المراد في نفس المتكلم لتدل على معنى، ولا يصح إطلاق الألفاظ دون مراعاة ترتيبها، ومن هنا يتضح تفاضل قول على قول واستحسان بعضهم لهذا البيت وانتقاصهم لذاك، فالميزان الذي يوزن به شرف القول ووضاعته هو طريقة التركيب والنظم والترتيب وليس الألفاظ المجردة.

وإن صحَّ لنا أن نشبه الكلام فإننا نشبهه بالعِقْد الذي يُراد له أن يكون جميلاً بديعاً، مبهراً للأنظار، مؤثراً في النفوس، فإنه لا بد فيه عند تأليف حباته وخرزه وضمها إلى بعضها البعض من مراعاة الترتيب فيها فلا تُقدَّم حبة ولا تؤخَّر أخرى إلا لغرض تكوين الصورة البديعة التي يريد أن يُخرج عليها الناظم ذلك العِقْد، ولو وضع الناظم الحبات كيفما اتفق دون مراعاة الترتيب لَسُلب منه الجمال والروعة ولكان مما يرغب عنه صاحبه.

وعن أهمية النظم في الألفاظ وترتيبها يقول الإمام عبد القاهر في أسرار البلاغة: اعلم أن الكلام هو الذي يُعطي العلومَ منازلها، ويبيّن مراتبها، ويكشفُ عن صُوَرها، ويجني صنوفَ ثَمَرها، ويدلُّ على سرائرها، ويُبْرِزُ مكنون ضمائرها... وإذا كان هذا الوصفُ مقوِّمَ ذاته وأخصَّ صِفاته، كان أشرف أنواعه – يعني الكلام – ما كان فيه أجلى وأظهر، وبه أولى وأجدر، ومن ها هنا يبيّن للمحصل، ويتقرّر في نفس المتأمِّل، كيف ينبغي أن يَحْكُمْ في تفاضُل الأقوال إذا أراد أن يقسّم بينها حظوظها من الاستحسان، ويعدّل القسمةَ بصائب القِسطاس والميزان، ومن البيّن الجليّ أن التبايُنَ في هذه الفضيلة، والتباعد عنها إلى ما ينافيها من الرذيلة، ليس بمجرَّد اللفظ، كيف والألفاظ لا تُفيد حتى تُؤلَّف ضرباً خاصّاً من التأليف، ويُعْمَد بها إلى وجه دونِ وجهٍ من التركيب والترتيب، فلو أنك عَمَدت إلى بيت شعرٍ أو فَصْل نثرٍ فعددت كلماته عَدّاً كيف جاء واتَّفق، وأبطلت نضدَهُ ونظامه الذي عليه بني، وفيه أفرغ المعنى وأجري، وغيّرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد ما أفاد، وبنَسَقِه المخصوص أبان المراد... وفي ثبوت هذا الأصل ما تَعْلم به أنّ المعنى الذي له كان هذه الكلم بيتَ شعرٍ أو فصلَ خطابٍ، هو ترتيبها على طريقة معلومة، وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة، وهذا الحُكْمُ – أعني الاختصاص في الترتيب – يقع في الألفاظ **مرتَّباً على**

(١) دلائل الاعجاز: ١٠٦-١٠٧.

المعاني المرتَّبَة في النفس، المنتظمةِ فيها على قضيّة العقل، ولا يُتّصوَّر في الألفاظ وُجُوبُ تقديم وتأخير، وتخصُّصٍ في ترتيب وتنزيل، وعلى ذلك وُضِعَت المراتبُ والمنازلُ في الجمل المركَّبة(١).

وأكثر ما يظهر جمال وبلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم "فالآية القرآنية، وإن كانت تجمع داخلها بعض المعطوفات فإن هذا الجمع لا يكون دون ترتيب ولا نظام، فإذا كان من الجائز أن يتقدم بعض أجزاء الجملة على بعض، فقد حرصت الجملة في القرآن، على أن يكون هذا التقديم، مشيرا إلى مغزى، دالا على هدف، حتى تصبح الآية بتكوينها، تابعة لمنهج نفسى، يتقدم عندها فيها ما تجد النفس تقديمه أفضل من التأخير، فيتقدم مثلا بعض أجزاء الجملة حين يكون المحور الذى يدور عليه الحديث وحده، فيكون هو المقصود والمعنى، والنفس يتقدم عندها من يكون هذا شأنه، فلا جرم أن يتقدم في الجملة، كما تقدم في النفس"(٢)

فلا يصح أن تقدم لفظة أو تؤخر أخرى إلا لغرض في نفس المتكلم، وقد ذكر البلاغيون أغراضاً بلاغية للتقديم والتأخير، نذكر منها ما جاء في تفسير البيضاوي:

الأغراض البلاغية للتقديم والتأخير:

١. التخصيص:

يأتي التقديم أحياناً لغرض التخصيص ومعنى التخصيص: النسبة إلى شيء دون غيره(٣).

وقالوا التخصيص: رفع الاحتمال في المعارف، وتقليل الاشتراك في النكرات(٤).

فيأتي التقديم لإفادة التخصيص ويقصد به نسبة الشيء إلى شيء ونفيه عما سواه، وذلك بطرق كثيرة جاءت بها آيات القرآن الكريم.

فمن التقديم الذي جاء لغرض التخصيص قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ فاطر: ٢٨، قال البيضاوي رحمه الله: إذ شرطُ الخشية معرفة المَخشِيّ والعلم بصفاته وأفعاله، فمن كان أعلم به كان أخشى منه ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «إني أخشاكم لله وأتقاكم له»، ولذلك

(١) أسرار البلاغة: ٤-٥.

(٢) من بلاغة القرآن لأحمد بدوي: ٩٠.

(٣) حاشية كتاب الإيضاح: ١٦٢/٢.

(٤) بغية الايضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة: عبد المتعال الصعيدي، ٩٩/١، مكتبة الآداب، الطبعة السابعة عشر، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م

أتبعه بذكر أفعاله الدالة على كمال قدرته، **وتقديم المفعول لأن المقصود حصر الفاعلية ولو أُخِّر انعكس الأمر**(١).

فتقديم لفظ الجلالة وهو (الله) أفادت تخصيص حكم الخشية والخوف من الله بـ(العلماء) أي أنه ليس هناك من يخشى الله حق الخشية ويعرف قدره إلا العلماء.

وقد تعرَّض شيخ البلاغة الإمام عبد القاهر الجرجاني لهذه الآية وأوضح غرض التقديم فيها فقال: إن تقديمَ اسمِ الله تعالى إنما كانَ لأجْلِ أنَّ الغرضَ أن يبيَّن الخاشونَ مَنْ هُمْ، ويُخْبَر بأنهم **العلماءُ خاصَّةً دونَ غيرهم**. ولو أُخِّر ذكْرُ اسمِ الله وقدَّم "العلماءُ" فقيلَ: "إنَّما يخشَى العلماءُ اللهَ"، لصارَ المعنى على ضدِّ ما هو عليه الآن، ولصارَ الغرَضُ بيانَ المَخْشيِّ مَنْ هو، والإخبارُ بأنه اللهُ تعالى دونَ غيرِه، ولم يَجِبْ حينئذٍ أن تكونَ الخَشْيَةُ مِنَ الله تعالى مقصورةً على العلماءِ، وأن يكونوا مَخْصوصين بها كما هو الغرضُ في الآية، بل كان يكونُ المعنى أنَّ غيرَ العلماء يَخشَوْن اللهَ تعالى أيضاً، إلاَّ أنَّهم مع خَشْيتهم اللهَ تعالى يخشَوْنَ معه غيرَه، والعلماءُ لا يَخْشَونَ غيرَ الله تعالى.

وهذا المعنى وإنْ كانَ قد جاءَ في التنزيلِ في غيرِ هذه الآية كقولهِ تعالى: ﴿**وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ**﴾ الأحزاب: ٣٩، فليس هو الغرضَ في الآية، ولا اللفظُ بمُحْتملِ له البتَّة. ومَنْ أجازَ حَمْلَها عليه، كان قد أبطَلَ فائدةَ التقديمِ، وسوَّى بينَ قولِه تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}، وبينَ أنْ يُقالَ: "إنما يخشَى العلماءُ اللهَ"، وإذا سوَّى بينهُما، لَزِمَه أن يسوِّيَ بين قولِنا: "ما ضَرَبَ زيداً إلا عمرو" وبينَ: "ما ضرَب عمرو إلاَّ زيداً"، وذلك ما لا شُبْهَةَ في امتناعه(٢).

ومنه قوله تعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝**﴾ الفاتحة: ٥، قال البيضاوي رحمه الله: ثم إنه لما ذَكَر الحقيق بالحمد، ووصف بصفات عظام تميز بها عن سائر الذوات وتعلق العلم بمعلوم معين خوطب بذلك، أي: يا من هذا شأنه **نخصك** بالعبادة والاستعانة، ليكون أدل على **الاختصاص**(٣).

---

(١) تفسير البيضاوي: ١٢١/٣

(٢) دلائل الاعجاز: ٣٣٨-٣٣٩.

(٣) تفسير البيضاوي: ١٥/١.

وقد أورد السَّكَّاكي هذه الآية في مفتاح العلوم في معرض حديثه عن التقديم والتأخير فقال: والتخصيص لازم للتقديم ولذلك تسمع أئمة علم المعاني في معنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يقولون نخصك بالعبادة لا نعبد غيرك، ونخصك بالاستعانة منك لا نستعين أحدا سواك(١).

وقريباً من الآية السابقة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ البقرة: ١٧٢، قال البيضاوي رحمه الله: وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ على ما رزقكم وأحلَّ لكم. إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ إن صح أنكم **تخصونه بالعبادة**، وتُقِرُّون أنه مولى النعم، فإن عبادته تعالى لا تتم إلا بالشكر(٢).

فتقديم المفعول في (إياه تعبدون) أفادت اختصاص الله عز وجل بالعبادة دون غيره ولذلك قال البيضاوي: (إن صح أنكم تخصونه بالعبادة).

وكما أن تقديم المفعول على الفعل تفيد التخصيص كما في الآيات السابقة، فتقديم الظرف أيضاً يأتي للتخصيص كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ الأنبياء: ١٠٢، قال البيضاوي رحمه الله: **وتقديم الظرف للاختصاص والاهتمام به**(٣).

ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ العنكبوت: ٦٧، قال البيضاوي رحمه الله: وتقديم الصلتين للاهتمام أو الاختصاص على طريق المبالغة(٤).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ التغابن: ١، قال البيضاوي رحمه الله: لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ قدَّم الظرفين للدلالة على **اختصاص** الأمرين به من حيث الحقيقة(٥).

---

(١) مفتاح العلوم: ٢٣٣.
(٢) تفسير البيضاوي: ١٥٨/١
(٣) تفسير البيضاوي: ٤٣٤/٢
(٤) تفسير البيضاوي: ٤٣/٣
(٥) تفسير البيضاوي: ٤١٠/٣

ومنه قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ ق: ٤٤، قال البيضاوي رحمه الله: **وتقديم الظرف للاختصاص** فإن ذلك لا يتيسر إلا على العالم القادر لذاته الذي لا يشغله شأن عن شأن(١).

٢. تقوية الحكم وتقريره في نفس السامع:

تُقدَّم الكلمة لإفادة تقوية الحكم وتقريره في نفس السامع، وهذا الغرض تعرَّض له الإمام عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز وبسط الحديث عنه، فقد أوضح الإمام أنَّ تقديم الفاعل على الفعل في الجمل المثبتة نحو: "زيد قد فعل" و"أنا فعلت" و"أنت فعلت" يفيد أحد معنيين:

الأول: التخصيص، وقال في ذلك رحمه الله: ومثالُ ذلك أن تقولَ "أنا كتبتُ في معنى فلانٍ وأنا شفعتُ في بابه"، تُريد أن **تَدَّعِيَ الانفرادَ بذلك والاستبدادَ به**، وتُزيلَ الاشتباهَ فيه، وتردَّ على من زَعم أنَّ ذلك كان مِنْ غيرِك، أو أَنَّ غيرَكَ قد كتَب فيه كما كتبتَ(٢).

الثاني: تقوية الحكم وتأكيده لدى السامع: وفي ذلك يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني: أن لا يكونَ القصْدُ إلى الفاعلِ على هذا المعنى، ولكنْ على أنك أردتَ أن تُحقِّق على السامع أَنه قد فعل، وتمنعه من الشك، فأنت لذلك تبدأ بذِكْره، وتَوَقُّعِه أوّلاً ومِنْ قَبْلِ أن تَذكر الفعلَ في نفسه، لكي تُباعِدَه بذلك من الشُّبْهة، وتَمْنعَه من الإنكار، أَوْ مِنْ أن يُظَنَّ بك الغَلطُ أو التزيُّدُ. ومثالُه قولُك: "هو يعطي الجزيل"، و "هو يُحبُّ الثناءَ"، لا تُريد أن تَزعم أنه ليس هنا مَنْ يُعطي الجزيلَ ويُحِبُّ الثناءَ غيرَهُ، ولا أن تُعرِّض بإنسانٍ وتحطَّه عنه، وتجعلَه لا يُعطي كما يُعْطي، ولا يَرْغَبُ كما يَرغب، ولكنكَ تريدُ أن **تُحقِّق على السامعِ** أنَّ إعطاءَ الجزيل وحُبَّ الثناءِ دأْبُهُ، وأن **تُمكِّن ذلك في نفسه**(٣).

والسبب الذي جعل تقديم المحدَّث عنه على الفعل آكد وأثبت لدى السامع أنَّ الإنسان عندما يُحدَّث بالاسم في مطلع الحديث يتهيأ ليعلم الفعل الذي قام به أو وقع منه ويكون أكثر استعداد ويوطن نفسه ليعلم خبره.

وفي ذلك يقول شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني: فإن قلتَ: فمِن أينَ وجَبَ أن يكونَ تقديمُ ذِكْر المحدِّثِ عنه بالفعلِ، آكَدَ لإثباتِ ذلك الفعلِ له... فإنّ ذلك من أَجْل أنه لا يُؤتى بالاسم

(١) تفسير البيضاوي: ٣/٣١٩
(٢) دلائل الاعجاز: ١٢٨.
(٣) دلائل الاعجاز: ١٢٨-١٢٩.

مُعَرًّى منَ العوامل إلاَّ لحديثٍ قد نُويَ إسنادُه إليه، وإذا كان كذلك، فإن قلت: "عبد الله"، فقد أشعرت قبله بذلك أنك قد أردتَ الحديثَ عنه، فإذا جئتَ بالحديث فقلت مثلاً: "قامَ" أو قلتَ: "خرجَ"، أو قلتَ: "قَدِمَ" فقد عُلم ما جئتَ به وقد وطَّأْتَ له وقدَّمتَ الإعلام فيه، فدخلَ على القلب دُخولَ المأنوسِ به، وقبله قبول المهيأ له المطمئن إليه، وذلك لا محالة أشد لثبوته، وأتقى للشُّبهة، وأَمنعُ للشكَّ، وأدخلُ في التَّحقيق.

وجملةُ الأمر أنه ليس إعلامُك الشيءَ بغتةً غفلًا، مثْلَ إعلامِك له بعْدَ التنبيهِ عليه والتقدمةِ له، لأنَّ ذلك يَجْري مَجْرى تكريرِ الإعلام في التأكيد والإحكام. ومن ههنا قالوا: إنَّ الشيءَ إذا أُضْمِر ثمَّ فُسِّر، كان ذلك أفخمَ له مِنْ أن يُذكَر من غير تقدمة إضمار[1].

ولعلَّ المعنى الذي أراده الإمام عبد القاهر الجرجاني في قوله: (لأنَّ ذلك يَجْري مَجْرى تكريرِ الإعلام في التأكيد والإحكام)، أنه عندما يتقدم المحدَّث عنه على الفعل بقولنا مثلاً: (زيدٌ جاء) فقد ورد ذكر الفاعل هنا مرتين، المرة الأولى الاسم صراحة بقولنا في البداية (زيد)، ثم تكراره مرة أخرى بالضمير الذي هو فاعل الفعل (جاء) فيكون الفاعل مكرراً مرتين وبذلك يكون أكثر تأكيداً وأقوى في ذهن السامع.

ومن الكلمات التي تأتي مقدمة لغرض التأكيد وتقوية الحكم لدى السامع (مثل) و(غير)، وقد أوردهما القزويني في الإيضاح ومثل للأول بقول المتنبي:

مثلك يثني المزن عن صوبه ويسترد الدمع من غربه

ومثل لـ(غير) بقول الشاعر:

غيري بأكثر هذا الناس ينخدع إن قاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا

فإنه معلوم أنه لم يُرِد أن يعرض بواحد هناك فيصفه بأنه ينخدع بل أراد أنه ليس ممن ينخدع... واستعمال "مثل" و"غير" هكذا مركوز في الطباع، وإذا تصفحت الكلام وجدتهما يقدمان أبدًا على الفعل إذا نحى بهما نحو ما ذكرناه، ولا يستقيم المعنى فيهما إذا لم يقدما والسر في ذلك أن تقديمهما يفيد تقوي الحكم به كما سبق تقريره[2].

(١) دلائل الاعجاز: ١٣٢.
(٢) الإيضاح: ٢/٧٠-٧٣.

ومما جاء في القرآن من التقديم لأجل تقرير الكلام وتأكيده في ذهن السامع قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ آل عمران: ٨٣، قال صاحب أنوار التنزيل وأسرار التأويل: **أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وتقديم المفعول لأنه المقصود بالإنكار**(١).

ويُفهم من قول البيضاوي: (وتقديم المفعول لأنه المقصود بالإنكار) أن تقديم (غير دين الله) على الفعل (يبغون) آكد وأكثر تقريراً مما لو أخرَّنا المفعول به فقلنا: (أيبغون غير دين الله)، لأن الإنكار واقع على كل الآلهة والأديان التي تخالف دين الله عز وجل فهي خطأ وكفر من حيث أصلها، أما لو قُدِّم الفعل فإنه إنكار للفعل فقط وليس إنكاراً للأديان التي تخالف دين الله ومن هنا كانت البلاغة في التقديم والتأخير.

ومما جاء من التقديم لغرض التأكيد وتقوية الحكم في ذهن السامع قوله علت كلمته: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ الأعراف: ١٣٩، قال البيضاوي رحمه الله: وتقديم الخبرين في الجملتين الواقعتين خبراً لأن للتنبيه **على أن الدمار لاحق لما هم فيه لا محالة**، وأن الإحباط الكلي لازب لما مضى عنهم تنفيراً وتحذيراً عما طلبوا(٢).

يُفهم من كلام البيضاوي أن تقديم الخبرين في (مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ) و(وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)، جاء لغرض التأكيد وذلك عند قوله: (**على أن الدمار لاحق لما هم فيه لا محالة**)، لأن أصل الجملتين قبل التقديم: (ما هم فيه متبرٌ)، و(ما كانوا يعملون باطلٌ).

٣. العناية والاهتمام:

تُقدم الكلمة الأهم وتؤخر الكلمة الأقل أهمية، ومعنى العناية والأهمية ذكره لنا الإمام عبد القاهر الجرجاني فقال: وقال النحويون: إنَّ معنى ذلك أَنه قد يكونُ من أغراضُ الناس في فعلٍ ما أنْ يَقَع بإنسانٍ بعينهِ، ولا يُبالون مَنْ أَوْقَعَه، كَمِثل ما يُعلمُ مِنْ حالِهم في حالِ الخارجيَّ يَخْرُج فيعيثُ ويُفْسِد، ويَكْثُرُ به الأذى، أَنهم يُريدون قتله، ولا يُبالون مَنْ كانَ القتلُ منه، ولا يَعْنيهم منه شيءٌ. فإذا قُتل، وأرادَ مُريدٌ الإخبارَ بذلك، فإنه يُقدَّم ذكرَ الخارجيَّ فيقول: "قَتَلَ الخارجيَّ زيدٌ"، ولا يقولْ: "قتلَ زيدٌ الخارجيَّ"، لأنه يعلم أنْ ليس للناسِ في أنْ يعلموا أنَّ القاتلَ له "زيدٌ" جَدْوى وفائدةٌ، فيَعْنيهم

(١) تفسير البيضاوي: ٢٧٤/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٥٦٩/١

ذكْرُه ويهمُّهُمْ ويتَّصلُ بمسَّرتِهم ويَعْلم مِن حالِهم أَنَّ الذي هم متوقِّعون له ومُتَطلّعون إليه متى يكونُ، وقوعُ القتلِ بِالخارجي المُفْسِد، وأَنهم قد كفُّوا شرَّه وتخلَّصوا منه.

ثم قالوا: فإن كان رجلٌ ليس له بأسٌ ولا يقَدَّرُ فيه أنه يَقتُلُ، فقَتلَ رجلاً، وأراد المخبر أن يخبر بذلك، فإنه يُقدِّم ذكرَ القاتلِ فيقول: "قتلَ زيدٌ رجلاً"، ذاك لأَنَّ الذي يَعْنيه ويَعْني الناسَ مِن شأنِ هذا القتلِ، طرافَتُه وموضعُ النذْرةِ فيه، وبُعدُه كان منَ الظنِّ. ومعلومٌ أَنه لم يكنْ نادراً وبعيداً من حيثُ كان واقعاً بالذي وَقَع به، ولكنْ من حيثُ كان واقعاً مِنَ الذي وقعَ منه(١).

فالأهمية والعناية تعني أي الأمرين أهم للناس الفاعل أم المفعول به، فإن كان الفاعل مهم للناس بغض النظر عمن يقوم به وجب تقديمه، وإن كان المفعول به أعنى وأهم وجب تقديمه ليكون أدعى إلى تحقق المعنى وأوقع أثراً في نفوس المستمعين.

وقد جاء سيبويه على ذكر الأهمية والعناية في كتابه عند حديثه عن تقدم المفعول على الفاعل فقال: كأنّهم إنَّما يقدّمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعاً يُهِمّانِهم ويَعْنِيانهم(٢).

لكن الإمام عبد القاهر الجرجاني علَّق على قول سيبويه وذكر أن قولنا إن التقديم والتأخير جاء لأجل العناية والاهتمام غير كافٍ فلا بد أن نشير إلى وجه العناية والاهتمام الذي أريد من التقديم، فقال رحمه الله: وقد وَقعَ في ظنونِ الناسِ أَنَّه يكفي أنْ يقالَ: "إنه قُدِّم للعناية، ولأنَّ ذكْرَه أَهمُّ"، مِنْ غير أن يُذْكَر، مِنْ أين كانت تلك العنايةُ؟ وبمَ كانَ أهمَّ؟ ولِتخيُّلِهم ذلك، قد صَغُر أمرُ "التقديمِ والتأخيرِ" في نفوسهم، وهَوَّنوا الخَطْبَ فيه، حتى إنك لتَرى أكثرَهم يَرى تَتبُّعَه والنظرَ فيه ضرباً من التكلُّف. ولم ترَ ظنّاً أَزرى على صاحبهِ من هذا وشبهه(٣).

ومن التقديم والتأخير الذي جاء لأجل العناية والاهتمام قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ يوسف: ١٠٠، قال البيضاوي رحمه الله: تحية وتكرمة له فإن السجود كان عندهم يجري مجراها...والرفع مؤخر عن الخرور **وإن قدم لفظاً للاهتمام بتعظيمه لهما**(٤).

---

(١) دلائل الاعجاز: ١٠٧-١٠٨.

(٢) الكتاب: لسيبويه: ٣٤/١.

(٣) دلائل الاعجاز: ١٠٧-١٠٨.

(٤) تفسير البيضاوي: ١٩١/٢، والخرور السقوط كما جاء في لسان العرب (مادة خرر) ٢٣٥/٤: (وخَرَّ لِلَّهِ سَاجِدًا يَخِرُّ خُرُوراً أَي سَقَطَ)

فخرور إخوة يوسف مع أبويه سجداً كان أول قدومهم ودخولهم عليه لأنها سنة الدخول على الملوك، إذ كان القادم يعظم الملك ويحييه عند دخوله بهذا الخرور، ومن ثم تكريم يوسف عليه السلام لأبويه بأن رفعهم على العرش وأجلسهم بجواره، لكن الآية ذكرت الرفع على العرش قبل الخرور وهو مؤخر عنه زمانياً وذلك دلالة على أهمية تعظيم يوسف لأبويه وحبه لهما وبِرّه بهما، وكأن المراد من الآية: أن منزلة يوسف عليه السلام العظيمة في مصر، وفضله الذي ظهر على إخوته بعد ما فعلوه به، لم يُنسِه عظيم فضل والديه عليه، وكأنه يريد أن يشير إلى أنه لولا والديه بعد الله لما وصل إلى ما وصل إليه، فهي الأخلاق العالية التي يجب أن يتحلى بها المؤمن في السراء وفي الضراء.

ونرى هذه الأخلاق تمتد من يوسف عليه السلام على إخوته في تناسيه لما فعلوا في قوله: ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ﴾ يوسف: ١٠٠، فقد نسب يوسف عليه السلام ما فعله به إخوته من وضعه في البئر، وإبعاده عن أهله عشرات السنوات، كل ذلك تناساه يوسف عليه السلام ونسب هذا العمل إلى الشيطان ونزغه، وذلك تطييباً لنفوس إخوانه، وجبراً لخواطرهم، وهو الذي قال لهم من قبل: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ يوسف: ٩٢.

ونبقى مع أنبياء الله عز وجل، وهذه المرة مع موسى عليه السلام، فقد حكى الله في القرآن دعاءه حين قال: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ﴾ طه: ٢٥ – ٣٠، قال البيضاوي رحمه الله: ومفعولا (اجعل): وَزِيراً، وهارُونَ، قدم ثانيهما للعناية به[1].

وكأن المفعولين في أصل ترتيبهما في الجملة: (واجعل هارون وزيراً)، لكن النظم القرآني جاء بتقديم المفعول الثاني وهو (وزيراً) على المفعول الأول (هارون) للعناية به، ووجه العناية به أن المعنى: أن موسى عليه السلام كان يريد وزيراً يساعده في تحمل أعباء الدعوة، بغض النظر إن كان هذا هارون أو غيره بشرط أن تتوفر له صفات الوزير الذي يصلح لهذا المنصب، ولم يكن همُّه فقط أن يُنزل أخاه هارون منصباً ومرتبة إذ لو كان ذلك كذلك لقدم هارون على الوزير، فدعا وقال: (اجعل هارون وزيرا)، ومن هنا تتضح لنا المعاني البديعة التي لا يمكن أن تظهر إلا في التقديم والتأخير ومدلولاته البليغة.

(١) تفسير البيضاوي: ٣٨٩/٢

ومن التقديم والتأخير لأجل العناية والاهتمام ما جاء في دعاء سليمان عليه السلام ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾ ص: ٣٥، قال البيضاوي رحمه الله: (قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي) لا يتسهل له ولا يكون ليكون معجزة لي مناسبة لحالي، أو لا ينبغي لأحد أن يسلبه مني بعد هذه السلبة، أو لا يصح لأحد من بعدي لعظمته...وتقديم الاستغفار على الاستيهاب **لمزيد اهتمامه بأمر الدين** ووجوب تقديم ما يجعل الدعاء بصدد الإجابة(١).

ومنه قول إبراهيم عليه السلام حال دعوته قومه إلى الله عز وجل وإنكاره عبادتهم غير الله: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ الصافات: ٨٥ – ٨٦، قال البيضاوي رحمه الله: (أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ) أي تريدون آلهة دون الله إفكاً مقدماً المفعول للعناية ثم المفعول له لأن الأهم أن يقرر أنهم على الباطل ومبنى أمرهم على الافك(٢).

ومن التقديم والتأخير لأجل العناية والاهتمام قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾ المائدة: ٧٦، قال البيضاوي رحمه الله: وإنما قدم الضر لأن التحرز عنه أهم من تحري النفع(٣).

٤. تقديم الكثير على ما دونه:

تقدم الكلمة وتؤخر أخرى إن كان المقدم أكثر من المؤخر، ولذلك أمثلة كثيرة، ومنها قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ فاطر: ٣٢.

قال البيضاوي رحمه الله: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ) حكمنا بتوريثه منك ... (الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا) يعني علماء الأمة من الصحابة ومن بعدهم، أو الأمة بأسرهم فإن الله اصطفاهم على سائر الأمم (فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ) بالتقصير في العمل به. (وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ) يعمل به في غالب الأوقات. (وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ) بضم التعليم والإرشاد إلى العمل... وقيل الظالم الكافر على أن الضمير للعباد، **وتقدميه لكثرة الظالمين**(٤).

---

(١) تفسير البيضاوي: ١٧٤/٣
(٢) تفسير البيضاوي: ١٥٢/٣
(٣) تفسير البيضاوي: ٤٥٤/١
(٤) تفسير البيضاوي: ١٢٢/٣

وقد أورد ابن الأثير هذه الآية وعلق عليها بقوله: وإنما قدم الظالم لنفسه للإيذان بكثرته، وأن معظم الخلق عليه، ثم أتى بعده بالمقتصدين؛ لأنهم قليل بالإضافة إليه، ثم أتى بالسابقين وهو أقل من القليل –أعني من المقتصدين– فقدم الأكثر، وبعده الأوسط، ثم ذكر الأقل آخرًا(١).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ النور: ٢، قال القاضي البيضاوي: وإنما قدم الزَّانِيَةُ لأن الزنا في الأغلب يكون بتعرضها للرجل وعرض نفسها عليه ولأن مفسدته تتحقق بالإضافة إليها(٢).

فأكثر الزنى الحاصل في المجتمعات يكون سببه تعرَّض المرأة للرجل، أو إظهار مفاتنها، أو موافقتها عليه، وأنها رضيت بمقدماته من النظر، والخلوة، لأن الله أرشدنا إلى اجتناب المقدمات لأنها المفضية إلى النهاية الماحقة، فقال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ الإسراء: ٣٢، فنهانا الله عن قربانه فقال: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ النور: ٣٠ – ٣١

لأجل ذلك كان تقديم الزانية في هذه الآية أولى من تأخيرها لأن أكثر الزنى واقع برغبتهن أو بتساهلهن في مخالطة الرجال، وإلا فإن الرجل لا يتجرأ على هذا الفعل الفاحش إلا برضا المرأة وتساهلها.

وفي المقابل عندما تحدث الله عز وجل عن السرقة في قوله: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ المائدة: ٣٨

قدَّم السارق على السارقة في هذه الآية أيضاً لاعتبار الكثرة فإن أكثر وقوعه يكون من الرجال لا من النساء وذلك لأن الرجل أقدر من المرأة على القيام بهذا العمل لأنه يحتاج إلى قوة وحركة واعتلاء للأسوار، وهذا ما لا يوجد عند المرأة في العموم الأغلب.

ومنه قوله تعالى: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ الشورى: ٤٩ – ٥٠،

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين بن الأثير، ١٨٣/٢، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة.

(٢) تفسير البيضاوي: ٤٨٤/٢.

قال البيضاوي رحمه الله: (أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً) والمعنى يجعل أحوال العباد في الأولاد مختلفة على مقتضى المشيئة فيهب لبعض إما صنفاً واحداً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى أو الصنفين جميعاً ويعقم آخرين، **ولعل تقديم الإناث لأنها أكثر لتكثير النسل**(١).

٥. تقدم الكلمة لتقدمها في الزمن:

تتقدم الكلمة وتؤخر أخرى باعتبار الترتيب الزمني لكل منهما، والآيات التي جاءت على هذا النحو كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ ﴾ الفاتحة: ٣، قال البيضاوي رحمه الله: و(الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) اسمان بنيا للمبالغة من رحم، كالغضبان من غضب، والعليم من علم، والرحمة في اللغة: رقة القلب، وانعطاف يقتضي التفضل والإحسان، ومنه الرَّحِم لانعطافها على ما فيها. وأسماء الله تعالى إنما تؤخذ باعتبار الغايات التي هي أفعال دون المبادي التي تكون انفعالات. والرَّحْمنِ أبلغ من الرَّحِيمِ، لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى كما في قَطَّعَ وقَطَعَ وكَبَّار وكِبَار، وذلك إنما يؤخذ تارة باعتبار الكمية، وأخرى باعتبار الكيفية، فعلى الأول قيل: يا رحمن الدنيا لأنه يعم المؤمن والكافر، ورحيم الآخرة لأنه يخص المؤمن، وعلى الثاني قيل: يا رحمن الدنيا والآخرة، ورحيم الدنيا، لأن النعم الأخروية كلها جسام، وأما النعم الدنيوية فجليلة وحقيرة، **وإنما قدم والقياس يقتضي الترقي من الأدنى إلى الأعلى، لتقدم رحمة الدنيا**(٢).

ومن التقديم الذي جاء لاعتبار الترتيب الزماني قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ ﴾ البقرة: ٢٥٥، قال البيضاوي رحمه الله: (لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ) السنة فتور يتقدم النوم... والنوم حال تعرض للحيوان من استرخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة، بحيث تقف الحواس الظاهرة عن الإحساس رأساً، وتقديم السنة عليه وقياس المبالغة عكسه **على ترتيب الوجود**(٣).

ومعنى (ترتيب الوجود)، أي الترتيب الزماني إذ أن السنة تتقدم النوم فهي سابقة عليه من حيث الحصول.

---

(١) تفسير البيضاوي: ٢٤٢/٣.
(٢) تفسير البيضاوي: ١١/١
(٣) تفسير البيضاوي: ٢١٥/١

٦. الترقي من الأدنى إلى الأعلى:

ومثاله قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥ ﴾ آل عمران: ٥، قال البيضاوي رحمه الله: (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ) أي شيء كائن في العالم كلياً كان أو جزئياً، إيماناً أو كفراً. فعبَّر عنه بالسماء والأرض إذ الحس لا يتجاوزهما، وإنما **قدم الأرض ترقياً من الأدنى إلى الأعلى**[١].

٧. التقديم للرتبة والشرف:

تقدم الكلمة للدلالة على شرف ومكانة ورتبة المقدم على المؤخر، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ۝٣٩ ﴾ العنكبوت: ٣٩، قال صاحب أنوار التنزيل: (وَقارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهامانَ)... وتقديم قارُونَ لشرف نسبه[٢].

وشرف قارون أنه كان من قوم موسى قبل أن يبغي عليهم كما قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡ ﴾ القصص: ٧٦

ومثال التقديم الذي جاء للرتبة والشرف والفضل أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ۝١٣٠ ﴾ طه: ١٣٠، قال البيضاوي رحمه الله: (وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ) ومن ساعاته... (فَسَبِّحْ) يعني المغرب والعشاء **وإنما قدم زمان الليل لاختصاصه بمزيد الفضل** فإن القلب فيه أجمع والنفس أميل إلى الاستراحة فكانت العبادة فيه أحمز ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦ ﴾ المزمل: ٦[٣].

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ۝١ ﴾ الأنعام: ١، قال البيضاوي رحمه الله: وجمع السموات دون الأرض وهي مثلهن لأن طبقاتها مختلفة بالذات متفاوتة الآثار والحركات، وقدمها لشرفها وعلو مكانها وتقدم وجودها[٤].

---

(١) تفسير البيضاوي: ٢٤٣/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٣٦/٣
(٣) تفسير البيضاوي: ٤٠٩/٢
(٤) تفسير البيضاوي: ٤٧٧/١.

٨. المناسبة والسياق:

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾ النساء: ١٦٢، قال البيضاوي رحمه الله: (وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) قدم عليه الإيمان بالأنبياء والكتب وما يصدقه من اتباع الشرائع لأنه المقصود بالآية(١).

والمعنى أن الأصل أن يُقدم الإيمان بالله واليوم الآخر على الإيمان بالأنبياء والكتب، لكن سياق الآيات السابقة لهذه الآية تتحدث عن أهل الكتاب ومحاولتهم صلب عيسى عليه السلام قبل أن يرفعه الله إليه، وتكذيبهم للكتب والرسالة، فلأجل هذا السياق كان من الأبلغ أن يُقدم الإيمان بالأنبياء والكتب على الإيمان بالله وباليوم الآخر، وكأن المعنى الذي أضافه هذا التقديم أن الذي لم يؤمن بالأنبياء والكتب مع كل الأدلة المحسوسة التي أتى بها الأنبياء من المعجزات وغيرها، فكيف له أن يؤمن بالله وباليوم الآخر، وهي من الغيبيات.

ومن التقديم الذي جاء مراعياً السياق والمناسبة تقديم الأرض على السماء في كثير من الآيات التي جاءت في سياق الحديث عن الدنيا وأهلها، فمنها قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ يونس: ٦١، قال البيضاوي رحمه الله: (**فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ**) وتقديم الأرض لأن الكلام في حال أهلها والمقصود منه البرهان على إحاطة علمه بها(٢).

فلأن الحديث في هذه الآية في حال أهلها لذلك كان من البلاغة أن تقدم الأرض على السماء للدلالة عليهم، ونرى كلام البيضاوي واقع على كثير من الآيات التي قدمت فيها الأرض على السماء كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ ﴾ آل عمران: ٤ – ٥، فقد قدمت الأرض على السماء لأن جاءت في سياق الحديث عن الذين كفروا وهذا من حال أهل الأرض لذلك كان التقديم.

(١) تفسير البيضاوي: ٤٠٩/١

(٢) تفسير البيضاوي: ١٠٨/٢

ومنها قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ إبراهيم: ٣٨، فقد قُدِّمت الأرض هنا لأن الجملة واقعة بعد دعاء إبراهيم عليه السلام، الذي يتحدث فيه عن علم الله عز وجل لما يخفيه الناس وما يعلنونه.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٢٢﴾ ﴾ العنكبوت: ٢٢

٩. تقديم الغاية على الوسيلة:

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ البقرة: ١٥١، قال البيضاوي رحمه الله: (يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِنا وَيُزَكِّيكُمْ) يحملكم على ما تصيرون به أزكياء، قدمه باعتبار القصد وأخره في دعوة إبراهيم عليه السلام باعتبار الفعل[1].

فقد قدم الله عز وجل التزكية على تعليم الكتاب والحكمة، أما الآية الأخرى التي أشار إليها البيضاوي فهي قوله تعالى حكاية عن دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ البقرة: ١٢٩.

فنرى الآية الثانية قد قُدِّم التعليم فيها على التزكية، أي أن السبيل إلى التزكية ووسائلها هو بالتعليم وتلاوة القرآن، وبذلك تكون قُدّمت الغاية على الوسيلة في الآية الأولى، وقدمت الوسيلة على الغاية في الآية الثانية، ولعلَّ السَّرَّ وراء تقديم التزكية على التعليم تارة وتقديم التعليم على التزكية تارة أخرى، أن الآية الأولى كانت تعداداً لنعم الله على المؤمنين بعد أن آمنوا، فجاءت الآية لتذكر تلك النعم والتي منها التزكية وهي قصد بذاتها وغاية ثم جاءت على ذكر الوسائل التي أوصلت إلى ذلك الهدف.

أما الآية الثانية فهو دعاء من إبراهيم عليه السلام لله عز وجل يطلب بَعْثَ نبيٍ يقوم بأعباء الدعوة من تلاوة للآيات وتعليم للكتاب والحكمة لتتحقق بهذه الأعمال الغاية وهي التزكية، ومن هنا كان دعاء إبراهيم عليه السلام طلب له من الله لشيء لم يكن أن يكون، لذلك كان لا بد

(١) تفسير البيضاوي: ١/١٥٠

من وسائل تتحقق من خلالها هذه الغاية، لذلك قدمت الوسائل في دعاء إبراهيم –عليه السلام– على الهدف والقصد، وقدمت الغاية على الوسائل في تعداد نعم الله على المؤمنين.

١٠. تقديم الأشهر:

ومن أمثلته قوله تعالى: **(أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى) (النجم:٣٧)**، قال البيضاوي رحمه الله: وتقديم موسى عليه الصلاة والسلام لأن صحفه وهي التوراة كانت أشهر وأكبر عندهم[١].

وقد علَّق الإمام فخر الدين الرازي على هذه الآية في مفاتح الغيب فقال: قدم موسى هاهنا ولم يقل كما قال في سبح اسم ربك الأعلى: ﴿ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ الأعلى: ١٩ ،فهل فيه فائدة؟ نقول: ...فلما كانت صحف موسى عند اليهود كثيرة الوجود قدمها، وأما صحف إبراهيم فكانت بعيدة وكانت المواعظ التي فيها غير مشهورة فيما بينهم كصحف موسى فأخر ذكرها[٢].

١١. دفع التوهم:

وذلك إذا كان تأخير المقدم قد يوهم معنىً غير المعنى المراد، فلأجل هذا يكون التقديم أبلغ للدلالة على المعنى المراد ودفع التوهم، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾ طه: ٧٠، قال البيضاوي رحمه الله: (قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَمُوسى) قدم هارون لكبر سنه أو لروي الآية، أو لأن فرعون ربى موسى في صغره فلو اقتصر على موسى أو قدم ذكره لربما توهم أن المراد فرعون وذكر هارون على الاستتباع[٣].

١٢. تقديم السَّبب على المسبَّب:

ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ ﴾ البقرة: ٢٥٠، قال البيضاوي رحمه الله: (وَلَمَّا بَرَزُوا لِجالُوتَ وَجُنُودِهِ) أي ظهروا لهم ودنوا منهم. (قالُوا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدامَنا وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ) التجأوا إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء، وفيه ترتيب بليغ إذ سألوا أولاً إفراغ الصبر

(١) تفسير البيضاوي: ٣٤١/٣

(٢) مفاتيح الغيب: فخر الدين الرازي، ٢٧٥/٢٩، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ، بيروت.

(٣) تفسير البيضاوي: ٣٩٧/٢.

في قلوبهم الذي هو ملاك الأمر، ثم ثبات القدم في مداحض الحرب المسبب عنه، ثم النصر على العدو المترتب عليهما غالباً[١].

١٣. تقديم الأقرب إلى الحس:

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ﴾ طه: ٤، قال البيضاوي رحمه الله: (مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّماواتِ الْعُلى) تفخيم لشأن المنزَّل بفرط تعظيم المنزل بذكر أفعاله وصفاته على الترتيب الذي هو عند العقل، فبدأ بخلق الأرض والسموات التي هي أصول العالم، **وقدم الأرض لأنها أقرب إلى الحس** وأظهر عنده من السموات العلى[٢].

١٤. تقديم الأبلغ:

ومثاله قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ التوبة: ١٢٨، قال البيضاوي رحمه الله: (رَؤُفٌ رَحِيمٌ) قدَّم الأبلغ منهما وهو الرؤوف لأن الرأفة شدة الرحمة[٣].

والسر البلاغي وراء تقديم الأبلغ يكشفه لنا صاحب الكشاف عند تعرضه لقوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ ﴾ الفاتحة: ٣، قال: فإن قلت: فلم قدّم ما هو أبلغ من الوصفين على ما هو دونه، «٢» والقياس الترقي من الأدنى إلى الأعلى كقولهم: فلان عالم نحرير، وشجاع باسل، وجواد فياض؟ قلت: لما قال الرَّحْمنِ فتناول جلائل النعم وعظائمها وأصولها، أردفه الرَّحِيمِ كالتتمة والرديف ليتناول ما دقّ منها ولطف[٤].

وقد علق ابن المنير السكندري على كلام الزمخشري فقال: إنما كان القياس تقديم أدنى الوصفين لأن في تقديم أعلاهما ثم الارداف بأدناهما نوعا من التكرار إذ يلزم من حصول الأبلغ حصول الأدنى فذكره بعده غير مفيد ولا كذلك العكس فإنه ترقٍ من الأدنى إلى مزيد بمزية الأعلى لم يتقدم ما يستلزمه، ولذلك كان هذا الترتيب خاصاً بالإثبات. وأما النفي فعلى عكسه تقدم فيه الأعلى. تقول: ما فلان نحريراً ولا عالما، ولو عكست لوقعت في التكرار إذ يلزم من نفى الأدنى

(١) تفسير البيضاوي: ١/٢١٢-٢١٣.
(٢) تفسير البيضاوي: ٢/٣٨٣
(٣) تفسير البيضاوي: ٢/٨٧.
(٤) الكشاف: ١/٨.

عنه نفى الأعلى وكل ذلك مستمده في عموم الأدنى وخصوص الأبلغ، وإثبات الأخص يستلزم ثبوت الأعم، ونفي الأعم يستلزم نفي الأخص[1].

١٥. مراعاة الفواصل:

تقدم الكلمة وتؤخر الأخرى مراعاة للفواصل، أو محافظة على رؤوس الآي، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ الشورى: ٤٩، قال البيضاوي رحمه الله: ولعل تقديم الإناث لأنها أكثر لتكثير النسل... أو للمحافظة على الفواصل ولذلك عرف الذكور[2].

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ ﴾ النحل: ٥، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَمِنْها تَأْكُلُونَ)** أي تأكلون ما يؤكل منها من اللحوم والشحوم والألبان، **وتقديم الظرف للمحافظة على رؤوس الآي**[3].

ومنه قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ الفاتحة: ٥، قال البيضاوي رحمه الله: وقُدِّمَت العبادة على الاستعانة ليتوافق رؤوس الآي[4].

ولا بد من الإشارة إلى أن مراعاة الفواصل أو اتفاق رؤوس الآي من السمات البلاغية الجميلة التي اتصف بها القرآن الكريم، وهو يقابل القافية في الشعر والسجع في النثر، مع أن بعض العلماء يسمون الفواصل سجعاً، مع اعتراض بعض العلماء على هذه التسمية وقد رأينا ابن سنان الخفاجي يفرق بين الفواصل والأسجاع بقوله: وأما الفواصل التي في القرآن فإنهم سموها فواصل ولم يسموها أسجاعاً وفرقوا فقالوا: إن السجع هو الذي يقصد في نفسه ثم يحمل المعنى عليه والفواصل التي تتبع المعاني ولا تكون مقصودة في أنفسها وقال على بن عيسى الرماني: إن الفواصل بلاغة والسجع عيب وعلل ذلك بما ذكرناه من أن السجع تتبعه المعاني والفواصل تتبع المعاني وهذا غير صحيح والذي يجب أن يحرر في ذلك أن يقال: إن الأسجاع حروف متماثلة في مقاطع الفصول على ما ذكرناه والفواصل على ضربين ضرب يكون سجعاً وهو ما تماثلت حروفه في المقاطع وضرب لا يكون سجعاً وهو ما تقابلت حروفه في المقاطع ولم تتماثل ولا يخلو كل واحد من هذين القسمين أعني المتماثل والمتقارب من أن يكون يأتي طوعا سهلا وتابعا للمعاني

(١) الأعلام للزركلي: ٢٢٠/١.
(٢) تفسير البيضاوي: ٢٤٢/٣
(٣) تفسير البيضاوي: ٢٥٢/٢
(٤) تفسير البيضاوي: ١٧/١.

وبالضد من ذلك حتى يكون متكلفاً يتبعه المعنى فإن كان من القسم الأول فهو المحمود الدال على الفصاحة وحسن البيان وإن كان من الثاني فهو مذموم مرفوض.

فأمَّا القرآن فلم يرد فيه إلا ما هو من القسم المحمود لعلوه في الفصاحة... وأظن أن الذي دعا أصحابنا إلى تسمية كل ما في القرآن فواصل ولم يسموا ما تماثلت حروفه سجعاً رغبة في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروى عن الكهنة وغيرهم وهذا غرض في التسمية قريب. فأما الحقيقة فما ذكرناه لأنه لا فرق بين مشاركة بعض القرآن لغيره من الكلام في كونه مسجوعاً وبين مشاركة جميعه في كونه عرضاً وصوتاً وحروفاً وعربياً ومؤلفاً وهذا مما لا يخفى فيحتاج إلى زيادة في البيان. ولا فرق بين الفواصل التي تتماثل حروفها في المقاطع وبين السجع(١).

وجمال الفواصل في القرآن بادٍ لا يخفى على أحد، فموضع الفاصلة في الآية لا يأتي اعتباطاً أو لمراعاة اللفظ فقط ولكنها تكمل معنى الآية، ويتم بها النغم الموسيقى للآية، فنراها أكثر ما تنتهى بالنون والميم وحروف المد، وتلك هى الحروف الطبيعية فى الموسيقى نفسها(٢).

وللفواصل القرآنية مكانها الذي لا يحيد من التأثير الموسيقي في النفس وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب، وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها؛ أو بالمد، وهو كذلك طبيعي في القرآن، فإن لم تنته بواحدة من هذه، كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى، كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه، وعلى أن ذلك لا يكون أكثر ما أنت واجده إلا في الجمل القصار، ولا يكون إلا بحرف قوي يستتبع القلقلة أو الصفير أو نحوهما مما هو ضروب أخرى من النظم الموسيقي.

وهذه هي طريقة الاستهواء الصوتي في اللغة، وأثرها طبيعي في كل نفس، فهي تشبه في القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه الذي يخاطب به كل نفس تفهمه، وكل نفس لا تفهمه، ثم لا يجد من النفوس على أي حال إلا الإقرار والاستجابة؛ ولو نزل القرآن بغيرها لكان ضرباً من الكلام البليغ الذي يُطمَع فيه أو في أكثره، ولما وجد فيه أثر يتعدى أهل هذه اللغة العربية إلى أهل اللغات الأخرى، ولكنه انفرد بهذا الوجه للعجز، فتألقت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو أبدل بغيره أو أقحِم معه حرف آخر، لكان ذلك خللاً بيناً، أو ضعفاً ظاهراً في نسق الوزن وجرس النغمة، وفي

(١) سر الفصاحة: عبد الله بن محمد الخفاجي الحلبي، ١٧٢-١٧٤، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.
(٢) من بلاغة القرآن لأحمد بدوي: ٦٥.

حِسِّ السمع وذوق اللسان، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرَج وتَسانُد الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض، ولرأيت هُجنة في السمع، كالذي تنكره من كل مَرئي لم تقع أجزاؤه على ترتيبها، ولم تنفق على طبقاتها، وخرج بعضُها طولاً وبعضُها عرضاً، وذهب ما بقي منها إلى جهات متناكرة[1].

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، ص١٥٠، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م.

المبحث الرابع: الاعتراض

تعرض الإمام السَّكَّاكي للاعتراض فقال: الاعتراض: ويسمى الحشو وهو أن تدرج في الكلام ما يتم المعنى بدونه[١].

وقد جاء ابن الأثير على ذكر الاعتراض في كتاب المثل السائر فقال: وبعضهم يسميه الحشو، وحدُّه: كل كلام أدخل فيه لفظ مفرد أو مركب لو سقط لبقي الأول على حاله.

مثال ذلك أن تقول: زيد قائم، فهذا كلام مفيد، وهو مبتدأ وخبر، فإذا أدخلنا فيه لفظا مفردا قلنا: زيد والله قائم، ولو أزلنا القسم منه بقي على حاله، وإذا أدخلنا في هذا الكلام لفظا مركبا قلنا: زيد على ما به من المرض قائم، فأدخلنا بين المبتدأ والخبر لفظا مركبا، وهو قولنا على ما به من المرض، فهذا هو الاعتراض، وهذا حده[٢].

أما جلال الدين القزويني فقد قال عن الاعتراض: وهو أن يؤتى في أثناء الكلام، أو بين كلامين متصلين معنى بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لنكتة سوى ما ذكر في تعريف التكميل[٣].

وقد أورد العلوي في الطراز كلاماً على الاعتراض فقال: وبعضهم يسميه الحشو...أما الاعتراض فهو كل كلام أدخل في غيره أجنبي بحيث لو أسقط لم تختل فائدة الكلام، وأما المعترض فيه فهو كل كلام أدخل فيه لفظ مفرد أو مركب بحيث لو أسقط لبقى الكلام على حاله في الإفادة[٤].

وجملة القول أن الاعتراض يقع بين الكلام الذي يتصل ببعضه معنى، وحذف الاعتراض لو وقع لا يختل المعنى، وليس معنى هذا أن الاعتراض يكون حشواً لا فائدة منه وإنما يكون لأغراض بلاغية وفوائد عددها البلاغيون.

ونرى جمال الاعتراض بادٍ عند شيخ البلاغة الإمام عبد القاهر الجرجاني الذي يعتبره وجهاً من وجوه تحسين الكلام، فقد أورد في دلائل الاعجاز بيت ابن المعتز:

---

(١) مفتاح العلوم: ٤٢٨.
(٢) المثل السائر: ٣/٤٠.
(٣) الإيضاح في علوم البلاغة: ٣/٢١٤.
(٤) الطراز: ٢/٨٩.

وإني على إشفاق عيني من العِدى لتجمح مني نظرة ثم أطرق

فترى أنَّ هذه الطُلاَوةَ وهذا الظَّرْفَ، إنَّما هو لأنْ جعلَ النظرَ "يجمحُ" وليس هو لذلك، بل لأَنْ قالَ في أول البيت "وإنِّي" حتى دخلَ اللامُ في قولِه "لتجمحُ" ثم قولُه: "مني" ثم لأنْ قالَ "نظرةٌ" ولم يقل "النَّظرُ" مثلاً ثم لمكانِ "ثمَّ" في قولِه: "ثم أُطرق" وللطيفةِ أخرى نصرتْ هذه اللطائفَ، وهي اعتراضُهُ بينَ اسم "إنَّ" وخبرها بقوله: "على إشفاق عيني من العدي"(١).

فقد عدَّ الإمام عبد القاهر الاعتراض من الأساليب التي تكسب اللفظ لطيفة بلاغية، لا تكون لو لم يكن هذا الاعتراض.

ومن هنا كان اعتراض بعضهم على تسمية الاعتراض بالحشو، لأن كلمة "حشو" توحي بأن الكلام المعترض لا فائدة منه، ومن ذلك ما ذكره الرافعي في إعجاز القرآن فقال: ولما كان الأصل في نظم القرآن أن تعتبر الحروف بأصواتها وحركاتها ومواقعها من الدلالة المعنوية، استحال أن يقع في تركيبه ما يسوغ الحكم في كلمة زائدة أو حرف مضطرب أو ما يجري مجرى الحشو والاعتراض، أو ما يقال فيه إنه تغوث واستراحة كما تجد من كل ذلك في أساليب البلغاء، بل نزلت كلماته منازلها على ما استقرت عليه طبيعة البلاغة، وما قد يشبه أن يكون من هذا النحو الذي تمكنت به مفردات النظام الشمسي وارتبطت به سائر أجزاء المخلوقات صفة متقابلة بحيث لو نزعت كلمة منه أو أزيلت عن وجهها، ثم أدير لسانُ العرب كله على أحسن منها في تأليفها وموقعها وسدادها، لم يتهيأ ذلك ولا اتسعت له اللغة بكلمة واحدة، كما سنبينه في موضع آخر، وهو سر من إعجازه قد أحس به العرب، لأنهم لا يذهبون مذهباً غيره في منطقهم(٢).

الأغراض البلاغية للاعتراض:

يأتي الاعتراض لأغراض بلاغية عديدة ذكرها العلماء في كتاباتهم وأوردها الإمام القاضي ناصر الدين البيضاوي في تفسيره، منها:

(١) دلائل الإعجاز: ٩٨-٩٩.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي: ١٥٥.

١. التنزيه والتعظيم:

ومثاله قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ ﴾ آل عمران: ١٩١، قال البيضاوي رحمه الله: (سُبْحانَكَ) تنزيهاً لك من العبث وخلق الباطل وهو اعتراض[١].

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤ ﴾يونس: ٦٢ – ٦٤، قال البيضاوي رحمه الله: وَ(الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) هذه الجملة والتي قبلها اعتراض لتحقيق المبشر به وتعظيم شأنه، وليس من شرطه أن يقع بعده كلام يتصل بما قبله[٢].

ويقصد البيضاوي بما قبلها (لا تبديل لكلمات الله).

٢. التأكيد:

من ذلك قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٦ ﴾ الأنعام: ١٠٦، قال البيضاوي رحمه الله: (لا إِلهَ إِلَّا هُوَ) اعتراض أكد به إيجاب الاتباع[٣].

فقد جاءت جملة (لا إله إلا هو) اعتراضية بين الأمر الأول: ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ وبين الأمر الثاني المعطوف عليه وهو وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ، وذلك تأكيداً لوجوب الاتباع لأنه لا معبود سوى الله، وهذا ما يفهم من كلمة التوحيد.

وقد علق السيوطي في نواهد الأبكار على قول البيضاوي بالقول: قوله: ((لا إله إلا هو) اعتراض أكد به إيجاب الاتباع). قال الطِّيبي: لما في كلمة التوحيد من التمسك بحبل الله والاعتصام به والتبري والإعراض عما سواه، ولأنَّ الموحى ليس إلا التوحيد.

ومن الاعتراض الذي جاء لغرض التأكيد قوله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ٩٦ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ٩٨ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ

(١) تفسير البيضاوي: ٣٢٣/١
(٢) تفسير البيضاوي: ١٠٨/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ٥١٠/١

ﭐلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ ﴾ المؤمنون: ٩٦ – ٩٩، قال البيضاوي رحمه الله: (حَتَّى إذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ) متعلق بـ (يَصِفُونَ)، وما بينهما اعتراض لتأكيد الإغضاء بالاستعاذة بالله من ال**شيطان أن يزله عن الحلم ويغريه على الانتقام أو بقوله إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ**(١).

يعني أن جملتي: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾ ، جملتان اعتراضتيان جاءتا لتأكيد الاغضاء بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم.

ومن الاعتراض لأجل التأكيد قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ لقمان: ١٤ – ١٥، قال البيضاوي رحمه الله: والآيتان معترضتان في تضاعيف وصية لقمان تأكيداً لما فيها من النهي عن الشرك كأنه قال: وقد وصينا بمثل ما وصى به(٢).

ووجه كون هاتان الآيتان معترضتين أنهما كما قال البيضاوي جاءتا في تضاعيف وصية لقمان، فقد سبقت هاتين الآيتين بقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴿١٣﴾ ﴾ لقمان: ١٣، وأتبعت الآيتان بقوله تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾ ﴾ لقمان: ١٦.

لذلك كان إيراد وصية الله في تضاعيف وصية لقمان اعتراضاً ليدل على تأكيد النهي عن الشرك.

ومثال الاعتراض الذي جاء للتأكيد قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ ﴾ القصص: ٨ ، قال البيضاوي رحمه الله: (**فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً**) تعليل لالتقاطهم إياه بما هو عاقبته ومؤداه تشبيهاً له بالغرض الحامل عليه...(**إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ**) في كل شيء فليس ببدع منهم أن قتلوا ألوفاً لأجله ثم أخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون، أو مذنبين فعاقبهم

(١) تفسير البيضاوي: ٤٧٩/٢
(٢) تفسير البيضاوي: ٦٣/٣

الله تعالى بأن ربى عدوهم على أيديهم، فالجملة اعتراض لتأكيد خطئهم أو لبيان الموجب لما ابتلوا به[1].

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾لقمان: ١٤، قال البيضاوي رحمه الله: **(أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ)** تفسير لـ **(وَصَّيْنَا)** أو علة له أو بدل من والديه بدل الاشتمال، وذكر الحمل والفصال في البين اعتراض مؤكد للتوصية في حقها خصوصاً[2].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾فاطر: ١٨، قال البيضاوي رحمه الله: (إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ) غائبين عن عذابه، أو عن الناس في خلواتهم، أو غائباً عنهم عذابه. (وَأَقامُوا الصَّلاةَ) فإنهم المنتفعون بالإنذار لا غير...(وَمَنْ تَزَكَّى) ومن تطهر من دنس المعاصي. (فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ) إذ نفعه لها...وهو اعتراض مؤكد لخشيتهم وإقامتهم الصلاة لأنهما من جملة التزكي[3].

٣. الحث والترغيب:

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ ۖ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾الأعراف: ٤٢، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وسعها)** اعتراض بين المبتدأ وخبره للترغيب في اكتساب النعيم المقيم بما يسعه طاقتهم ويسهل عليهم[4].

وقد علَّق ابن عطية في المحرر الوجيز على هذه الآية فقال: هذه آية وعد مخبرة أن جميع المؤمنين هم أصحاب الجنة ولهم الخلد فيها، ثم اعترض أثناء القول بعقب الصفة، التي شرطها في المؤمنين باعتراض يخفف الشرط ويرجى في رحمة الله ويعلم أن دينه يسر وهذه الآية نص في أن الشريعة لا يتقرر من تكاليفها شيء لا يطاق[5].

---

(١) تفسير البيضاوي: ٧/٣

(٢) تفسير البيضاوي: ٦٢/٣

(٣) تفسير البيضاوي: ١١٩/٣

(٤) تفسير البيضاوي: ٥٤٤/١

(٥) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية الأندلسي، ٤٠١/٢، تحقيق عبد السلام محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

ومن الاعتراض الذي جاء لغرض الحث والترغيب قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ التوبة: ١١ – ١٢، قال البيضاوي رحمه الله: (وَنُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) اعتراض للحث على تأمل ما فصل من أحكام المعاهدين أو خصال التائبين[١].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ النساء: ١٢٨، قال البيضاوي رحمه الله: (وَالصُّلْحُ خَيْرٌ) من الفرقة أو سوء العشرة أو من الخصومة. ولا يجوز أن يراد به التفضيل بل بيان أنه من الخيور كما أن الخصومة من الشرور، وهو اعتراض وكذا قوله: (وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ) ولذلك اغتفر عدم مجانستهما، **والأول للترغيب في المصالحة**، والثاني لتمهيد العذر في المماكسة[٢].

٤. البيان والتوضيح:

جاء في لسان العرب: والبَيانُ: مَا بُيِّنَ بِهِ الشيءُ مِنَ الدَّلَالَةِ وغيرِها. وبانَ الشيءُ بَياناً: اتَّضَح، فَهُوَ بَيِّنٌ[٣].

يأتي الاعتراض للبيان والتوضيح وذلك تفسيراً للجمل السابقة للجملة المعترضة ووذلك كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ فاطر: ٣٢، قال البيضاوي رحمه الله: (**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ**) حكمنا بتوريثه منك أو نورثه فعبر عنه بالماضي لتحققه، أو أورثناه من الأمم السالفة، والعطف على (**إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ**)، (**وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ**) اعتراض لبيان كيفية التوريث[٤].

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ محمد: ١٥، قال البيضاوي رحمه الله: (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ

(١) تفسير البيضاوي: ٤٠/٢
(٢) تفسير البيضاوي: ٣٩٧/١
(٣) لسان العرب مادة (بين): ٧٦/١٣.
(٤) تفسير البيضاوي: ١٢١/٣-١٢٢

الْمُتَّقُونَ) أي فيما قصصنا عليك صفتها العجيبة. وقيل مبتدأ خبره: كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ، وتقدير الكلام أمثل أهل الجنة كمثل من هو خالد، أو أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد فعري عن حرف الإنكار وحذف ما حذف استغناء يجري مثله تصويراً لمكابرة من يسوي بين المتمسك بالبينة والتابع للهوى، بمكابرة من يسوي بين الجنة والنار، وهو على الأول خبر محذوف تقديره: أفمن هو خالد في هذه الجنة كمن هو خالد في النار، أو بدل من قوله: (كَمَنْ زُيِّنَ) وما بينهما اعتراض لبيان ما يمتاز به من على بينة في الآخرة تقريراً لإنكار المساواة[1].

ومثاله أيضاً قوله تعالى: (وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا) (الإسراء: ٦٤)، قال البيضاوي رحمه الله: (وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً) اعتراض لبيان مواعيده الباطلة[2].

٥. دفع التوهم:

يأتي الاعتراض لغرض دفع التوهم، فقد يكون المخاطب معتقداً اعتقاداً معيناً، هذا الاعتقاد ناشئ عن الجملة السابقة للجملة الاعتراضية، فتأتي الجملة الاعتراضية دافعة لهذا التوهم.

ومثاله قوله تعالى: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ آل عمران: ١٤٠ ، قال البيضاوي رحمه الله: (إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ) والمعنى إن أصابوا منكم يوم أحد فقد أصبتم منهم يوم بدر مثله، ثم إنهم لم يضعفوا ولم يجبنوا فأنتم أولى بأن لا تضعفوا، فإنكم (ترجون مِنَ الله مَا لاَ يرجون)...(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ) نصرفها بينهم نديل لهؤلاء تارة ولهؤلاء أخرى... (وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا) عطف على علة محذوفة أي نداولها ليكون كيت وكيت وليعلم الله إيذاناً بأن العلة فيه غير واحدة، وإن ما يصيب المؤمن فيه من المصالح ما لا يعلم... (وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ) ويكرم ناساً منكم بالشهادة يريد شهداء أحد، أو يتخذ منكم شهوداً معدلين بما صودف منهم من الثبات والصبر على الشدائد. (وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) الذين يضمرون خلاف ما يظهرون، أو الكافرين **وهو اعتراض، وفيه تنبيه على أنه تعالى لا ينصر الكافرين على الحقيقة وإنما يغلبهم أحياناً استدراجاً لهم وابتلاء للمؤمنين**[3].

---

(١) تفسير البيضاوي: ٢٨٧/٣

(٢) تفسير البيضاوي: ٣١٠/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٣٠٠/١

فيُفهم من كلام البيضاوي رحمه الله أن هذا الاعتراض جاء لدفع توهم قد يقع عند البعض من أن الله قد نصر الكافرين حقيقة، وقد يتوهم متوهم أن نصر الله هو حبٌ لهم فجاءت جملة الاعتراض لدفع هذا التوهم بقوله تعالى: (وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ).

٦. **التعليل**:

يأتي الاعتراض لغرض ذكر سبب أو علة للعبارة السابقة للجملة الاعتراضية، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ البقرة: ٦، قال البيضاوي رحمه الله: إن الذين كفروا مستوٍ عليهم إنذارك وعدمه... **(لاَ يُؤْمِنُونَ)** جملة مفسرة لإجمال ما قبلها فيما فيه الاستواء فلا محل لها أو حال مؤكدة. أو بدل عنه. أو خبر إن **والجملة قبلها اعتراض بما هو علة الحكم**(١).

فجملة (سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ) جاءت معترضة للدلالة على علة الحكم الذي قرره تعالى وهو (أن الذين كفروا لا يؤمنون)، والسبب أنهم يستوي عندهم الإنذار وعدمه.

ومثال الاعتراض الذي جاء لغرض التعليل قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٤٥﴾ الأنعام: ١٤٥، قال البيضاوي رحمه الله: (قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ) أي في القرآن، أو فيما أوحي إلَّي مطلقاً...(مُحَرَّماً) طعاماً محرماً... وقوله: (أَوْ دَماً مَسْفُوحاً) عطف على أن مع ما في حيزه أي: إلا وجود ميتة أو دماً مسفوحاً، أي مصبوباً كالدم في العروق لا كالكبد والطحال. (أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ) فَإِنَّهُ رِجْسٌ فإن الخنزير أو لحمه قذر لتعوده أكل النجاسة أو خبيث مخبث (أَوْ فِسْقاً) عطف على لحم خنزير. وما بينهما اعتراض للتعليل(٢).

يعني أن أصل الجملة قبل دخول الاعتراض عليها: (إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحاً أو لحم خنزير أو فسقاً أهل لغير الله به)، فدخل الاعتراض (فإنه رجس) بعد (لحم خنزير)، ليدل على علة التحريم، وهو كونه رجس.

(١) تفسير البيضاوي: ٤١/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٥٢٤/١

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾ ﴾ الطور: ٢١، قال البيضاوي رحمه الله: (وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ) اعتراض للتعليل[١].

٧. الدعاء:

ذكر القزويني في الإيضاح هذا الغرض الذي يأتي الاعتراض لأجله، فقال: والدعاء في قول أبي الطيب:

وتحتقر الدنيا احتقار مجرب يرى كل ما فيها –وحاشاك– فانيا

فإن قوله: "وحاشاك" دعاء حسن في موضعه، ونحوه قول عوف بن محلم الشيباني:

إن الثمــانين وبلغـــتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان[٢].

ومما جاء في القرآن الكريم من الاعتراض لغرض الدعاء قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٩٨﴾ ﴾ التوبة: ٩٨، قال البيضاوي رحمه الله: (**وَمِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ**) يعُدُّ مَا يُنْفِقُ يصرفه في سبيل الله ويتصدق به. (**مَغْرَماً**) غرامة وخسراناً إذ لا يحتسبه قربة عند الله ولا يرجو عليه ثواباً وإنما ينفق رياء أو تقية. (**وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ**) دوائر الزمان ونوبه لينقلب الأمر عليكم فيتخلص من الانفاق. (**عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ**) **اعتراض بالدعاء** عليهم بنحو ما يتربصون أو الإخبار عن وقوع ما يتربصون عليهم[٣].

ومعنى الدعاء من الله عز وجل هو إيجاب الشيء كما قال ابن عطية في تفسير هذه الآية: (عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ) وكل ما كان بلفظ دعاء من جهة الله عز وجل فإنما هو بمعنى إيجاب الشيء، لأن الله لا يدعو على مخلوقاته وهي في قبضته...فهي كلها أحكام تامة تضمنها خبره تعالى[٤].

---

(١) تفسير البيضاوي: ٣/٣٣٠

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة: ٣/٢١٥.

(٣) تفسير البيضاوي: ٢/٧٤

(٤) المحرر الوجيز: ٣/٧٤

٨. **التسلية**:

يأتي الاعتراض لغرض رفع الهم والحزن، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ ﴾ العنكبوت: ١٨، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَإِنْ تُكَذِّبُوا)** وإن تكذبوني. **(فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ)** من قبلي من الرسل فلم يضرهم تكذيبهم وإنما ضر أنفسهم حيث تسبب لما حل بهم من العذاب فكذا تكذيبكم. **(وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ)** الذي يزال معه الشك وما عليه أن يصدق ولا يكذب، فالآية وما بعدها من جملة قصة إِبْراهِيمَ إلى قوله فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ **ويحتمل أن تكون اعتراضاً بذكر شأن النبي صلّى الله عليه وسلّم** وقريش وهدم مذهبهم والوعيد على سوء صنيعهم، توسط بين طرفي قصته –قصة إبراهيم عليه السلام– من حيث إن مساقها **لتسلية رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والتنفيس عنه**، بأن أباه خليل الله صلوات الله عليهما كان ممنواً بنحو ما مني به من شرك القوم وتكذيبهم وتشبيه حاله فيهم بحال إبراهيم في قومه(١).

فهذه الآية ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ ﴾، قد لا يفهم منها التسلية إذا أخذت بمعزل عن السياق الذي وجدت به، لكن وجودها كجملة معترضة بين قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه أفادت تسلية النبي صلى الله عليه وسلم، بمعنى أنك لم تكن بدعاً من الرسل فيما جوبهت به من التكذيب والعداء، فاصبر كصبر من سبقك من الرسل، وستكون العاقبة نصرة دينك ودعوتك.

٩. **الحصر والاختصاص**:

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ المائدة: ١٠٦ ، قال البيضاوي رحمه الله: (فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ) إن ارتاب الوارث منكم. لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً مقسم عليه، وإن ارتبتم اعتراض يفيد اختصاص القسم بحال الارتياب(٢).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾ محمد: ٢، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَآمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ)**

(١) تفسير البيضاوي: ٣٢/٣
(٢) تفسير البيضاوي: ٤٦٩/١

تخصيص للمنزل عليه مما يجب الإيمان به تعظيماً له وإشعاراً بأن الإيمان لا يتم دونه، وأنه الأصل فيه ولذلك أكده بقوله: (وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ) **اعتراضاً على طريقة الحصر**[1].

١٠. التوبيخ:

ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ النحل: ١٠١، قال البيضاوي رحمه الله: (وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ) بالنسخ فجعلنا الآية الناسخة مكان المنسوخة لفظاً أو حكماً. (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ) من المصالح فلعل ما يكون مصلحة في وقت يصير مفسدة بعده فينسخه، وما لا يكون مصلحة حينئذ يكون مصلحة الآن فيثبته مكانه... قالُوا أي الكفرة. (إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ) متقول على الله تأمر بشيء ثم يبدو لك فتنهى عنه، وهو جواب إذا. (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ)، اعتراض لتوبيخ الكفار على قولهم والتنبيه على فساد سندهم[2].

ومنه قوله تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ القيامة: ١٦ – ١٩، قال البيضاوي رحمه الله: (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ بيان) ما أشكل عليك من معانيه... وهو اعتراض بما يؤكد التوبيخ على حب العجلة لأن العجلة إذا كانت مذمومة فيما هو أهم الأمور وأصل الدين فكيف بها في غيره[3].

(١) تفسير البيضاوي: ٢٨٥/٣
(٢) تفسير البيضاوي: ٢٨٠/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ٤٧٣/٣

المبحث الخامس: خروج الكلام عن مقتضى الظاهر

أولاً: الالتفات:

الالتفات لغة: لَفَتَ وجهَه عَنِ الْقَوْمِ: صَرَفَه...وتَلَفَّتَ إِلى الشَّيْءِ والْتَفَتَ إِليه: صَرَفَ وجْهَه إِليه...واللَّفْتُ: لَيُّ الشيءِ عَنْ جهتِه[1].

فالالتفات معناه اللغوي صرف الشيء عن جهته الأصلية إلى جهة أخرى، ومن هنا كان استخدام البلاغيين لهذه الكلمة لتناسب مصطلح الالتفات في البلاغة العربية، ونرى ابن الأثير، يشير إلى ذلك بقوله: "وهذا النوع وما يليه هو خلاصة علم البيان التي حولها يدندن، وإليها تستند البلاغة، وعنها يعنعن.

وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله، فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا.

وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة؛ لأنه ينتقل فيه عن صيغة، كانتقال من خطاب حاضر إلى غائب، أو من خطاب غائب إلى حاضر، أو من فعل ماض إلى مستقبل، أو من مستقبل إلى ماض، أو غير ذلك مما يأتي ذكره مفصلا"[2].

والالتفات اصطلاحاً: هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها[3].

وعرفه ابن المعتز بقوله: وهو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك[4].

وقد أورد السَّكَّاكي في مفتاح العلوم حديثاً عن الالتفات، يذكر فيه فائدة وبلاغة الالتفات فيقول: واعلم أن هذا النوع: أعني نقل الكلام عن الحكاية على الغيبة لا يختص المسند إليه ولا هذا

---

(١) لسان العرب (لفت): ٨٤/٢

(٢) المثل السائر: ١٣٥/٢

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة: ٨٦/٢.

(٤) البديع في البديع: ابن المعتز، ص١٥٢، دار الجيل، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.

القدر بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثتها ينقل كل واحد منها على الآخر ويسمى هذا النقل التفاتا عند علماء علم المعاني.

والعرب يستكثرون منه ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب على أسلوب أدخل في القبول عند السامع وأحسن تطرية لنشاطه وأملأ باستدرار إصغائه، وهم أحرياء بذلك أليس قرى الأضياف سجيتهم ونحر العشار للضيف دأبهم وهجيراهم لا مزقت أيدي الأدوار لهم أديما ولا أباحت لهم حريما أفتراهم يحسنون قرى الأشباح فيخالفون فيه بين لون ولون وطعم وطعم ولا يحسنون قرى الأرواح فلا يخالفون فيه بين أسلوب وأسلوب وإيراد وإيراد فإن الكلام المفيد عند الإنسان لكن بالمعنى لا بالصورة أشهى غذاء لروحه وأطيب قرى لها(١).

فيظهر من كلام السَّكَّاكي رحمه الله بلاغة الالتفات إذ إنه ينشط السامع ويزيد من قبول الكلام، واستدرار الإصغاء، لما فيه من تنويع للكلام وانتقاله من أسلوب لأسلوب، وقد شبهه بالطعام وأحسن في هذا التشبيه، إذ الحقيقة أن الطعام مهما كان شهياً ولذيذاً فإنه قد يعف عنه صاحبه إذا اعتاد عليه مراراً وتكراراً فلا بد من المراوحة بين الأطعمة وتنويعها كي لا تمله الأذواق ولا تعافه النفوس، فإذا كان هذا حاصلٌ في غذاء الأجساد، فلا بد من صنع مثله في غذاء العقول من تنويع وتنشيط.

والالتفات من أجَلِّ علوم البلاغة وهو أمير جنودها، والواسطة في قلائدها وعقودها...وقد يلقب بشجاعة العربية، والسبب في تلقيبه بذلك، هو أن الشجاعة هي الإقدام، والرجل إذا كان شجاعا فإنه يرد الموارد الصعبة، ويقتحم الوُرَط العظيمة حيث لا يَرِدُها غيره، ولا يقتحمها سواه، ولا شكَّ أن الالتفات مخصوص بهذه اللغة العربية دون غيرها(٢).

الالتفات عند البيضاوي:

لم يأتِ البيضاوي بتعريفات اصطلاحية للأساليب البلاغية في أكثر تفسيره، لكننا نرى له حديثاً عن الفائدة البلاغية للالتفات عند تعرضه لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ الفاتحة: ٥ ، فيقول: ثم إنه لما ذكر الحقيق بالحمد، ووصف بصفات عظام تميز بها عن سائر الذوات وتعلق العلم بمعلوم معين خوطب بذلك، أي: يا من هذا شأنه نخصك بالعبادة والاستعانة، ليكون أدل على الاختصاص، وللترقي من البرهان إلى العيان والانتقال من الغيبة إلى الشهود.

(١) مفتاح العلوم: ١٩٩
(٢) الطراز: ٧١/٢

فكأن المعلوم صار عياناً والمعقول مشاهداً والغيبة حضوراً، بنى أول الكلام على ما هو مبادي حال العارف من الذكر والفكر والتأمل في أسمائه والنظر في آلائه والاستدلال بصنائعه على عظيم شأنه وباهر سلطانه، ثم قفَّى بما هو منتهى أمره وهو أن يخوض لُجَّةَ الوصول ويصير من أهل المشاهدة فيراه عياناً ويناجيه شفاهاً.

اللهم اجعلنا من الواصلين للعين دون السامعين للأثر.

ومن عادة العرب التفنن في الكلام والعدول من أسلوب إلى آخر تطرية له وتنشيطاً للسامع، فيعدل من الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم وبالعكس، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ يونس: ٢٢ وقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ﴾ فاطر: ٩، وقول امرئ القيس:

تطاوَلَ ليلُكَ بالإثمدِ ونامَ الخــليُّ ولم تَرْقُـدِ
وباتَ وباتَتْ له ليلة كَلَيْلَةِ ذي العائرِ الأرْمَدِ
وَذَلِكَ منْ نَبَأ جاءني وَخبرْتهُ عَن أَبي الأَسْودِ[1].

من صور الالتفات في تفسير البيضاوي:

١. الالتفات من الغيبة إلى الخطاب:

وفيه ينتقل التعبير من طريق الغيبة إلى طريق المخاطبة المباشرة للمستمع، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١١﴾ الروم: ١١، قال البيضاوي رحمه الله: **(اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ)** ينشئهم. **(ثُمَّ يُعِيدُهُ)** يبعثهم. **(ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)** للجزاء **والعدول إلى الخطاب للمبالغة في المقصود**، وقرأ أبو بكر وأبو عمرو بالياء على الأصل[2].

فالآية إخبار من الله عن نفسه العليَّة في ابتدائه الخلق وإعادته، وكان هذا الإخبار يقتضي أن تكون الخاتمة: (ثم إليه يُرجعون)، لكن النظم عدل عن الإخبار والغيبة إلى الخطاب المباشر (ثم إليه تُرجعون).

(١) تفسير البيضاوي: ١٥/١. انظر أبيات امرئ القيس في ديوانه: ديوان امرئ القيس: ص٨٧، عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

(٢) تفسير البيضاوي: ٤٧/٣

وقد قال الطاهر ابن عاشور في هذه الآية: فالخطاب في (ترجعون) للمشركين على طريقة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، وقرأ الجمهور ترجعون بتاء الخطاب. وقرأه أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم وروح عن يعقوب بياء الغيبة على طريقة ما قبله(١).

ومن الالتفات الذي جاء من الغيبة إلى الخطاب ما جاء في فاتحة الكتاب في قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ الفاتحة: ١ – ٥.

قال البيضاوي رحمه الله: **(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)** ثم إنه لما ذكر الحقيق بالحمد، ووصف بصفات عظام تميز بها عن سائر الذوات وتعلق العلم بمعلوم معين خوطب بذلك، أي: يا من هذا شأنه نخصك بالعبادة والاستعانة، ليكون أدل على الاختصاص، وللترقي من البرهان إلى العيان والانتقال من الغيبة إلى الشهود، فكأن المعلوم صار عياناً والمعقول مشاهداً والغيبة حضوراً(٢).

فقد افتتحت سورة الفاتحة بالتعبير بطريق الغيبة عن الله عز وجل وحمده، وذكر صفاته العلية وأسمائه الحسنى، بما هو لسان حال المسلم الذي يفتتح هذه السورة في كل ركعة يصليها، ثم انتقل التعبير من طريق الغيبة إلى طريق الخطاب بقوله: **(إياك نعبد وإياك نستعين)**.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١٨٠ ﴾ آل عمران: ١٨٠، قال البيضاوي رحمه الله: (وَاللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ) من المنع والإعطاء. (خَبِيرٌ) فمجازيهم. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي بالتاء على الالتفات وهو أبلغ في الوعيد(٣).

٢. الالتفات من الخطاب إلى الغيبة:

ومثاله قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝٩ ﴾ آل عمران: ٩، قال البيضاوي رحمه الله: **(رَبَّنا إِنَّكَ جامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ)** لحساب يوم أو لجزائه. **(لاَ رَيْبَ فِيهِ)** في وقوع اليوم وما فيه من الحشر والجزاء، نبهوا به على أن معظم غرضهم من الطلبتين ما

(١) التحرير والتنوير: ٢١/٦١-٦٢.
(٢) تفسير البيضاوي: ١/١٥
(٣) تفسير البيضاوي: ١/٣١٦

يتعلق بالآخرة فإنها المقصد والمال. **(إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعادَ)** فإن الإلهية تنافيه وللإشعار به وتعظيم الموعود **لون الخطاب**(١).

فتلوين الخطاب الذي أشار إليه البيضاوي في هذه الآية هو الالتفات من الخطاب في قوله: **(ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه)** إلى الغيبة في **(إن الله لا يخلف الميعاد)**.

وفائدة الالتفات في هذه الآية وسره البلاغي يبرزه لنا أبو السعود في تفسيره حيث يقول: **{لاَ رَيْبَ فِيهِ}** أي في وقوعه ووقوعِ ما فيه من الحشر والحسابِ والجزاء ومقصودُهم بهذا عرضُ كمالِ افتقارِهم إلى الرحمة وأنها المقصِدُ الأسنى عندهم والتأكيدُ لإظهار ما هم عليه من كمال الطمأنينةِ وقوة اليقينِ بأحوال الآخرة **(إِنَّ الله لاَ يُخْلِفُ الميعاد)** تعليلٌ لمضمون الجملة المؤكدةِ أو لانتفاء الريب والتأكيد لما مر وإظهارُ الاسمِ الجليل مع الالتفات **لإبراز كمالِ التعظيم والإجلال** الناشئ من ذكر اليوم المَهيب الهائل(٢).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ يونس: ٢٢، قال البيضاوي رحمه الله: (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ) يحملكم على السير ويمكنكم منه...(فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ) في السفن، (وَجَرَيْنَ بِهِمْ) بمن فيها، عدل عن الخطاب إلى الغيبة للمبالغة كأنه تذكرة لغيرهم ليتعجب من حالهم وينكر عليهم(٣).

قال ابن الأثير عن الالتفات في هذه الآية: فإنه إنما صرف الكلام ههنا من الخطاب إلى الغيبة لفائدة، وهي أنه ذكر لغيرهم حالهم، ليعجبهم منها كالمخبر لهم، ويستدعي منهم الإنكار عليهم، ولو قال: حتى إذا كنتم في الفلك، وجرين بكم بريح طيبة فرحتم بها، وساق الخطاب معهم إلى آخر الآية، لذهبت تلك الفائدة التي أنتجها خطاب الغيبة، وليس ذلك بخاف عن نقدة الكلام(٤).

---

(١) تفسير البيضاوي: ٢٤٦/١

(٢) تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم): أبو السعود العمادي، ٩/٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٣) تفسير البيضاوي: ٩٦/٢

(٤) المثل السائر: ١٤٣/٢

إنّ الخطاب كان موجّهاً للذين يمكُرُونَ في آيات الله، لتحويلها عن دلالاتها الإيمانيّة، والمخاطبون عند نزول النصّ قد لا يكونون من الذين ركبوا الْبَحْرَ وتعَرَّضُوا لمثل ما وَصَفَ النصّ بعد ذلك، لكنَّهُمْ لو تعرّضوا لمثله لكان حالُهُمْ مثل حال من وصفهم الله، نظراً إلى أن أهْلَ الكُفْر أشْبَاهُ في تصرُّفاتِهِم، إذِ الفطرةُ تُلْجِئُهُمْ إلى الله عند الاضطرار وشدّة الخوف، ثمَّ إنَّ كبرهم ورغبتهم في الفجور لتلبية مطالب شهواتهم وأهوائهم، مع تعلُّقِهِمْ بالعاجلة وتشبُّثِهِمْ بزينتها، أُمُورٌ تَرُدُّهُمْ بَعْدَ الأمْنِ والاطمئنان والنِّعْمةِ والرَّخَاءَ، إلى مَا كانوا فيه من بغْي قبل ذلك.

فاقتضى تشبيه حالهم بحال أمثالهم السابقين لهم حكايَةَ قِصَّةٍ مِنْ قِصَص الكافِرِين السّابقين.

ولهذا توقّفَ النصّ عند الفِقَرةِ الأولى المتعلّقة بشأن المخاطبين إبَّانَ التنزيل وبَعْدَه، وانْتَقَلَ مُبَاشَرةً إلى تصوير مَشْهَد قومٍ كافِرينَ جرَتْ بهِمْ الْفُلْكُ بريحٍ طيّبة، فقال الله عزّ وجلّ بأسلوب حكاية خَبَرٍ عن حدَثٍ مضى: (وَجَرَيْنَ بِهِم).

واكتَفَى النّصّ بالمقدّمة الّتي وُجّهَتْ للمخاطبين، عن ذكر نظيرها ممّا يخصُّ المتحدّث عنهم بالغيبة، فكأنّه قال لهم: فسيكون حالُكُمْ كحال كافرين قبلكم رَكبوا في الْفُلْكِ.

وحصل الاكتفاء بإشارةِ قول الله عزّ وجلّ للمخاطبين: (حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك) عن أن يقول لهم: إنّكُمْ لو تعرَّضْتُمْ لمثل ما تعرّض له أصحابُ هذه القصّة لكنْتُمْ مثلَهُمْ، للتشابُه بينَكُمْ وَبينَهُمْ في أصْلِ الْفِطْرَةِ، وفي الدوافع إلى الكفر والبغي.

هذا فنٌّ من الإبداع في الإيجاز بعرض المشاهد الماضية مع الإشارة التعريضيّة الضمنيّة إلى أنّ المخاطبين مثل أصحاب هذه المشاهد، غير فنّ الالتفاتِ من الخطاب إلى الغيبة، إنّه من الصُّور الأدبيّة العجيبة في البيان(١).

ومن الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ ﴾ النساء: ٦٤، قال البيضاوي رحمه الله: (وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ) واعتذروا إليك حتى

(١) البلاغة العربية: عبد الرحمن بن حسن الميداني الدمشقي، ٣٥٧/٢، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

انتصبت لهم شفيعاً، وإنما عدل الخطاب تفخيماً لشأنه وتنبيهاً على أن من حق الرسول أن يقبل اعتذار التائب وإن عظم جرمه ويشفع له، ومن منصبه أن يشفع في كبائر الذنوب(١).

فالالتفات حاصل من الخطاب في قوله: (جاءوك)، إلى الغيبة في قوله: (واستغفر لهم الرسول) وكان الأصل أن يقال: (واستغفرت لهم).

وقد قال القزويني عن فائدة الالتفات في هذه الآية: لم يقل: **(واستغفرت لهم)**، وعدل عنه إلى طريق الالتفات تفخيمًا لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتعظيمًا لاستغفاره، وتنبيها على أن شفاعة مَن اسمه الرسول من الله بمكان(٢).

٣. الالتفات من الغيبة إلى التكلم:

كما جاء في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ الإسراء: ١، قال البيضاوي رحمه الله: وصرف الكلام من الغيبة إلى التكلم لتعظيم تلك البركات والآيات(٣).

فالآية واردة من بدايتها بطريق الغيبة المشار إليه بالضمائر الغائبة في (أسرى) إذ الفاعل ضميراً مستتراً غائباً، و(بعبده)، ثم انتقل رب العزة إلى التكلم عن ذاته العلية فقال: (باركنا)، وقال: (لنريه)، وهذا الالتفات فائدته تعظيم تلك البركات لأن من باركها ورعاها هو رب العزة خالق هذا الكون ومصوره.

وقد تكلم ابن الأثير عن الالتفات في هذه الآية وأورد كلاماً حسناً إذ يقول: فقال أولا: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى) بلفظ الواحد ثم قال: (الَّذِي بَارَكْنَا) بلفظ الجمع، ثم قال: (إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) ، وهو خطاب غائب، ولو جاء الكلام على مساق الأول لكان: سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك حوله ليريه من آياته إنه هو السميع البصير، وهذا جميعه معطوفا "على أسرى"، فلما خولف بين المعطوف، والمعطوف عليه في الانتقال من صيغة إلى صيغة كان ذلك اتساعا، وتفننا في أساليب الكلام، ولمقصد آخر معنوي هو أعلى وأبلغ.

---

(١) تفسير البيضاوي: ٣٦٧/١

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة: ٩٢/٢-٩٣

(٣) تفسير البيضاوي: ٢٩١/٢

لما بدأ الكلام بسبحان ردفه بقوله: (الَّذِي أَسْرَى) ، إذ لا يجوز أن يقال: الذي أسرينا، فلما جاء بلفظ الواحد والله تعالى أعظم العظماء، وهو أولى بخطاب العظيم في نفسه الذي هو بلفظ الجمع، استدرك الأول بالثاني، فقال: (بَارَكْنَا) ثم قال: (لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا) ، فجاء بذلك على نسق: (بَارَكْنَا) ، ثم قال: (إِنَّه هُوَ) ، عطفًا على أسرى، وذلك موضع متوسط الصفة؛ لأن السمع والبصر صفتان يشاركه فيهما غيره، وتلك حال متوسطة، فخرج بهما عن خطاب العظيم، في نفسه إلى خطاب غائب.

فانظر إلى هذه الالتفاتات المترادفة في هذه الآية الواحدة التي جاءت لمعان اختصت بها، يعرفها من يعرفها، ويجهلها من يجهلها[1].

ومثال الالتفات من الغيبة إلى التكلم قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ ﴾ النحل: ٥١، قال البيضاوي رحمه الله: **(فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)** نقلٌ من الغيبة إلى التكلم مبالغة في الترهيب وتصريحاً بالمقصود فكأنه قال: فأنا ذلك الإله الواحد فإياي فارهبون لا غير[2].

ومثاله أيضاً قوله تعالى:﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ طه: ٥٣، قال البيضاوي رحمه الله: **(فَأَخْرَجْنا بِهِ)** عدل به عن لفظ **الغيبة إلى صيغة التكلم** على الحكاية لكلام الله تعالى، تنبيهاً على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة وإيذاناً بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لمشيئته[3].

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ النمل: ٦٠، قال البيضاوي رحمه الله: (مِنَ السَّماءِ ماء فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ) عدل به من الغيبة إلى التكلم لتأكيد اختصاص الفعل بذاته، والتنبيه على أن إنبات الحدائق البهية المختلفة الأنواع المتباعدة الطباع من المواد المتشابهة لا يقدر عليه غيره[4].

(١) المثل السائر: ٢/١٣٨-١٣٩
(٢) تفسير البيضاوي: ٢/٢٦٥
(٣) تفسير البيضاوي: ٢/٣٩٣
(٤) تفسير البيضاوي: ٢/٥٧١

٤. الالتفات من التكلم إلى الغيبة:

كما في قوله تعالى: ﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ طه: ١ – ٨، قال البيضاوي رحمه الله: والانتقال من التكلم إلى الغيبة للتفنن في الكلام وتفخيم المنزل من وجهين إسناد إنزاله إلى ضمير الواحد العظيم الشأن، ونسبته إلى المختص بصفات الجلال والإكرام والتنبيه على أنه واجب الإيمان به والانقياد له من حيث أنه كلام من هذا شأنه[١].

فالالتفات في هذه الآيات من التكلم في (ما أنزلنا) إلى الغيبة في: (تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلا).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ الأعراف: ١٥٨، قال البيضاوي رحمه الله: وإنما عدل عن التكلم إلى الغيبة لإجراء هذه الصفات الداعية إلى الإيمان به والاتباع له[٢].

فالالتفات من التكلم الذي يفهم من: (إني رسول الله) إلى الغيبة في قوله: (فآمنوا بالله ورسوله). "فإنه إنما قال: (فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)، ولم يقل: فآمنوا بالله وبي، عطفًا على قوله: (إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ)؛ لكي تجري عليه الصفات التي أجريت عليه، وليعلم أن الذي وجب الإيمان به، والاتباع له هو هذا الشخص الموصوف بأنه النبي الأمي الذي يؤمن بالله، وبكلماته كائنا من كان أنا أو غيري، إظهارًا للنصفة، وبعدا من التعصب لنفسه، فقدر أولًا في صدر الآية أنه رسول الله إلى الناس، ثم أخرج كلامه من الخطاب إلى معرض الغيبة لغرضين.

الأول منهما: إجراء تلك الصفات عليه، والثاني: الخروج من تهمة التعصب لنفسه[٣].

(١) تفسير البيضاوي: ٣٨٤/٢
(٢) تفسير البيضاوي: ٥٧٦/١
(٣) المثل السائر: ١٤٤/٢

باقي صور الالتفات:

وهناك صورتان أخريان للالتفات ذكرهما البلاغيون، وهما: (الالتفات من الخطاب إلى التكلم ومن التكلم إلى الخطاب) لم أقف عليهما في تفسير البيضاوي، ولم يذكرهما البيضاوي حتى حين تعرض لأقسام الالتفات إذ نراه يقوله: ومن عادة العرب التفنن في الكلام والعدول من أسلوب إلى آخر تطرية له وتنشيطاً للسامع، فيعدل من الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم وبالعكس(١).

فيكون قوله: فيعدل من الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم وبالعكس، قد جمع صور الالتفات الأربعة التي وردت أمثلة عليها، ولم يذكر الصورتين الأخريين، ونرى الشهاب الخفاجي في حاشيته على تفسير البيضاوي يشير إلى السبب من وراء عدم ذكر الصورتين المتبقيتين من صور الالتفات إذ يقول معلقاً على كلام البيضاوي السابق: وسكت عن قسمي العدول من الخطاب إلى التكلم، وبالعكس قيل لقلة وقوعهما في التراكيب، أو لأنهما يُعلمان بالمقايسة إلى ما ذكر بل بالأولى إذ القرب بين التكلم والخطاب أشد(٢).

الفائدة البلاغية للالتفات:

يأتي الالتفات لفوائد بلاغية عديدة غير ما ذكرها البلاغيون من تنشيط السامع واستدرار إصغائه ودفع الملل الذي قد يصيبه من اعتماد طريقة وأسلوب واحد في الحديث، ومن هذه الأغراض البلاغية:

١. التعظيم والتفخيم:

تظهر هذه الفائدة البلاغية في الالتفات في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ طه: ٥٣، قال البيضاوي رحمه الله: **(فَأَخْرَجْنا بِهِ)** عدل به عن لفظ **الغيبة إلى صيغة التكلم** على الحكاية لكلام الله تعالى، تنبيهاً على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة وإيذاناً بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لمشيئته(٣).

---

(١) تفسير البيضاوي: ١٥/١
(٢) حاشية الشهاب: ١١٣/١
(٣) تفسير البيضاوي: ٣٩٣/٢

فقول البيضاوي: (تنبيهاً على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة)، فيه إشارة إلى أن فائدة الالتفات هنا هو تعظيم الله عز وجل وتفخيمه من خلال الانتقال من الغيبة إلى التكلم.

ومثال الالتفات الذي جاء لغرض التعظيم والتفخيم أيضاً قوله تعالى: كما في قوله تعالى: كما في قوله تعالى: ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ۝٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٨ ﴾ طه: ١ – ٨ ، قال البيضاوي رحمه الله: والانتقال من التكلم إلى الغيبة للتفنن في الكلام وتفخيم المنزل من وجهين إسناد إنزاله إلى ضمير الواحد العظيم الشأن، ونسبته إلى المختص بصفات الجلال والإكرام والتنبيه على أنه واجب الإيمان به والانقياد له من حيث أنه كلام من هذا شأنه(١)

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١ ﴾ الإسراء: ١، قال البيضاوي رحمه الله: وصرف الكلام من الغيبة إلى التكلم لتعظيم تلك البركات والآيات(٢).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ۝٣٩ ﴾ الروم: ٣٩، قال البيضاوي رحمه الله: **(فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ)** ذوو الأضعاف من الثواب...أو الذين ضعفوا ثوابهم وأموالهم ببركة الزكاة، وقرئ بفتح العين وتغييره عن سنن المقابلة عبارة ونظماً للمبالغة، **والالتفات فيه للتعظيم** كأنه خاطب به الملائكة وخواص الخلق تعريفاً لحالهم(٣).

٢. التهديد والتحذير:

يأتي الالتفات ويكون فائدته البلاغية التهديد، وذلك حين ينتقل بالتعبير من الغيبة مثلاً إلى التكلم، وطريق التكلم المباشر أوقع في التهديد والتخويف، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ وَتَبَٰرَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٨٥ ﴾ الزخرف: ٨٥، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَتَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما)** كالهواء. **(وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ)**

(١) تفسير البيضاوي: ٣٨٤/٢
(٢) تفسير البيضاوي: ٢٩١/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ٥٣/٣

العلم بالساعة التي تقوم القيامة فيها. **(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)** للجزاء، وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وعاصم وروح بالتاء على **الالتفات للتهديد**(١).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ ﴾ العلق: ٦ – ٨، قال البيضاوي رحمه الله: (إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى) الخطاب للإنسان على الالتفات تهديداً وتحذيراً من عاقبة الطغيان(٢).

٣. الترهيب:

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝٥١ ﴾ النحل: ٥١، قال البيضاوي رحمه الله: **(فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)** نقلٌ من الغيبة إلى التكلم **مبالغة في الترهيب** وتصريحاً بالمقصود فكأنه قال: فأنا ذلك الإله الواحد فإياي فارهبون لا غير(٣).

٤. التوبيخ والذم:

مثاله قوله تعالى: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ۝١٢ ﴾ النور: ١٢، قال البيضاوي رحمه الله: (لَوْلا هلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً) بالذين منهم من المؤمنين والمؤمنات...وإنما عدل فيه من الخطاب إلى الغيبة مبالغة في التوبيخ وإشعاراً بأن الإيمان يقتضي ظن الخير بالمؤمنين والكف عن الطعن فيهم وذب الطاعنين عنهم كما يذبونهم عن أنفسهم(٤).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ۝٩٣ ﴾ الأنبياء: ٩٣، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ)** صرفه إلى الغيبة التفاتاً لينعى على الذين تفرقوا في الدين وجعلوا أمره قطعاً موزعة بقبيح فعلهم إلى غيرهم(٥).

فيفهم من قول البيضاوي: (لينعى على الذين تفرقوا في الدين وجعلوا أمره قطعاً موزعة بقبيح فعلهم إلى غيرهم) أنه أراد توبيخهم، فيكون الغرض من الالتفات هنا التوبيخ.

---

(١) تفسير البيضاوي: ٢٥٨/٣
(٢) تفسير البيضاوي: ٥٥١/٣
(٣) تفسير البيضاوي: ٢٦٥/٢
(٤) تفسير البيضاوي: ٤٨٨/٢
(٥) تفسير البيضاوي: ٤٣٢/٢

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ ﴾ مريم: ٨٨ – ٨٩، قال البيضاوي رحمه الله: **(لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا) على الالتفات للمبالغة في الذم** والتسجيل عليهم بالجراءة على الله تعالى[١].

٥. المبالغة:

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ يونس: ٢٢، قال البيضاوي رحمه الله: (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ) يحملكم على السير ويمكنكم منه...(فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ) في السفن، (وَجَرَيْنَ بِهِمْ) بمن فيها، عدل عن الخطاب إلى الغيبة للمبالغة كأنه تذكرة لغيرهم ليتعجب من حالهم وينكر عليهم[٢].

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ الروم: ١١، قال البيضاوي رحمه الله: (اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ) ينشئهم. (ثُمَّ يُعِيدُهُ) يبعثهم. (ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) للجزاء والعدول إلى الخطاب للمبالغة في المقصود، وقرأ أبو بكر وأبو عمرو وروح بالياء على الأصل[٣].

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾ النبأ: ٢٧ – ٣٠، قال البيضاوي رحمه الله: (فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذاباً) مسبب عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات ومجيئه على طريقة الالتفات للمبالغة[٤].

٦. الدلالة على الاختصاص:

ومثاله قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ الفاتحة: ١ – ٥، قال البيضاوي رحمه الله: **(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)** ثم إنه لما ذكر الحقيق بالحمد، ووصف بصفات عظام تميز بها عن سائر الذوات وتعلق العلم بمعلوم معين خوطب بذلك، أي: يا من هذا شأنه نخصك بالعبادة والاستعانة، **ليكون أدل**

(١) تفسير البيضاوي: ٣٨٠/٢
(٢) تفسير البيضاوي: ٩٦/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ٤٧/٣
(٤) تفسير البيضاوي: ٤٩١/٣

على الاختصاص، وللترقِّي من البرهان إلى العيان والانتقال من الغيبة إلى الشهود، فكأن المعلوم صار عياناً والمعقول مشاهداً والغيبة حضوراً[1].

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٠﴾ ﴾ الأحزاب: ٥٠ ، قال البيضاوي رحمه الله: والعدول عن الخطاب إلى الغيبة بلفظ النبي مكرراً، ثم الرجوع إليه في قوله: خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ إيذان بأنه مما خص به لشرف نبوته وتقرير لاستحقاق الكرامة لأجله[2].

٧. **الوعيد**:

مثاله قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٨٠﴾ ﴾ آل عمران: ١٨٠، قال البيضاوي رحمه الله: (وَاللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ) من المنع والإعطاء. (خَبِيرٌ) فمجازيهم. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي بالتاء على الالتفات وهو أبلغ في الوعيد[3].

٨. **العناية والاهتمام**:

وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ البقرة: ٢١ – ٢٢ ، قال البيضاوي رحمه الله: (يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ) لما عدد فرق المكلفين وذكر خواصهم ومصارف أمورهم، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات هَزّاً للسامع وتنشيطاً له واهتماماً بأمر العبادة، وتفخيماً لشأنها، وجبراً لكلفة العبادة بلذة المخاطبة[4].

---

(١) تفسير البيضاوي: ١٥/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٩٢/٣
(٣) تفسير البيضاوي: ٣١٦/١
(٤) تفسير البيضاوي: ٥٩/١

٩. الزجر:

يأتي الالتفات لغرض الزجر ومعناه: **المَنْعُ والنهيُ والانْتِهارُ**(١).

ومما جاء من الالتفات لغرض الزجر قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ ﴾ الشعراء: ١٠ – ١١، قال البيضاوي في قوله تعالى: (قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُون) وقرئ بالتاء على الالتفات إليهم زجراً لهم وغضباً عليهم، وهم وإن كان غيباً حينئذ أجروا مجرى الحاضرين في كلام المرسل إليهم من حيث إنه مبلغه إليهم وإسماعه مبدأ إسماعهم، مع ما فيه من مزيد الحث على التقوى لمن تدبره وتأمل مورده(٢).

١٠. التعميم:

ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ الروم: ٣٩، قال البيضاوي رحمه الله: (**فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ**) ذوو الأضعاف من الثواب...أو الذين ضعفوا ثوابهم وأموالهم ببركة الزكاة، وقرئ بفتح العين وتغييره عن سنن المقابلة عبارة ونظماً للمبالغة، **والالتفات فيه للتعظيم** كأنه خاطب به الملائكة وخواص الخلق تعريفاً لحالهم، **أو للتعميم كأنه قال: فمن فعل ذلك فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ**(٣).

١١. المعاتبة:

ومعنى المعاتبة: لومُك الرجلَ عَلَى إساءَة كَانَتْ لَهُ إليك، فاسْتَعْتَبْتَه مِنْهَا...التَّعَتُّبُ والمُعاتَبَةُ والعِتابُ: كُلُّ ذَلِكَ مُخاطَبَةُ الإِدْلالِ وكلامُ المُدِلِّينَ أَخِلَّاءَهم، طَالِبِينَ حُسْنَ مُراجعتهم، وَمُذَاكَرَةَ بعضِهم بَعْضًا مَا كَرِهُوه مِمَّا كسبَهم المَوْجِدَةَ(٤).

ومثال الالتفات الذي جاء لغرض المعاتبة قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ

(١) لسان العرب (زجر): ٣١٨/٤
(٢) تفسير البيضاوي: ٥٣٥/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ٥٣/٣
(٤) لسان العرب (عتب): ٥٧٧/١

﴿ظَهِيرٌ ۝٤﴾ التحريم: ٣ – ٤، قال البيضاوي رحمه الله: (إِنْ تَتُوبا إِلَى اللَّهِ) خطاب لحفصة وعائشة على الالتفات للمبالغة في المعاتبة[١].

ثانياً: التغليب:

التغليب لغة: غُلِّبَ عَلَى صَاحِبِهِ: حُكِمَ لَهُ عَلَيْهِ بالغلَبة... وتَغَلَّبَ عَلَى بَلَدِ كَذَا: اسْتَوْلَى عَلَيْهِ قَهْراً[٢].

أما **التغليب اصطلاحاً** فقد قال عنه الزكرشي: وَحَقِيقَتُهُ إِعْطَاءُ الشَّيْءِ حُكْمَ غَيْرِهِ. وَقِيلَ تَرْجِيحُ أَحَدِ الْمَغْلُوبَيْنِ عَلَى الْآخَرِ أَوْ إِطْلَاقُ لَفْظَةٍ عَلَيْهِمَا إِجْرَاءً لِلْمُخْتَلِفَيْنِ مَجْرَى الْمُتَّفِقَيْنِ[٣].

وقيل أيضاً في تعريف التغليب: هو أن يكون اثْنَان مُخْتَلفا اللَّفْظ يثنيان على لفظ أَحدهمَا تَارَة لشرفه وَتارَة لشهرته وَتارَة لخفته وَتارَة لغير ذَلِك كالأبوين والعمرين أبي بكر وَعمر رَضِي الله عَنْهُمَا والقمرين الشَّمْس وَالْقَمَر والمصعبين مُصعب بن الزبير وَابْنه والخبيبين أبي خبيب عبد الله بن الزبير وأخيه مُصعب وَغير ذَلِك[٤].

وقد عرفه الشريف الجرجاني بأنه: ترجيح أحد المعلومين على الآخر وإطلاقه عليهما، وقيدوا إطلاقه عليهما للاحتراز عن المشاكلة[٥].

والتغليب فن بديع من الفنون البلاغية عند العرب جاء على ذكره كثير من العلماء، فنرى ابن الأثير يعلق على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ، وَلَا لِحَيَاتِهِ**"[٦]، فيقول ابن الأثير: وقد ورد الخسوف في الحديث كثيرا للشمس، والمعروف لها

---

(١) تفسير البيضاوي: ٤٢٠/٣

(٢) لسان العرب (غلب): ٦٥١/١

(٣) البرهان في علوم القرآن: ٣٠٢/٣

(٤) تحرير ألفاظ التنبيه: محيي الدين النووي، ص١٣٤–١٣٥، تحقيق عبد الغني الدقر، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

(٥) كتاب التعريفات: علي بن محمد الجرجاني، ص٦٣، تحقيق جماعة من العلماء، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م،

(٦) السنن الكبرى: أحمد بن شعيب النسائي،٣٥٢/٢، تحقيق حسن شلبي، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

في اللغة الكسوف لا الخسوف، فأما إطلاقه في مثل هذا الحديث فتغليبا للقمر لتذكيره على تأنيث الشمس، فجمع بينهما فيما يخص القمر(١).

وقد أشار شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني إلى التغليب بعد أن أورد قول المتنبي:

واستقبلَتْ قَمَرَ السماءِ بوَجهها فأَرَتْنِيَ القَمرين في وقتٍ معَا

فقال: أراد فأرتني الشمسَ والقمرَ، ثم غَلَّب اسمَ القمر كقول الفرزدق:

أخـذنا بآفاقِ السَّمـاء عليكُمُ لنَا قَمَراها والنُّـجوم الطوالعُ(٢).

ونرى الثعالبي في فقه اللغة قد أفرد فصلاً يشير فيه إلى التغليب فقال: الفصل الرابع والثلاثون: (في الخطاب الشامل للذكران والإناث وما يَفْرِق بينهم).

قال في هذا الفصل: قال الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ آل عمران: ١٠٢ ، وقال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ البقرة: ٤٣، فعمَّ بهذا الخطاب الرجال والنساء وغلَّب الرجال **وتغليبهم من سنن العرب**. وكان ثعلب يقول العرب تقول: امرُؤٌ وامرآنِ وقوم وامرأةٌ وامرأتان ونِسوة، لا يقال للنساء قوم وإنما سمِّي الرجال دون النساء قوماً لأنهم يقومون في الأمور كما قال عزَّ ذكره: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ النساء: ٣٤...ومما يدل على أنَّ القوم رجال دون النساء قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّ﴾ الحجرات: ١١(٣).

من أقسام التغليب عند الإمام البيضاوي:

١. تغليب المخاطَب على الغائب:

مثاله قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ الشورى: ١١، قال البيضاوي رحمه الله: (مِنْ أَنْفُسِكُمْ) من جنسكم. (أَزْواجاً) نساء. (وَمِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً) أي وخلق للأنعام من جنسها

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر: مجد الدين ابن الأثير، ٣١/٢، تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ، ١٩٩٧م.

(٢) أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، ٣١٥، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة ودار المدني بجدة.

(٣) فقه اللغة وسر العربية: عبد الملك الثعالبي، ص٢٣٤، تحقيق عبد الرزاق المهدي، إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.

أزواجاً، أو خلق لكم منَّ الأنعام أصنافاً أو ذكوراً وأناثاً. (يَذْرَؤُكُمْ) يكثركم من الذرء وهو البث وفي معناه الذر والذرو، والضمير على الأول للناس والْأَنْعامِ على تغليب المخاطَبين العقلاء(١).

فالضمير في (يذرؤكم) ضمير جمع للمخاطب، والأصل أن يقال: (يذرؤكم ويذرؤها)، ليجمع بذلك ضمير المخاطب وضمير الغائب اللذيْن ورد ذكرهما في الآية السابقة، ولكن البلاغة القرآنية أتت بـ(يذرؤكم) التي هي للمخاطب على سبيل التغليب.

ولعل فائدة التغليب في مثل هذه الآية هو (الإيجاز) إذ أن (يذرؤكم) أكثر إيجازاً وأقل لفظاً من (يذرؤكم ويذرؤهم).

ولعل في التغليب في هذه الآية نكتةً بلاغيةً أخرى، فقوله: (يذرؤكم) بدلاً من (يذرؤكم ويذرؤها)، إشارة إلى تفضيل الله عز وجل للإنسان على كافة المخلوقات وأنه خليفة الله له في الأرض، وهي إشارة إلى أن كل ما في هذه الأرض بما فيها من الأنعام وسائر المخلوقات هي مخلوقة ومسخرة لخدمة الإنسان لعمارة الأرض، وطاعة الله، كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ لقمان: ٢٠، وقال في حق الأنعام وتسخيرها للإنسان: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ الحج: ٣٦ ،لأجل هذا كان التغليب في هذا الآية بـ(يذرؤكم).

ويقول السكاكي عن الآية السابقة التي جاءت على تغليب المخاطبين على الغائبين وهي قوله تعالى:﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ الشورى: ١١، قال: خطابا شاملا للعقلاء والأنعام مغلبا فيه المخاطبون على الغيب والعقلاء على ما لا يعقل(٢).

ومن تغليب المخاطب على الغائب قوله تعالى: (وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ) النساء: ١٠٢، قال البيضاوي

(١) تفسير البيضاوي: ٢٣٣/٣
(٢) مفتاح العلوم: ٢٤٢.

رحمه الله: (فَإِذا سَجَدُوا) يعني المصلين. (فَلْيَكُونُوا) أي غير المصلين. (مِنْ وَرائِكُمْ) يحرسونكم يعني النبي صلّى الله عليه وسلّم ومن يصلي معه، فغلب المخاطب على الغائب[1].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ البقرة: ٢١، قال البيضاوي رحمه الله: **(لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)** حال من الضمير في اعْبُدُوا كأنه قال: اعبدوا ربكم راجين أن تنخرطوا في سلك المتقين الفائزين بالهدى والفلاح، المستوجبين جوار الله تعالى... وغلب المخاطبين على الغائبين في اللفظ، والمعنى على إرادتهم جميعاً[2].

فالخطاب والنداء في هذه الآية لكل الناس سواء من وجد منهم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم أو من سبقهم، وكان حق النظم أن يكون: (لعلكم تتقون، ولعلهم يتقون)، إلا أنَّه غلَّب المخاطَبين على الغائبين.

ومثاله أيضاً قوله تعالى لإبليس بعد أن أمره بالسجود لآدم فاستكبر وعصا : ﴿ قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ﴿٦٣﴾ ﴾ الإسراء: ٦٣ ، قال البيضاوي رحمه الله: **(قالَ اذْهَبْ)** امض لما قصدته وهو طرد وتخلية بينه وبين ما سولت له نفسه. **(فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ)** جزاؤك وجزاؤهم فغلَّب المخاطب على الغائب[3].

٢. تغليب المذكر على المؤنث:

ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ التحريم: ١٢، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَكانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ)** من عداد المواظبين على الطاعة، والتذكير للتغليب والإشعار بأن طاعتها لم تقصر عن طاعة الرجال الكاملين حتى عدت من جملتهم[4].

فمن المعلوم أن الرجال أقدر على تحمل مشاق العبادة من صيام وطول صلاة وقيام، ودعوة وجهاد من النساء، فلما كان الرجال أقدر على هذه الأمور من النساء، جاء التغليب هنا

(١) تفسير البيضاوي: ٣٨٧/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٦١/١
(٣) تفسير البيضاوي: ٣٠٩/٢
(٤) تفسير البيضاوي: ٤٢٣/٣

للدلالة على عظم طاعتها وعبادتها لله عز وجل حتى وصفت بأنها (من القانتين)، ولم توصف بأنها (من القانتات).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ النساء: ١٧٦، قال البيضاوي رحمه الله: (وَإِنْ كانُوا إِخْوَةً رِجالًا وَنِساءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ) أصله وإن كانوا إخوة وأخوات فغلب المذكر[١].

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٣٩﴾ الأنعام: ١٣٩، قال البيضاوي رحمه الله: (**وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ**) فالذكور والإناث فيه سواء...والتذكير في فيه لأن المراد بالميتة ما يعم الذكر والأنثى فغلَّب الذكر[٢].

ومن تغليب الذكور على الإناث قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ النور: ٥٨، قال البيضاوي رحمه الله: والمراد به خطاب الرجال والنساء غلب فيه الرجال لما روي أن غلام أسماء بنت أبي مرثد دخل عليها في وقت كرهته فنزلت[٣].

فالاستئذان واجب على الذكور والإناث لكنه جاء باسم الموصول (الذين) الذي هو للذكور تغليباً للذكور على الإناث.

ومثاله أيضاً قوله تعالى:﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ٩﴾ القيامة: ٩، قال البيضاوي رحمه الله: (**وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ**) في ذهاب الضوء أو الطلوع من المغرب، ولا ينافيه الخسوف فإنه مستعار للمحاق...وتذكير الفعل لتقدمه **وتغليب المعطوف**[٤].

٣. تغليب العاقل على غير العاقل:

مثاله قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ الفاتحة: ٢، قال البيضاوي رحمه الله في (رب العالمين): وإنما جمعه ليشمل ما تحته من الأجناس المختلفة، **وغلَّب العقلاء** منهم فجمعه

(١) تفسير البيضاوي: ٤١٤/١.
(٢) تفسير البيضاوي: ٥٢١/١-٥٢٢.
(٣) تفسير البيضاوي: ٥٠٦/٢
(٤) تفسير البيضاوي: ٤٧٢/٣

بالياء والنون كسائر أوصافهم. وقيل: اسم وضع لذوي العلم من الملائكة والثقلين، وتناوله لغيرهم على سبيل الاستتباع(١).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ النور: ٤١، قال البيضاوي رحمه الله: (أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) ينزه ذاته عن كل نقص وآفة أهل السموات والأرض، ومَنْ لتغليب العقلاء أو الملائكة والثقلان بما يدل عليه من مقال أو دلالة حال(٢).

ومن تغليب العقلاء أيضاً قوله تعالى: ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ القمر: ٢٧ – ٢٨، قال البيضاوي رحمه الله: (**وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ**) مقسوم لها يوم ولهم يوم، وبَيْنَهُمْ لتغليب العقلاء(٣).

أراد أن الماء قسمة بين قوم صالح عليه السلام وبين الناقة، وكان السياق يقتضي (قسمة بينهم وبينها) لكنه قال (بينهم) تغليباً للعقلاء على غير العاقل وهي الناقة هنا.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ البقرة: ١١٦، قال البيضاوي رحمه الله: وإنما جاء بـ(**ما**) الذي لغير أولي العلم، وقال (**قانتون**) على تغليب أولي العلم تحقيراً لشأنهم(٤).

٤. تغليب الجماعة على الواحد:

ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ إبراهيم: ١٣، قال البيضاوي رحمه الله: (وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا) حلفوا على أن يكون أحد الأمرين، إما إخراجهم للرسل أو عودهم إلى ملتهم، وهو بمعنى الصيرورة لأنهم لم يكونوا على ملتهم قط، ويجوز أن يكون الخطاب لكل رسول ومن آمن معه فغلبوا الجماعة على الواحد(٥).

---

(١) تفسير البيضاوي: ١٣/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٥٠١/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ٣٤٨/٣
(٤) تفسير البيضاوي: ١٣١/١
(٥) تفسير البيضاوي: ٢١٧/٢

ومن تغليب الجماعة أيضاً قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ الأعراف: ٨٨، قال البيضاوي رحمه الله: أي ليكونن أحد الأمرين إما إخراجكم من القرية أو عودكم في الكفر، وشعيب عليه الصلاة والسلام لم يكن في ملتهم قط لأن الأنبياء لا يجوز عليهم الكفر مطلقاً، لكن غلبوا الجماعة على الواحد فخوطب هو وقومه بخطابهم(١).

٥. تغليب الموجود على ما لم يوجد:

مثاله قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾ البقرة: ٤، قال البيضاوي رحمه الله: والمراد بـ(**ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ**) القرآن بأسره والشريعة عن آخرها، وإنما عبر عنه بلفظ الماضي وإن كان بعضه مترقباً **تغليباً للموجود على ما لم يوجد**. أو تنزيلاً للمنتظر منزلة الواقع، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾ الأحقاف: ٣٠. فإن الجنَّ لم يسمعوا جميعه ولم يكن الكتاب كله مُنَزَّلاً حينئذ(٢).

٦. تغليب الأَشْهَر:

ومثاله قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ ﴾ الزخرف: ٣٨، قال البيضاوي رحمه الله: (يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ) بُعد المشرق من المغرب، فغلَّب المشرق وثنَّى وأضيف البعد إليهما(٣).

فتغليب الشرق أو المشرق لأنه أشهر، والدليل على شهرته أنه ورد ذكر الشرق والمشرق في القرآن أكثر من الغرب والمغرب.

٧. تغليب المتعدي بنفسه على المتعدي بغيره:

وذلك كقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ الزخرف: ١٢، قال البيضاوي رحمه الله: (وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها) أصناف المخلوقات. (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعامِ مَا تَرْكَبُونَ) ما تركبونه على تغليب المتعدي بنفسه على المتعدي بغيره إذ

(١) تفسير البيضاوي: ٥٥٨/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٣٧/١
(٣) تفسير البيضاوي: ٢٥١/٣

يقال: ركبت الدابة وركبت في السفينة، أو المخلوق للركوب على المصنوع له أو الغالب على النادر ولذلك قال: ﴿ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ الزخرف: ١٣، أي ظهور ما تركبون[١].

٨. تغليب الثواب على العقاب:

مثاله قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ الأحقاف: ١٩، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَلِكُلٍّ)** من الفريقين. **(دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)** مراتب من جزاء ما عملوا من الخير والشر، أو من أجل ما عملوا والدَرَجاتُ غالبة في المثوبة وها هنا جاءت على التغليب[٢].

(١) تفسير البيضاوي: ٣/٢٤٦
(٢) تفسير البيضاوي: ٣/٢٧٩

ثالثاً: التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي:

يُعبَّر عن المستقبل بلفظ الماضي في كثيرٍ من الآيات القرآنية، وفائدته أن الفعل الماضي إذا أُخبِرَ به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد كان ذلك أبلغ، وأوكد في تحقيق الفعل وإيجاده؛ لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووجد، وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يستعظم وجودها(١).

وأمثلته كثيرة في القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ﴿٢١﴾ ﴾ إبراهيم: ٢١، قال البيضاوي رحمه الله: (وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً) أي يبرزون من قبورهم يوم القيامة لأمر الله تعالى ومحاسبته...وإنما ذكر بلفظ الماضي لتحقق وقوعه(٢).

ومما جاء في القرآن أيضاً على هذا قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴿٣١﴾ ﴾ مريم: ٣١، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَجَعَلَنِي مُبارَكاً)** نفاعاً معلماً للخير، **والتعبير بلفظ الماضي** إما باعتبار ما سبق في قضائه، أو **بجعل المحقق وقوعه كالواقع** وقيل أكمل الله عقله واستنبأه طفلا(٣).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨﴾ ﴾ هود: ٨، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَحاقَ بِهِمْ)** وأحاط بهم وضع الماضي موضع المستقبل تحقيقاً ومبالغة في التهديد(٤).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ﴿١﴾ ﴾ الفتح: ١، قال البيضاوي رحمه الله: **(إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً)** وعدٌ بفتح مكة، والتعبير عنه بالماضي لتحققه.

وقد تكلم السيوطي في نواهد الأبكار عن هذه الآية في معرض حديثه عن امتنان الله على الناس بأشياء لم تقع بعد فقد قال: وأيّ مانع من تقدم الامتنان على الإيتاء تعظيما للمؤتى وتفخيما

(١) المثل السائر: ١٤٩/٢ (بتصرف)
(٢) تفسير البيضاوي: ٢٢٠/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ٣٦٦/٢
(٤) تفسير البيضاوي: ١٢٢/٢

لشأنه؛ لتتشوف النفس إلى حصوله، ولتتلقى عند حصوله بغاية الإقبال والقبول ما كما امتنّ عليه بأمور قبل إيتائه إيَّاها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ الفتح: ١، وذلك قبل حصول الفتح بسنتين، والتعبير بالماضي في المقيس والمقيس عليه تحقيقا للوقوع(١).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾ ق: ١٩، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ)** لما ذكر استبعادهم البعث للجزاء وأزاح ذلك بتحقيق قدرته وعلمه أعلمهم بأنهم يلاقون ذلك عن قريب عند الموت وقيام الساعة، ونبه على اقترابه بأن عبر عنه بلفظ الماضي(٢).

رابعاً: التعبير عن الماضي بلفظ المضارع أو المستقبل:

مثاله قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ البقرة: ٨٧، قال البيضاوي رحمه الله: **(فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ)** كموسى وعيسى عليهما السلام، والفاء للسببية أو للتفصيل **(وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ)** كزكريا ويحيى عليهما السلام، وإنما ذكر بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها في النفوس، فإن الأمر فظيع(٣).

وقد علَّق السكاكي على هذه الآية فقال: **(ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون)** أي فريقا كذبتموه على التمام وفرغتم من تكذيبه ما بقي منه غير مكذب **(وفريقا تقتلون)** ما تيسر لكم قتله على التمام وإنما تبذلون جَهدكم أن تُتموا قتله فتَحوموه حول قتل محمد **فأنتم بعد على القتل**(٤).

فالتعبير بلفظ المستقبل أو المضارع في هذه الآية عن الماضي للدلالة على الاستمرار في الفعل فهم قتلوا في السابق وما زالوا مبيتين نية القتل لمن بقي من الرسل والأنبياء، ولعل من فوائد التعبير بالمضارع عن الماضي في هذه الآية هو استحضار الفعلة البشعة التي فعلوها في قتلهم للأنبياء، وكأن هذه الفعلة ماثلة في هذا الوقت رغم تراخي الأزمان وتعاقب العصور.

---

(١) نواهد الأبكار: ٥١/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٣١٥/٣
(٣) تفسير البيضاوي: ١١٨/١
(٤) مفتاح العلوم: ٢٠٨

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٦٢﴾ ﴾ هود: ٦٢، قال البيضاوي رحمه الله: (أَتَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آباؤُنا) على حكاية الحال الماضية[١].

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ آل عمران: ١٧٠، قال البيضاوي رحمه الله: وإنما وصفوا به في الحال لتحققه ودنوه أو أحياء بالذكر أو بالإيمان. وفيها حث على الجهاد وترغيب في الشهادة وبعث على ازدياد الطاعة وإحماد لمن يتمنى لإخوانه مثل ما أنعم عليه، وبشرى للمؤمنين بالفلاح[٢].

فالفعل في (آتاهم) ماضي لفظاً لكنه مستقبل معنىً أي أنه أمر محقق لا ريب ولا شك فيه لذلك عبر عنه بالماضي وكأنه حصل وانتهى للدلالة على حتمية وقوعه.

خامساً: وضع المفرد موضع المثنى:

ومثاله قوله تعالى: ﴿ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ الشعراء: ١٦، قال البيضاوي رحمه الله: أفرد الرسول لأنه مصدر وصف به فإنه مشترك بين المرسل والرسالة...ولذلك ثنى تارة وأفرد أخرى، **أو لاتحادهما للأخوة أو لوحدة المرسل والمرسل به**، أو لأنه أراد أن كل واحد منا[٣].

فقوله تعالى: (إنا رسول) وكان مقتضى الظاهر أن يقول: (إنا رسولا) جرياً على التثنية السابقة في قوله: (فأتيا)، لكنه عدل عن التثنية إلى الإفراد ليدل على الملازمة والمصاحبة بينهما حتى كأنهما صارا كالشيء الواحد لا شيئين مختلفين.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ ﴾ المائدة: ١٥ – ١٦ المائدة: ١٥ – ١٦، قال البيضاوي رحمه الله: (قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ) يعني القرآن فإنه الكاشف لظلمات الشك والضلال والكتاب الواضح

(١) تفسير البيضاوي: ١٣٧/٢
(٢) تفسير البيضاوي: ٣١١/١
(٣) تفسير البيضاوي: ٥٣٦/٢

الإعجاز. وقيل يريد بالنور محمد صلّى الله عليه وسلّم. (يَهْدِي بِهِ اللَّهُ) وحد الضمير لأن المراد بهما واحد، أو لأنهما كواحد في الحكم[1].

فقوله جلَّت كلمته: **(قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ)**، يراد بالنور النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ويراد بالكتاب المبين القرآن الكريم، فيكون مقتضى الظاهر أن يأتي النظم بعدهما: **(يهدي بهما الله من اتبع رضوانه)**، لكنه جعل المثنى مفرداً فقال: **(يهدي به الله)** لأنهما متلازمان وكأنهما واحد، لأن أقوال النبي وأفعاله كلها من هدي القرآن، ولأن مصدر النور ومصدر الكتاب هو من الله عز وجل، فأقوال النبي كلها من الله كما قال: ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤** ﴾ النجم: ٣ – ٤.

ومن وضع المفرد موضع المثنى قوله تعالى: ﴿ **يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ۝٦٢** ﴾ التوبة: ٦٢، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)** أحق بالإرضاء بالطاعة والوفاق، **وتوحيد الضمير لتلازم الرضاءين** أو لأن الكلام في إيذاء الرسول صلّى الله عليه وسلّم وإرضائه، أو لأن التقدير والله أحق أن يرضوه والرسول كذلك. إنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ صدقاً[2].

وقد علق الخطيب القزويني على هذه الآية بقوله: وتوحيد الضمير؛ لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله، فكانا في حكم مَرضِيٍّ واحد[3].

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ **فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ۝١١٧** ﴾ طه: ١١٧، قال البيضاوي رحمه الله: **(مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى)** أفرده بإسناد الشقاء إليه بعد إشراكهما في الخروج اكتفاء باستلزام شقائه شقاءها من حيث إنه قيم عليها ومحافظة على الفواصل، أو لأن المراد بالشقاء التعب في طلب المعاش وذلك وظيفة الرجال[4].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ **وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ۝٣٥** ﴾ الكهف: ٣٥، فقد سبقت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ **وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ**

(١) تفسير البيضاوي: ٤٢٧/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٦١/٢
(٣) الإيضاح: ١٠٤/٢
(٤) تفسير البيضاوي: ٤٠٦/٢

﴿وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾﴾ الكهف: ٣٢، فهما جنتان وليست جنة واحدة، لكن الله قال: (ودخل جنته) فجعلهما جنة واحدة.

فيقول البيضاوي رحمه الله في هذه الآية: **(وَدَخَلَ جَنَّتَهُ)** بصاحبه يطوف به فيها ويفاخره بها، وإفراد الجنة لأن المراد ما هو جنته وما متع به من الدنيا تنبيهاً على أن لا جنة له غيرها ولا حظ له في الجنة التى وُعِدَ المتقون، أو لاتصال كل واحدة من جنتيه بالأخرى[١].

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ المائدة: ٣٦، قال البيضاوي رحمه الله: وتوحيد الضمير في به والمذكور شيئان إما لإجرائه مجرى اسم الإشارة في نحو قوله تعالى: ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ البقرة: ٦٨. أو لأن الواو ومثله بمعنى مع[٢].

سادساً: وضع المثنى موضع المفرد:

مثاله قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾ ق: ٢٤، قال البيضاوي رحمه الله: **(أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ)** خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد، أو لملكين من خزنة النار، أو لواحد وتثنية الفاعل منزل منزلة تثنية الفعل وتكريره كقوله:

فَإِنْ تَزْجُرَانِي يَا ابْنَ عَفَّانَ أَنْزَجِر وَإِنْ تَدَعَانِي أَحْمِ عِرْضاً مُمنعاً[٣]

سابعاً: وضع المفرد موضع الجمع:

مثاله قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ الفرقان: ٧٤، قال البيضاوي رحمه الله: **(لِلْمُتَّقِينَ إماماً)** يقتدون بنا في أمر الدين بإضافة العلم والتوفيق للعمل، وتوحيده إما للدلالة على الجنس وعدم اللبس كقوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ غافر: ٦٧، أو لأنه مصدر في أصله، أو لأن المراد واجعل كل واحد منا، أو لأنهم كنفس واحدة لاتحاد طريقتهم واتفاق كلمتهم[٤].

---

(١) تفسير البيضاوي: ٣٣٩/٢
(٢) تفسير البيضاوي: ٤٣٥/١
(٣) تفسير البيضاوي: ٣١٦/٣
(٤) تفسير البيضاوي: ٥٣٢/٢

ومثاله أيضا قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ الصافات: ١٧١ – ١٧٣، قال البيضاوي رحمه الله في قوله: (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين): **وإنما سماه كلمة وهي كلمات لانتظامهم في معنى واحد**[١].

ثامناً: وضع الجمع موضع المفرد:

مثاله قوله تعالى: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ يونس: ٨٣، قال البيضاوي رحمه الله: (**عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ**) أي مع خوف منهم، والضمير ل (فِرْعَوْنَ) وجمعه على ما هو المعتاد في ضمير العظماء، أو على أن المراد ب (فِرْعَوْنَ) آله كما يقال: ربيعة ومضر، أو للذُرِّيَّةٌ أو للقوم[٢].

ومما جاء على هذا قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ ﴾ المؤمنون: ٩٩، قال البيضاوي رحمه الله: (**رَبِّ ارْجِعُونِ**) ردوني إلى الدنيا والواو لتعظيم المخاطب وقيل لتكرير قوله ارجعني كما قيل في قفا وأطرقا[٣].

تاسعاً: وضع الجمع موضع المثنى:

مثاله قوله تبارك اسمه: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ ﴾ السجدة: ١٨، قال البيضاوي رحمه الله: (**أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً**) خارجاً عن الإيمان (**لا يَسْتَوُونَ**) في الشرف والمثوبة تأكيد وتصريح والجمع للحمل على المعنى[٤].

(١) تفسير البيضاوي: ١٦٢/٣
(٢) تفسير البيضاوي: ١١٣/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ٤٧٩/٢
(٤) تفسير البيضاوي: ٧٣/٣

عاشراً: وضع الظاهر موضع المضمر:

هذا لون بديع آخر من ألوان البلاغة العربية، وهو من صور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر، وهو كثير في القرآن الكريم، حيث يأتي الظاهر في مكان يكون مقتضى الظاهر أن يحل محله الضمير، إلا أنه يعدل عن الضمير إلى إعادة ذكر الظاهر الذي تقدم وذلك لمعنى بلاغي.

فالضمائر مهمة في لغتنا العربية يؤتى بها لأنها "ألفاظ مختصرة موجزة يُستغنى بها ظاهرةً أو مضمرة عن ألفاظ تحتاج عند النطق أزماناً وجهداً أطول وأكثر"(١).

ومن الضمائر، ضمائر الغيبة والخطاب والتكلم، وهي كثيرة مفصلة في كتب النحويين، ومنها الضمائر المتصلة: مثل: (شربه، كتابك) أو المنفصلة مثل: (هي، هو، أنت، أنا).

وفائدة الاختصار والإيجاز التي توفره لنا هذه الضمائر، قد يُستغنى عنها ويعاد الاسم مرة ثانية بالاسم الظاهر، وهو كثير في القرآن الكريم، وخاصة في إعادة الاسم الأعظم اسم الله عز وجل في مواضع يمكن أن يأتي الضمير فيها، لكنه يأتي باسم الجلالة للتعظيم، كما في الآية التي يذكرها البلاغيون كثيراً كمثال على هذا اللون من البلاغة وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ الإخلاص: ١ – ٢.

فقد قال: **(الله الصمد)** بعد قوله: **(قل هو الله أحد)** ومقتضى الظاهر أن يقال: **(قل هو الله أحد، هو الصمد)** "آثر المظهر على الضمير؛ لأن للفظ الجلالة بمدلوله الكريم وقعًا عظيمًا في القلوب، والمراد تمكين الألوهية، وإشاعة هيمنتها في الضمائر، وخذ المصحف واقرأ فيه من أي موضع تشاء تجد هذا الأسلوب، وكأنه أصل من أصول البلاغة القرآنية، تجد أسماء الله الحسنى، وخصوصًا هذا الاسم الأعظم يقع هذا الموقع في كثير من الجمل القرآنية لينساب نورها الغامر في القلوب، وتشيع مدلولاتها فتتمكن من النفوس زيادة تمكن، وتتقرر في السرائر أحسن قرار، وبذلك تتربى مهابة الحق وحده في الأمة التي يربيها القرآن، فلا يكن في صدرها خشية إلا لله وللحق"(٢).

---

(١) البلاغة العربية: عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي، ٤١١/١، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م.

(٢) خصائص التراكيب: ٢٤٧.

وقد تحدث ابن الأثير في المثل السائر عن هذا اللون البلاغي البديع فكتب عنواناً لهذا اللون قال فيه: النوع السادس: في عطف المظهر على ضميره، والإفصاح به بعده، وهذا إنما يعمد إليه لفائدة، وهي تعظيم شأن الأمر الذي أظهر عنده الاسم المضمر أولا[1].

وساق ابن الأثير أمثلة لوضع الظاهر موضع المضمر منها قوله تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ العنكبوت: ١٩ – ٢٠، ثم قال: ألا ترى كيف صرح باسمه في قوله: (ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ)، مع إيقاعه المبتدأ في قوله: (كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ) ، وقد كان القياس أن يقول: كيف يبدئ الله الخلق، ثم ينشئ النشأة الآخرة.

والفائدة في ذلك أنه لما كانت الإعادة عندهم من الأمور العظيمة، وكان صدر الكلام واقعا معهم في الإبداء، وقررهم أن ذلك من الله، احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء، وإذا كان الله الذي لا يعجزه شيء هو الذي لا يعجزه الإبداء، فوجب أن لا تعجزه الإعادة، فللدلالة والتنبيه على عظم هذا الأمر الذي هو الإعادة أبرز اسمه تعالى، وأوقعه مبتدأ ثانيا[2].

وقد نوَّه شيخ البلاغة الإمام عبد القاهر الجرجاني إلى أهمية وضع الظاهر موضع المضمر وأنه يأتي تأكيداً وتقوية للحكم عندما استحسن قول الشاعر:

زَعَمَ العَواذِل أنَّ ناقَـةَ جُنْدَبٍ بجَنوبِ خَبْتٍ عُرّيَتْ وأُجِمَّتِ

كَذَبَ العَواذِلُ لو رأَيْنَ مُنَاخَنا بالقادسية قلن لَجَّ وذلـــــت

قال الإمام الجرجاني: وقد زادَ هذا أمرَ القطعِ والاستئنافِ وتقديرَ الجواب، تأكيد بأنْ وضَعَ الظاهِرَ موضعَ المُضْمر، فقال: "كذَب العواذلُ" ولم يَقُلْ: "كَذَبْنَ"، وذلك أنَّه لمَا أعادَ ذِكْرَ "العواذلِ" ظاهراً، كان ذلك أَبْيَنَ وأقوى، لكونِه كلاماً مستأنفاً مِنْ حَيْثُ وَضَعَه وضعًا لا يحتاج فيه إلى ما قبله، وأتى به مأتَى ما لَيْس قبلَه كلامٌ[3].

(١) المثل السائر: ١٥٧/٢
(٢) المثل السائر: ١٥٧/٢-١٥٨
(٣) دلائل الإعجاز: ٢٣٦

وتعرض السكاكي في مفتاح العلوم لهذا الفن، وذكر الأغراض البلاغية لوضع الظاهر موضع المضمر، وساق أمثلة على ذلك حيث يقول: كما يوضع المظهر موضع المضمر إذا أريد تمكين نفسه زيادة تمكين كقوله: إن تسألوا الحق نعط الحق سائله(١).

وقوله عز قائلا: " ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ ﴾ الإخلاص: ٢ ، بعد قوله ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ الإخلاص: ١ ، ونظيره خارج باب المسند إليه ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾ الإسراء: ١٠٥ ، وكذا ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ البقرة: ٥٩.

وتترك الحكاية على المظهر إذا تعلق به غرض فعل الخلفاء حيث يقولون: (أمير المؤمنين يرسم لك) مكان: (أنا أرسم) وهو إدخال الروعة في ضمير السامع وتربية المهابة أو تقوية داعي المأمور، وعليه قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ آل عمران: ١٥٩.

أو فعل المستعطف حيث يقول أسيرك يتضرع إليك مكان أنا أتضرع إليك ليكون أدخل في الاستعطاف وعليه قوله: (إلهي عبدك العاصي أتاكا)(٢)

الأغراض البلاغية لوضع الظاهر موضع المضمر عند البيضاوي:

١. التشبيه والوصف:

مثاله قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝٣٧ ﴾ النساء: ٣٧، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَأَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً)** وضع الظاهر فيه موضع المضمر إشعاراً بأن من هذا شأنه فهو كافر لنعمة الله، ومن كان كافراً لنعمة الله فله عذاب يهينه كما أهان النعمة بالبخل والإخفاء(٣).

أي أن القياس كان يقتضي أن يُقال: (وأعتدنا لهم عذاباً مهيناً)، ولكنه عدل عن الإضمار إلى الاسم المظهر وذلك ليشبه فعلهم بفعل الكافر، ويصفهم بأنهم مثلهم في الحكم والخاتمة.

---

(١) هذا شطر بيت للشاعر: عبد الله بن عنمة الضبي، وتمامه: (والدرع مُحْقَبَةٌ والسَّيفُ مَقْرُوبُ)، والبيت في: المفضليات: المفضل بن محمد الضبي، ص٣٨٢، تحقيق: أحمد محمد شاكر و عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة.

(٢) مفتاح العلوم: ١٩٨-١٩٩

(٣) تفسير البيضاوي: ٣٥٦/١

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ الأعراف: ١٧٠، قال البيضاوي رحمه الله: **(إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ)** على تقدير منهم، أو وضع الظاهر موضع المضمر تنبيهاً على أن الإصلاح كالمانع من التضييع(١).

فيكون قول البيضاوي: (تنبيهاً على أن الإصلاح كالمانع من التضييع) إشارة إلى الغرض البلاغي من وراء وضع الظاهر موضع المضمر في هذه الآية وهي تشبيه عمل المصلحين بالمانعين من التضييع.

ويأتي وضع الظاهر موضع المضمر لغرض الوصف والذم كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ سبأ: ٣٣، قال البيضاوي رحمه الله: (وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا) أي في أعناقهم فجاء بالظاهر تنويهاً بذمهم وإشعاراً بموجب أغلالهم(٢).

ومثال الذم أيضاً قوله تعالى: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ الكهف: ٥١، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً)** أي أعواناً رداً لاتخاذهم أَوْلِيَاء مِن دُونِ الله شركاء له في العبادة، فإن استحقاق العبادة من توابع الخالقية والاشتراك فيه يستلزم الاشتراك فيها، فوضع الْمُضِلِّينَ موضع الضمير ذماً لهم واستبعاداً للاعتضاد بهم(٣).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ المائدة: ٧٢، قال البيضاوي رحمه الله: (وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ) أي وما لهم أحد ينصرهم من النار، فوضع الظاهر موضع المضمر تسجيلاً على أنهم ظلموا بالإشراك وعدلوا عن طريق الحق(٤).

---

(١) تفسير البيضاوي: ٥٨١/١
(٢) تفسير البيضاوي: ١٠٨/٣
(٣) تفسير البيضاوي: ٣٤٣/٢
(٤) تفسير البيضاوي: ٤٥٣/١

٢. التعظيم:

مثاله قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ الأعراف: ٨٦، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ)** بكل طريق من طرق الدين كالشيطان، وصراط الحق وإن كان واحداً لكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام، وكانوا إذا رأوا أحداً يسعى فى شيء منها منعوه. وقيل كانوا يجلسون على المراصد فيقولون لمن يريد شعيباً إنه كذاب فلا يفتنك عن دينك ويوعدون لمن آمن به. وقيل كانوا يقطعون الطريق. **(وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)** يعني الذي قعدوا عليه فوضع الظاهر موضع المضمر بياناً لكل صراط، ودلالة على عظم ما يصدون عنه وتقبيحاً لما كانوا عليه أو الإيمان بالله(١).

ومن وضع الظاهر موضع المضمر الذي يأتي لغرض تعظيم الاسم المظهر قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ۙ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ يونس: ١٣، قال البيضاوي رحمه الله: **(كَذلِكَ)** مثل ذلك الجزاء وهو إهلاكهم بسبب تكذيبهم للرسل وإصرارهم عليه بحيث تحقق أنه لا فائدة في إمهالهم **(نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ)** نجزي كل مجرم أو نجزيكم فوضع المظهر موضع الضمير للدلالة على كمال جرمهم وأنهم أعلام فيه(٢).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ۖ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾ آل عمران: ١٥١، قال البيضاوي رحمه الله: (وَمَأْواهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ) أي مثواهم، فوضع الظاهر موضع المضمر للتغليظ والتعليل(٣).

ومعنى التغليظ الذي جاء لأجله وضع الظاهر موضع المضمر، هو الدلالة على عظم جرمهم ومن ثم استحقوا أن يكون العقاب والمثوى عظيماً ليناسب هذا الجرم، ومن هنا يكون معنى التغليظ هو التعظيم.

---

(١) تفسير البيضاوي: ٥٥٨/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٩٣/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٣٠٣/١

٣. الاختصاص:

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١﴾ الزمر: ٧١، قال البيضاوي رحمه الله: (قالُوا بَلى وَلكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ) كلمة الله بالعذاب علينا وهو الحكم عليهم بالشقاوة، وأنهم من أهل النار ووضع الظاهر فيه موضع الضمير للدلالة على اختصاص ذلك بالكفرة(١).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١٥٠﴾ الأنعام: ١٥٠، قال البيضاوي رحمه الله: (وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا) من وضع المظهر موضع المضمر للدلالة على أن مكذب الآيات متبع الهوى لا غير، وأن متبع الحجة لا يكون إلا مصدقاً بها(٢).

فيفهم من قول البيضاوي: (للدلالة على أن مكذب الآيات متبع الهوى لا غير، وأن متبع الحجة لا يكون إلا مصدقاً بها) أن الغرض من وضع الظاهر موضع المضمر في هذه الآية هو تخصيص التكذيب بآيات الله أنه من عمل المتبع الهوى وليس له سبب آخر، لأن الفطرة ، والدلائل العقلية والنقلية، كلها تشير إلى الخالق الذي يجب عبادته وإحلال ما أحل وتحريم ما حرم، فمن جاوز ذلك فهو مكذب بآيات الله ومتبع لهواه.

٤. التعميم:

مثاله قوله جلَّ اسمُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ٢٥﴾ غافر: ٢٥، قال البيضاوي رحمه الله: (فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، وَاسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ) أي أعيدوا عليهم ما كنتم تفعلون بهم أولاً كي يصدوا عن مظاهرة موسى عليه السلام. (وَما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ) في ضياع، ووضع الظاهر فيه موضع الضمير لتعميم الحكم والدلالة على العلة(٣).

---

(١) تفسير البيضاوي: ١٩٨/٣

(٢) تفسير البيضاوي: ٥٢٦/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٢٠٦/٣

أي أن كل من شأنه مثل فرعون في قتل أصحاب الدعوات ومعاداتهم سيكون كيده وبالاً عليه وسيكون تدبيره تدميراً له، فهو تعميم للحكم مستفاد من هذا الفن البديع وهو وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: (وما كيد الكافرين إلا في ضلال).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ الأنعام: ١٣٥، قال البيضاوي رحمه الله: (**إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**) وضع الظالمين موضع الكافرين لأنه أعم وأكثر فائدة[١].

٥. التهويل:

مثاله قوله عز وجل: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ ﴾ غافر: ٤٩، قال البيضاوي رحمه الله: (**وَقالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ**) أي لخزنتها، ووضع جَهَنَّمَ موضع الضمير للتهويل أو لبيان محلهم فيها[٢].

٦. التعليل والبرهان:

مثاله قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ هود: ١١٥، قال البيضاوي رحمه الله: (**وَاصْبِرْ**) على الطاعات وعن المعاصي. (**فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**) عدول عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود ودليلاً على أن الصلاة والصبر إحسان وإيماء بأنه لا يعتد بهما دون الإخلاص[٣].

فوضع الظاهر (أجر المحسنين) موضع الضمير (أجركم) ليتحقق بذلك أن السبب والعلة من عدم إضاعة الأجر هو أنك من المحسنين لأنهم عرفوا الحق واستقاموا عليه فكان ذلك استحقاقاً لهم وجزاء لهم على إحسانهم.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ المائدة: ٥٦، قال البيضاوي رحمه الله: (وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا) ومن يتخذهم أولياء. (فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ) أي فإنهم هم الغالبون، ولكن وضع الظاهر موضع المضمر تنبيهاً على

(١) تفسير البيضاوي: ٥٢٠/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٢١٢/٣
(٣) تفسير البيضاوي: ١٥٥/٢

البرهان عليه فكأنه قيل: ومن يتول هؤلاء فهم حزب الله وحزب الله هم الغالبون وتنويهاً بذكرهم وتعظيماً لشأنهم وتشريفاً لهم بهذا الاسم، وتعريضاً لمن يوالي غير هؤلاء بأنه حزب الشيطان(١).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ الأنعام: ١٢٥ ، قال البيضاوي رحمه الله: (يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ) يجعل العذاب أو الخذلان عليهم، فوضع الظاهر موضع المضمر للتعليل(٢).

٧. **الدلالة على الاستحقاق**:

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ التوبة: ١٢، قال البيضاوي رحمه الله: (**فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ**) أي فقاتلوهم، فوضع أئمة الكفر موضع الضمير للدلالة على أنهم صاروا بذلك ذوي الرئاسة والتقدم في الكفر أحقاء بالقتل(٣).

٨. **التعريف**:

مثاله قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ يوسف: ٩٠، قال البيضاوي رحمه الله: (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ) أي يتق الله. (وَيَصْبِرْ) على البليات أو على الطاعات وعن المعاصي. (فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) وضع المحسنين موضع الضمير للتنبيه على أن المحسن من جمع بين التقوى والصبر(٤).

وكأن مجيء الاسم ظاهراً بدلاً من المضمر جاء لتعريف صفة الإحسان، فمن أراد أن يعرف من هم المحسنون، فهم الذين جمعوا بين التقوى والصبر، وإلا فلن يعتبر محسناً إلا بهذا العمل.

وكذا قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾ الفتح: ١٣، قال البيضاوي رحمه الله: (**وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً**) وضع الكافرين

(١) تفسير البيضاوي: ٤٤٦/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٥١٧/١
(٣) تفسير البيضاوي: ٤٠/٢
(٤) تفسير البيضاوي: ١٨٩/٢

موضع الضمير إيذاناً بأن من لم يجمع بين الإيمان بالله ورسوله فهو كافر وأنه مستوجب للسعير بكفره[1].

٩. زيادة التقرير والتمكين:

مثاله قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ آل عمران: ٧٨، قال البيضاوي رحمه الله: (وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) تأكيد لقوله: (وَما هُوَ مِنَ الْكِتابِ) وتشنيع عليهم وبيان لأنهم يزعمون ذلك تصريحاً لا تعريضاً[2].

١٠. تربية المهابة وإدخال الرّوع على ضمير المتلقّي:

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ العنكبوت: ٢٠، قال البيضاوي رحمه الله: **(ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ)** بعد النشأة الأولى الّتي هي الإبداء، فإنه والإعادة نشأتان من حيث أن كلاً اختراع وإخراج من العدم، والإفصاح باسم الله مع إيقاعه مبتدأ بعد إضماره في بدأ والقياس الاقتصار عليه للدلالة على أن المقصود بيان الإعادة، وأن من عرف بالقدرة على الإبداء ينبغي أن يحكم له بالقدرة على الإعادة لأنها أهون[3].

(١) تفسير البيضاوي: ٣/٢٩٦
(٢) تفسير البيضاوي: ١/٢٧٢
(٣) تفسير البيضاوي: ٣/٣٣

المبحث السادس: الإيجاز والإطناب والمساواة

يُعدُّ هذا الباب من الأبواب المهمة في علم البلاغة إذ إنه يعتبر ركناً ركيناً لا غنى عنه لمن أراد أن يبلغ من البلاغة مبلغها، ذلك لأن البلاغة تدور حول مناسبة الكلام لمقتضى حال المخاطب.

وحال المخاطب هو الذي يستدعي أن يأتي الكلام إما موجزاً أو إطناباً أو مساوياً، كما نرى الخطيب القزويني يقول في مقدمته عن بلاغة الكلام: فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، ومقتضى الحال مختلف، فإن مقامات الكلام متفاوتة... ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة، وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي[١]

لذلك فإن كل معنىً يطوف في خاطر الإنسان وعقله يمكن أن يُعبَّر عنه بواحد من الطرق الثلاثة، الإيجاز أو الإطناب أو المساواة، والفرق بين هذه الطرق الثلاثة نراه يوضحه لنا العلوي في الطراز إذ يقول: اعلم أن الكلام بالإضافة إلى معناه كالقميص بالإضافة إلى قَدِ من هو له، فربما كان على قدر قَدِّه من غير زيادة ولا نقصان، وهذا هو المساواة، وتارة يكون زائداً على قدِّه وهذا هو الإطناب، وربما نقص عن قده، وهذا هو الإيجاز، فإذن الكلام لا يخلو عن هذه الأنواع الثلاثة[٢].

المطلب الأول: الإيجاز:

عدَّ العلماء الإيجاز ركناً مهماً من أركان البلاغة فنرى كثيراً منهم يوليه أهمية بالغة، ويُذكر في هذا الباب أقوالٌ كثيرة.

فقد عدَّ ابن سنان الخفاجي الإيجاز من شروط الفصاحة والبلاغة حيث يقول: ومن شروط الفصاحة والبلاغة: الإيجاز والاختصار وحذف فضول الكلام حتى يُعبَّر عن المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة. وهذا الباب من أشهر دلائل الفصاحة وبلاغة الكلام عند أكثر الناس حتى أنهم إنما يستحسنون من كتاب الله تعالى ما كان بهذه الصفة[٣]

(١) الإيضاح: ١/٤١-٤٣
(٢) الطراز: ٣/١٧٦
(٣) سر الفصاحة: ١/٢٠٥

وقد أورد الجاحظ في البيان والتبيين حواراً بين أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان وصحار بن عياش العبدي، فسأل معاوية رضي الله عنه صحاراً: ما تعدون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز. قال له معاوية: وما الإيجاز؟ قال صحار: أن تجيب فلا تبطيء، وتقول فلا تخطئ [١].

وقال المفضل الضبي: قلت لأعرابي منا: ما البلاغة؟ قال لي: الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خطل. قال ابن الأعرابي: فقلت للمفضل: ما الإيجاز عندك؟ قال: حذف الفضول، وتقريب البعيد[٢].

وقد عدَّ شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني الإيجاز من شروط فصاحة الألفاظ حيث يقول: لا شبْهةَ على مَن نَظَر في كتابٍ تُذْكَر فيه الفصاحةُ، أنَّ الاستعارةَ عنوانُ ما يُجْعَلُ به اللفظُ فصيحاً، وأن المجازَ جملته، والإيجاز مِن مُعْظم ما يُوجِبُ لِلَّفظِ الفصاحةَ[٣].

كما أنه اعتبر الإيجاز من أقطاب البلاغة التي لا يمكن الاستغناء عنها، وأنها من الدلائل على إعجاز القرآن فقال وهو يفند حجج القائلين أن الفصاحة والبلاغة تكون بسبب اللفظ لا بسبب المعنى: فإنه يكْفي في الدلالةِ على سقوطهِ وقلَّةِ تمييز القائل به، أنه يَقْتضي إسقاطُ "الكناية" و"الاستعارة" و"التمثيل" و"المجاز" و"الإيجاز" جملةٌ، واطِّراحُ جميعها رأساً، مع أنها الأقطابُ التي تَدورُ البلاغةُ عليها، والأعضادُ التي تَسْتَنِدُ الفصاحةُ إليها، والطَّلِبةُ التي يتنازَعُها المُحْسِنونَ، والرِّهانُ الذي تُجرَّبُ فيه الجيادُ، والنضالُ الذي تُعْرَفُ به الأيدي الشِّدَادُ، وهي التي نَوَّهَ بذكْرِها البلغاءُ، ورفَعَ من أقدارِها العلماءُ، وصنفوا فيها الكتب، ووكلوا بها الهم، وصرَفوا إليها الخواطِرَ، حتى صارَ الكلامُ فيها نوعاً من العِلْم مفْرَداً، وصناعةً على حِدَة، ولم يَتَعاطَ أحَدٌ من الناس القولَ في الإعجازِ إلاَّ ذكَرَها وجعَلَها العُمُدَ والأركانَ فيما يوجب الفضل والمزية، وخصوصًا "الاستعارة" و"الإيجاز"، فإنكَ تَراهُمْ يجعلونَهُما عنوانَ ما يَذكُرونَ، وأولَ ما يُورِدون... وتراهم على لسانٍ واحدٍ في أنَّ "المجازَ" و "الإيجاز" من الأركانِ في أمْر الإعجاز[٤].

أما ابن الأثير فقد أسهب في الحديث عن الإيجاز ومكانته من البلاغة حيث يقول: وهذا نوع من الكلام شريف، لا يتعلق به إلا فرسان البلاغة من سبق الى غايتها وما صلى، وضرب في أعلى درجاتها بالقدح المعلى، وذلك لعلو مكانه، وتعذر إمكانه.

---

(١) البيان والتبيين: ٩٨/١.
(٢) البيان والتبيين: ٩٩/١
(٣) دلائل الإعجاز: ٤٦٠
(٤) دلائل الإعجاز: ٥٢٠-٥٢١

والنظر فيه إنما هو إلى المعاني لا إلى الألفاظ، ولست أعني بذلك أن تهمل الألفاظ، بحيث تعرى عن أوصافها الحسنة، بل أعني أن مدار النظر في هذا النوع إنما يختص بالمعاني، فرب لفظ قليل يدل على معنى كثير، ورب لفظ كثير يدل على معنى قليل(١).

تعريف الإيجاز:

الإيجاز لغة: وجز: وَجُزَ الكلامُ وَجازَةً ووَجْزاً، وأَوْجَزَ: قَلَّ فِي بَلَاغَةٍ، وأَوْجَزَه: اخْتَصَرَهُ...وأَوْجَزْتُ الْكَلَامَ: قَصَرْتُه(٢)

الإيجاز اصطلاحاً: عرَّفه السكاكي بأنه: أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الأوساط(٣).

أما ابن الأثير فقال عنه: هو حذف زيادات الألفاظ(٤).

وابن سنان الخفاجي فقد سمَّاه الإشارة وقال عنه: وهو أن يكون المعنى زائداً على اللفظ. أي أنه لفظ موجز يدل على معنى طويل على وجه الإشارة واللمحة(٥).

وقال عنه في موضع آخر: هو إيضاح المعنى بأقل ما يمكن من اللفظ(٦).

أما العلوي فقد عرَّفه بأنه: اندراج المعاني المتكاثرة تحت اللفظ القليل(٧)

ومن أدق من عرَّف الإيجاز وحدده عن الطريقين الآخرين من طرق تأدية الكلام الخطيب القزويني حيث يقول: المقبول من طرق التعبير عن المعنى هو تأدية أصل المراد بلفظ مساو له أو ناقص عنه واف أو زائد عليه، لفائدة والمراد بالمساواة أن يكون اللفظ بمقدار أصل المراد لا ناقصاً عنه بحذف أو غيره(٨)

---

(١) المثل السائر: ٢٠٩/٢
(٢) لسان العرب: (وجز) ٤٢٧/٥
(٣) مفتاح العلوم: ٢٧٧
(٤) المثل السائر: ٢٠٩/٢
(٥) سر الفصاحة: ٢٠٧
(٦) سر الفصاحة: ٢١١
(٧) الطراز: ٤٩/٢
(٨) الإيضاح: ١٧٣/٣

وقيل أيضاً في تعريف الإيجاز اصطلاحاً بأنه: هو التعبير عن معانٍ كثيرة بألفاظ قليلة مع الإبانة والإفصاح، وهو قسمان: إيجاز حذف وإيجاز قصر[١]

أولاً: إيجاز الحذف:

يُعرَّف بأنه: ما يحذف منه المفرد والجملة؛ لدلالة فحوى الكلام على المحذوف، ولا يكون فيما زاد معناه على لفظه[٢].

وقيل: هو التعبير عن المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة، وذلك بحذف شيء من الجملة مع عدم الإخلال بالمعنى[٣]

وإيجاز الحذف يأتي بحذف مسند أو مسند إليه أو حرف أو صفة أو اسم مضاف، وغيره الكثير.

وقد أشار القاضي البيضاوي في تفسيره إلى الإيجاز في كثير من المواضع وذكر أنواعاً من إيجاز الحذف.

إيجاز الحذف عند البيضاوي:

١. حذف المسند:

ومن أمثلته التي جاءت في كتاب الله قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ الأعراف: ١٦٠، قال البيضاوي رحمه الله: (وَأَوْحَيْنا إلى مُوسى إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ) في التيه. (أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ) أي: فضرب فانبجست، وحذفه للإيماء على أن موسى صلّى الله عليه وسلّم لم يتوقف في الامتثال، وأن ضربه لم يكن مؤثراً يتوقف عليه الفعل في ذاته[٤].

وهنا نكتة بلاغية توضح الغرض البلاغي من الحذف في قوله: (فانبجست) إذ القياس أن يقال: (فضرب فانبجست)، ليدل على أن موسى عليه السلام كان سريع الامتثال في تنفيذ ما أمره الله به من الضرب، وكأن هذه السرعة أوجبت حذف الفعل.

---

(١) من بلاغة القرآن: د. محمد ود. نعمان علوان: ص١٣٧

(٢) المثل السائر: ٢/٢١٦

(٣) من بلاغة القرآن: د. محمد ود. نعمان علوان: ص ١٣٧

(٤) تفسير البيضاوي: ١/٥٧٧

ويمكن أن يكون حذف المسند في هذه الآية دلالة على سرعة استجابة وطاعة موسى عليه السلام في مقابل تلكؤ بني إسرائيل وأسئلتهم الكثيرة التي سألوها عندما طلب الله منهم أن يذبحوا بقرة عندما قال الله لهم: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾ البقرة: ٦٧، فقالوا في البداية: ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ﴾ البقرة: ٦٨، ثم قالوا: ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ﴾ البقرة: ٦٩، ثم قالوا: ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ﴾ البقرة: ٧٠، وكان يكفيهم أن يذبحوا أي بقرة، لكنهم جُبلوا على الجدال والمخاصمة.

فكان إيراد هذه الآية مع حذف المسند دلالة على سرعة استجابة موسى عليه السلام لأمر الله، وكأن الله ينصب لبني إسرائيل قدوة لهم من أنفسهم ليرشدهم إلى طاعة الله والامتثال لأمره بعيداً عن المماحكة والمجادلة.

ومن حذف المسند أيضاً قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾ ق: ١٧، قال القاضي البيضاوي غفر الله له: **(عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ)** أي عَنِ الْيَمِينِ قعيد وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ، أي مقاعد كالجليس فحذف الأول لدلالة الثاني عليه كقوله: فإنِّي وَقَيَّارٌ بها لغريب[1].

وشطر البيت الذي ماثل به البيضاوي هذه الآية هو لضابئ البرجمي، وقد استشهد به العلماء كثيراً على حذف المسند، والبيت بتمامه:

ومن يك أمسى بالمدينة رحله فإني وقيار بها لغريب

فقد أراد أن يصف إحساسه بالغربة والوحشة، فذكر أن هذه الغربة الكئيبة قد أحسها بعيره كما أحسها هو، وأصل الكلام أن يقول: فإني لغريب بها وقيار غريب، ولكنه حذف المسند في الجملة الثانية؛ لأن ذكره في العبارة بعد دلالة القرينة عليه عبث يذهب بطلاوة الشعر؛ ولأن نفسه الضائقة بهذه الغربة تنزع إلى اللمح والإيجاز، وقيار اسم جمل الشاعر[2].

(١) تفسير البيضاوي: ٣/٣١٥
(٢) خصائص التراكيب: ٢٧٣

٢. حذف المسند إليه:

مثاله قوله جلَّت كلمته: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ ﴾ الكهف: ٤، قال البيضاوي رحمه الله: (**وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً**) خصهم بالذكر وكرر الإنذار متعلقاً بهم استعظاماً لكفرهم، وإنما لم يذكر المنذر به استغناء بتقدم ذكره[١].

فقد تقدم ذكر المنذر به في قوله تعالى: ﴿ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ ﴾ الكهف: ٢

٣. حذف المتعلقات:

حذف جواب لولا:

مثاله قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ النور: ١٠، قال البيضاوي رحمه الله: (وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ) متروك الجواب للتعظيم أي لفضحكم وعاجلكم بالعقوبة[٢].

وقد استدل ابن الأثير بهذه الآية في المثل السائر على حذف جواب لولا وقال: جواب "لولا" ههنا محذوف، تقديره: لما أنزل عليكم هذا الحكم بطريق التلاعن، وستر عليكم هذه الفاحشة بسببه[٣].

حذف متعلق الفعل:

مثاله قوله تعالى: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ﴾ النساء: ١٧٦، قال البيضاوي رحمه الله: (**يَسْتَفْتُونَكَ**) أي في الكلالة حذفت لدلالة الجواب عليه[٤].

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ ﴾ البقرة: ٢١٠، قال البيضاوي رحمه الله: (**إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ**) أي يأتيهم أمره أو بأسه... أو يأتيهم الله ببأسه فحذف المأتي به للدلالة عليه بقوله تعالى: (**أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**) [٥].

---

(١) تفسير البيضاوي: ٣٢٧/٢
(٢) تفسير البيضاوي: ٤٨٨/٢
(٣) المثل السائر: ٢٥٤/٢
(٤) تفسير البيضاوي: ٤١٣/١
(٥) تفسير البيضاوي: ١٨٢/١

حذف المضاف:

مثاله قوله تعالى: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ النساء: ١١٤، قال البيضاوي رحمه الله: (إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ) على حذف مضاف أي: (إلا نجوى من أمر) أو على الانقطاع بمعنى ولكن من أمر بصدقة ففي نجواه الخير[1].

ومن أمثلته أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ ﴾ البقرة: ٢٢١، قال البيضاوي رحمه الله: (أُولئِكَ) إشارة إلى المذكورين من المشركين والمشركات. (يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ) أي الكفر المؤدي إلى النار فلا يليق موالاتهم ومصاهرتهم. (وَاللَّهُ) أي وأولياؤه يعني المؤمنين حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه تفخيماً لشأنهم[2].

أي أن السياق كان يقتضي مقابلة الذين يدعون إلى النار بالذين يدعون إلى الله، فيكون القياس: (أولئك يدعون إلى النار وأولياء الله يدعون إلى الجنة والمغفرة بإذنه)، لكنه حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامة تفخيماً لشأن المؤمنين كما قال البيضاوي.

ومن حذف المضاف قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ﴾ البقرة: ٢٦٧، قال البيضاوي رحمه الله: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ مَا كَسَبْتُمْ) من حلاله أو جياده. (وَمِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ) أي ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمرات والمعادن، فحذف المضاف لتقدم ذكره[3].

حذف المضاف إليه:

كما يحذف المضاف ويقام المضاف إليه مقامه، يحدث العكس، كما في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ البقرة: ٣١، قال البيضاوي رحمه الله: (ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ) الضمير فيه للمسميات المدلول عليها ضمناً إذ التقدير أسماء المسميات، فحذف المضاف إليه لدلالة المضاف عليه وعوض عنه اللام

(١) تفسير البيضاوي: ١/٣٩٠-٣٩١
(٢) تفسير البيضاوي: ١/١٩١
(٣) تفسير البيضاوي: ١/٢٢٦

كقوله تعالى: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ مريم: ٤، لأن العرض للسؤال عن أسماء المعروضات فلا يكون المعروض نفس الأشياء سيما إن أريد به الألفاظ، والمراد به ذوات الأشياء، أو مدلولات الألفاظ(١).

حذف "لا":

مثاله قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ٨٥﴾ يوسف: ٨٥، قال البيضاوي رحمه الله: **(قالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ)** أي لا تفتأ ولا تزال تذكره تفجعاً عليه، فحذف لا كما في قوله: "فَقُلْتُ يَمينَ الله أَبْرَح قَاعِداً" (٢) لأنه لا يلتبس بالإثبات، فإن القسم إذا لم يكن معه علامات الإثبات كان على النفي(٣).

وهذا السياق الذي تتزاحم فيه الكلمات الغريبة مشيعةً جوَّ الغرابة، والوحشة مناسب لمقصودهم الذي يريدون حمل أبيهم عليه، فهم يريدون أن ينسى يعقوب عليه السلام ولده، وليس في الغرائب أغرب من هذا، وحذف حرف النفي، وهو خلاف الأصل يأتي متلائما مع هذا السياق الغريب، ويرمز في خفاء إلى حاجتهم، وهي نسيان يوسف، وإبعاده من قلب أبيهم الذي ضاق بهم، وتولى عنهم من أجل يوسف(٤).

حذف الشرط:

مثاله قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ البقرة: ١٨٤، قال البيضاوي رحمه الله: **(فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ)** أي فعليه صوم عدد أيام المرض، أو السفر من أيام أخر إن أفطر، فحذف الشرط والمضاف والمضاف إليه للعلم بها(٥).

والتقدير قبل الحذف: (فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فأفطر فعدة من أيام أخر)، فالشرط هو الإفطار حذف للعلم به ودلالة السياق عليه.

---

(١) تفسير البيضاوي: ٨٤/١

(٢) هذا شطر بيت لامرئ القيس في ديوانه. ديوان امرئ القيس، ص١٦٥، تحقيق: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٤م. وتمام البيت: (وَلَوْ قطّعوا رأسِي لدَيكِ وأوْصَالي).

(٣) تفسير البيضاوي: ١٨٨/٢

(٤) خصائص التراكيب: ١٥٧

(٥) تفسير البيضاوي: ١٦٦/١

حذف جواب الطلب:

يحذف جواب الطلب للإيجاز كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾ البقرة: ٢٤٣، قال الإمام البيضاوي رحمه الله: . (فَقالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا) أي قال لهم موتوا فماتوا كقوله: ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾ البقرة: ١١٧، والمعنى أنهم ماتوا ميتة رجل واحد من غير علة، بأمر الله تعالى ومشيئته[١].

فأمر الله واجب الكون والتنفيذ فلا حاجة لذكر جواب الطلب لأنه طلب وأمرٌ من العظيم القادر الذي لا يُردُّ أمره ولا يُغلب جنده، فحذف جواب الطلب هنا للإيجاز كما تقدم وللدلالة على سرعة الاستجابة والانقياد لله تعالى.

حذف المعطوف:

كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾ الأنعام: ١٣، قال البيضاوي رحمه الله: **(مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهارِ)** من السكنى وتعديته بفي كما في قوله تعالى: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ إبراهيم: ٤٥، والمعنى ما اشتملا عليه، أو من السكون أي ما سكن فيهما وتحرك فاكتفى بأحد الضدين عن الآخر[٢].

فالله عز وجل له ما سكن وما تحرك، فحذف المعطوف اكتفاء بأحد الضِّدَّين وذلك على سبيل الإيجاز.

وقد أشار الشهاب الخفاجي في حاشيته على تفسير البيضاوي إلى السر وراء اختيار السكون دون الحركة فقال: وإنما اكْتُفِيَ بالسكون عن ضده دون العكس لأنّ السكون أكثر وجودا...فإنّ السكون مع ضده كناية عن جميع التغيرات والتصرفات الواقعة في الليل والنهار، فناسب المقام...ثم إنه قيل إنّ ما سكن يعم جميع المخلوقات إذ ليس شيء منها غير متصف بالسكون حتى المتحرك حال حركته على ما حُقِّق في الكلام من أنّ تفاوت الحركات بالسرعة والبطء لقلة السكنات المتخللة[٣]

(١) تفسير البيضاوي: ٢٠٨/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٤٨١/١
(٣) حاشية الشهاب: ٣٠/٤

ونظير ما سبق من حذف المعطوف قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ النحل: ٨١، قال البيضاوي رحمه الله: (وَجَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ) ثياباً من الصوف والكتان والقطن وغيرها. (تَقِيكُمُ الْحَرَّ) خصه بالذكر اكتفاء بأحد الضدين أو لأن وقاية الحر كانت أهم عندهم(١).

وقد استدل بها السيوطي في نواهد الأبكار على حذف المعطوف حين أتى على قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ ﴾ المائدة: ١، قال السيوطي في (غير محلي الصيد): وحذف المعطوف للدلالة عليه، وهو كثير وتقديره: غير محلي الصيد ومحليه كما قال تعالى: **(سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ)** أي والبرد(٢).

حذف المفعول به:

تكلم شيخ البلاغة الإمام عبد القاهر الجرجاني عن حذف المفعول به فقال: حذف مفعول مقصود، لدلالة الحال عليه، وهو قسمان، أولهما الجلي وهُوَ أن يكونَ له مفعولٌ مقصودًا قَصْدُه معلومٌ، إلا أنه يُحْذَفُ من اللفظ لدليلِ الحالِ عليه...فمثالُ الجليّ قولُهم: "أصغَيْتُ إليه"، وهم يُريدون "أذني"، و "أغضيت عليه"، والمعنى "جفني"(٣)

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ المائدة: ١٩، قال البيضاوي رحمه الله: (يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ) أي الدين، وحذف لظهوره، أو ما كتمتم وحذف لتقدم ذكره ويجوز أن لا يقدر مفعول على معنى يبذل لكم البيان والجملة في موضع الحال أي جاءكم رسولنا مبيناً لكم(٤).

ومن بديع إيجاز حذف المفعول ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا

(١) تفسير البيضاوي: ٢/٢٧٤
(٢) نواهد الأبكار: ٣/٢٣٥
(٣) دلائل الإعجاز: ١٥٥
(٤) تفسير البيضاوي: ١/٤٢٨

شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ القصص: ٢٣، قال البيضاوي رحمه الله: (أُمَّةً مِنَ النَّاسِ) جماعة كثيرة مختلفين. (يَسْقُونَ) مواشيهم. (وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ) في مكان أسفل من مكانهم. (امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ) تمنعان أغنامهما عن الماء لئلا تختلط بأغنامهم. (قالَ مَا خَطْبُكُما) ما شأنكما تذودان. (قالَتا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ) تصرف الرعاة مواشيهم عن الماء حذراً عن مزاحمة الرجال، وحذف المفعول لأن الغرض هو بيان ما يدل على عفتهما ويدعوه إلى السقي لهما ثم دونه(١).

ففي هذه الآية حُذف المفعول به في مواضع عدة، ذكرها ابن الأثير فقال: حذف المفعول به في أربعة أماكن، إذ المعنى: وجد أمة من الناس يسقون مواشيهم، وامرأتين تذودان مواشيهما، وقالتا: لا نسقي مواشينا، فسقى لهما مواشيهما؛ لأن الغرض أن يعلم أنه كان من الناس سُقيٌ ومن الامرأتين ذَوْدٌ، وأنهما قالتا: لا يكون منا سقي حتى يصدر الرعاء، وأنه كان من موسى عليه السلام بعد ذلك السقي، فأما كون المسقي غنما، وإبلا أو غير ذلك فخارج عن الغرض(٢).

حذف أحد المتلازمين:

كما في قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ البقرة: ٣٧، قال البيضاوي رحمه الله: (فَتابَ عَلَيْهِ) رجع عليه بالرحمة وقبول التوبة...واكتفي بذكر آدم لأن حواء كانت تبعاً له في الحكم ولذلك طوي ذكر النساء في أكثر القرآن والسنن(٣).

فلما كانت حواء ملازمة لآدم في كل شؤونه مصاحبة له في التوبة كما قال الله: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الأعراف: ٢٣، كان قبول التوبة من الله عليهما جميعاً، وكان القياس أن يقول جلت كلمته: (فتاب عليهما)، لكن لمَّا كانت حواء تابعة لآدم في الحكم كانت داخلة في حكم التوبة دخولاً بدهياً لذلك كان من الأبلغ أن تحذف إيجازاً واختصاراً.

ومن حذف المتلازمين إيجازاً قوله تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ ﴾ الأنعام: ١٩، قال البيضاوي رحمه الله: (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ) أي بالقرآن، واكتفى بذكر الإنذار عن ذكر البشارة(٤).

---

(١) تفسير البيضاوي: ١٠/٣
(٢) المثل السائر: ٢٣٩/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ٩١/١
(٤) تفسير البيضاوي: ٤٨٢/١

حذف المُفَضَّل عليه:

مثاله قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ البقرة: ١٠٣، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا)** بالرسول والكتاب. **(وَاتَّقَوْا)** بترك المعاصي، كنبذ كتاب الله واتباع السحر لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ جواب لو، وأصله لأثيبوا مثوبة من عند الله خيراً مما شروا به أنفسهم...حذف المفضل عليه إجلالاً للمفضل من أن ينسب إليه[١].

حذف جملة:

مثاله قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ البقرة: ٧١، قال البيضاوي رحمه الله: (قالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ) أي بحقيقة وصف البقرة وحققتها لنا...(فَذَبَحُوها) فيه اختصار، والتقدير: فحصَّلوا البقرة المنعوتة فذبحوها[٢].

ومن حذف الجملة قوله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ البقرة: ٧٣، قال البيضاوي رحمه الله: **(فَقُلْنا اضْرِبُوهُ)** عطف على ادارأتم وما بينها اعتراض، والضمير للنفس...**(كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى)** يدل على ما حذف وهو فضربوه فحيي[٣].

ومن حذف الجملة قوله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ البقرة: ٢١٣، قال البيضاوي رحمه الله: **(فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ)** أي فاختلفوا فبعث الله، وإنما حذف لدلالة قوله فيما اختلفوا فيه[٤].

ثانياً: إيجاز القصر:

يُعرَّف **إيجاز القصر** بأنه: التعبير عن المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة من غير حذف[٥]، وقيل هو: ما تزيد فيه المعاني على الألفاظ الدالة عليها بلا حذف[٦]

(١) تفسير البيضاوي: ١٢٦/١
(٢) تفسير البيضاوي: ١١١/١
(٣) تفسير البيضاوي: ١١١/١
(٤) تفسير البيضاوي: ١٨٤/١
(٥) من بلاغة القرآن: د. محمد ود. نعمان علوان: ص ١٣٨
(٦) علوم البلاغة للمراغي: ١٨٨

وهذا النوع من الإيجاز أبلغ وهو أخفى وأدق من إيجاز الحذف "فإن التنبه له عسر؛ لأنه يحتاج إلى فضل تأمل، وطول فكرة، لخفاء ما يستدل عليه، ولا يستنبط ذلك إلا من رسخت قدمه في ممارسة علم البيان، وصار له خليقة وملكة"(١).

وإيجاز القصر "هو الذي لا يمكن التعبير عن ألفاظه بألفاظ أخرى مثلها وفي عدتها، وهو أعلى طبقات الإيجاز مكانا، وأعوزها إمكانا، وإذا وجد في كلام بعض البلغاء، فإنما يوجد شاذًّا نادرًا"(٢)

إيجاز القصر عند البيضاوي:

ومن الشواهد التي أكثر البلاغيون من الاستشهاد بها على هذا النوع من الإيجاز، وعدُّوها أبلغ آية في كتاب الله في باب الإيجاز قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ البقرة: ١٧٩، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ)** كلام في غاية الفصاحة والبلاغة من حيث جعل الشيء محل ضده، وعرف القصاص ونكر الحياة، ليدل على أن في هذا الجنس من الحكم نوعاً من الحياة عظيماً، وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل، فيكون سبب حياة نفسين. ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل، والجماعة بالواحد، فتثور الفتنة بينهم. فإذا اقتص من القاتل سلم الباقون فيكون ذلك سبباً لحياتهم. وعلى الأول فيه إضمار وعلى الثاني تخصيص(٣).

فقول البيضاوي رحمه الله: (على الأول فيه إضمار) إشارة إلى إيجاز القصر الذي حمل معاني كثيرةً بألفاظ قليلة.

فإن قوله تعالى: **(الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)**، لا يمكن التعبير عنه إلا بألفاظ كثيرة؛ لأن معناه أنه إذا قتل القاتل امتنع غيره عن القتل، فأوجب ذلك حياة للناس(٤).

وقد ذكر الخطيب القزويني أن العرب كانوا يأتون بنحو هذا المعنى بقولهم: القتل أنفى للقتل إلا أن كلام الله أبلغ وأوجز وذلك لوجوه عدة(٥):

---

(١) المثل السائر: ٢/٢١٦
(٢) المثل السائر: ٢/٢٧٥
(٣) تفسير البيضاوي: ١/١٦٤
(٤) المثل السائر: ٢/٢٧٥
(٥) الإيضاح: ٣/١٨٢

أحدهما: أن عدة حروف ما يناظره منه وهو في القصاص حياة عشرة في التلفظ وعدة حروفه أربعة عشر.

وثانيهما: ما فيه التصريح بالمطلوب الذي هو الحياة بالنص عليها فيكون أزجر عن القتل بغير حق لكونه أدعى إلى الاقتصاص.

وثالثها: ما يفيده تنكير حياة من التعظيم أو النوعية.

ورابعها: إضراره بخلاف قولهم، فإن القتل الذي ينفي القتل هو ما كان على وجه القصاص لا غيره متعلق بثبوته نفيًا الملزوم بنفي اللازم.

وقد جمع الزركشي في البرهان كثيراً من وجوه البلاغة والفصاحة في الآية الكريمة في مقابلة ما يناظره من كلام العرب، فقال: **وَجُمْلَةُ مَا ذَكَرُوا فِي ذَلِكَ وُجُوهٌ**(١):

أَحَدُهَا: أَنَّ قَوْلَهُ: {الْقِصَاصِ حَيَاةٌ} أَوْجَزُ فَإِنَّ حُرُوفَهُ عَشْرَةٌ وَحُرُوفُ "الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ" أَرْبَعَةَ عَشَرَ حَرْفًا وَالتَّاءُ وَأَلِفُ الْوَصْلِ سَاقِطَانِ لَفْظًا وَكَذَا التَّنْوِينُ لِتَمَامِ الْكَلَامِ الْمُقْتَضِي لِلْوَقْفِ.

الثَّانِي: أَنَّ قَوْلَهُمْ فِيهِ كُلْفَةٌ بِتَكْرِيرِ الْقَتْلِ وَلَا تَكْرِيرَ فِي الْآيَةِ.

الثَّالِثُ: أَنَّ لَفْظَ الْقِصَاصِ فِيهِ حُرُوفٌ مُتَلَائِمَةٌ لِمَا فِيهِ مِنَ الْخُرُوجِ مِنَ الْقَافِ إِلَى الصَّادِ إِذِ الْقَافُ مِنْ حُرُوفِ الِاسْتِعْلَاءِ وَالصَّادُ مِنْ حُرُوفِ الاستعلاء والإطباق بِخِلَافِ الْخُرُوجِ مِنَ الْقَافِ إِلَى التَّاءِ الَّتِي هي حرف منخفض فهو غير ملائم وَكَذَا الْخُرُوجُ مِنَ الصَّادِ إِلَى الْحَاءِ أَحْسَنُ مِنَ الْخُرُوجِ مِنَ اللَّامِ إِلَى الْهَمْزَةِ لِبُعْدِ مادون طَرَفِ اللِّسَانِ وَأَقْصَى الْحَلْقِ.

الرَّابِعُ: فِي النُّطْقِ بِالصَّادِ وَالْحَاءِ وَالتَّاءِ حُسْنُ الصَّوْتِ وَلَا كَذَلِكَ تَكْرِيرُ الْقَافِ وَالْفَاءِ.

الْخَامِسُ: تَكْرِيرُ ذَلِكَ فِي كَلِمَتَيْنِ مُتَمَاثِلَتَيْنِ بَعْدَ فَصْلٍ طَوِيلٍ وَهُوَ ثِقَلٌ فِي الْحُرُوفِ أَوِ الْكَلِمَاتِ.

السَّادِسُ: الْإِثْبَاتُ أَوَّلٌ وَالنَّفْيُ ثَانٍ عَنْهُ وَالْإِثْبَاتُ أَشْرَفُ.

(١) البرهان في علوم القرآن: ٣/٢٢٢-٢٢٥.

السَّابِعُ: أَنَّ الْقِصَاصَ الْمَبْنِيَّ عَلَى الْمُسَاوَاةِ أَوْزَنُ فِي الْمُعَادَلَةِ مِنْ مُطْلَقِ الْقَتْلِ وَلِذَلِكَ يَلْزَمُ التَّخْصِيصُ بِخِلَافِ الْآيَةِ.

الثَّامِنُ: الطِّبَاعُ أَقْبَلُ لِلَفْظِ الْحَيَاةِ مِنْ كَلِمَةِ الْقَتْلِ لِمَا فِيهِ مِنَ الِاخْتِصَارِ وَعَدَمِ تَكْرَارِ الْكَلِمَةِ وَعَدَمِ تَنَافُرِ الْحُرُوفِ وَعَدَمِ تَكْرَارِ الْحَرْفَيْنِ وَقَبُولِ الطَّبْعِ لِلَفْظِ "الْحَيَاةِ" وَصِحَّةِ الْإِطْلَاقِ.

التَّاسِعُ: أَنَّ نَفْيَ الْقَتْلِ لَا يَسْتَلْزِمُ الْحَيَاةَ وَالْآيَةُ نَاصَّةٌ عَلَى ثُبُوتِهَا الَّتِي هِيَ الْغَرَضُ الْمَطْلُوبُ مِنْهُ.

الْعَاشِرُ: أَنَّ قَوْلَهُمْ لَا يَكَادُ يُفْهَمُ إِلَّا بَعْدَ فَهْمِ أَنَّ الْقِصَاصَ هُوَ الحياة وقوله في القصاص حياة مَفْهُومٌ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ.

الْحَادِي عَشَرَ: أَنَّ قَوْلَهُمْ خَطَأٌ فَإِنَّ الْقَتْلَ كُلَّهُ لَيْسَ نَافِيًا لِلْقَتْلِ فَإِنَّ الْقَتْلَ الْعُدْوَانِيَّ لَا يَنْفِي الْقَتْلَ وَكَذَا الْقَتْلُ فِي الرِّدَّةِ وَالزِّنَا لَا يَنْفِيهِ وَإِنَّمَا ينفيه قتل خاص. وهو قتل القصاص الذي فِي الْآيَةِ تَنْصِيصٌ عَلَى الْمَقْصُودِ وَالَّذِي فِي الْمَثَلِ لَا يُمْكِنُ حَمْلُهُ عَلَى ظَاهِرِهِ.

الثَّانِيَ عَشَرَ: فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى رَبْطِ الْمَقَادِيرِ بِالْأَسْبَابِ وَإِنْ كَانَتِ الْأَسْبَابُ أَيْضًا بِالْمَقَادِيرِ وَكَلَامُ الْعَرَبِ يَتَضَمَّنُهُ إِلَّا أَنَّ فِيهِ زِيَادَةً وَهِيَ الدَّلَالَةُ عَلَى رَبْطِ الْأَجَلِ فِي الْحَيَاةِ بِالسَّبَبِ لَا مِنْ مُجَرَّدِ نَفْيِ الْقَتْلِ.

الثَّالِثَ عَشَرَ: فِي تَنْكِيرِ "حَيَاةٌ" نَوْعُ تَعْظِيمٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةً مُتَطَاوِلَةً كَقَوْلِهِ: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ الناس على حياة} وَلَا كَذَلِكَ الْمَثَلُ فَإِنَّ اللَّامَ فِيهِ لِلْجِنْسِ وَلِهَذَا فَسَّرُوا الْحَيَاةَ فِيهَا بِالْبَقَاءِ.

الرَّابِعَ عَشَرَ: فيه بناء أفعل التفضيل من مُتَعَدٍّ وَالْآيَةُ سَالِمَةٌ مِنْهُ.

الْخَامِسَ عَشَرَ: أَنَّ أَفْعَلَ فِي الْغَالِبِ تَقْتَضِي الِاشْتِرَاكَ فَيَكُونُ تَرْكُ الْقِصَاصِ نَافِيًا الْقَتْلَ وَلَكِنَّ الْقِصَاصَ أَكْثَرُ نَفْيًا وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ وَالْآيَةُ سَالِمَةٌ مِنْ هَذَا.

السَّادِسَ عَشَرَ: أَنَّ اللَّفْظَ الْمَنْطُوقَ بِهِ إِذَا تَوَالَتْ حَرَكَاتُهُ تَمَكَّنَ اللِّسَانُ مِنَ النُّطْقِ وَظَهَرَتْ فَصَاحَتُهُ بِخِلَافِهِ إِذَا تَعَقَّبَ كُلَّ حَرَكَةٍ سُكُونٌ وَالْحَرَكَاتُ تَنْقَطِعُ بِالسَّكَنَاتِ نَظِيرُهُ إِذَا تَحَرَّكَتِ الدَّابَّةُ أَدْنَى حَرَكَةٍ فَخَنِسَتْ ثُمَّ تَحَرَّكَتْ فَخَنِسَتْ لَا يُتَبَيَّنُ انْطِلَاقُهَا وَلَا تَتَمَكَّنُ مِنْ حَرَكَتِهَا عَلَى مَا تَخْتَارُهُ وَهِيَ كَالْمُقَيَّدَةِ وَقَوْلُهُمْ: "الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ" حَرَكَاتُهُ مُتَعَاقِبَةٌ بِالسُّكُونِ بِخِلَافِ الْآيَةِ.

السَّابِعَ عَشَرَ: الْآيَةُ اشْتَمَلَتْ عَلَى فَنٍّ بَدِيعٍ وَهُوَ جَعْلُ أَحَدِ الضِّدَّيْنِ الَّذِي هُوَ الْفَنَاءُ وَالْمَوْتُ مَحَلًّا وَمَكَانًا لِضِدِّهِ الَّذِي هُوَ الْحَيَاةُ وَاسْتِقْرَارُ الْحَيَاةِ فِي الْمَوْتِ مُبَالَغَةٌ عَظِيمَةٌ ذَكَرَهُ فِي الكشاف.

الثَّامِنَ عَشَرَ: أَنْ فِي الْآيَةِ طِبَاقًا لِأَنَّ الْقِصَاصَ مُشْعِرٌ بِضِدِّ الْحَيَاةِ بِخِلَافِ الْمَثَلِ.

التَّاسِعَ عَشَرَ: الْقِصَاصُ فِي الْأَعْضَاءِ وَالنُّفُوسِ وَقَدْ جُعِلَ في الكل حياة فيكون جمعا بين حياةالنفس وَالْأَطْرَافِ وَإِنْ فُرِضَ قِصَاصٌ بِمَا لَا حَيَاةَ فِيهِ كَالسِّنِّ فَإِنَّ مَصْلَحَةَ الْحَيَاةِ تَنْقُصُ بِذَهَابِهِ وَيَصِيرُ كَنَوْعٍ آخَرَ وَهَذِهِ اللَّطِيفَةُ لَا يَتَضَمَّنُهَا المثل.

العشرون: أنها أكثر فائدة لتضمنه الْقِصَاصَ فِي الْأَعْضَاءِ وَأَنَّهُ نَبَّهَ عَلَى حَيَاةِ النَّفْسِ مِنْ وَجْهَيْنِ مِنْ وَجْهٍ بِهِ الْقِصَاصُ صَرِيحًا وَمِنْ وَجْهِ الْقِصَاصِ فِي الطَّرْفِ لِأَنَّ أَحَدَ أَحْوَالِهَا أَنْ يَسْرِيَ إِلَى النَّفْسِ فَيُزِيلَهَا وَلَا كَذَلِكَ الْمَثَلُ.

ومن الآيات التي جاءت على إيجاز القصر قوله تعالى: ﴿ **قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ** ﴿٥٠﴾ ﴾ طه: ٥٠، قال البيضاوي رحمه الله: **(قالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ)** من الأنواع (خَلْقَهُ) صورته وشكله الذي يطابق كماله الممكن له، أو أعطى خليقته كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به... وقيل أعطى كل حيوان نظيره في الخلق والصورة زوجا... **(ثُمَّ هَدى)** ثم عرفه كيف يرتفق بما أعطي وكيف يتوصل به إلى بقائه وكماله اختياراً أو طبعاً، وهو جواب في غاية البلاغة لاختصاره وإعرابه عن الموجودات بأسرها على مراتبها، ودلالته على أن الغني القادر بالذات المنعم على الإطلاق هو الله تعالى وأن جميع ما عداه مفتقر إليه منعم عليه في حد ذاته وصفاته وأفعاله، ولذلك بهت الذي كفر وأفحم عن الدخل عليه فلم ير إلاَّ صَرْفَ الكلام عنه(١).

فقول البيضاوي: (وهو جواب في غاية البلاغة لاختصاره وإعرابه عن الموجودات بأسرها على مراتبها) إشارة إلى إيجاز القصر حيث الآية على قلة ألفاظها تحمل معاني كثيرة تشير إلى جميل عطاء الله الذي لا يحصى لكل مخلوقاته على اختلاف أشكالها وأجناسها، ودلَّ بقوله: (أعطى كل شيء خلقه) على النعم المادية التي هي تلبية لحاجات الجسد من طعام وشراب وملبس وغيرها، وبقوله: (ثم هدى) على نعمة الهداية التي هي نعم معنوية تشير إلى ما يسعد روح الإنسان ويطمئنه، فيكون بهاتين الكلمتين قد جمع النعم كلها للإنسان والسعادة بأقل الألفاظ وأكثر المعاني على سبيل الإيجاز.

(١) تفسير البيضاوي: ٣٩٢/٢

ومن إيجاز القصر قوله جلَّت كلمته: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ النمل: ٣٠ – ٣١ ، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ)** مؤمنين أو منقادين، وهذا كلام في غاية الوجازة مع كمال الدلالة على المقصود، لاشتماله على البسملة الدالة على ذات الصانع تعالى وصفاته صريحاً أو التزاماً، والنهي عن الترفع الذي هو أم الرذائل والأمر بالإسلام الجامع لأمهات الفضائل، وليس الأمر فيه بالانقياد قبل إقامة الحجة على رسالته حتى يكون استدعاء للتقليد فإن إلقاء الكتاب إليها على تلك الحالة من أعظم الدلالة(١).

ومن إيجاز القصر قوله تعالى: ﴿ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ﴿٧٨﴾ ﴾ طه: ٧٨، قال البيضاوي رحمه الله: **(فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ)** الضمير لجنوده أو له ولهم، وفيه مبالغة ووجازة أي: غشيهم ما سمعت قصته ولا يعرف كنهه إلا الله(٢).

وقد قال السكاكي عن هذه الآية: وقوله: (فغشيهم من اليم ما غشيهم) أظهر من أن يخفى حاله في الوجازة نظرا على ما ناب عنه(٣)

وقال ابن الأثير: **فقوله: (فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ)** من جوامع الكلم التي يستدل على قلتها بالمعاني الكثيرة، أي غشيهم من الأمور الهائلة، والخطوب الفادحة ما لا يعلم كنهه إلا الله، ولا يحيط به غيره (٤)

ومن إيجاز القصر قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ هود: ٤٤، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي)** نوديا بما ينادى به أولو العلم وأمرا بما يؤمرون به، تمثيلاً لكمال قدرته وانقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما بالأمر المطاع الذي يأمر المنقاد لحكمه المبادر إلى امتثال أمره، مهابة من عظمته وخشية من أليم عقابه، والبلع النشف والإقلاع الإمساك. **(وَغِيضَ الْماءُ)** نقص. **(وَقُضِيَ الْأَمْرُ)** وأنجز ما وعد من إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين. **(وَاسْتَوَتْ)** واستقرت السفينة. **(عَلَى الْجُودِيِّ)** جبل بالموصل وقيل بالشام وقيل بآمل...**(وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)**

(١) تفسير البيضاوي: ٥٦٦/٢
(٢) تفسير البيضاوي: ٣٩٩/٢
(٣) مفتاح العلوم: ٢٧٧
(٤) المثل السائر: ٢٧٣/٢

هلاكاً لهم...والآية في غاية الفصاحة لفخامة لفظها وحسن نظمها والدلالة على كنه الحال مع الإيجاز الخالي عن الإخلال[1]

ولا بد من الإشارة إلى أن هذه الآية قد عدها البلاغيون والعلماء أبلغ غاية في كتاب الله على الإطلاق.

لذا فقد أسهب السكاكي في الإشارة إلى مواضع الإيجاز في الآية السابقة فقال: وأما النظر فيها من حيث علم المعاني وهو النظر في فائدة كل كلمة منها وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها.

مواضع الإيجاز في الآية كما ذكرها السكاكي[2]:

١. **اختيار يا دون أخواتها:** ذلك أنه اختير يا دون أخواتها لكونها أكثر في الاستعمال وأنها دالة على بعد المنادي الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة وإبداء شأن العزة والجبروت وهو تبعيد المنادي المؤذن بالتهاون به ولم يقل يا أرض بالكسر لإمداد التهاون ولم يقل يا أيتها الأرض لقصد الاختصار مع الاحتراز عم في أيتها من تكلف التنبيه غير المناسب بالمقام.
٢. **اختيار "ابلعي" دون ابتلعي:** واختير لفظ ابلعي على ابتلعي لكونه أخصر ولمجيء خط التجانس بينه وبين اقلعي أوفر.
٣. **اختصار الكلام من "أقلعي":** وقيل ماؤك بالإفراد دون الجمع لما كان في الجمع من صورة الاستكثار المتأبى عنها مقام إظهار الكبرياء والجبروت وهو الوجه في إفراد الأرض والسماء وإنما لم يقل ابلعي بدون المفعول أن لا يستلزم تركه ما ليس بمراد من تعميم الابتلاع للجبال والتلال والبحار وساكنات الماء بأسرهن نظرا على مقام ورود الأمر الذي هو مقام عظمة وكبرياء، ثم إذا بين المراد اختصر الكلام من أقلعي احترازا عن الحشو المستغنى عنه وهو الوجه في أن لم يقل، قيل يا أرض ابلعي ماءك فبلعت ويا سماء أقلعي فأقلعت.
٤. **اختيار "غيض" على غيَّض:** واختير غيض على غيَّض المشدد لكونه أخصر.
٥. **اختيار "الأمر" دون "أمر نوح":** وقيل الماء دون أن يقال ماء طوفان السماء، وكذا الأمر دون أن يقال أمر نوح وهو إنجاز ما كان الله وعد نوحا من إهلاك قومه لقصد الاختصار والاستغناء بحرف التعريف عن ذلك.

(١) تفسير البيضاوي: ١٣٢/٢
(٢) مفتاح العلوم: ٤١٩

٦. **اختيار** "**استَوَت**" **دون** "**سوِّيت**": ولم يقل سويت على الجودي بمعنى أقرت على نحو قيل وغيض وقضى في البناء للمفعول اعتبار البناء الفعل للفاعل مع السفينة في قوله " وهي تجري بهم في موج " مع قصد الاختصار في اللفظ.

٧. **اختيار** "**بعداً**" **دون** "**ليبعد القوم**": ثم قيل بعدا للقوم دون أن يقال ليبعد القوم طلبا للتأكيد مع الاختصار وهو نزول بعدا منزلة ليبعدوا بعدا مع فائدة أخرى وهو استعمال اللام بعد بعدا الدال على معنى أن البعد حق لهم.

المطلب الثاني: الإطناب:

الإطناب لغة: **والإِطْنابُ:** الْبَلَاغَةُ فِي المَنْطِق والوَصْفِ، مَدْحًا كَانَ أَو ذَمًّا. وأَطْنَبَ فِي الْكَلَامِ: بالَغَ فِيهِ. والإِطْنابُ: الْمُبَالَغَةُ فِي مَدْحٍ أَو ذَمٍّ والإِكثارُ فِيهِ. والمُطْنِبُ: المَدَّاحُ لِكُلِّ أَحد. ابْنُ الأَنباري: أَطْنَبَ فِي الْوَصْفِ إِذا بَالَغَ واجْتَهد؛ وأَطْنَبَ فِي عَدْوه إِذا مَضى فِيهِ بِاجْتِهَادٍ وَمُبَالَغَةٍ[1]

أمَّا في اصطلاح البلاغيين فقد عرَّفه العلوي بأنه: **زيادة اللفظ على المعنى لفائدة جديدة**[2]

صور الإطناب في تفسير البيضاوي:

أولاً: الإيضاح بعد الإبهام:

وفائدة هذا النوع من الإطناب هو أن يُرى المعنى في صورتين مختلفتين، ليتمكن في النفس فضل تمكن فإن المعنى إذا ألقى على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح فتتوجه إلى ما يرد بعد ذلك فإذا ألقي كذلك تمكن فيها فضل تمكن وكان شعورها به أتم، أو لتمكن اللذة بالعلم به فإن الشيء إذا حصل كمال العلم به دفعة لم يتقدم حصول اللذة به ألم، وإذا حصل الشعور به من وجه دون وجه تشوقت النفس إلى العلم بالمجهول، فيحصل لها بسبب المعلوم لذة، وبسبب حرمانها من الباقي ألم، ثم إذا حصل لها العلم به حصلت لها لذة أخرى، واللذة عقيب الألم أقوى من اللذة التي لم يتقدمها ألم[3]

وقد ذكر البيضاوي في تفسيره مواضع كثيرة من كتاب الله جاء فيها الإطناب بطريق الإيضاح بعد الإبهام وذكر أغراضاً وفوائد لمجيء الإطناب بهذه الصورة، من هذه الأغراض:

١. التوكيد والمبالغة:

مثاله قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ ﴾ طه: ٢٥ – ٢٦، قال البيضاوي رحمه الله: **(قالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي)** لما أمره الله بخطب عظيم وأمر جسيم سأله أن يشرح صدره ويفسح قلبه لتحمل أعبائه والصبر على مشاقه، والتلقي لما ينزل عليه

(١) لسان العرب مادة (طنب): ٥٦٢/١
(٢) الطراز: ١٢٣/٢
(٣) الإيضاح: ١٩٦/٣-١٩٧ (بتصرف)

ويسهل الأمر له بإحداث الأسباب ورفع الموانع، وفائدة (لي) إبهام المشروح والميسر أولاً، ثم رفعه بذكر الصدر والأمر تأكيداً ومبالغة[1].

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ الفاتحة: ٦ – ٧، قال البيضاوي رحمه الله: **(صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ)** بدل من الأول بدل الكل، وهو في حكم تكرير العامل من حيث إنه المقصود بالنسبة، وفائدته التوكيد والتنصيص على أن طريق المسلمين هو المشهود عليه بالاستقامة على آكد وجه وأبلغه لأنه جعل كالتفسير والبيان له فكأنه من البين الذي لا خفاء فيه أن الطريق المستقيم ما يكون طريق المؤمنين[2].

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ ﴾ الشرح: ٤، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ)** بالنبوة وغيرها، وأي رفع مثل أن قرن اسمه باسمه تعالى في كلمتي الشهادة وجعل طاعته طاعته، وصلى عليه في ملائكته وأمر المؤمنين بالصلاة عليه وخاطبه بالألقاب، وإنما زاد لَكَ ليكون إبهاماً قبل إيضاح فيفيد المبالغة[3].

والزيادة التي تكلم عنها البيضاوي بقوله: (إنما زاد لَكَ ليكون إبهاماً قبل إيضاح) هي (لك)، فإنه لو قال: (رفعنا ذكرك) لكان المعنى واضحاً دالاً على المقصود، ولقد زيدت هذه اللفظة لتدل على المبالغة كما أوضح البيضاوي وهي مشابهة لما مرَّ في قوله تعالى: (رب اشرح لي صدري).

٢. تشويق السامع:

مثاله قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾ غافر: ٣٦ – ٣٧، قال البيضاوي رحمه الله: **(لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ)** الطرق. **(أَسْبابَ السَّماواتِ)** بيان لها وفي إبهامها ثم إيضاحها تفخيم لشأنها وتشويق للسامع إلى معرفتها[4].

---

(١) تفسير البيضاوي: ٣٨٨/٢
(٢) تفسير البيضاوي: ١٨/١
(٣) تفسير البيضاوي: ٥٤٦/٣
(٤) تفسير البيضاوي: ٢٠٩/٣

٣. تفخيم المبهم:

وذلك كما في قوله تعالى: (كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ) (التكاثر: ٣-٦)

قال البيضاوي رحمه الله: **(لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)** جواباً له لأنه محقق الوقوع بل هو جواب قسم محذوف أكد به الوعيد وأوضح به ما أنذرهم منه بعد إبهامه تفخيماً[١].

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ البقرة: ١٢٧، قال البيضاوي رحمه الله: وفي إبهام القواعد وتبيينها تفخيم لشأنها[٢].

ثانياً: ذِكْر الخاص بعد العام:

وفائدة هذا النوع من الإطناب هو التنبيه على فضل الخاص[٣]

ومثاله من كتاب الله قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ ﴾ البقرة: ٢٧٧، قال البيضاوي رحمه الله: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) بالله ورسوله وبما جاءهم منه. (وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ) عطفهما على ما يعمهما لإنافتهما على سائر الأعمال الصالحة[٤].

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ المائدة: ٩١، قال القاضي البيضاوي رحمه الله: وخص الصلاة من الذكر بالإفراد للتعظيم، والإشعار بأن الصاد عنها كالصاد عن الإيمان من حيث إنها عماده والفارق بينه وبين الكفر[٥].

---

(١) تفسير البيضاوي: ٥٦٥/٣
(٢) تفسير البيضاوي: ١٣٧/١
(٣) انظر: الإيضاح: ٢٠٠/٣
(٤) تفسير البيضاوي: ٢٣١/١
(٥) تفسير البيضاوي: ٤٦٠/١

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ آل عمران: ١٠٤، قال البيضاوي رحمه الله: وعطف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عطف الخاص على العام للإيذان بفضله[١]

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ ﴾ البقرة: ٢٣٨، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَالصَّلاةِ الْوُسْطى)** أي الوسطى بينها، أو الفضلى منها خصوصاً وهي صلاة العصر...وفضلها لكثرة اشتغال الناس في وقتها، واجتماع الملائكة... فتكون صلاة من الأربع خصت بالذكر مع العصر لانفرادهما بالفضل[٢].

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ ﴾ المائدة: ٢، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَلَا الْهَدْيَ)** ما أهدي إلى الكعبة، جمع هدية... **(وَلَا الْقَلائِدَ)** أي ذوات القلائد من الهدي، وعطفها على الهدي للاختصاص فإنها أشرف الهدي[٣].

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ الأنبياء: ٧٣، قال البيضاوي رحمه الله: (وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ) ليحثوهم عليها فيتم كمالهم بانضمام العمل إلى العلم... وكذلك قوله: (وَإِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ) وهو من عطف الخاص على العام للتفضيل[٤]

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾ النساء: ١٦٣، قال البيضاوي رحمه الله: (وَأَوْحَيْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَعِيسى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهارُونَ وَسُلَيْمانَ) خصهم بالذكر مع اشتمال النبيين عليهم تعظيماً لهم، فإن إبراهيم أول أولي العزم منهم وعيسى آخرهم، والباقين أشرف الأنبياء ومشاهيرهم[٥]

---

(١) تفسير البيضاوي: ٢٨٥/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٢٠٦/١
(٣) تفسير البيضاوي: ٤١٧/١
(٤) تفسير البيضاوي: ٤٢٧/٢
(٥) تفسير البيضاوي: ٤٠٩/١

ثالثاً: ذكر العام بعد الخاص:

يأتي الإطناب على هذه الصورة لإفادة العموم والتنبيه على فضل الخاص(١)

ومن شواهد هذا الضرب من الإطناب قوله جلَّت كلمته: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾ النور: ٣٧، قال البيضاوي رحمه الله: (رِجالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ) لا تشغلهم معاملة رابحة. (وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ) مبالغة بالتعميم بعد التخصيص إن أريد به مطلق المعارضة، أو بإفراد ما هو الأهم من قسمي التجارة فإن الربح يتحقق بالبيع ويتوقع بالشراء(٢).

ومثاله قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ الأعراف: ٣٣، قال البيضاوي رحمه الله: (قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ) ما تزايد قبحه، وقيل ما يتعلق بالفروج. (مَا ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَن) جهرها وسرها. (وَالْإِثْمَ) وما يوجب الإثم تعميم بعد تخصيص(٣)

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ الطلاق: ١، قال البيضاوي رحمه الله: (**يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ**) خص النداء وعم الخطاب بالحكم لأنه أمام أمته فنداؤه كندائهم، أو لأن الكلام معه والحكم يعمهم(٤).

رابعاً: التكرار:

عرَّفه ابن الأثير بأنه: دلالة اللفظ على المعنى مرددا(٥)

أغراض التكرار في تفسير البيضاوي:

١. التعظيم والترغيب:

مثاله قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ

(١) من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان، ص ١٤١
(٢) تفسير البيضاوي: ٢/٥٠٠
(٣) تفسير البيضاوي: ١/٥٤٢
(٤) تفسير البيضاوي: ٣/٤١٤
(٥) المثل السائر: ٣/٣

أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ ﴾ النساء: ٩٥، قال البيضاوي رحمه الله: كرر تفضيل المجاهدين، وبالغ فيه إجمالاً وتفصيلاً تعظيماً للجهاد وترغيباً فيه[١]

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾ البقرة: ٢١٨، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَالَّذِينَ هاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)** كرر الموصول لتعظيم الهجرة والجهاد كأنهما مستقلان في تحقيق الرجاء[٢]

٢. التأكيد:

كما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ ﴾ النساء: ٩٤ قال البيضاوي رحمه الله: وتكريره (أي فتبينوا) تأكيد لتعظيم الأمر وترتيب الحكم على ما ذكر من حالهم [٣]

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ التوبة: ٨٥، قال البيضاوي رحمه الله: (وَلا تُعْجِبْكَ أَموالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ) تكرير للتأكيد والأمر حقيق به فإن الأبصار طامحة إلى الأموال والأولاد والنفوس مغتبطة عليها[٤].

ووجه التكرير الذي أشار إليه البيضاوي أن هذه الآية سُبقت بآية مشابهة لها مع اختلاف دقيق وهي قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ التوبة: ٥٥، فيكون تكرارها تأكيداً لهذه الآية.

٣. مزيد الاعتناء:

مثاله قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ آل عمران: ١٨، قال البيضاوي رحمه الله: **(لا إِلهَ إِلَّا هُوَ)** كرره للتأكيد ومزيد

(١) تفسير البيضاوي: ٣٨٣/١
(٢) تفسير البيضاوي: ١٨٧/١
(٣) تفسير البيضاوي: ٣٨١/١
(٤) تفسير البيضاوي: ٧١/٢

الاعتناء بمعرفة أدلة التوحيد والحكم به بعد إقامة الحجة وليبني عليه قوله: الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فيعلم أنه الموصوف بهما(١).

٤. الدلالة على تكرار الفعل:

وذلك كما في قوله تعالى: (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا) النساء ١٥٥-١٥٦، قال البيضاوي رحمه الله: (بِكُفْرِهِمْ) بعيسى عليه الصلاة والسلام، وهو معطوف على بكفرهم لأنه من أسباب الطبع...ويكون تكرير ذكر الكفر إيذاناً بتكرر كفرهم، فإنهم كفروا بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد عليهم الصلاة والسلام(٢).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ ئو ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ الأعراف: ١٨٧، قال البيضاوي رحمه الله: (قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ) كرره لتكرير يسألونك لما نيط به من هذه الزيادة وللمبالغة(٣).

٥. التفخيم:

كما في قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ ، قال البيضاوي رحمه الله: (**كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ**) كرره ثلاثاً لمزيد التأكيد وتفخيم الأحكام المختتمة به(٤)

والمواضع الثلاثة التي أشار إليها البيضاوي هي ما جاء في سورة النور، وهي على الترتيب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ النور: ٥٨

(١) تفسير البيضاوي: ٢٤٩/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٤٠٧/١
(٣) تفسير البيضاوي: ٥٨٧/١
(٤) تفسير البيضاوي: ٥٠٩/٢

والآية الثانية: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾ النور: ٥٩

أما الآية الثالثة فهي: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ النور: ٦١ وواضح أن كل آية من هذه الآيات اختص ببيان حكم معين، فجيء بهذه الخاتمة مكررة في ختام كل آية للإشارة إلى تفخيم هذا الحكم.

٦. الاختصاص:

كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ هود: ١٩، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ)** والحال أنهم كافرون بالآخرة وتكريرهم لتأكيد كفرهم واختصاصهم به[١].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ غافر: ٦١، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ)** لجهلهم بالمنعم وإغفالهم مواقع النعم، وتكرير الناس لتخصيص الكفران بهم[٢].

٧. التذكير:

كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ

(١) تفسير البيضاوي: ١٢٦/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ٢١٤/٣

﴿٣٧﴾ الحج: ٣٦ – ٣٧، قال البيضاوي رحمه الله: (كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ) كرره تذكيراً للنعمة وتعليلاً له بقوله: (لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ) أي لتعرفوا عظمته باقتداره على ما لا يقدر عليه غيره فتوحدوه بالكبرياء[١].

ووجه التكرار هو أنه قال في الآية الأولى: (كذلك سخرناها لكم)، وفي الآية الثانية: (كذلك سخرها لكم)، فهو تكرار وإن اختلف إسناد (التسخير) تارة لضمير المتكلم وتارة لضمير الغائب، لكنه تدل على المسخر وهو الله عز وجل، وذلك على سبيل تذكيرهم بنِعَمه عليهم حتى يكون ذلك أدعى لشكرهم له.

ومن التكرار لأجل التأكيد قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ آل عمران: ٣٠، قال البيضاوي رحمه الله: (وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ) كرره للتأكيد والتذكير[٢]

ووجه التكرار هو أن الآية سبقت بآية هي قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ آل عمران: ٢٨، فيكون قوله: (ويحذركم الله نفسه) تكراراً لأجل التذكير كما أوضح البيضاوي رحمه الله.

٨. منع الفصل:

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾ المؤمنون: ٣٥، قال البيضاوي رحمه الله: (**أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُراباً وَعِظاماً**) مجردة عن اللحوم والأعصاب. (**أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ**) من الأجداث أو من العدم تارة أخرى إلى الوجود، و(**أَنَّكُمْ**) تكرير للأول أكد به لما طال الفصل بينه وبين خبره[٣]

(١) تفسير البيضاوي: ٤٤٩/٢
(٢) تفسير البيضاوي: ٢٥٥/١
(٣) تفسير البيضاوي: ٤٦٩/٢

٩. منع التوهم:

كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٢ ﴾ الأعراف: ١٢١ – ١٢٢، قال البيضاوي رحمه الله: **(قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ. رَبِّ مُوسى وَهارُونَ)** أبدلوا الثاني من الأول لئلا يتوهم أنهم أرادوا به فرعون[١].

فمعلوم أن فرعون كان يعد نفسه إلهاً فلما قالوا آمنا برب العالمين قد يتوهم أنهم أرادوه بهذا القول فكان تكرارهم للمعنى بلفظ مختلف وهو **(رب موسى وهارون)** مانعاً من هذا التوهم دالاً على أنهم أرادوا إظهار إيمانهم بالله الحق غير خائفين من فرعون وبطشه حتى أنهم أبانوا وجه إيمانهم من دون مداهنة ولا مواربة.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩ ﴾ آل عمران: ٤٩، قال البيضاوي رحمه الله: (وَأُحْيِ الْمَوْتى بِإِذْنِ اللَّهِ) كرر بإذن الله دفعاً لتوهم الألوهية، فإن الإحياء ليس من جنس الأفعال البشرية[٢]

١٠. الدلالة على اختلاف الحال:

كما جاء في قوله تعالى: ﴿ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا ١٠٩ ﴾ الإسراء: ١٠٧ – ١٠٩، قال البيضاوي رحمه الله: (وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ يَبْكُونَ) كرره لاختلاف الحال والسبب فإن الأول للشكر عند إنجاز الوعد والثاني لما أثر فيهم من مواعظ القرآن حال كونهم باكين من خشية الله[٣].

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٣ ﴾ المائدة: ٩٣، قال البيضاوي رحمه الله: ويحتمل أن يكون هذا التكرير باعتبار الأوقات الثلاثة، أو باعتبار الحالات الثلاث استعمال الإنسان التقوى والإيمان بينه وبين نفسه وبينه وبين الناس وبينه وبين الله تعالى، ولذلك

(١) تفسير البيضاوي: ٥٦٤/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٢٦٢/١
(٣) تفسير البيضاوي: ٣٢٤/٢

بدل الإيمان بالإحسان في الكرة الثالثة إشارة إلى ما قاله عليه الصلاة والسلام في تفسيره، أو باعتبار المراتب الثلاث المبدأ والوسط والمنتهى، أو باعتبار ما يتقي فإنه ينبغي أن يترك المحرمات توقياً من العقاب والشبهات تحرزاً عن الوقوع في الحرام، وبعض المباحات تحفظاً للنفس عن الخسة وتهذيباً لها عن دنس الطبيعة(١).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ البقرة: ٢٨٢، قال البيضاوي رحمه الله: كرر لفظه الله في الجمل الثلاث لاستقلالها، فإن الأولى حث على التقوى، والثانية وعد بإنعامه، والثالثة تعظيم لشأنه. ولأنه أدخل في التعظيم من الكناية(٢).

١١. الدلالة على اختلاف الطرق والتنويع:

كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ البقرة: ٤، قال البيضاوي رحمه الله: على معنى أنهم الجامعون بين الإيمان بما يدركه العقل جملة والإتيان بما يصدقه من العبادات البدنية والمالية وبين الإيمان بما لا طريق إليه عبر السمع. وكرر الموصول تنبيهاً على تغاير القبيلين وتباين السبيلين(٣).

ف(ما أنزل إليك) هو القرآن الكريم، و(ما أنزل من قبلك)، هي الشرائع التي نزلت قبل النبي محمد صلى الله عليه وسلم وهي مختلفة عن القرآن، كما قال الله عز وجل: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ المائدة: ٤٨، لذلك كان تكرار الموصول (ما أنزل) إشعاراً باختلاف المنهج والطريق.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ المائدة: ٧٧ ، قال البيضاوي رحمه الله: **قيل الأول (أي ضلوا من قبل)** إشارة إلى ضلالهم عن مقتضى العقل والثاني **(أي ضلوا عن سواء السبيل)** إشارة إلى ضلالهم عما جاء به الشرع(٤).

فيكون تكرار كلمة (ضلوا) جاء لغرض التنويع فإن ضلالهم الأول كان ضلالاً عن ما تشير إليه عقولهم، والثاني ضلال عن الشرع.

---

(١) تفسير البيضاوي: ١/٤٦١-٤٦٢
(٢) تفسير البيضاوي: ١/٢٣٦
(٣) تفسير البيضاوي: ١/٣٧
(٤) تفسير البيضاوي: ١/٤٥٤-٤٥٥

١٢. المبالغة في التحذير:

كما جاء في قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾ البقرة: ١٤١، قال البيضاوي رحمه الله: (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَلا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ) تكرير للمبالغة في التحذير والزجر عما استحكم في الطباع من الافتخار بالآباء والاتكال عليهم[١].

ووجه التكرار أن هذه الآية قد سبقت بمثلها وهي قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ البقرة: ١٣٤.

١٣. المبالغة في التوصية:

كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾ الرحمن: ٨ – ٩، قال البيضاوي رحمه الله: (وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ) ولا تنقصوه فإن من حقه أن يسوى لأنه المقصود من وضعه، وتكريره مبالغة في التوصية به وزيادة حث على استعماله[٢].

١٤. المبالغة في التقريع:

مثاله قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ آل عمران: ٩٨ – ٩٩، قال البيضاوي رحمه الله: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ) كرر الخطاب والاستفهام مبالغة في التقريع ونفي العذر لهم، وإشعاراً بأن كل واحد من الأمرين مستقبح في نفسه مستقل باستجلاب العذاب[٣].

١٥. المبالغة في الابتهال:

مثاله قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ آل عمران: ١٩٢ – ١٩٤

---

(١) تفسير البيضاوي: ١/١٤٤

(٢) تفسير البيضاوي: ٣/٣٥٢

(٣) تفسير البيضاوي: ١/٢٨٢

قال البيضاوي رحمه الله: وتكرير ربنا للمبالغة في الابتهال والدلالة على استقلال المطالب وعلو شأنها[1].

١٦. التعليل:

كما في قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ الشعراء: ١٣١ – ١٣٢، قال البيضاوي رحمه الله: (وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ) كرره مرتباً على إمداد الله تعالى إياهم بما يعرفونه من أنواع النعم تعليلاً وتنبيهاً على الوعد عليه بدوام الإمداد والوعيد على تركه بالانقطاع[2].

والتكرار الذي يشير إليه البيضاوي هو في (فاتقوا الله وأطيعون)، و(واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون٩، فقد جاء هذا التكرار لبيان العلة من التقوى ليحثهم على عبادته وطاعته لأنه هو المنعم عليهم بما أمدهم به.

١٧. التهويل:

كما في قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ﴿٢٠﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ ﴾ القمر: ١٨ – ٢١، قال البيضاوي رحمه الله: (فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ) كرره للتهويل[3].

١٨. الذم:

كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ الأعراف: ١٤٨، قال البيضاوي رحمه الله: (اتَّخَذُوهُ) تكرير للذم أي اتخذوه إلهاً[4]

١٩. المدح:

مثاله قوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ ﴾ آل عمران: ٣ – ٤، قال

(١) تفسير البيضاوي: ٣٢٤/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٥٤٨/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ٣٤٧/٣
(٤) تفسير البيضاوي: ٥٧٢/١

البيضاوي رحمه الله: (وَأَنْزَلَ الْفُرْقانَ) يريد به جنس الكتب الإلهية، فإنّها فارقة بين الحق والباطل. ذكر ذلك بعد ذكر الكتب الثلاثة ليعم ما عداها، كأنه قال: وأنزل سائر ما يفرق به بين الحق والباطل، أو الزبور أو القرآن. وكرر ذكره بما هو نعت له مدحا وتعظيماً، وإظهاراً لفضله من حيث إنه يشاركهما في كونه وحياً منزلاً ويتميز بأنه معجز يفرق بين المحق والمبطل(١).

٢٠. الاستعطاف:

مثاله قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ ﴾ مريم: ٤٢، قال البيضاوي رحمه الله: **(إذ قال لِأَبِيهِ يا أَبَتِ)** التاء معوضة من ياء الإضافة ولذلك لا يقال يا أبتي ويقال يا أبتا، وإنما تذكر للاستعطاف ولذلك كررها(٢).

فقد كرر (يا أبت) في الآيات التي تليها وهي: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾ مريم: ٤٣ – ٤٥.

(١) تفسير البيضاوي: ٢٤٣/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٣٦٨/٢

الفصل الثالث

"مباحث علم البيان في تفسير البيضاوي"

- المبحث الأول: التشبيه
- المبحث الثاني: المجاز.
- المبحث الثالث: الاستعارة.
- المبحث الرابع: الكناية والتعريض.

الفصل الثالث: مباحث علم البيان في تفسير البيضاوي

البيان لغة: مَا بُيِّنَ بِهِ الشيءُ مِنَ الدَّلَالَةِ وغيرِها، وبانَ الشيءُ بَياناً: اتَّضَح، فَهُوَ بَيِّنٌ... وأَبَنْتُه أَنا أَي أَوْضَحْتُه. واستَبانَ الشيءُ: ظهَر. واستَبَنْتُه أَنا: عرَفتُه. وتَبَيَّنَ الشيءُ: ظَهَر... والبَيانُ: الْفَصَاحَةُ واللَّسَن، وكلامٌ بيِّن فَصيح. والبَيان: الإفصاح مَعَ ذَكَاءٍ. والبَيِّن مِنَ الرِّجَالِ: الْفَصِيحُ... رَوَى ابنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنه قَالَ: إِنّ مِنَ الْبَيَانِ لسِحْراً وإِنّ مِنَ الشِّعر لحِكَماً؛ قَالَ: البَيان إِظْهَارُ الْمَقْصُودِ بأَبلغ لفظٍ، وهو من الفَهْم وذكاءِ القَلْب مَعَ اللَّسَن، وأَصلُه الكَشْفُ والظهورُ [١].

وعلم البيان يرد عند علماء البلاغة للدلالة تارة على علم البلاغة بشكل عام ليشمل بهذا علم المعاني والبيان والبديع، وتارة أخرى يرد للدلالة على علم البيان الخاص والذي يهتم بالبحث في التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية والتعريض.

فالمتقدمون من أئمة البلاغة يطلقون على فنون البلاغة الثلاثة البيان من باب تسمية الكل باسم البعض، وخصه المتأخرون بالعلم الباحث عن المجاز والاستعارة والتشبيه والكناية[٢]

والبيان اصطلاحاً: عرَّفه العلوي بأنه: إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه كالاستعارة والكناية والتشبيه وغيرها[٣].

وعرَّفه السكَّاكي بأنه: معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه [٤]

أما شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني فقد تحدث عن البيان، وقسَّم الكلام إلى ضربين: "ضربٌ أنتَ تَصِلُ منه إلى الغَرضِ بدلالةِ اللفظِ وحدَه، وذلك إذا قصَدْتَ أن تُخْبِر عن "زيدٍ" مثلاً بالخروجِ على الحقيقة، فقلتَ: "خرجَ زيدٌ"، وبالانطلاقِ عن "عمرو" فقلتَ: "عمروٌ منطلِقٌ"، وعلى هذا القياسِ. وضربٌ آخرُ أنتَ لا تصِلُ منه إلى الغرضِ بدلالة اللفظِ وحدَه، ولكنْ يدلُّكَ اللفظُ على

(١) لسان العرب (بين): ١٣/٦٧-٦٩
(٢) انظر: جواهر البلاغة ١/١٦
(٣) الطراز: ١/١٠
(٤) مفتاح العلوم: ١٦٢

معناه الذي يَقْتضيه موضوعُهُ في اللغُة، ثُمَّ تَجدُ لذلك المعنى دَلالةً ثانيةً تَصِلُ بها إلى الغَرَض. ومَدارُ هذا الأمر على "الكناية" و"الاستعارة" و"التمثيل"(١).

ويسمي عبد القاهر الجرجاني البيان بمعنى المعنى فيقول: وإذ قد عرفت هذه الجملة، فههنا عبارة مختصرة وهي أن تقول: "المعنى"، و "معنى المعنى"، تعني بالمعنى المفهومَ من ظاهرِ اللفظِ والذي تَصِلُ إليه بغير واسطة و"بمعنى المعنى"، أن تَعْقِل من اللفظِ معنًى، ثم يُفضي بكَ ذلكَ المعنى إلى معنى آخرَ... وإذْ قد عرفتَ ذلك، فإذا رأيتَهم يجعلونَ الألفاظَ زينةً للمعاني وحِلْيةً عليها أو يجعلونَ المعاني كالجواري، والألفاظَ كالمعارضِ لها، وكالوشْيِ المحبَّر واللباس الفاخرِ والكُسْوة الرائقة، إلى أشباهِ ذلك مما يُفخِّمون به أمرَ اللفظِ، ويجعلونَ المعنى يُنبل به ويشرُفُ فاعلمْ أنهم يضعون كلامًا قد أعطاكَ المتكلمُ أغراضَه فيهِ مِنْ طريقِ معنى المعنى، فكنَّى وعرَّضَ، ومثَّل واستعارَ، ثم أحْسَنَ في ذلك كلِّه وأصابَ، ووضعَ كلَّ شيءٍ منه في موضعِهِ، وأصابَ به شاكلتَه، وعمَد فيما كنَّى به وشبَّهَ ومثَّلَ، لما حسُنَ مأخذُه، ودَقَّ مسلَكُه، ولطُفَتْ إشارتُه، وأن المِعْرَضَ وما في معناه، ليس في اللَفْظَ المنطوقَ به، ولكنْ معنى اللفظِ الذي دَلَلْتَ به على المعنى الثاني(٢).

إذاً علم البيان يدرس توظيف المعاني للوصول إلى المعاني سواء كان هذا التوظيف من طريق التشبيه أو الاستعارة أو المجاز أو الكناية أو التعريض، هذا ما يُفهم من كلام شيخ البلاغة.

وواضع علم البيان هو أبو عبيدة، فقد دونَ مسائل هذا العلم في كتابه المُسمَّى «مجاز القرآن» وما زال ينمو شيئاً فشيئاً، حتى وصل إلى الامام «عبد القاهر» فأحكم أساسه، وشيَّدَ بناءه، ورتَّب قواعده(٣)

ويروى عن سبب وضع أبي عبيدة لعلم البيان أنه سئل في مجلس الفضل بن الربيع عن معنى قوله تعالى في شجرة الزقوم: ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾ الصافات: ٦٥، وكيف شبه الطلع برؤوس الشياطين وهي لم تُعرف بعد؟ وينبغي التشبيه بشيء معروف حتى يتبين المشبه ويتضح، فأجاب أبو عبيدة بأنه على حد قول الشاعر:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

(١) دلائل الإعجاز: ٢٦٢
(٢) دلائل الإعجاز: ٢٦٣
(٣) جواهر البلاغة: ٢١٧

يريد: أن المشبه به هنا غير معروف كذلك، وأن الغرض من التشبيه عرض المشبه في صورة مستفظعة مَخوفة، والعرب تشبه قبيح الصورة بالشيطان أو الغول، فيقولون: كأنه وجه الشيطان، أو كأنه رأس الغول، وإن لم يروهما لاعتقادهم أنهما شر محض، لا يخالطهما خير، فيرتسم في خيالهم بأقبح صورة.

ثم قام أبو عبيدة من فوره، وتقصَّى ما ورد في القرآن من الألفاظ التي أُريد بها غير معناها الأول في اللغة، وجمعها في هذا الكتاب، وسماه "مجاز القرآن". وأبو عبيدة هذا هو معمر بن المثنى اللغوي البصري، تلميذ يونس بن حبيب(١)

وموضوع علم البيان ذلك التصوير، الذى يهب الفكرة وضوحا وقوة فيزيد تأثيرها في نفس المخاطب، أو القارئ، بالالتجاء إلى الخيال المصور، ومن أجل هذا كان موضوع درسه التشبيه، والاستعارة، والكناية، والمجاز، وهى صور توحى بالتجربة الشعورية أتم إيحاء(٢).

هذا وقد جاء الإمام البيضاوي في تفسيره على ذكر أبواب من علم البيان سنذكرها ونبوبها على ما استقر عند البلاغيين من مسائل هذا العلم.

(١) المنهاج الواضح للبلاغة: حامد عوني،١/ص٥، المكتبة الأزهرية للتراث. انظر لترجمة أبو عبيدة في: الأعلام للزركلي: ٢٧٢/٧

(٢) من بلاغة القرآن لأحمد البدوي: ٢١

المبحث الأول: التشبيه

التشبيه لغة كما جاء في لسان العرب: الشِّبْهُ والشَّبَهُ والشَّبِيهُ: المِثْلُ، وَالْجَمْعُ أَشْباهٌ. وأَشْبَه الشيءُ الشيءَ: مَاثَلَهُ... والتَّشْبِيهُ: التَّمْثِيلُ(١).

أما **التشبيه اصطلاحاً** فقد عرفه كثيرٌ من العلماء، ونجد تعريفاً ووصفاً له عند قدامة بن جعفر في نقد الشعر إذ يقول: التشبيه إنما يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان تعمهما ويوصفان بها، وافتراق في أشياء ينفرد كل واحد منهما عن صاحبه بصفتها، وإذا كان الأمر كذلك، فأحسن التشبيه هو ما وقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها، حتى يدنى بهما إلى حال الاتحاد(٢).

أمَّا ابن رشيق القيرواني فقال: التشبيه: صفة الشيء بما قاربه وشاكله، من جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته؛ لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه(٣)

وعرَّفه صاحب نهاية الأرب بأنه: الدّلالة على اشتراك شيئين في وصف هو من أوصاف الشيء في نفسه، كالشجاعة في الأسد، والنّور في الشمس(٤).

وقد قال السكَّاكي في التشبيه: لا يخفى عليك أن التشبيه مستدعٍ طرفين مشبهاً ومشبهاً به واشتراكاً بينهما من وجه وافتراقا من آخر مثل أن يشتركا في الحقيقة ويختلفا في الصفة أو بالعكس(٥).

وعرَّفه العلوي في الطراز بقوله: هو الجمع بين الشيئين، أو الأشياء بمعنى ما بواسطة الكاف ونحوها(٦)

---

(١) لسان العرب (شبه): ١٣/٥٠٣-٥٠٤

(٢) نقد الشعر: قدامة بن جعفر، ص٣٧، مطبعة الجوائب، قسطنطينة، الطبعة الأولى، ١٣٠٢هـ.

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه: ابن رشيق القيرواني، ١/ص٢٨٦، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، الطبعة الخامسة، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م

(٤) نهاية الأرب في فنون الأدب: شهاب الدين النويري، ج٧/ص٣٨، دار الكتاب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

(٥) مفتاح العلوم: ٣٣٢

(٦) الطراز: ١/١٣٦

وأشهر تعريف للتشبيه تعريف الخطيب القزويني إذ يقول فيه: التشبيه الدلالة على مشاركة أمرٍ لآخر في معنى(١)

فائدة التشبيه وأهميته:

وقد كان مبحث التشبيه من المباحث المهمة في بلاغتنا العربية لذلك نرى القرآن الكريم قد حفل بكثير من التشبيهات ليوضح الصورة ويزيدها بهاء أو يزيدها وضوحاً، وكذلك نرى فن التشبيه من الفنون التي أولاها الشعراء أهمية بالغة.

ففن التشبيه بين الأشعار عالي القدر، نابه الذكر، لا يمكن كل الناس سلوك جادته، ولا يقدر إلا اليسير منهم على إجادته، حتى استهوله أكثر الشعراء واستصعبه، وأبى بعضهم أن يجهد بأن يروض مصعبه، وقالوا إذا قال الشاعر "كأن" فقد ظهر فضله أو جهله(٢)

ففن التشبيه فن مهم يدور عليه علم البيان وهو من أهم وجوه تحسين الكلام كما يقول شيخ البلاغة الإمام عبد القاهر الجرجاني إذ تكلم عن أهمية التشبيه في أسرار البلاغة فقال: **التشبيه والتمثيل والاستعارة، فإن هذه أصولٌ كبيرة، كأنَّ جُلَّ محاسن الكلام إن لم نقل: كُلَّها متفرّعة عنها، وراجعة إليها، وكأنها أقطابٌ تدور عليها المعاني في مُتصرَّفَاتها، وأقطارٌ تُحيط بها من جهاتها، ولا يَقْنع طالب التحقيق أن يقتصر فيها على أمثلة تُذكر، ونظائرَ تُعدُّ**(٣)

وللتشبيه فوائد عديدة منها أنه يجمع صفات ثلاثة، هي: المبالغة والبيان والإيجاز، ومن فوائده أيضاً أنك إذا مثلت الشيء بالشيء، فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به أو معناه، وذلك أوكد في طرفي الترغيب فيه، أو التنفير عنه(٤).

فائدة التشبيه عند البيضاوي:

ونجد البيضاوي رحمه الله في تفسيره يأتي على ذكر فائدة التشبيه إذ يقول مُعقِّباً على قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ البقرة: ١٧، قال البيضاوي: لما جاء بحقيقة حالهم عقبها بضرب المثل زيادة في التوضيح

(١) الإيضاح: ١٦٤

(٢) غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات: علي بن ظافر الأزدي المصري، ص٧، تحقيق: دكتور محمد زغلول سلام، دكتور مصطفى الصاوي الجويني، دار المعارف القاهرة.

(٣) أسرار البلاغة: ٢٧

(٤) انظر: المثل السائر: ٢/٩٨-٩٩

والتقرير، فإنه أوقع في القلب وأقمع للخصم الألد، لأنه يريك المتخيل محققاً والمعقول محسوساً، ولأمر ما أكثر الله في كتبه الأمثال، وفشت في كلام الأنبياء والحكماء[١].

وقال البيضاوي رحمه الله أيضاً في أهمية التشبيه عندما تعرض لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ البقرة: ٢٦، قال: لما كانت الآيات السابقة متضمنة لأنواع من التمثيل، عقب ذلك ببيان حسنه، وما هو الحق له والشرط فيه، وهو أن يكون على وفق الممثل له من الجهة التي تعلق بها التمثيل في العظم والصغر والخسة والشرف دون الممثل، فإن التمثيل إنما يصار إليه لكشف المعنى الممثل له ورفع الحجاب عنه وإبرازه في صورة المشاهد المحسوس، ليساعد فيه الوهم العقل ويصالحه عليه فإن المعنى الصرف إنما يدركه العقل مع منازعة من الوهم، لأن من طبعه الميل إلى الحس وحب المحاكاة، ولذلك شاعت الأمثال في الكتب الإلهية وفشت في عبارات البلغاء، وإشارات الحكماء، فيمثل الحقير بالحقير كما يمثل العظيم بالعظيم، وإن كان المثل أعظم من كل عظيم[٢]

وأركان التشبيه أربعة هي: المشبه، والمشبه به، والأداة، ووجه الشبه[٣]

وقد كثرت التشبيهات في القرآن الكريم لذلك نرى البيضاوي رحمه الله يأتي في تفسيره على أنواع كثيرة من هذه التشبيهات ويوضح جمالها ويأتي على أسرار كثير منها، فمن أنواع التشبيه التي أتى على ذكرها البيضاوي في تفسيره ما يلي:

أنواع التشبيه باعتبار طرفيه في تفسير البيضاوي:

١. تشبيه المحسوس بالمحسوس:

وهذا النوع من التشبيه يكون باعتبار الطرفين إذ يكون المشبه والمشبه به أمرين مُدركيْن بأحد الحواس الخمسة.

(١) تفسير البيضاوي: ٥٢/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٧٢/١

(٣) من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان ، ص١٤٩

من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ الصافات: ٤٨ – ٤٩، قال البيضاوي رحمه الله: (كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ) شبههن ببيض النعام المصون عن الغبار ونحوه في الصفاء والبياض المخلوط بأدنى صفرة فإنه أحسن ألوان الأبدان(١).

فالحور العين مخلوقات محسوسة تُرى بالعين المجردة، والبيض المكنون الذي هو بيض النعام أيضاً يُدرك بالحس، لذلك يكون هذا التشبيه من نوع المحسوس بالمحسوس.

ولم يأتِ تشبيه الحور ببيض النعام هنا لمجرد اشتراكهما في بياض اللون بل لأنه مصون أيضاً عن المساس والغبار، "فالصلة التي تربطهن بالبيض المكنون، فضلا عن نقاء اللون، فهي هذا الرفق والحذر الذى يجب أن يعامل به كلاهما"(٢).

٢. **تشبيه المعقول بالمعقول**:

وهو ما يكون طرفي التشبيه فيه لا يُدركان بالحس وإنما يُعرفان بالعقل، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ الأنعام: ١٢٢، قال البيضاوي رحمه الله: مثل به من هداه الله سبحانه وتعالى وأنقذه من الضلال وجعل له نور الحجج والآيات يتأمل بها في الأشياء، فيميز بين الحق والباطل والمحق والمبطل... (كَمَنْ مَثَلُهُ) صفته...(فِي الظُّلُماتِ)...وهو مثل لمن بقي على الضلالة(٣).

إذن فقد شبه الله الهداية وهي ليست حسية بل معقولة بالحياة للإنسان وهي أيضاً معقولة، وكذلك شبه الضلال بالموت، وهما عقليان.

ويقول العلوي في هذه الآية: فالإحياء، والإماتة، هنا مجاز في العلم والجهل، وأن المقصود من الآية، تفاوت ما بين الحالتين، بين من أحياه الله تعالى بالعلم، وبين من أماته الله تعالى بالجهل، كما أن من كان في الظلمة ليس حاله كحال من هو في النور، يتصرف ويتقلب(٤)

(١) تفسير البيضاوي: ١٤٨/٣
(٢) من بلاغة القرآن للبدوي: ١٤٩.
(٣) تفسير البيضاوي: ٥١٥/١
(٤) الطراز: ١٨٤/٣

٣. تشبيه المحسوس بالمعقول:

من ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾ الصافات: ٦٤ – ٦٥، قال البيضاوي رحمه الله: (كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ) في تناهي القبح والهول، وهو تشبيه بالمتخيل كتشبيه الفائق الحسن بالملك(١).

فقول البيضاوي: (تشبيه بالمتخيل) إشارة إلى أن هذا التشبيه من تشبيه المحسوس بالمعقول، إذ إن الشجرة وهي من الأشياء التي تُدرك بالحس شُبهت برؤوس الشياطين وهي غير محسوسة بل معقولة، وهنا نذكر أن معمر بن المثنى قد سئل في مجلس الفضل بن الربيع عن معنى هذه الآية وكيف شبه الطلع برؤوس الشياطين وهي لم تُعرف بعد؟ وينبغي التشبيه بشيء معروف حتى يتبين المشبه ويتضح، فأجاب أبو عبيدة بأنه على حد قول الشاعر:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

يريد: أن المشبه به هنا غير معروف كذلك، وأن الغرض من التشبيه عرض المشبه في صورة مستفظعة مَخوفة، والعرب تشبه قبيح الصورة بالشيطان أو الغول، فيقولون: كأنه وجه الشيطان، أو كأنه رأس الغول، وإن لم يروهما لاعتقادهم أنهما شر محض، لا يخالطهما خير، فيرتسم في خيالهم بأقبح صورة(٢).

ونعود لكلام البيضاوي السابق إذ يقول: (وهو تشبيه بالمتخيل كتشبيه الفائق الحسن بالمَلَك)، فقول البيضاوي: كتشبيه الفائق الحُسن بالمَلَك، هو من تشبيه المحسوس بالمعقول لأن الملك غير محسوس، وذلك على نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ يوسف: ٣١.

قال البيضاوي رحمه الله في الآية السابقة: (إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) فإن الجمع بين الجمال الرائق والكمال الفائق والعصمة البالغة من خواص الملائكة، أو لأن جماله فوق جمال البشر ولا يفوقه فيه إلا المَلَك(٣).

---

(١) تفسير البيضاوي: ٣/١٥٠

(٢) المنهاج الواضح للبلاغة: ١/٥

(٣) تفسير البيضاوي: ٢/١٧١

فقد حسن التشبيه بالمَلَك عند إرادة تقرير الكمال والفضيلة والحاصل أن هذا من باب التشبيه لا بالمحسوس بل بالمتخيل(١)

٤. **تشبيه المعقول بالمحسوس**:

ومثال هذا النوع من التشبيه قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾النور: ٣٥ ، قال البيضاوي رحمه الله: قد ذُكر في معنى التمثيل وجوه:

الأول: أنه تمثيل للهدى الذي دلت عليه الآيات المبينات في جلاء مدلولها وظهور ما تضمنته من الهدى بالمشكاة المنعوتة.

أو تشبيه للهدى من حيث إنه محفوف بظلمات أوهام الناس وخيالاتهم بالمصباح، وإنما ولي الكاف المشكاة لاشتمالها عليه، وتشبيهه به أوفق من تشبيهه بالشمس.

أو تمثيل لما نور الله به قلب المؤمن من المعارف والعلوم بنور المشكاة المنبث فيها من مصباحها(٢).

فالهدى أو نور الله الذي يقذفه في قلب المؤمن هي أمور عقلية شبهها الله في هذه الآية بالمصباح، وهو محسوس، لتكون هذه الآية مثال على تشبيه المعقول بالمحسوس.

ويقول أبو السعود عن قوله تعالى: (وَيَضْرِبُ الله الأمثال لِلنَّاسِ) التي ختم الله بها الآية السابقة: وَيَضْرِبُ الله الأمثال لِلنَّاسِ في تضاعيف الهداية حسبَما يقتضِي حالُهم فإنَّ له دخلاً عظيماً في باب الإرشاد لأنه إبراز **للمعقول** في هيئة **المحسوس** وتصويرٌ لأوابدِ المعاني بصورة المأنُوسِ ولذلك مُثّل نورُه المعبر به عن القُرآن المُبين بنور المشكاة(٣).

(١) انظر: مفاتيح الغيب: ٣٣٧/٢٦
(٢) تفسير البيضاوي: ٤٩٨/٢
(٣) تفسير أبي السعود: ١٧٧/٦

٥. تشبيه المفرد بالمفرد:

والمراد بقولنا مفرد ومركب: أن المفرد يكون تشبيه شيء واحد بشيء واحد، وهو من التشبيه الذي يأتي باعتبار طرفي التشبيه إذ ينقسم إلى: (تشبيه مفرد بمفرد، ومفرد بمركب، ومركب بمركب، ومركب بمفرد).

فمن تشبيه المفرد بالمفرد قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ البقرة: ١٧ قال البيضاوي رحمه الله: والظاهر أن التمثيلين من جملة التمثيلات المؤلفة، وهو أن يشبه كيفية منتزعة من مجموع تضامت أجزاؤه وتلاصقت حتى صارت شيئاً واحداً بأخرى مثلها... والغرض منهما تمثيل حال المنافقين من الحيرة والشدة، بما يكابد من انطفأت ناره بعد إيقادها في ظلمة...ويمكن جعلهما من قبيل التمثيل المفرد، وهو أن تأخذ أشياء فرادى فتشبهها بأمثالها كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾ فاطر: ١٩ – ٢١ ، وقول امرئ القيس:

كأنَّ قلوبَ الطير رَطْباً ويابِسا لَدَى وكرِها العنَّابُ والحشفُ البالي

بأن يشبه في الأول: ذوات المنافقين بالمستوقدين، وإظهارهم الإيمان باستيقاد النار وما انتفعوا به من حقن الدماء وسلامة الأموال والأولاد وغير ذلك بإضاءة النار ما حول المستوقدين، وزوال ذلك عنهم على القرب بإهلاكهم وبإفشاء حالهم وإبقائهم في الخسار الدائم، والعذاب السرمد بإطفاء نارهم والذهاب بنورهم(١).

فالبيضاوي رحمه الله يرى أن هذه الآية هي من التشبيه المركب الذي سماه (بالتشبيهات المؤلفة) فالله عز وجل شبه المنافقين بحال الذين استوقدوا ناراً، وكان من صفتهم أنهم في النهاية ذهب الله بنورهم، والمشبه به هنا مركب.

ويرى كذلك أن الآية تحتمل أن تكون من تشبيه المفرد بالمفرد إذ يقول: أنه شبه (ذوات المنافقين بالمستوقدين)، دون النظر إلى صورة وحالة هؤلاء المستوقدين، وهنا يصح أن يكون من تشبيه المفرد بالمفرد على هذا التأويل.

ويعتبر البيضاوي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾ فاطر: ١٩ – ٢١، من التشبيه المفرد، ويقول في تعليقه على هذه الآية: (وَما

(١) تفسير البيضاوي: ٥٨/١

يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ) الكافر والمؤمن... (وَلَا الظُّلُماتُ وَلَا النُّورُ) ولا الباطل ولا الحق. (وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ) ولا الثواب ولا العقاب (وَما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلَا الْأَمْواتُ) تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين أبلغ من الأول ولذلك كرر الفعل(١).

قد يسأل سائل كيف يعتبر البيضاوي هذه التشبيهات كلها من تشبيه المفرد بالمفرد، وقد طُوي ذكر المُشَبَّهات، وصُرِّح بالمشبهات بها، فوجب لذلك أن نعتبرها استعاراتٍ تصريحية لا تشبيهاتٍ مفردة.

والصحيح أن التشبيه الذي يُحذف منه المشبه يشتبه بالاستعارة التصريحية حقيقة، لكن شيخ البلاغة الإمام عبد القاهر الجرجاني وضح لنا الفرق بينهما ومتى نعتبر التشبيه المحذوف منه المشبه تشبيهاً بليغاً ومتى نعتبره استعارة تصريحية، ووضع لذلك أسساً للتفريق بينهما وهي(٢):

أولاً: إن حسن دخول أدوات التشبيه على المشبه به، بأن يكون معرفة، فإنه يكون تشبيهاً بليغاً ولا يكون استعارة البتة، مثل: زيد الأسد، وهي شمس النهار.

ثانياً: إن حسن دخول بعض أدوات التشبيه على المشبه به، وتعذر دخول البعض الآخر، وكان المشبه به نكرة، فإنه جاز عده من الاستعارة، نحو: زيد أسد، وهي شمس، فإنه لا يحسن أن يقال: زيد كأسد، وحسن أن نقول: كأن زيداً أسد.

ثالثاً: وإذا لم يحسن دخول شيء منها على المشبه به بأن يكون نكرة موصوفة بما لا يلائم المشبه به كان عده من الاستعارة أحسن كقولك: فلان بدر يسكن الأرض، وشمس لا تغيب، فإنه لا يحسن دخول شيء من الأدوات فيها إلا بتغيير صورته كقولك: فلان كالبدر إلا أن يسكن الأرض، وهي كالشمس إلا أنها لا تغيب.

وواضح أن المشبهات بها في آية: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾ فاطر: ١٩ – ٢١، كلها معارف يحسن دخول أدوات التشبيه عليها فيجب عدها حينها من التشبيهات المفردة كما أوضح البيضاوي وليس من الاستعارة، وبهذا يكون قد زال الاشتباه ورُفع الالتباس.

(١) تفسير البيضاوي: ١١٩/٣

(٢) من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان ، ص٢٢٨–٢٢٩. راجع أسرار البلاغة: ٣٢٠ وما بعدها.

والبيضاوي نفسُه يتطرق إلى قضية التشبيه والاستعارة وأنهما وإن اشتبها عند حذف المشبه إلا أنه يمكن فض الاشتباه وذلك إذا أمكن تقدير المشبه وكان في حكم المنطوق كما أشار عبد القاهر الجرجاني فيما تقدم، ونرى ذلك عند البيضاوي في قوله تعالى: ﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨ ﴾ البقرة: ١٨.

قال البيضاوي رحمه الله: **(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ)** لما سدوا مسامعهم عن الإصاخة إلى الحق وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم ويتبصروا الآيات بأبصارهم، جُعِلُوا كأنما أيفت مشاعرهم وانتفت قواهم... وإطلاقها عليهم على طريقة التمثيل، لا الاستعارة إذ من شرطها أن يطوي ذكر المستعار له، بحيث يمكن حمل الكلام على المستعار منه لولا القرينة كقول زهير:

لَدَى أسدٍ شاكي السِّلاحِ مُقَذَّفٍ لَــهُ لِـبَدٌ أَظفَـارُه لم تُقَــلَّمِ

وهاهنا وإن طوى ذكره بحذف المبتدأ لكنه في حكم المنطوق به، ونظيره:

أَسَدٌ عليَّ وفي الحُرُوبِ نَعَامة فَتْخاءُ تنفر منْ صَفِير الصَّافرِ[1].

٦. تشبيه المُركَّب بالمُركَّب:

وهو من التشبيه الذي يُقسم باعتبار الإفراد والتركيب والتعدد، ويُسميه البيضاوي بـ (التشبيه المؤلف)، حيث يقول عند تعرضه لقوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧ ﴾ البقرة: ١٧، ولقوله تعالى: ﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ ﴾ البقرة: ١٩.

يقول البيضاوي رحمه الله: الظاهر أن التمثيلين من جملة التمثيلات المؤلفة، وهو أن يشبه كيفية منتزعة من مجموع تضامت أجزاؤه وتلاصقت حتى صارت شيئاً واحداً بأخرى مثلها، كقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا ﴾ الآية. الجمعة: ٥[2].

ونأخذ من كلام القاضي البيضاوي رحمه الله تعريفاً لتشبيه المركب بالمركب إذ يعرفه بأنه: (أن يشبه كيفية منتزعة من مجموع تضامت أجزاؤه وتلاصقت حتى صارت شيئاً واحداً بأخرى مثلها).

(١) تفسير البيضاوي: ٥٤/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٥٨/١

أما فيما يخص الآية التي مثل بها البيضاوي لتشبيه المركب بالمركب وهي قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥ ﴾ الجمعة: ٥، قال البيضاوي عنها: فإنه تشبيه حال اليهود في جهلهم بما معهم من التوراة، بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة. والغرض منهما تمثيل حال المنافقين من الحيرة والشدة، بما يكابد من انطفأت ناره بعد إيقادها في ظلمة، أو بحال من أخذته السماء في ليلة مظلمة مع رعد قاصف وبرق خاطف وخوف من الصواعق(١).

ومن تشبيه المركب بالمركب قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢٤ ﴾ يونس: ٢٤.

قال البيضاوي رحمه الله: هو مَثَلٌ في الوقت القريب والمُمَثل به مضمون الحكاية وهو زوال خضرة النبات فجأة وذهابه حطاما بعد ما كان غضاً والتف، وزين الأرض حتى طمع فيه أهله وظنوا أنه قد سلم من الجوائح لا الماء وإن وليه حرف التشبيه لأنه من **التشبيه المركب**(٢).

وقد علَّق ابن الأثير على التشبيه في هذه الآية فقال: فشُبِّهَت حال الدنيا في سرعة زوالها، وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض في جفافه، وذهابه حطامًا بعدما التف وتكاثف، وزين الأرض. وذاك تشبيه صورة بصورة، وهو من أبدع ما يجيء في بابه(٣).

من أنواع التشبيه في تفسير البيضاوي:

١. التشبيه البليغ:

وهو تشبيه حُذِف منه الأداة ووجه الشبه، ويُعتبر من أكثر الأنواع بلاغة(٤)

مثاله قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗاۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ

(١) تفسير البيضاوي: ٣/٤٠٥
(٢) تفسير البيضاوي: ٢/٩٧
(٣) المثل السائر: ٢/١١٠
(٤) من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان ، ص١٧٦ بتصرف

﴿فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٥﴾ البقرة: ٢٥، قال البيضاوي رحمه الله: فالمعنى هذا مثل رزقنا ولكن لما استحكم الشبه بينهما جعل ذاته ذاته كقولك: أبو يوسف أبو حنيفة[١].

فالبيضاوي رحمه الله بقوله: **(ولكن لما استحكم الشبه بينهما جعل ذاتَه ذاتَه كقولك: أبو يوسف أبو حنيفة)**، يشير إلى التشبيه البليغ، وهو لاستحكام الشبه بين المشبه والمشبه به تحذف أداة التشبيه حتى يصيران كأنهما شيئاً واحداً، لذلك يُعدُّ هذا النوع أبلغ أنواع التشبيه.

ونرى السيوطي في حاشيته على تفسير البيضاوي يُعلق على كلام البيضاوي السابق بقوله: والذي ذهب إليه المصنف تشبيه بليغ بحذف الأداة ووجه الشبه[٢].

والسبب في كون التشبيه البليغ أبلغ أنواع التشبيه لأنه يشير إلى اتفاق كامل بين المشبه والمشبه به كأنهما شيء واحدٌ كما عبر عنه البيضاوي بقوله: (جعل ذاته كذاته)، ولهذا يقول العلوي في الطراز: "اعلم أن التشبيه المضمر الأداة أبلغ وأوجز من التشبيه الذي ظهرت أداته، أما كونه أبلغ فلأنك إذا قلت: زيد الأسد، فقد جعلته نفس هذه الحقيقة، من غير واسطة، بخلاف قولك زيد كالأسد، فليس يفيد إلا مطلق المشابهة لا غير، وأما كونه أوجز، فلأن أداة التشبيه محذوفة منه، فلهذا كان أخصر من جهة لفظه"[٣].

ومن التشبيه البليغ قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٣﴾ آل عمران: ١٣٣، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ)** أي عرضها كعرضهما، وذكر العرض للمبالغة في وصفها بالسعة على طريقة التمثيل، لأنه دون الطول[٤].

فهذا تشبيه بليغ أشار إليه البيضاوي بقوله: (عرضها كعرضهما)، "فلما كان العرض عادة أضيق من الطول ترك للخيال أمر تصور طول يكون عرضه السماوات والأرض"[٥].

---

(١) تفسير البيضاوي: ٧٠/١
(٢) نواهد الأبكار: ١٣٢/٢
(٣) الطراز: ١٦١/١
(٤) تفسير البيضاوي: ٢٩٦/١
(٥) من بلاغة القرآن لأحمد البدوي: ٢٢٧

٢. التشبيه الضمني:

هو ما لم يُصرَّح فيه بأركان التشبيه على الطريقة المعلومة، بل يفهم من معنى الكلام وسياق الحديث(١).

ومما جاء في القرآن على هذا النوع من التشبيهات قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ هود: ١٠٦ – ١٠٧، قال البيضاوي رحمه الله: (خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ) ليس لارتباط دوامهم في النار بدوامهما فإن النصوص دالة على تأبيد دوامهم وانقطاع دوامهما. بل التعبير عن التأبيد والمبالغة بما كانت العرب يعبرون به عنه على سبيل التمثيل... لأنه تشبيه بما لا يعرف أكثر الخلق وجوده ودوامه، ومن عرفه فإنما يعرفه بما يدل على دوام الثواب والعقاب(٢).

وقد علق الشهاب الخفاجي في حاشيته على قول البيضاوي: (لأنه تشبيه بما لا يعرف أكثر الخلق وجوده ودوامه)، قال الشهاب: **قيل إنه يعني أنّ في الكلام تشبيهاً ضمنياً** لدوامهم بدوامهما، وإن كان بحسب الإعراب ظرفا لخالدين، ولا بد أن يكون المشبه به أعرف ليفيد التشبيه، ويحصل الغرض منه (٣)

أما ابن عاشور فقد قال في هذه الآية: ومعنى (ما دامت السماوات والأرض) التأبيد لأنه جرى مجرى المثل، وإلا فإن السماوات والأرض المعروفة تضمحل يومئذ، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ﴾ إبراهيم: ٤٨(٤).

ومن التشبيه الضمني قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ الحجرات: ١٢ ، قال البيضاوي رحمه الله: (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً) تمثيل لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفحش وجه مع مبالغات الاستفهام المقرر، وإسناد الفعل

(١) علوم البلاغة للمراغي: ٢٣٤
(٢) تفسير البيضاوي: ١٥٠/٢
(٣) حاشية الشهاب: ١٣٧/٥
(٤) التحرير والتنوير: ١٦٥/١٢

إلى أحد للتعميم وتعليق المحبة بما هو في غاية الكراهة، وتمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان وجعل المأكول أخاً وميتاً وتعقيب ذلك بقوله: (فَكَرِهْتُمُوهُ) تقريراً وتحقيقاً لذلك[١].

فالبيضاوي رحمه الله يشير إلى أن في الآية تشبيهاً وإن لم يصرح بكون ضمنياً لكنه لما كان التشبيه من التشبيهات التي تفهم بالتلميح دون وجود الأداة كان من التشبيه الضمني.

٣. **التشبيه المقلوب**:

التشبيه المقلوب: ويسمى المنعكس، هو ما رجع فيه وجه الشبه إلى المشبه به وذلك حين يراد تشبيه الزائد بالناقص ويلحق الأصل بالفرع للمبالغة، وهذا النوع جار على خلاف العادة في التشبيه، ووارد على سبل الندور وانما يحسن في عكس المعنى المتعارف كقول البحتري:

في طلعة البدر شيء من محاسنها وللقضيب نصيب من تثنيها

والمتعارف تشبيه الوجوه الحسنة بالبدور، والقامات بالقضيب في الاستقامة، والتَّثَنِّي لكنه عكس ذلك مبالغة[٢]

فعاقِدُ التشبيه قد يحلو له أحياناً أن يجعل المشبَّهَ في كلامه مشبّهاً به، ويجعل المشبّه به مُشَبَّهاً، ليَدُلَّ بصنيعه هذا على أنّ وجود وجْهِ الشّبَه في المشبَّه أقوى وأظهر من وجوده في المشبَّهِ به[٣].

ومن التشبيه المقلوب قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥﴾ البقرة: ٢٧٥.

قال القاضي البيضاوي رحمه الله: **(ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا)** أي ذلك العقاب بسبب أنهم نظموا الربا والبيع في سلك واحد لإفضائهما إلى الربح فاستحلوه استحلاله. **وكان الأصل إنما الربا مثل البيع ولكن عكس للمبالغة**، كأنهم جعلوا الربا أصلاً وقاسوا به البيع[٤].

---

(١) تفسير البيضاوي: ٣/٣٠٨-٣٠٩

(٢) جواهر البلاغة: ٢٣٩

(٣) البلاغة العربية لعبد الرحمن الدمشقي: ٢/٢٠١

(٤) تفسير البيضاوي: ١/٢٣٠

فالبيضاوي رحمه الله بقوله: (وكان الأصل إنما الربا مثل البيع ولكن عكس للمبالغة)، يشير إلى التشبيه الذي عُرف بالتشبيه المقلوب، فمن المعلوم أن المشبه به يكون هو الأصل وهو الأتم والأكمل صفة لذلك يُعمد إلى التشبيه به، فهم لاعتقادهم أن الربا أتم وأكمل من البيع وأنه هو الأصل عكسوا فقاسوا البيع به ولم يقيسوه بالبيع، وكأنه هو الأصل والبيع هو الفرع، تعالى الله عما يقولون علواً كبيرا.

وقال العلوي في الطراز في هذه الآية: وكان القياس في قولهم: إنما الربا مثل البيع، في تحليله إغراقا منهم في المبالغة، وذهابا إلى أن الربا في باب الحل أدخل من البيع وأقوى حالا، وهذا من أنواع التشبيه يلقب بالمعكوس، ولهذا يقال: صبح كغرة الفرس، ويقال في عكسه أيضا: غرة كالصبح[1]

ومن التشبيه المقلوب في كتاب الله عز وجل قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ النحل: ١٧ ، قال البيضاوي رحمه الله: وكان حق الكلام (أفمن لا يخلق كمن يخلق)، لكنه عكس تنبيهاً على أنهم بالإشراك بالله سبحانه وتعالى جعلوه من جنس المخلوقات العجزة شبيهاً بها[2].

فإن مقتضى الظاهر العكس؛ لأن الخطاب للذين عبدوا الأوثان وسمَّوها آلهة تشبيها بالله سبحانه وتعالى؛ فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق، فخولف في خطابهم؛ لأنهم بالغوا في عبادتها؛ وغلوا حتى صارت عندهم أصلا في العبادة والخالق سبحانه وتعالى فرعا، فجاء الإنكار على وفق ذلك[3].

(١) الطراز: ١٤٦/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٢٥٦/٢
(٣) بغية الإيضاح: ٤١٩/٣-٤٢٠

المبحث الثاني: المجـــاز

المجاز لغة:

المجاز لغة: جُزْتُ الطريقَ وجازَ الموضعَ جَوْزاً وجُؤُوزاً وجَوازاً ومَجازاً وجازَ بِهِ وجاوَزه جِوازاً وأَجازه وأَجاز غيرَه وجازَه: سَارَ فِيهِ وَسَلَكَهُ(١)

والمجاز اسم للمكان الذي يجاز فيه كالمعاج والمزار وأشباههما، وحقيقته هي الانتقال من مكان إلى آخر. وقد تحدث البلاغيون والنقاد عن هذا الفن في كتبهم وسمى أبو عبيدة أحد كتبه "مجاز القرآن" وعالج فيه كيفية التوصل إلى فهم المعاني القرآنية باحتذاء أساليب العرب في كلامهم وسننهم في وسائل الإبانة عن المعاني، ولم يعنِ بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة وإنما عنى بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية(٢).

وقد تكلم عبد القاهر الجرجاني عن المجاز فقال: المجاز مَفْعَلٌ من جازَ الشيءَ يَجُوزه، إذا تعدَّاه، وإذا عُدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة، وُصف بأنه مجاز، على معنى أنهم جازوا به موضعَه الأصليَّ، أو جاز هو مكانه الذي وُضع فيه أوَّلاً(٣).

المجاز اصطلاحاً:

والتعريفات السابقة للمجاز هي تعريفات يُقصد بها المجاز بمعناه اللغوي لا الاصطلاحي، فالمجاز الاصطلاحي نرى الشيخ عبد القاهر الجرجاني يعرفه بأنه: فكلُّ كلمة أريد بها غيرُ ما وقعت له في وَضْع واضعها، لملاحظةٍ بين الثاني والأوّل، فهي مجاز وإن شئت قلت: كلُّ كلمة جُزْتَ بها ما وقعتْ به في وَضْع الواضع إلى ما لم توضع له، من غير أن تستأنف فيها وضعاً، لملاحظةٍ بين ما تُجُوّز بها إليه، وبين أصلها الذي وُضعتْ له فيوضع واضعها، فهي مجاز(٤).

أمَّا السكاكي فقد عرفه بأنه: الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة له بالتحقيق استعمالا في الغير بالنسبة على نوع حقيقتها مع قرينة مانعة عن إرادة معناها في ذلك النوع...

---

(١) لسان العرب (جوز): ٣٢٦/٥

(٢) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: أحمد مطلوب: ٣/ص١٩٣، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

(٣) أسرار البلاغة: ٣٩٥

(٤) أسرار البلاغة: ٣٥٢

ولك أن تقول المجاز هو الكلمة المستعملة في غير ما تدل عليه بنفسها دلالة ظاهرة استعمالاً في الغير بالنسبة على نوع حقيقتها مع قرينة مانعة عن إرادة ما تدل عليه بنفسها في ذلك النوع(١)

أما العلوي فقال: وأحسن ما قيل فيه: ما أفاد معنى غير مصطلح عليه في الوضع الذى وقع فيه التخاطب لعلاقة بين الأول والثاني(٢)

وخلاصة القول فإن المجاز: هو استخدام الكلمة في غير ما وضعت له لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي(٣)

ويُقسَّم المجاز إلى مجاز عقلي ومجاز مرسل.

المطلب الأول: المجاز العقلي:

ويُسمَّى بمجاز الإسناد، ويُعرف بأنه: إسناد الفعل أو معناه إلى ملابس له غير ما هو له بتأول(٤)

وقيل هو: إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له في الظاهر من حال المتكلم لملابسة مع قرينة صارفة عن أن يكون الإسناد إلى ما هو له(٥)

وقد أشار البيضاوي في تفسيره أنوار التنزيل وأسرار التأويل إلى المجاز العقلي، وسمَّاه بـ"الإسناد المجازي" وبيَّن كثيراً من العلاقات والملابسات التي يأتي عليها

علاقات المجاز العقلي في تفسير البيضاوي:

١. الزمانية:

حيث يُسند الفعل أو ما في معناه إلى الزمن الذي وقع فيه، وذلك كقول الله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾ الفاتحة: ٤، قال البيضاوي رحمه الله: أضاف اسم الفاعل إلى الظرف إجراء له

(١) مفتاح العلوم: ٣٥٩-٣٦٠
(٢) الطراز: ٣٦/١
(٣) من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان، ص ١٩٨
(٤) الإيضاح: ٨٢/١-٨٦
(٥) علوم البلاغة للمراغي: ٢٩١

مجرى المفعول به على الاتساع كقولهم: يَا سَارِقَ اللَّيْلَةَ أَهْلَ الدار، ومعناه: **(ملك الأمور يوم الدين)** [1].

ومن الإسناد المجازي لعلاقة الزمان قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ** ﴿٤٨﴾ ﴾ يوسف: ٤٨، قال البيضاوي رحمه الله: **(ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ)** أي يأكل أهلهن ما ادَّخرتم لأجلهن فأسند إليهن على المجاز تطبيقاً بين المعبر والمعبر به[2].

فقال: **(يأكلن)** والمعنى يأكل الناس فيهن، فأسند الفعل إلى الزمن، وهو السنوات السبعة، على المجاز العقلي لعلاقة الزمانية.

ومنه قوله تعالى: ﴿ **ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا** ﴾ غافر: ٦١، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَالنَّهارَ مُبْصِراً)** يبصر فيه أو به، وإسناد الإبصار إليه مجاز فيه مبالغة[3].

٢. المكانية:

يسند الفعل أو ما في معناه إلى المكان الذي وقع فيه، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا** ﴾ البقرة: ٦١، قال البيضاوي رحمه الله: **(مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ)** من الإسناد المجازي، وإقامة القابل مقام الفاعل[4].

فالأرض وإن كانت مكاناً للزرع والإنبات لكنها ليست هي المنبتة على الحقيقة، بدليل أن كثيراً من الأراضي جرداء قاحلة، لا تنبت ولا تثمر، لذلك فهو إسناد مجازي أسند فيه الفعل إلى الأرض، والمنبت الحقيقي هو الله عز وجل لقوله: ﴿ **وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ** ﴿١٩﴾ ﴾ الحجر: ١٩، وقال: ﴿ **وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ** ﴿٩﴾ ﴾ ق: ٩.

---

(١) تفسير البيضاوي: ١٤/١
(٢) تفسير البيضاوي: ١٧٦/٢
(٣) تفسير البيضاوي:٢١٤/٣
(٤) تفسير البيضاوي: ١٠٥/١

ومنه قوله تعالى: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ ﴾ يوسف: ٣٩، قال البيضاوي رحمه الله: **(يا صاحِبَيِ السِّجْنِ)** أي يا ساكنيه، أو يا صاحبي فيه فأضافهما إليه على الاتساع كقوله: يَا سَارِقَ اللَّيْلَةَ أَهْلَ الدَّارِ[1].

فقد أسند الأصحاب إلى السجن وقصد أن يسند نفسه إلى الأصحاب، فيقول: **(يا صاحبَيَّ في السجن)**، فَعَدل عن ذلك إلى الإسناد إلى السجن لأنه المكان الذي اجتمعوا فيه.

ومن الإسناد إلى المكان قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ﴿٤﴾ ﴾ مريم: ٤، قال البيضاوي رحمه الله: أسند الاشتعال إلى الرأس الذي هو مكان الشيب مبالغة[2]

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ البقرة: ٢٥، قال البيضاوي رحمه الله: **(تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ)** أي من تحت أشجارها، كما تراها جارية تحت الأشجار النابتة على شواطئها...والنهر بالفتح والسكون: المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر، كالنيل والفرات، والتركيب للسعة، والمراد بها ماؤها على الإضمار، أو المجاز، أو المجاري أنفسها. وإسناد الجري إليها مجاز كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ﴿٢﴾ ﴾ الزلزلة: ٢[3]

فأسند الجري إلى الأنهار، والنهر هو المكان الذي يجري فيه الماء، فلذلك فالماء هو الذي يجري، وليس النهر، فيكون هذا إسناداً مجازياً علاقته المكانية.

٣. المصدرية:

حيث يُسند الفعل إلى المصدر بدلاً من الفاعل، وذلك كقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ ﴾ الحاقة: ١٣، قال البيضاوي رحمه الله: **(فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ)** لما بالغ في تهويل القيامة وذكر مآل المكذبين بها تفخيماً لشأنها وتنبيهاً على مكانها عاد إلى شرحها، وإنما حسن إسناد الفعل إلى المصدر لتقيده[4].

---

(١) تفسير البيضاوي: ١٧٣/٢
(٢) تفسير البيضاوي: ٣٦٠/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ٦٩/١-٧٠
(٤) تفسير البيضاوي: ٤٤٠/٣

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ هود: ٤٦، قال البيضاوي رحمه الله: **(إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ)** فإنه تعليل لنفي كونه من أهله، وأصله إنه ذو عمل فاسد فجعل ذاته ذات العمل للمبالغة كقول الخنساء تصف ناقة:

ترتع مَا رتعت حَتى إِذَا ادّكَرَت فإِنَّـــمَا هي إقـبالٌ وإِدْبـــَارٌ[١].

فابن نوح عليه السلام كان مغرقاً في الفساد وفي العمل غير الصالح لذلك أُسند إلى المصدر والمقصود به ابن نوح عليه السلام، لإفادة كونه ليس فيه صلاحاً البتة، مما يستوجب هلاكه.

والبيت الذي استشهد به البيضاوي الشاهد فيه: (فإنما هي إقبالٌ وإدبارُ)، استشهد به شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني على المجاز وقال: وذاك أنها لم تُرِدْ بالإقبال والإدبارِ غيرَ معناهُما، فتكونَ قد تجوَّزت في نفسِ الكلمةِ، وإنما تجوَّزَتْ في أَنْ جعلَتْها لكثرةِ ما تُقبِلُ وتُدْبِرُ، ولِغَلَبة ذاكَ عليها واتصاله منها، وإنه لم يكن لها حال غيرها، كأنها قد تجسمت من الإقبال والإدبارِ[٢].

٤. المفعولية:

وذلك نحو قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ الحاقة: ٢١ والقارعة: ٧، قال البيضاوي رحمه الله في آية الحاقة: **(فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ)** ذات رضا على النسبة بالصيغة. أو جعل الفعل لها مجازاً وذلك لكونها صافية عن الشوائب دائمة مقرونة بالتعظيم[٣].

وقال البيضاوي في موضع سورة القارعة: (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ) في عيش. (راضِيَةٍ) ذات رضا أو مرضية.

فقد تم الإسناد إلى صيغة اسم الفاعل وقُصد أن يسند إلى اسم المفعول وذلك على سبيل المجاز، "ف(راضية): اسم فاعل، وقد جاء في هذا التعبير القرآني إسناد الرّضا في كلمة "راضية" إلى العيشة، مع أنّ الراضي هو صاحبُ العيشة، إذْ يَرْضَى عن عيشته الحسنة، فالعيشة في الحقيقة مرضيّة. والعلاقة الّتي صحَّحَت استخدام هذا المجاز العقلي كون العيشة محيطة بحياة صاحِبِها، ورضاهُ بها يُشيع الرّضا في كلّ ما يحيط به.

(١) تفسير البيضاوي: ١٣٣/٢
(٢) دلائل الإعجاز: ٣٠١
(٣) تفسير البيضاوي: ٤٤٢/٣

والتحليل النفسيّ لهذا يكْشِفُ أنّ من كان سعيداً فإنّه يرى الدنيا كلّها من حوله سعيدة، ومن كان حزيناً فإنّه يرى الدُّنيا كلَّها من حوله حزينة، وهكذا"(١).

ومثال الاسناد المجازي إلى صيغة اسم الفاعل ويقصد بها اسم المفعول قوله تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ هود: ٤٣، قال البيضاوي رحمه الله: **(قالَ لاَ عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ)** رد بذلك أن يكون اليوم معتصم من جبل ونحوه يعصم اللائذ به إلا معتصم المؤمنين وهو السفينة. **وقيل: (لا عاصم)** بمعنى لا ذا عصمة كقوله: **(فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ)**(٢).

٥. الفاعلية:

حيث يُسند الفعل إلى صيغة اسم المفعول ويراد اسم الفاعل وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ٤٥﴾ الإسراء: ٤٥، قال البيضاوي رحمه الله: **(مَسْتُوراً)** ذا ستر كقوله تعالى: **(وَعْدُهُ مَأْتِيًّا)** وقولهم: سيل مفعم، أو مستوراً عن الحس(٣).

فقد أسند الفعل إلى صيغة اسم المفعول (مستورا)، وأراد اسم الفاعل (ساتراً).

٦. السببية:

حيث يُسند الفعل إلى السبب الذي أدى إلى الفعل، وذلك نحو قوله تعالى:﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤﴾ التوبة: ١٢٤، وكقوله تعالى أيضاً: ﴿فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ٦﴾ نوح: ٦.

قال البيضاوي رحمه الله: **(فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً)** عن الإيمان والطاعة، وإسناد الزيادة إلى الدعاء على السببية كقوله: **(فَزادَتْهُمْ إِيماناً)** (٤).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢﴾ هود: ٨٢، قال البيضاوي رحمه الله: (فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا) عذابنا أو أمرنا به...وكان

(١) البلاغة العربية لعبد الرحمن الدمشقي: ١٩٨/١
(٢) تفسير البيضاوي: ١٣٢/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ٣٠٥/٢
(٤) تفسير البيضاوي: ٤٥١/٣

حقه: (جعلوا عاليها سافلها) أي الملائكة المأمورون به، فأُسند إلى نفسه من حيث إنه المسبب تعظيماً للأمر[1].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ التوبة: ٤٠، قال البيضاوي رحمه الله: وإسناد الإخراج إلى الكفرة لأن همهم بإخراجه أو قتله تسبب لإذن الله له بالخروج[2].

والمعنى الذي يشير إليه البيضاوي أن ما تعرَّض له النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين قبل الهجرة في مكة، من تعذيب وشتم وقتل لأصحابه، لم يكن السبب المباشر لإخراجه من مكة، وإنما خرج منها بسبب أن الله أمره بذلك، ولذلك يكون (أخرجه الذين كفروا) إسناداً مجازياً فقد أسند الإخراج إلى كفار مكة، وهم سبب فيه لكنهم ليسوا المخرجين للنبي على الحقيقة.

وهنا لفتة بديعة إلى مدى الصبر والاحتساب الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم قد وطَّن نفسه عليه، ترشدنا إليها بلاغة المجاز العقلي في هذه الآية، فالنبي رغم كل ما تعرض له من سب وشتم وقتلٍ لأصحابه أمام ناظريه، وتعذيب وحرق وكي، حتى نفسه الشريفة تعرضت للأذى ووُضع عليه سلا الجزور، رغم كل هذا لم تكن هذه أسباباً تدفع النبي للهجرة بل كان مستعداً للصبر أكثر في سبيل الدعوة، إلَّا أن هذه كانت أسباباً غير مباشرة، إذ كان السبب المباشر هو أمر الله له بالهجرة والخروج إلى المدينة.

ومن المجاز العقلي الذي علاقته السببية قوله تعالى: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ هود: ٣١، قال البيضاوي رحمه الله: (وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ) والازدراء به افتعال من زرى عليه إذا عابه...وإسناده إلى الأعين للمبالغة، والتنبيه على أنهم استرذلوهم بادي الرؤية من غير روية بما عاينوا من رثاثة حالهم وقلة منالهم دون تأمل في معانيهم وكمالاتهم[3].

فالعين لا تزدري ولا تحتقر ولا تقلل من شأن أحد، لكنها هي السبب وهي التي بواسطتها تُحول المشاهدات إلى أفعال قلوب من ازدراء واحتقار، وذلك عند من يهتمون بالهيئات والمناظر، ويتناسون البواطن والدخائل، فيكشف لنا المجاز العقلي في هذه الآية إلى أن أهل الدنيا والمشتغلين

(١) تفسير البيضاوي: ١٤٣/٢
(٢) تفسير البيضاوي: ٥٣/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ١٢٩/٢

بها لا يحكمون على الناس إلا بما تراه أعينهم من الظواهر، وما تبدو عليهم من زخارف الدنيا ومتاعها، فهي حث من الله عز وجل ألَّا يكون المسلم مثلهم في الحكم على الناس.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ البقرة: ٢٨٣، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَمَنْ يَكْتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ)** أي يأثم قلبه أو قلبه يأثم...وإسناد الإثم إلى القلب لأن الكتمان مقترفه ونظيره: العين زانية والأذن زانية. أو للمبالغة فإنه رئيس الأعضاء وأفعاله أعظم الأفعال، وكأنه قيل: تمكن الإثم في نفسه وأخذ أشرف أجزائه، وفاق سائر ذنوبه(١).

٧. **المحلية**:

وفيها يُسند الفعل إلى المحل ويكون المقصود أن يُسند إلى الحال كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ المؤمنون: ١٣، قال البيضاوي رحمه الله: **(فِي قَرارٍ مَكِينٍ)** مستقر حصين يعني الرحم، وهو في الأصل صفة للمستقر وصف به المحل للمبالغة كما عبر عنه بالقرار(٢).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ المائدة: ٨٣، قال البيضاوي رحمه الله: (وَإِذا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ) عطف على لاَ يَسْتَكْبِرُونَ وهو بيان لرقة قلوبهم وشدة خشيتهم ومسارعتهم إلى قبول الحق وعدم تأبيهم عنه، والفيض انصباب عن امتلاء، فوضع موضع الامتلاء للمبالغة، أو جعلت أعينهم من فرط البكاء كأنها تفيض بأنفسها(٣).

فالعين لا تفيض لأن الفيض معناه انصباب الماء خارجاً، والحقيقة أن الدمع هو الذي يفيض، لذلك كان القياس أن يقال: (ترى أعينهم تفيض بالدمع)، لكنه جاء بما جاء به النظم على سبيل المجاز العقلي الذي علاقته المحلية حيث أسند فعل الفيضان إلى المحل وهو (العين)، وأراد الحال وهو (الدمع)، وواضح ما فيه من مبالغة والإشارة إلى فرط وشدة خشوع أولئك النفر.

٨. **الممالأة والموافقة**:

حيث يُسند الفعل إلى الذي يرضى به وإن لم يكن هو فعله على الحقيقة، ومعنى الممالأة في لسان العرب: وَقَدْ مَالَأْتُه عَلَى الأَمر مُمَالَأَةً: ساعَدْتُه عَلَيْهِ وشايَعْتُه. وتَمَالَأْنا عَلَيْهِ: اجْتَمَعْنا،

(١) تفسير البيضاوي: ٢٣٧/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٤٦٤/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ٤٥٦/١

وتَمالَؤُوا عَلَيْهِ: اجْتَمعوا عَلَيْهِ...قَالَ أَبو عُبَيْدٍ: يُقَالُ لِلْقَوْمِ إِذَا تَتابَعُوا برَأْيِهم عَلَى أَمر قد تَمالَؤُوا عَلَيْهِ(١).

ومما جاء من المجاز العقلي على هذه العلاقة أو الملابسة قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ البقرة: ٩١

قال البيضاوي رحمه الله: **(قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِياءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)** اعتراض عليهم بقتل الأنبياء مع ادعاء الإيمان بالتوراة والتوراة لا تسوغه، وإنما أسنده إليهم لأنه فعل آبائهم، وأنهم راضون به عازمون عليه(٢).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ النساء: ١٥٣، قال البيضاوي رحمه الله: **(فَقَدْ سَأَلُوا مُوسى أَكْبَرَ مِنْ ذلِكَ)** وهذا السؤال وإن كان من آبائهم أسند إليهم لأنهم كانوا آخذين بمذهبهم تابعين لهديهم(٣).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ الأعراف: ٧٧، قال البيضاوي رحمه الله: **(فَعَقَرُوا النَّاقَةَ)** فنحروها. أسند إلى جميعهم فعل بعضهم للملابسة، أو لأنه كان برضاهم(٤).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ العنكبوت: ٢٤، قال البيضاوي رحمه الله: (إِلَّا أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ) وكان ذلك قول بعضهم لكن لما قيل فيهم ورضي به الباقون أُسند إلى كلهم(٥).

٩. الملابسة:

ومعنى المُلابَسَة: المُخالَطة، واللَّبْسُ واللَّبَسُ: اخْتِلَاطُ الأَمر(٦).

---

(١) لسان العرب (ملأ): ١٥٩/١-١٦٠
(٢) تفسير البيضاوي: ١١٩/١
(٣) تفسير البيضاوي: ٤٠٦/١
(٤) تفسير البيضاوي: ٥٥٤/١
(٥) تفسير البيضاوي: ٣٣/٣
(٦) لسان العرب (لبس): ٢٠٣/٦-٢٠٤

ويأتي إسناد الفعل إلى غير ما هو له لعلاقة الملابسة أي أن الذي أسند إليه الفعل ليس هو المسند الحقيقي، وإنما مخالطته ومصاحبته وعلاقته بالمسند أوجبت إسناد الفعل إليه، لصحبته وعلاقته القوية بالمسند الحقيقي.

ومثاله قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ ﴾طه: ٨٠، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَواعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ)** بمناجاة موسى وإنزال التوراة عليه، وإنما عد المواعدة إليهم وهي لموسى، أو له وللسبعين المختارين للملابسة[1].

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ﴿١٦﴾ ﴾نوح: ١٥ – ١٦، قال البيضاوي رحمه الله: (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً) أي في السماوات وهو في السماء الدنيا وإنما نسب إليهن لما بينهن من الملابسة[2].

فالقمر في السماء الدنيا وليس في السماوات أجمع لكن لما كان بين السماوات من اتحاد وكانت كأنها شيء واحد صح الإسناد إلى السماوات أجمعها مجازياً.

١٠. الوصفية:

يُسند الفعل أو ما في معناه إلى الوصف ويُقصد به المتصف به.

وذلك كقوله تعالى: ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ فصلت: ١٦، قال البيضاوي رحمه الله: (لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا) أضاف العَذابَ إلى الْخِزْيِ وهو الذل على قصد وصفة به لقوله: (وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى) وهو في الأصل صفة المُعذَّب وإنما وصف به العذاب على الإسناد المجازي للمبالغة[3].

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ ﴿٣﴾ ﴾ إبراهيم: ٣، قال البيضاوي رحمه الله: **(أُولئِكَ فِي ضَلالٍ**

(١) تفسير البيضاوي: ٣٩٩/٢
(٢) تفسير البيضاوي: ٤٥٢/٣
(٣) تفسير البيضاوي: ٢٢٣/٣

بَعِيدٍ) أي ضلوا عن الحق ووقعوا عنه بمراحل، والبعد في الحقيقة للضال فوصف به فعله للمبالغة، أو للأمر الذي به الضلال فوصف به لملابسته[1].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٣٤﴾ الفرقان: ٣٤، قال البيضاوي رحمه الله: ووصف السبيل بالضلال من الإسناد المجازي للمبالغة[2].

وكذا قوله تعالى: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ٢٦﴾ هود: ٢٦، قال البيضاوي رحمه الله: **(إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ)** مؤلم وهو في الحقيقة صفة المعذب لكن يوصف به العذاب وزمانه على طريقة جد جده ونهاره صائم للمبالغة[3].

(١) تفسير البيضاوي: ٢/٢١٤
(٢) تفسير البيضاوي: ٢/٥٢٢
(٣) تفسير البيضاوي: ٢/١٢٧

المطلب الثاني: المجاز المرسل:

تعريفه: هو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة ومناسبة غير المشابهة[١].

وقيل: هو الكلام المستعمل في غير المعنى الذي وضع له، لعلاقة غير المشابهة: مع قرينة مانعة من إرادة معناه الوضعي[٢].

علاقات المجاز المرسل في تفسير البيضاوي:

١. السَّببية:

وهي أن يُذكر السبب ويُراد المسبَّب كقوله تعالى: ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ النحل: ٣٤، قال البيضاوي رحمه الله: **(فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ مَا عَمِلُوا)** أي جزاء سيئات أعمالهم على حذف المضاف، أو تسمية الجزاء باسمها[٣].

فالآية واردة في سياق الحديث عن الكافرين وما يحدث لهم في نار جهنم، فيقول الله أن السيئات أصابتهم، والحقيقة أنه ليست السيئات والآثام التي اقترفوها هي التي أصابتهم وأوردتهم ذلك المورد، وإنما جزاء وعواقب تلك السيئات.

فقد أطلق السَّبب وهي (السيئات)، وأراد المسبَّب وهي (الجزاء والعاقبة) على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته السببية.

وقد علَّق الشهاب على كلام البيضاوي السابق بقوله: فإما أن يُقدَّر المضاف أو يُجعل من المشاكلة كما في الكشاف، أو من إطلاق اسم السبب على المسبب على ما أشار إليه المصنف رحمه الله تعالى[٤].

---

(١) علوم البلاغة للمراغي: ٢٤٩
(٢) جواهر البلاغة: ٢٧٤
(٣) تفسير البيضاوي: ٢/٢٦٠
(٤) حاشية الشهاب: ٥/٣٢٩

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ ﴾ الجن: ٢١، قال البيضاوي رحمه الله: **(قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَداً)** ولا نفعاً أو غياً، عبر عن أحدهما باسمه وعن الآخر باسم سببه أو مسببه إشعارا بالمعنيين.

فالبيضاوي يشير إلى أن الآية تحتمل أن تكون مجازاً مرسلاً علاقته السببية أو المسبَّبية.

فإذا افترضنا أن الآية سيقت أصلاً للتحدث عن المنافع والمضار التي أمر الله نبيه أن ينفي استطاعته منحها لهم، يكون قد أطلق (الرَّشَد) وهو الهداية وأراد ما يترتب عليه وهو (النفع)، ويكون مجازاً مرسلاً علاقته السببية، حيث أطلق السبب وهو (الرَّشَد)، وأراد المسبَّب وهو ما يقابل الضر وهو (النفع).

وإن افترضنا أن الآية سيقت للتحدث عن الهداية والغواية، يكون قد أطلق (الضر)، الذي هو مُسبَّب، وأراد السبب وهو (الغواية) في مقابل الرشد، على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته المُسبَّبية.

٢. المسبَّبية:

وهي أن يطلق المُسبَّب ويراد السبب كما في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ البقرة: ٢٢١، قال البيضاوي رحمه الله: **(يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ)** أي الكفر المؤدي إلى النار فلا يليق موالاتهم ومصاهرتهم...**(يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ)** أي إلى الاعتقاد والعمل الموصلين إليهما فهم الأحقاء بالمواصلة[1].

فالكافرون والمشركون لا يدعون إلى النار على الحقيقة، ولكنه مجاز مرسل فهم يدعون إلى الكفر الذي هو سبب لدخول النار، وبهذا تكون النار مُسبَّبةً عن الكفر، وبهذا يكون أطلق المُسبَّب وأراد السبب على سبيل المجاز المرسل، وكذا الحال في دعوة الله الناس إلى الجنة وإلى المغفرة والمقصود أنها دعوة إلى الأسباب التي تُحصَّل من خلالها الجنة والمغفرة.

(١) تفسير البيضاوي: ١/١٩١

ومثله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ التوبة: ٤٩، قال البيضاوي رحمه الله: (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ) جامعاً لهم يوم القيامة، أو الآن لأن إحاطة أسبابها بهم كوجودها[١].

فأسباب النار التي هي الكفر بالله عز وجل والوقوف في وجه دعوته ومحاربة ومعاداة أوليائه، كل هذه أسباب تحيط بالكافرين عبر عنها بالمسبَّب وهي جهنم على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته المسببية.

ومن المجاز المرسل الذي علاقته المسبَّبية قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ يونس: ٥٩، قال البيضاوي رحمه الله: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ) جعل الرزق منزلاً لأنه مقدر في السماء محصل بأسباب منها [٢]

فقد سمَّى الله ما ينزله من السماء رزقاً والحقيقة أن ما ينزل من السماء هو المطر الذي هو أسباب للرزق، فيكون أطلق المسبَّب وأراد السبب على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته المسببية.

ويشبه الآية السابقة أيضاً قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ غافر: ١٣ ، قال البيضاوي رحمه الله: (وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً) أسباب رزق كالمطر مراعاة لمعاشكم[٣].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾ العنكبوت: ٣٦، قال البيضاوي رحمه الله: (وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ) وافعلوا ما ترجون به ثوابه، فأقيم المسبب مقام السبب[٤].

---

(١) تفسير البيضاوي: ٥٧/٢
(٢) تفسير البيضاوي: ١٠٧/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ٢٠٤/٣
(٤) تفسير البيضاوي: ٣٦/٣

٣. المحلية:

حيث يُسمَّى الحال باسم المحل، أي يُطلق المحل ويراد الحالُّ فيه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ الأعراف: ١٦٣، البيضاوي رحمه الله: **(عَنِ الْقَرْيَةِ)** عن خبرها وما وقع بأهلها[١].

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ هود: ١٠٢، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَهِيَ ظالِمَةٌ)** حال من الْقُرى وهي في الحقيقة لأهلها لكنها لما أقيمت مقامه أجريت عليها[٢].

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾ العلق: ١٧، قال البيضاوي رحمه الله: **(فَلْيَدْعُ نادِيَهُ)** أي أهل ناديه ليعينوه وهو المجلس الذي ينتدي فيه القوم[٣].

ومن المجاز المرسل الذي علاقته المحلية أيضاً قوله تعالى: ﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ الطور: ٢٣، قال البيضاوي رحمه الله: **(يَتَنازَعُونَ فِيها)** يتعاطون هم وجلساؤهم بتجاذب. **(كَأْساً)** خمراً سماها باسم محلها[٤].

فقد جعل الله من أحوال المؤمنين في الجنة أنهم يشربون الكؤوس، والكؤوس لا تشرب وإنما يشرب ما فيها من خمر وغيره، لذلك فهي من المجاز المرسل الذي علاقته المحلية.

وهنا إشارة إلى لذة ذلك الخمر، وطيب طعمه، إذ يكاد الشارب له بعد أن ينتهي ما في الكأس من الشراب أن يشرب الكأس نفسه، تتبعاً لما يعلق بالكأس من بقايا ذلك الخمر.

٤. الحالية:

وهي عكس المحلية حيث يُطلق الحال ويُراد المحل، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ آل عمران: ١٠٧، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَأَمَّا الَّذِينَ**

(١) تفسير البيضاوي: ٥٧٨/١
(٢) تفسير البيضاوي: ١٤٩/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ٥٥٢/٣
(٤) تفسير البيضاوي: ٣٣١/٣

ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ) يعني الجنة والثواب المخلد، عبر عن ذلك بالرحمة تنبيهاً على أن المؤمن وإن استغرق عمره في طاعة الله تعالى لا يدخل الجنة إلا برحمته وفضله(١).

فـ**(رحمة الله)** تبين حال أهل الجنة وما هم فيه من نعيم، وهذا الحال ورد في الآية بمعنى مجازي والدليل على كونه مجازياً أنه قال: **(في رحمة الله)**، وفي حرف دال على الظرفية المكانية، لكن المعنى أنه في الجنة التي دخلها برحمة الله، ولذلك يتبين لنا أن المجاز أتى لإفادة معنى دقيق مع إيجاز بليغ.

ومنها قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ الأعراف: ٣١، قال البيضاوي رحمه الله: **(يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ)** ثيابكم لمواراة عورتكم(٢).

فالزينة حالة هنا، ومحلها التي تحصل بها الزينة هي الثياب، لذلك فقد أطلق الحال وأراد المحل من باب المجاز المرسل.

٥. اعتبار ما كان:

حيث يُذكر الشي ويراد به ما كان قبل ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡ ﴾ النساء: ٢، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَآتُوا الْيَتامى أَمْوالَهُمْ)** أي إذا بلغوا... والاشتقاق يقتضي وقوعه على الصغار والكبار، لكن العرف خصصه بمن لم يبلغ. وورود في الآية إما للبالغ على الأصل أو الاتساع لقرب عهدهم بالصغر، حثاً على أن يدفع إليهم أموالهم أول بلوغهم قبل أن يزول عنهم هذا الاسم إن أونس منهم الرشد(٣).

فالأمر في هذه الآية أن يؤتى اليتيم ماله، واليتيم هنا مجاز وليس على الحقيقة، والقرينة التي تدلنا على ذلك، هي قوله تعالى: ﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ ﴾ النساء: ٦، فلما كان دفع المال إلى اليتيم بشرط إيناس الرشد، والرشد حالة مغايرة لحالة اليتم التي هي فقد أحد الأبوين أو كلاهما دون سن الرشد، تبين أن المقصود من اليتيم هنا، ليس اليتيم في الحال، وإنما من كان يتيماً.

---

(١) تفسير البيضاوي: ٢٨٦/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٥٤١/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٣٣٠/١

والإشارة البلاغية والمعنى الدقيق الذي يفيده هذا المجاز في هذه الآية، كما أوضحها لنا البيضاوي، أن الله يريد منا أن لا نتأخر في دفع أموال اليتامى إليهم بمجرد إيناس الرشد، ولقرب عهدهم باليتم سماهم يتامى.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ الشعراء: ١٨، قال البيضاوي رحمه الله: **(أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا)** في منازلنا. **(وَلِيداً)** طفلاً سمي به لقربه من الولادة [١].

فموسى عليه السلام عندما أخذه فرعون من البحر وضمه إلى بيته لم يكن وليداً، بل كان طفلاً، فالوليد كما جاء في لسان العرب: هو الصَّبِيُّ حِينَ يُولَدُ[٢]،لذلك فهو من المجاز المرسل باعتبار ما كان.

وفائدة المجاز المرسل هنا هي الإشارة إلى غاية الامتنان من فرعون على موسى عليه السلام، إذ أن موسى كان في غاية الضعف، فلم يكن طفلاً فقط رغم أنها مرحلة ضعف تحتاج إلى رعاية واهتمام، بل كان أكثر من ذلك، وهي مرحلة (الوليد)

٦. اعتبار ما سيكون:

حيث يذكر الشيء ويراد ما سيكون عليه في المستقبل كما في قوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ إبراهيم: ٣٧

قال البيضاوي رحمه الله: **(بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ)** يعني وادي مكة فإنها حجرية لا تنبت. **(عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ)** الذي حرمت التعرض له والتهاون به، أو لم يزل معظماً ممنعاً يهابه الجبابرة، أو منع منه الطوفان فلم يستول عليه ولذلك سمي عتيقاً أي أعتق منه. ولو دعا بهذا الدعاء أول ما قدم فلعله قال ذلك باعتبار ما كان أو ما سيؤول إليه[٣].

فالمكان الذي أسكن فيه إبراهيم عليه السلام أهله مكانٌ غير ذي زرع ولم يكن قد بني البيت الحرام بعد، ولكنه قال: (عند بيتك المحرم) على سبيل المجاز المرسل باعتبار ما سيكون في المستقبل.

---

(١) تفسير البيضاوي: ٥٣٦/٢

(٢) لسان العرب (ولد): ٤٦٧/٣

(٣) تفسير البيضاوي: ٢٢٦/٢

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ ﴾ يوسف: ٣٦، قال البيضاوي رحمه الله: (**أَعْصِرُ خَمْراً**) أي عنباً وسماه خمراً باعتبارِ ما يؤول إليه[١].

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ٣٨ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩ ﴾ طه: ٣٨ – ٣٩، قال البيضاوي رحمه الله: (يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ) جواب (فَلْيُلْقِهِ) وتكرير عَدُوٌّ للمبالغة، أو لأن الأول باعتبار الواقع والثاني باعتبار المتوقع[٢].

ففرعون لم يكن عدواً لموسى عليه السلام لأنه ما زال وليداً، ولكنه سيكون كذلك في المستقبل، فهي مجاز مرسل باعتبار ما سيكون.

والإشارة البلاغية البديعة التي قد تفهم من هذا المجاز المرسل في قوله تعالى: (عدوٌ له)، هي البشارة من الله لأم موسى، أن لا تخافي عليه فسنجعله نبياً وسيكون له مكانة عظيمة، يكون من شأنها أن يعاديه هذا الفرعون، وبشارة النبوة تُفهم من أن فرعون عدوٌ لله، من قبل أن يكون عدواً لموسى، ولا يمكن أن يجمع فرعون بين العداوتين، إلا إذا اتفق موسى مع منهج الله، حينها يصبح عدو الله هو عدو لموسى بالتبعية.

٧. الآلية:

ويكون المجاز المرسل علاقته الآلية إذا سمي الشيء باسم آلته[٣]، أو كون الشيء آلة لإيصال أثر شيء إلى آخر[٤].

ومثاله من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴾ مريم: ٥٠، قال البيضاوي رحمه الله: (**وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا**) يفتخر بهم الناس ويثنون عليهم، استجابة لدعوته ﴿ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤ ﴾ الشعراء: ٨٤ والمراد باللسان ما يوجد به، ولسان العرب لغتهم[٥].

---

(١) تفسير البيضاوي: ١٧٣/٢
(٢) تفسير البيضاوي: ٣٩٠/٢
(٣) بغية الإيضاح: ٤٧١/٣
(٤) علوم البلاغة للمراغي: ٢٥٢
(٥) تفسير البيضاوي: ٣٧٠/٢

فالمقصود من اللسان هنا الذكر الحسن بين الناس، فيفتخر الناس بهم ويثنون عليهم، ويقولون فيه القول الحسن، فقد عبر في الآية عن القول والكلام باللسان الذي هو آلته، الذي بدون لا تكون اللغة، فهو مجاز مرسل علاقته الآلية.

ومثال اللسان أيضاً القدم الذي هو آلة المشي والسعي كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ يونس: ٢، قال البيضاوي رحمه الله: (بأن لهم قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ) سابقة ومنزلة رفيعة سميت قدما لأن السبق بها كما سميت النعمة يداً لأنها تعطى باليد[١].

فالأعمال التي يتحصل من خلالها المؤمن على رحمة الله وعلى المنزلة الرفيعة في الجنة عبر عنها بـ(القدم)، لأن أكثر الأعمال تؤدى بواسطتها ومن خلالها، فلا صلاة إلا بالسعي والقيام، وكذا الحج وكذا الجهاد، وكثير من أمور الدين إن لم يكن كلها تؤدى بهذه الجارحة المهمة.

وكأن المجاز المرسل في هذه الآية بتسمية الأعمال باسم آلتها (القدم)، إشارة من الله عز وجل للمؤمن إلى السعي والحركة والإيجابية، والابتعاد عن الكسل والقعود والخمول والسلبية، لأن ديننا دين عمل ونشاط، لا دين زوايا واعتزاليات، ولهذا اعتبر الله أن السعي والمشي من أجل الرزق فريضة وواجبٌ على المسلم فقال: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ الملك: ١٥.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٩٥﴾ البقرة: ٩٥، قال البيضاوي رحمه الله: ولما كانت اليد العاملة مختصة بالإنسان، آلة لقدرته بها عامة صنائعه ومنها أكثر منافعه، عبر بها عن النفس تارة والقدرة أخرى[٢].

قال ابن عاشور في التحرير والتنوير: والمراد بـ(ما قدمت أيديهم) ما أتوه من المعاصي سواء كان باليد أم بغيرها بقرينة المقام، فقيل عبر باليد هنا عن الذات مجازا كما في قوله: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ البقرة: ١٩٥ [٣].

٨. الجزئية:

ويطلق في هذه العلاقة الجزء ويُراد الكل، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـًٔا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾ النساء: ٩٢، قال البيضاوي رحمه الله في هذه الآية: (وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ

(١) تفسير البيضاوي: ٨٨/٢
(٢) تفسير البيضاوي: ١٢١/١
(٣) التحرير والتنوير: ٦١٦/١

رَقَبَةٍ) أي فعليه أو فواجبه تحرير رقبة، والتحرير الإعتاق...والرقبة عبر بها عن النسمة كما عبر عنها بالرأس(١).

فالمقصود بالرقبة في هذه الآية أي تحرير نفسٍ مؤمنة، عبر عنها بالرقبة على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته الجزئية، حيث أطلق الرقبة وهي جزء من الجسم وأراد كل الإنسان، روحاً وجسداً.

وفائدة هذا الإطلاق المجازيّ الإيجازُ في التعبير من جهة، لأنّ الرقبة تكون بعض كلٍّ من الذكر والأنثى، والإشارةُ إلى أنّ الأرقاء كانوا يُغَلُّون من أعناقهم، فإذا أُعْتِقُوا حُرِّرُوا من هذه الأغلال(٢).

وكما يُعبر عن النفس بالرقبة، يُعبر عنها بالوجه كما في قوله تعالى: ﴿**وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾**﴾ النمل: ٩٠، قال البيضاوي رحمه الله: **(فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ)** فكبوا فيها على وجوههم، ويجوز أن يراد بالوجوه أنفسهم كما أريدت بالأيدي في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ**﴾ البقرة: ١٩٥(٣).

فأطلق (الوجه) وهو جزء من جسم الإنسان، وأراد (ذواتهم كاملة)، أجسادَهم وأرواحَهم، وهي إشارة إلى ذلة أولئك الكافرين، إذ من المعلوم أن الوجه هو موضع الشرف والتكريم للإنسان، ومن هنا يتضح أن التعبير عن النفس تارة بالرقبة، وتارة بالوجه، يناسب كل منهما السياق الذي جاء فيه، فعُبِّر عن النفس بالرقبة في قوله تعالى: **(فتحرير رقبة)**، لأن الكلام في الرِّق، وهي إشارة إلى أن العبيد كانوا يربطون من أعناقهم إذلالاً لهم.

أما التعبير عن النفس بالوجه فقد جاء في معرض الحديث عن حال الكافرين في النار وما بهم من ذلة، إذ أن هذه الوجوه التي كانت تَعُدُّ نفسها كريمة ومترفعة عن المسلمين وضعفاء المجتمع كما حكى الله عنها في أكثر من موضع فقال: ﴿**قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾**﴾ الشعراء: ١١١ ، **وقال:** ﴿**مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا**﴾ هود: ٢٧، **وقال:** ﴿**يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ**﴾ المنافقون: ٨ ، هذا التكبر وهذا

(١) تفسير البيضاوي: ٣٧٩/١-٣٨٠
(٢) البلاغة العربية لعبد الرحمن الدمشقي: ٢٧٦/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ٥٧٧/٢

الشرف المُصطَنع والمُدَّعى من هذه الفئة، كان من المناسب أن يأتي التعبير عن **(تعذيب أنفسهم)** في النار (بتعذيب وجوههم)، إذلالاً لأشرف ما في الإنسان وهو الوجه.

٩. الكلية:

في هذه العلاقة من علاقات المجاز المرسل، يُطلق الكل ويُراد الجزء، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ البقرة: ١٩، وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ نوح: ٧ قال البيضاوي رحمه الله: وإنما أطلق الأصابع موضع الأنامل للمبالغة[١].

فمن المعلوم أنه لا يمكن للإنسان أن يضع أصبعه كاملاً في أذنه، لذلك كانت هذه قرينة تدلنا أن المقصود بالأصابع هنا أطرافها أو الأنامل، فلذلك فهو مجاز مرسل علاقته الكلية، أطلق الكل وهي (الأصابع)، وأراد الجزء وهي (الأنامل)

وفائدة هذا المجاز هي المبالغة كما أشار القاضي رحمه الله، فهم لكثرة بغضهم لسماع الحق، ونفورهم عنه، كانوا يحاولون إغلاق آذانهم إغلاقاً كاملاً، ولو استطاعوا إدخال أصابعهم كلها لا أطرافها لفعلوا.

(١) تفسير البيضاوي: ٥٦/١

المبحث الثالث: الاستعارة:

أهمية الاستعارة:

فن الاستعارة من الفنون المهمة والدقيقة في البلاغة العربية، فقد أولى البلاغيون هذا الفن عناية خاصة، وبحثاً دقيقاً، ووقفوا على أهميته كثيراً في كتاباتهم ورسائلهم.

فمن ذلك ما حكاه شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني إذ يقول في الاستعارة: اعلم أنّ الاستعارة أمَدُّ ميداناً، وأشدُّ افتناناً، وأكثر جرياناً، وأعجب حسناً وإحساناً، وأوسعُ سعَةً وأبعد غَوْراً، وأذهبُ نَجْداً في الصِّناعة وغَوْراً، من أن تُجمعَ شُعَبها وشُعُوبها، وتُحصَر فنونها وضروبها، نعم، وأسحَرُ سِحْراً، وأملأ بكل ما يملأ صَدْراً، ويُمتع عقلاً، ويُؤْنِس نفساً، ويوفر أُنْساً، وأهدَى إلى أن تُهدِي إليك أبداً عَذَارَى قد تُخُيِّرَ لها الجمال، وعُنِيَ بها الكمال وأن تُخرج لك من بَحْرها جواهرَ إن باهَتْها الجواهرُ مَدَّت في الشرف والفضيلة باعاً لا يقصرُ، وأبدت من الأوصاف الجليلة محاسنَ لا تُنكَر، وردَّت تلك بصُفرة الخجل، ووَكَلتها إلى نِسْبتها من الحَجَر وأن تُثير من مَعْدِنها تِبْراً لم ترَ مثلَه، ثم تصوغ فيها صياغاتٍ تُعطّل الحُلِيَّ، وتُريك الحَلْيَ الحقيقي وأن تأتيك على الجُملة بعقائل يأْنس إليها الدين والدنيا، وفضائل لها من الشرف الرُّتْبة العليا، وهي أجلُّ من أن تأتيَ الصفةُ على حقيقة حالها، وتستوفيَ جملةَ جمالها، ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تُبرز هذا البيان أبداً في صورة مُستجَدَّةٍ تزيد قَدرَه نُبْلاً، وتوجب له بعد الفضلِ فضلاً[1].

أمَّا ابن الأثير فقد عدَّ الاستعارة ركناً ركيناً في الفصاحة والبلاغة فقال: اعلم أن للفصاحة والبلاغة أوصافًا خاصة، وأوصافًا عامة، فالخاصة: كالتجنيس فيما يرجع إلى اللفظ، وكالمطابقة فيما يرجع إلى المعنى، وأما العامة فكالسجع فيما يرجع إلى اللفظ، وكالاستعارة فيما يرجع إلى المعنى[2].

الاستعارة لغة:

والعارِيّة والعارةُ: مَا تداوَله الناس بَيْنَهُمْ؛ وَقَدْ أَعارَه الشيءَ وأَعارَه مِنْهُ وعاوَرَه إِيَّاه. والمُعاوَرة والتَّعاوُر: شِبْهُ المُدَاوَلة والتّداوُل فِي الشَّيْءِ يَكُونُ بَيْنَ اثْنَيْنِ... وتَعَوّرَ واسْتَعار: طَلَبَ العارِيّة[3].

(١) أسرار البلاغة: ٤٢ بتصرف.
(٢) المثل السائر: ٥٧/٢
(٣) لسان العرب (عور): ٦١٨/٤

الاستعارة اصطلاحاً:

تعددت تعريفات الاستعارة عند علماء البلاغة وإن كانت كلها ترجع إلى معنى وتعريف متقارب، فمن ذلك تعريف ثعلب حيث يقول: **الاستعارة: أن يُستعار للشيء اسمُ غيره، أو معنى سواه**(١)، وأشار الجاحظ إلى أن الاستعارة هي: **تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه**(٢).

وقد عرَّف ابن المعتز الاستعارة ويسميها "البديع": وإنما هو استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بها(٣).

أما العلوي في الطراز فقال عن الاستعارة: تصييرك الشيء الشيء وليس به، وجعلك الشيء للشيء وليس له، بحيث لا يلحظ فيه معنى التشبيه صورة ولا حكماً(٤).

وعرَّف أبو هلال العسكري الاستعارة فقال: الاستعارة: نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض، وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ، أو تحسين المعرض الذى يبرز فيه(٥).

وقال ابن الأثير عن الاستعارة: حد الاستعارة نقل المعنى من لفظ إلى لفظ لمشاركة بينهما، مع طي ذكر المنقول إليه(٦).

وقال السكاكي: الاستعارة هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مدعيا دخول المشبه في جنس المشبه به دالا على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به(٧).

---

(١) قواعد الشعر: ٥٣

(٢) البيان والتبيين: ١٤٢/١

(٣) البديع لابن المعتز: ٧٥

(٤) الطراز: ١٠٦/١

(٥) الصناعتين: أبو هلال العسكري، ص٢٦٨، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٩هـ

(٦) المثل السائر: ٦٧/٢

(٧) مفتاح العلوم: ٣٦٩

وقال الإمام عبد القاهر الجرجاني في الاستعارة: اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون للَّفظ أصلٌ في الوضع اللغوي معروفٌ تدلُّ الشواهد على أنه اخْتُصَّ به حين وُضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلاً غيرَ لازمٍ، فيكون هناك كالعارِيَّة[١].

وبعد التعريفات السابقة يتضح أن تعريف الاستعارة تعددت عند العلماء وإن كانت كلها تجتمع على نقل المعنى الحقيقي إلى معنى مجازي لوجود علاقة بين المعنيين.

ومن هنا صح أن يكون التعريف الجامع للاستعارة أنها: "استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى الأصلي للكلمة، والمعنى الذي نُقلت إليه الكلمة مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي"[٢].

فالاستعارة نوع من أنواع المجاز، لأن المجاز "هو استخدام الكلمة في غير ما وضعت له لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي"[٣]، فإذا كانت العلاقة بين المعنى الأصلي والمعنى المجازي المشابهة كان المجاز استعارة.

وهناك صلة وثيقة بين الاستعارة والتشبيه إذ أن الاستعارة مبنية على التشبيه "فأصل الاستعارة: تشبيه حذف أحد طرفيه، ووجه شبهه، وأداته، ولكنها أبلغ منه، لأن التشبيه مهما تناهى في المبالغة، فلا بد فيه من ذكر المشبه، والمشبه به وهذا اعتراف بتباينهما، وأن العلاقة ليس إلا التشابه والتداني، فلا تصل إلى حد الاتحاد بخلاف الاستعارة ففيها دعوى الاتحاد والامتزاج، وأن المشبه والمشبه به صارا معنى واحدا، يصدق عليهما لفظ واحد"[٤]

وقفة على التعريفين اللغوي والاصطلاحي:

يُلاحظ مدى العلاقة بين التعريفين اللغوي والاصطلاحي للاستعارة، إذ أن معنى الاستعارة في اللغة يشير إلى التداول والنقل والطلب، وهو معنى موجود في الاصطلاح لأنه نقل للألفاظ وتداولها من معناها الحقيقي إلى معناها المجازي لعلاقة المشابهة.

ومن هنا نرى ابن الأثير يقول: الأصل في الاستعارة المجازية مأخوذة من العارية الحقيقية التي هي ضرب من المعاملة، وهي أن يستعير بعض الناس من بعض شيئًا من الأشياء، ولا يقع

(١) أسرار البلاغة: ٣٠
(٢) من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان ، ص٢١٥
(٣) من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان ، ص١٩٨
(٤) جواهر البلاغة: ٢٥٨

ذلك إلا من شخصين بينهما سبب معرفة، ما يقتضي استعارة أحدهما من الآخر شيئًا، وإذا لم يكن بينهما سبب معرفة بوجه من الوجوه، فلا يستعير أحدهما من الآخر شيئًا؛ إذ لا يعرفه حتى يستعير منه، وهذا الحكم جارٍ في استعارة الألفاظ بعضها من بعض، فالمشاركة بين اللفظين في نقل المعنى من أحدهما إلى الآخر كالمعرفة بين الشخصين في نقل الشيء المستعار من أحدهما الآخر[1].

أركان الاستعارة:

لما كانت الاستعارة في الأصل تشبيها ونوعاً منه كما يقول الجرجاني: **أما الاستعارة، فهي ضربٌ من التشبيه، ونَمَطٌ من التمثيل**[2]، لما كانت كذلك كان لا بد من دعائم وأركان للاستعارة، وهي:

١. المستعار: وهو اللفظ المنقول.
٢. والمستعار منه: وهو المشبه به.
٣. والمستعار له: وهو المشبه.

شرط الاستعارة عند البيضاوي:

أشار البيضاوي إلى شرط الاستعارة عند تعرُّضه لقوله تعالى: ﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ البقرة: ١٨، قال البيضاوي رحمه الله: لما سدوا مسامعهم عن الإصاخة إلى الحق وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم ويتبصروا الآيات بأبصارهم، جُعِلُوا كأنما أيفت مشاعرهم وانتفت قواهم... وإطلاقها عليهم على طريقة التمثيل، لا الاستعارة إذ من شرطها أن يطوي ذكر المستعار له، بحيث يمكن حمل الكلام على المستعار منه لولا القرينة كقول زهير:

لَدَى أسدٍ شاكي السِّلاحِ مُقَذَّفٍ لَـــهُ لِبَدٌ أَظفَـارُه لم تُـــقَلَّمِ[3].

فالبيضاوي رحمه الله بقوله: (وإطلاقها عليهم على طريقة التمثيل، لا الاستعارة إذ من شرطها أن يطوي ذكر المستعار له، بحيث يمكن حمل الكلام على المستعار منه لولا القرينة)، يشير إلى شرط الاستعارة وما تفترق به الاستعارة عن التشبيه وهي (حذف المشبه أو المشبه به)، مع ضرورة وجود القرينة حتى لا يُحمل الكلام على الحقيقة.

(١) المثل السائر: ٦٣/٢
(٢) أسرار البلاغة: ٢٠
(٣) تفسير البيضاوي: ٥٤/١

أنواع الاستعارة:

تُقسَّمُ الاستعارة إلى مكنية وتصريحية، والبيضاوي رحمه الله في تفسيره (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، لا يقسمها إلى هذين القسمين بل يتركها على إطلاقها ويسميها استعارة دون تحديدها، وسنقسم الاستعارات في تفسير البيضاوي إلى هذين النوعين مما نفهمه من قول البيضاوي عند إجرائه للاستعارات.

أولاً: الاستعارة المكنية:

الاستعارة المكنية هي ما حذف منها المشبه به (المستعار منه)، وبقيت صفة من صفاته، أو لازمة من لوازمه(١)

من الاستعارات المكنية قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ ﴾ مريم: ٤، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً)** شبه الشيب في بياضه وإنارته بشواظ النار وانتشاره وفشوه في الشعر باشتعالها، ثم أخرجه مخرج الاستعارة وأسند الاشتعال إلى الرأس الذي هو مكان الشيب مبالغة، وجعله مميزاً إيضاحاً للمقصود(٢).

ففي هذه الآية شبه الله الشيب في الرأس بشواظ النار، فيكون الشيب مشبهاً، وشواظ النار مشبهاً به، لكنه لم يذكر (الشواظ) الذي هو المشبه به، بل أتى بصفة من صفات الشواظ ولازم من لوازمه وهو الاشتعال، وبذلك تكون استعارة مكنية.

فهنا لا تقف كلمة **(اشْتَعَلَ)** عند معنى انتشر فحسب، ولكنها تحمل معنى دبيب الشيب في الرأس في بطء وثبات، كما تدب النار في الفحم مبطئة، ولكن في دأب واستمرار، حتى إذا تمكنت من الوقود اشتعلت في قوة لا تبقى ولا تذر، كما يحرق الشيب ما يجاوره من شعر الشباب، حتى لا يذر شيئا إلا التهمه، وأتى عليه(٣).

وقد مثَّل الخفاجي بهذه الآية على الاستعارة فقال: **(وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً)** استعارة لأن الاشتعال للنار ولم يوضع في أصل اللغة للشيب فلما نقل إليه بان المعنى لما اكتسبه من التشبيه

(١) من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان ، ٢١٧
(٢) تفسير البيضاوي: ٢/٣٦٠
(٣) من بلاغة القرآن لأحمد البدوي: ١٦٧

لأن الشيب لما كان يأخذ في الرأس ويسعى فيه شيئاً فشيئاً حتى يحيله إلى غير لونه الأول كان بمنزلة النار التي تشتعل في الخشب وتسري حتى تحيله إلى غير حاله المتقدمة(١).

أمَّا العلوي فقد رأي في الآية دقائق بلاغية بالإضافة إلى الاستعارة فقال: وهي – يقصد الآية– من محاسن المجاز، ومن مثمرات البلاغة، وبلاغتها قد ظهرت من جهات ثلاث.

الجهة الأولى: إسناد الاشتعال إلى الرأس لإفادة شمول الاشتعال بجميع الرأس، بخلاف ما لو قال: اشتعل شيب رأسي، فإنه لا يؤدي هذا المعنى بحال.

الجهة الثانية: الإجمال والتفصيل في نصب التمييز، فإنك إذا نصبت شَيْباً كان المعنى مخالفا لما إذا رفعته، فقلت: اشتعل شيب رأسي، لما في النصب من المبالغة دون غيره.

الجهة الثالثة: تنكير قوله شيبا، لإفادة المبالغة، ثم إنه ترك لفظ (منى) فى قوله واشتعل الرأس شيبا، اتكالا على قوله: (وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي)(٢).

ومثال الاستعارة المكنية في القرآن الكريم أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ الأعراف: ١٥٤.

قال البيضاوي رحمه الله: **(وَلَمَّا سَكَتَ)** سكن وقد قرئ به. **(عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ)** باعتذار هارون، أو بتوبتهم وفي هذا الكلام مبالغة وبلاغة من حيث أنه جَعَل الغضب الحامل له على ما فعل كالآمر به والمغري عليه حتى عبر عن سكونه بالسكوت(٣).

فيشير البيضاوي رحمه الله بقوله السابق إلى وجود استعارة، حيثُ جُعِل الغضب كالإنسان الذي يأمر ويغري ويسكت، فقد شبه الغضب بالإنسان، وحذف المشبه به الذي هو (الإنسان)، وأتى بصفة من صفاته وهي السكوت على سبيل الاستعارة المكنية.

(١) سر الفصاحة: ١١٨
(٢) الطراز: ٢٣١/٣ بتصرف
(٣) تفسير البيضاوي: ٥٧٤/١

قال العلوي في كتاب الطراز في هذه الآية: فوصف الغضب بالسكوت على جهة الاستعارة، فالمستعار هو السكوت، والمستعار له هو الغضب، والجامع بينهما هو زوال الغضب، كما أن السكوت زوال الكلام(١).

ومن الاستعارات المكنية أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ يس: ٣٧، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ)** نزيله ونكشفه عن مكانه مستعار من سلخ الجلد(٢).

السلخ في اللغة معناه كَشْطُ الإهابِ عَنْ ذِيهِ. سَلَخَ الإهابَ يَسْلُخه ويَسْلَخه سَلْخاً: كَشَطه. والسَّلْخُ: مَا سُلِخَ عَنْهُ... وَشَاةٌ سَلِيخٌ: كُشِطَ عَنْهَا جلدُها(٣).

والبيضاوي نفسه يشير إلى معنى السلخ في آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ ﴾ التوبة: ٥، قال البيضاوي رحمه الله: **(فَإِذَا انْسَلَخَ)** انقضى، وأصل الانسلاخ خروج الشيء مما لابسه من سلخ الشاة(٤).

لما كان السلخ في الأصل كشط الجلد عن اللحم، كان استعماله في هذه الآية على سبيل الاستعارة المكنية وذلك لأنه شبه الليل والنهار في التصاقهما ببعضهما واتحادهما بالجلد واللحم في الشاة حيث يكونان في كامل الالتصاق والاتحاد، وحذف المشبه به وهو الجلد واللحم وأتى بصفة من صفاتهما وهي السلخ على سبيل الاستعارة المكنية.

ولذلك فإن التعبير بـ(نسلخ)، جاء لإفادة معانٍ بلاغية غاية في الدقة والجمال، منها كما اتضح سابقاً شدة الالتحام والاندماج بين الليل والنهار ومن هنا صح استخدام (نسلخ)، وفي هذا يقول العلوي: فشبه انفصال الليل من النهار بسلخ الأديم عن الشاة، وهذا يدلك على عظم اتصال الليل بالنهار وشدة التحامه به، ولهذا فإنك ترى الفجر عند طلوعه، نوره في غاية الامتزاج والاختلاط بظلام الليل، فلا يزال النهار في قوة، وغلبة، وظهور، حتى يستولى عليه بالإنارة فيمحوه ويزيله،

(١) الطراز: ١٨٧/٣
(٢) تفسير البيضاوي: ١٣٢/٣
(٣) لسان العرب (سلخ): ٢٤/٣-٢٥
(٤) تفسير البيضاوي: ٣٧/٢

فالسلخ مؤذن بشدة الالتحام، كالجلد، والغشيان مؤذن بعظم الاستيلاء والاشتمال، وكلاهما مشعر بالاتصال البالغ(١).

ومن المعاني التي تشير إليها الاستعارة في **(نسلخ)**، معنى التدرج في التحول والانتقال من الليل إلى النهار، "لأن انسلاخ الشيء عن الشيء هو أن يتبرأ منه ويزول عنه حالا فحالا وكذلك انفصال النهار عن الليل والانسلاخ أبلغ من الانفصال لما فيه من زيادة البيان"(٢).

فكلمة **(نَسْلَخُ)** تصور للعين انحسار الضوء عن الكون قليلا قليلا، ودبيب الظلام إلى هذا الكون في بطء، حتى إذا تراجع الضوء ظهر ما كان مختفيا من ظلمة الليل(٣).

ومن الاستعارات المكنية في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿**ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ**﴾ البقرة: ٦١، وقوله تعالى: ﴿**ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ**﴾ آل عمران: ١١٢.

قال البيضاوي رحمه الله: **(وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ)** أحيطت بهم إحاطة القبة بمن ضربت عليه، أو ألصقت بهم، من ضرب الطين على الحائط(٤).

وقال أيضاً: **(وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ)** فهي محيطة بهم إحاطة البيت المضروب على أهله(٥).

فقد شبه الله عز وجل الذلة والمسكنة التي فرضها على بني إسرائيل بسبب عنادهم وعتوهم، شبهها بالخيمة أو القبة التي تُضرب فتحيط بأهلها إحاطة كاملة، وحذف الخيمة وأتى بصفة من صفاتها ولازمة من لوازمها على سبيل الاستعارة المكنية.

ويقول السيوطي في حاشيته على تفسير البيضاوي وهو يستعرض معنى **(ضرب)**: وضرب الخيمة بضرب أوتادها بالمطرقة، وتشبيها بضرب الخيمة قال تعالى: **(وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ)** أي:

---

(١) الطراز: ٧٩/١
(٢) سر الفصاحة: ١٢١
(٣) من بلاغة القرآن لأحمد البدوي: ١٦٧
(٤) تفسير البيضاوي: ١٠٦/١
(٥) تفسير البيضاوي: ٢٨٨/١

التحفتهم الذلة التحاف الخيمة، ومنه استعير ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ الكهف: ١١[١].

ويقول أبو السعود في تفسيره لهذه الآية: **(وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة والمسكنة)** أي جعلتا محيطتين بهم إحاطةَ القُبة بمن ضربت عليه أو ألصِقتا بهم وجعلتا ضربةَ لازبٍ لا تنفكان عنهم مجازاةً لهم على كُفرانهم من ضرب الطين على الحائط بطريق الاستعارة بالكناية[٢].

ومن الاستعارات المكنية التي أشار إليها البيضاوي في تفسيره قوله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾ الشعراء: ٢١٥، **وقوله تعالى:** ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ الإسراء: ٢٤.

قال البيضاوي رحمه الله: **(وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)** ليّن جانبك لهم، مستعار من خفض الطائر جناحه إذا أراد أن ينحط[٣].

وقال البيضاوي أيضاً: **(وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ)** تذلل لهما وتواضع فيهما، وجعل للذل جناحاً كما جعل لبيد في قوله:

وَغَدَاةَ رِيحٍ قَدْ كشفت وَقــرة إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشَّمَالِ زِمَامُهَا

للشمال يداً أو للقرة زماماً، وأمره بخفضه مبالغة أو أراد جناحه كقوله تعالى: **(وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)**. وإضافته إلى الذل للبيان والمبالغة كما أضيف حاتم إلى الجود، والمعنى واخفض لهما جناحك الذليل[٤].

شبه الذل بطائر بجامع الخضوع واستعير الطائر للذل، ثم حذف ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الجناح، على طريق الاستعارة بالكناية، وإثبات الجناح للذل استعارة تخييلية، وهي

(١) نواهد الأبكار: ٢/١٤٨-١٤٩
(٢) تفسير أبي السعود: ١/١٠٧
(٣) تفسير البيضاوي: ٢/٥٥٥
(٤) تفسير البيضاوي: ٢/٢٩٧-٢٩٨

قرينة المكنية، ويجعل الطائر مستعارا للمخاطب "أي: للولد في معاملة والديه" والأصل واخفض لهما جناحك ذلا، ونحوه قوله تعالى: **(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)** [1].

ومن الاستعارات المكنية أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي ﴾ هود: ٤٤، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي)** نوديا بما ينادي به أولو العلم وأمرا بما يؤمرون به، تمثيلاً لكمال قدرته وانقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما بالأمر المطاع الذي يأمر المنقاد لحكمه المبادر إلى امتثال أمره، مهابة من عظمته وخشية من أليم عقابه[2].

فقد شبه الله تعالى الأرض والسماء بالكائن الحي أو الإنسان الذي يؤمر، فالأرض تبلع الماء، والسماء تقلع، وفيها إشارة إلى عظيم قدرة الله وامتثال مخلوقاته العظيمة والكبيرة إلى أوامره، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية.

ثانياً: الاستعارة التصريحية:

إذا ذكر في الكلام لفظ المشبه به فقط، فاستعارة تصريحية أو مصرّحة، ومعنى "تصريحية" أي مصرح فيها باللفظ الدال على المشبه به[3].

من الاستعارات التصريحية التي أشار إليها البيضاوي رحمه الله في تفسيره قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾ الأعراف: ١٥٧، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ)** أي مع نبوته يعني القرآن، وإنما سماه نوراً لأنه بإعجازه ظاهر أمره مظهر غيره، أو لأنه كاشف الحقائق مظهر لها، ويجوز أن يكون معه متعلقاً باتبعوا أي واتبعوا النور المنزل مع اتباع النبي فيكون إشارة إلى اتباع الكتاب والسنة[4].

فقد يكون المراد بالنور على ما أشار البيضاوي رحمه الله القرآن الكريم، أو القرآن والسنة معاً، وفيها استعارة تصريحية حيث شبه الكتاب أو الكتاب والسنة بالنور، وحذف المشبه وصرَّح بالمشبه به.

---

(١) علوم البلاغة للمراغي: ٢٧١
(٢) تفسير البيضاوي: ١٣٢/٢
(٣) جواهر البلاغة: ٢٦٠
(٤) تفسير البيضاوي: ٥٧٦/١

ومثال الاستعارة التصريحية أيضاً قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ الأنعام: ١٢٢، قال البيضاوي رحمه الله: (أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ) مثل به من هداه الله سبحانه وتعالى وأنقذه من الضلال وجعل له نور الحجج والآيات يتأمل بها في الأشياء، فيميز بين الحق والباطل والمحق والمبطل(١).

ففي الآية عدة استعارات تصريحية، فقد شبه الله الضال بالميت وحذف المشبه وصرح بالمشبه به فقال: (أو من كان ميتاً)، والاستعارة الثانية: (فأحييناه) ففيها شبه الله الهداية التي تحصل للإنسان بالحياة، وحذف المشبه وهو الهداية وصرح بالمشبه به، والثالثة: (وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس)، فقد شبه الله الحجج والآيات والدلائل العقلية والنقلية بالنور على سبيل التصريحية، والرابعة قوله: (كمن مثله في الظلمات) حيث شبه الكفر والضلال بالظلمات وحذف المشبه، وأبقى على المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية.

ففي الآية استعارتان قوبلتا باستعارتين، (الموت والحياة) للضلال والهداية، و(النور والظلمات) للإيمان والكفر.

ومنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾﴾ المدثر: ١ – ٢، قال البيضاوي رحمه الله: (**يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ**) أي المتدثر وهو لابس الدثار... وقيل المراد بالمدثر المتدثر بالنبوة والكمالات النفسانية، أو المختفي فإنه كان بحراء كالمختفي فيه على سبيل الاستعارة(٢).

فيشير البيضاوي إلى احتمال أن يُراد بالدثار هنا النبوة أو الكمالات النفسية والأخلاق السامية، أو المختفي بغار حراء، وعلى هذا يصح أن يكون هنا استعارة تصريحية، حيث شبه النبوة أو غار حراء، بالدثار الذي يلبسه الإنسان ويغطي به نفسه، فحذف المشبه وصرَّح بالمشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ الأنعام: ٩٧، قال البيضاوي رحمه الله: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ) خلقها لكم.

(١) تفسير البيضاوي: ٥١٥/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٤٦٤/٣

(لِتَهْتَدُوا بِها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) في ظلمات الليل في البر والبحر، وإضافتها إليهما للملابسة أو في مشتبهات الطرق وسماها ظلمات على الاستعارة[١].

فقد يكون المقصود بقوله تعالى: **(في ظلمات البر والبحر)**، في الطرق المشتبهة، ويؤيد هذا أن سياق الآية جاء للحديث عن النجوم وفائدتها في الاهتداء بها ومعرفة الطرق، لذلك يكون في الآية تشبيه للطرق المشتبهة بالظلمات وحذف المشبه الذي هو **(الطرق)** وأبقى على المشبه به وهو **(الظلمات)** على سبيل الاستعارة التصريحية.

وقريباً من الآية السابقة قوله تعالى: ﴿ **قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ** ﴿٦٣﴾ ﴾ الأنعام: ٦٣، قال البيضاوي رحمه الله: (قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) من شدائدهما، استعيرت الظلمة للشدة لمشاركتهما في الهول وإبطال الإبصار فقيل لليوم الشديد يوم مظلم ويوم ذو كواكب، أو من الخسف في البر والغرق في البحر[٢].

فقد شبه الله الشدائد التي يمر بها الإنسان سواء في البر أو البحر شبهها بالظلمات على سبيل الاستعارة التصريحية.

ومنها قوله تعالى: (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ) (لقمان: ١٩)، قال البيضاوي رحمه الله: (لَصَوْتُ الْحَمِيرِ) والحمار مثل في الذم سيما نهاقه ولذلك يكنى عنه فيقال طويل الأذنين، وفي تمثيل الصوت المرتفع بصوته ثم إخراجه مخرج الاستعارة مبالغة شديدة[٣].

فالمراد بـ**(إن أنكر الأصوات لصوت الحمير)**، أن الذي يعلي صوته هو مثل نهاق الحمير، فحذف المشبه وهو كل معلٍ لصوته وأبقى على المشبه به وهو صوت الحمار على سبيل الاستعارة التصريحية.

أنواع الاستعارة باعتبار ما يتصل بها من الملاءمات:

تُقسَّم الاستعارة باعتبار ما يتصل بها من ملاءمات، إلى مرشحة ومجردة ومطلقة، فإذا ذكر في الاستعارة ما يلائم المشبه به (المستعار منه) كانت الاستعارة مرشحة، أما إذ ذكر معها

(١) تفسير البيضاوي: ٥٠٧/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٤٩٦/١
(٣) تفسير البيضاوي: ٦٤/٣

ما يلائم المشبه (المستعار له) كانت مجردة، وإذا خلت مما يلائم المشبه والمشبه به، أو ذكر معها ما يلائم الطرفين فهي مطلقة[1]، وسنأتي على ذكر أمثلة على هذه الاستعارات كما في تفسير البيضاوي رحمه الله:

١. الاستعارة المرشحة:

مثالها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ الأنعام: ٦٠، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ)** ينيمكم فيه ويراقبكم، استعير التوفي من الموت للنوم لما بينهم من المشاركة في زوال الإحساس والتمييز فإن أصله قبض الشيء بتمامه. **(وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ)** كسبتم فيه خص الليل بالنوم والنهار بالكسب جرياً على المعتاد. **(ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ)** يوقظكم أطلق البعث ترشيحاً للتوفي فِيهِ في النهار[2].

فالبيضاوي رحمه الله بقوله: **(أطلق البعث ترشيحاً للتوفي)** يشير إلى كونها استعارة مرشحة.

فقد شبه الله في هذه الآية النوم بالموت حيث وجه الشبه بينهما زوال الإحساس والتمييز على ما أشار البيضاوي رحمه الله، وحذف المشبه به وهو (الموت)، ودلَّ عليه بالفعل (يتوفاكم)، لتكون استعارة مكنية، لكنه أردف الاستعارة بما يلائم المشبه به المحذوف وهو (البعث)، لأن البعث يلائم الموت ولا يلائم النوم، وما يلائم النوم هو أن يُقال (ثم يوقظكم)، لكنه جاء بـ(يبعثكم) ترشيحاً للاستعارة.

ومثالها أيضاً قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ البقرة: ١٦، قال البيضاوي رحمه الله: **(أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى)** اختاروها عليه واستبدلوها به، وأصله بذل الثمن لتحصيل ما يطلب من الأعيان... ثم اتسع فيه فاستعمل للرغبة عن الشيء طمعاً في غيره، والمعنى أنهم أخلوا بالهدى الذي جعله الله لهم بالفطرة التي فَطَرَ الناس عَلَيْهَا محصلين الضلالة التي ذهبوا إليها. أو اختاروا الضلالة واستحبوها على الهدى. **(فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ)**. ترشيح للمجاز، لَمَّا استعمل الاشتراء في معاملتهم أتبعه ما يشاكله تمثيلاً لخسارتهم، ونحوه:

(١) انظر: من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان ، ٢٢٥

(٢) تفسير البيضاوي: ٤٩٥/١

وَلَّما رأيتُ النسرَ عزَّ ابن دأية وعَشَّشَ في وَكْرَيْهِ جَاشَ لَهُ صَدْري[1].

فقد شبه الضلالة بالبضاعة أو السلعة والهدى بالثمن الذي يدفع، على سبيل الاستعارة المكنية وأتى بلازم من لوازمها وهو الشراء، وقد أعقب هذه الاستعارة بقوله: **(فما ربحت تجارتهم)**، والتجارة والربح تلائم المشبه به وهو البضاعة لتكون من الاستعارات المرشحة.

أمَّا البيت الذي استشهد به البيضاوي رحمه الله فقد أورده الزمخشري في الكشاف وعلَّق عليه ابن المنير السكندري في حاشيته (الانتصاف فيما تضمنه الكشاف)، فقال: شبه الشيب بالنسر بجامع البياض، واستعاره له تصريحاً. وشبه الشباب بالغراب- وهو ابن داية- بجامع السواد كذلك...والتعشيش في الوكرين ترشيح للاستعارتين[2].

ومن إشارات البيضاوي رحمه الله إلى الاستعارات المرشحة قوله: **(فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ)** استعار الذوق لإدراك أثر الضرر، واللباس لما غشيهم واشتمل عليهم من الجوع والخوف، وأوقع الإذاقة عليه بالنظر إلى المستعار له...وقد ينظر إلى المستعار كقوله:

يُنَازِعْني رِدَائي عَبْدُ عَمْرو رُوَيْدَكَ يَا أَخَا عَمْرُو بن بَكْرِ
لِي الشَّطرُ الَّذِي مَلَكت يَمِيني وَدُونَكَ فَاعْتَجِرْ مِنْهُ بِشَطْرِ

استعار الرداء لسيفه ثم قال فاعتجر نظراً إلى المستعار[3].

فقوله تعالى: **(فأذاقها الله لباس الجوع والخوف)** من الاستعارات المجردة على ما سيتم تفصيله لاحقاً، لكنه عقَّب بأنه قد يأتي عقب الاستعارة بما يلائم المستعار، واستدل على ذلك بهذه الأبيات فتكون هذه الأبيات مثالاً على الاستعارة المرشحة.

ومعنى الأبيات والشاهد فيها أن الشاعر "يقول: ينازعني عبد عمرو سيفي الذي أقي به نفسي وعرضي، ثم التفت وقال له: تمهل، فسأقسم بيني وبينك، فأحتفظ لنفسي بقائمه الذي بيدي، وأعطيك أنت صدره يريد: أنه سيضربه على رأسه بصدر سيفه ضربا يشق ذلك الرأس ويشطره،

(١) تفسير البيضاوي: ٥١/١
(٢) حاشية الانتصاف فيما تضمنه الكشاف: ضمن تفسير الكشاف للزمخشري: ٧١/١
(٣) تفسير البيضاوي: ٢٨٣/٢

فهو يهدده بالقتل حسما للنزاع. والشاهد فيه: استعارة الرداء للسيف، ثم وصف الرداء الذي هو المستعار منه بما يلائمه من الاعتجار –إذ هو لف الرأس بنحو ثوب– ترشيحاً للاستعارة"[١].

٢. الاستعارة المجردة:

حيث يذكر عقب الاستعارة ما يلائم المشبه (المستعار له)، مثالها قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ النحل: ١١٢.

قال البيضاوي رحمه الله: **(فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ)** استعار الذوق لإدراك أثر الضرر، واللباس لما غشيهم واشتمل عليهم من الجوع والخوف، وأوقع الإذاقة عليه بالنظر إلى المستعار له كقول كثير:

غمرُ الرِّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكًا غلقَتْ لِضَحْكَتِهِ رِقَابُ المال

فإنه استعار الرداء للمعروف لأنه يصون عرض صاحبه صون الرداء لمَّا يلقى عليه، وأضاف إليه الغمر الذي هو وصف المعروف والنوال لا وصف الرداء نظراً إلى المستعار له[٢].

فقد شبه الله تعالى الحالة التي كانوا عليها من جوع وخوف بعد ما كفروا بأنعم الله باللباس الذي يلبسه الإنسان للدلالة على إحاطة الجوع والخوف بهم كإحاطة اللباس بالإنسان، فتكون **(الجوع والخوف)** مشبَّهات، و**(اللباس)**، مشبه به، وقد جاء لفظ: **(فأذاقها)**، وهذا اللفظ يلائم المشبه (الذي هو الجوع) لتكون من قبيل الاستعارة المجردة.

(١) المنهاج الواضح للبلاغة: حامد عوني ج٣ص٢٦٨، المكتبة الأزهرية للتراث.

(٢) تفسير البيضاوي: ٢٨٣/٢

المبحث الرابع: الكناية والتعريض

المطلب الأول: الكناية:

الكناية لغة: أَن يُكْنَى عَنِ الشَّيْءِ الَّذِي يُستفحش ذِكْرُهُ... والكِنَايَة: أَن تَتَكَلَّمَ بِشَيْءٍ وَتُرِيدَ غَيْرَهُ. وكَنَى عَنِ الأَمر بِغَيْرِهِ يَكْنِي كِنَايَةً: يَعْنِي إِذا تَكَلَّمَ بِغَيْرِهِ مِمَّا يَسْتَدِلُّ عَلَيْهِ نَحْوَ الرَّفَثِ وَالْغَائِطِ وَنَحْوِهِ [١].

الكناية اصطلاحاً: عرَّفها الإمام عبد القاهر الجرجاني فقال: أن يُريد المتكلمُ إثباتَ معنًى من المَعاني، فلا يذكُرُه باللّفظِ الموضوعِ له في اللُّغة، ولكنْ يَجيءُ إلى معنى هو تاليهِ ورِدْفُه في الوجود، فيومئ به إليهِ، ويجعلهُ دليلاً عليه[٢].

وعرَّف السكَّاكي الكناية فقال: الكناية هي ترك التصريح بذكر الشيء على ما ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور على المتروك[٣].

وقال ابن الأثير: كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز [٤].

وعرَّف العلوي الكناية فقال: هي اللفظ الدال على معنيين مختلفين، حقيقة ومجاز من غير واسطة، لا على جهة التصريح[٥].

والتعريف الجامع للكناية أنها: لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ[٦].

تعريف البيضاوي للكناية:

عرَّف البيضاوي الكناية فقال: والكناية هي الدلالة على الشيء بذكر لوازمه وروادفه، كقولك الطويل النجاد للطويل، وكثير الرماد للمضياف[٧].

---

(١)انظر: لسان العرب (كني): ١٥/٢٣٣-٢٣٤
(٢) دلائل الإعجاز: ٦٦
(٣) مفتاح العلوم: ٤٠٢
(٤) المثل السائر: ٣/٥٢
(٥) الطراز: ١/١٨٩
(٦) بغية الإيضاح: ٣/٥٣٨
(٧) تفسير البيضاوي: ١/٢٠٤

فائدة الكناية والبلاغة فيها:

أجمع البلاغيون على أن الكناية أفضل من التصريح كما نقل الإمام عبد القاهر في الدلائل فقال: "**قد أَجمعَ الجميعُ على أن الكنايةَ أَبْلَغُ منَ الإفصاحِ**"(١)، والسبب في ذلك هو أن الكلام المسوق بطريق الكناية يكون أشد تأكيداً وأكثر تثبيتاً من المسوق صراحة كما يرى الإمام عبد القاهر إذ يقول: تفسيرُ هذا: أنْ ليس المعنى إذا قلنا: "إن الكنايَة أبْلغُ منَ التَّصريح"، أَنك لمَّا كنَّيْتَ عن المعنى زدْتَ في ذاته، بل المعنى أَنك زِدْتَ في إثباتهِ، فجَعلْتَه أبلغَ وآكَدَ وأَشَدَّ(٢).

ووجه التأكيد في الكناية أنك تذكر فيها ما هو دليل على هذه الصفة وشاهد عليه "فكلَّ عاقلٍ يَعْلمُ إذا رجعَ إلى نفسهِ، أَنَّ إثباتَ الصفةِ بإثباتِ دَليلِها، وإيجابَها بما هُو شاهِدٌ في وجودِها، آكدُ وأبلغُ في الدعوى من أن تجيء إليها فثبتها هكذا ساذَجاً غُفْلاً. وذلك أَنَّكَ لا تدَّعي شاهدَ الصفةِ ودليلهَا إلاَّ والأَمرُ ظاهرٌ معروفٌ، وبحيثُ لا يُشَكُّ فيه، ولاَ يُظَنُّ بالمُخْبر التجوُّزُ والغَلَطُ"(٣).

الفرق بين الكناية والمجاز:

هناك فرق بين الكناية والمجاز، فرغم أنهما يتشابهان في كون كل منهما أن يطلق اللفظ ويراد غيره، إلا أنهما يختلفان في كون الكناية تأتي مع احتمال أن يراد بها المعنى الأصلي للفظ، بخلاف المجاز فلا يصح أن يُقصد بها المعنى الأصلي.

وفي هذا يقول السكاكي: والفرق بين المجاز والكناية يظهر من وجهين أحدهما أن الكناية لا تنافي إرادة الحقيقة بلفظها فلا يتمنع في قولك فلان طويل النجاد أن تريد طول نجاده من غير ارتكاب تأويل مع إرادة طول قامته وفي قولك فلانة نئومة الضحى أن تريد أنها تنام ضحى لا عن تأويل يرتكب في ذلك مع إرادة كونها مخدومة مرفهة والمجاز ينافي ذلك فلا يصح في نحو رعينا الغيث أن تريد معنى الغيث وفي نحو قولك في الحمام أسد أن تريد معنى الأسد من غير تأويل وأنى والمجاز ملزوم قرينة معاندة لإرادة الحقيقة(٤).

---

(١) دلائل الإعجاز: ٧٠
(٢) دلائل الإعجاز: ٧١
(٣) دلائل الإعجاز: ٧٢
(٤) مفتاح العلوم: ٣٠٣

الكناية في تفسير البيضاوي:

كثرت الكنايات في القرآن الكريم، ومن ثَمَّ نرى الشيخ البيضاوي يأتي على ذكر كثير منها في تفسيره، والكناية ثلاثة أنواع:

أولاً: الكناية عن صفة:

وهي التي تأتي للدلالة على صفة من الصفات كالكرم والشجاعة، وغيرها، وسنحاول أن نجمع بعض الكنايات التي جاءت في القرآن للدلالة على صفات معينة تحت عناوينها، فمنها:

١. الكناية عن صفة البخل:

قوله تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ التوبة: ٦٧، قال البيضاوي رحمه الله: (وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ) عن المبار، وقبض اليد كناية عن الشح[١].

لمَّا كانت اليد هي آلة العطاء والمنح، كان قبضها دليل بخل وشح، لذلك فإن المعنى من قوله تعالى: (يقبضون أيديهم) جاء كناية عن بخلهم وشحهم.

ويقول صاحب التحرير والتنوير في قوله تعالى: **(وقالت اليهود يد الله مغلولة)** الوصف بالبخل في العطاء لأن العرب يجعلون العطاء معبرا عنه باليد، ويجعلون بسط اليد استعارة للبذل والكرم، ويجعلون ضد البسط استعارة للبخل فيقولون: أمسك يده وقبض يده[٢].

٢. الكناية عن صفة الكرم:

وفي مقابل البخل الذي تحدث الله عنه في الآية السابقة فإن الله عندما تحدَّث عن نفسه العليَّة وعن جوده وكرمه للرد على اليهود قال عن نفسه: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ المائدة: ٦٤، فكما أن قبض اليد جاء كناية عن البخل والشح، فإن بسطها هو كناية عن الكرم والجود.

فبسط الكف أو اليد كناية عن الكرم، ولذلك يقول البيضاوي تعقيباً على قوله تعالى: **(بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ)**، قال: ثنَّى اليد مبالغة في الرد ونفي البخل عنه تعالى وإثباتاً لغاية الجود، فإن

(١) تفسير البيضاوي: ٦٣/٢

(٢) التحرير والتنوير: ٢٤٩/٦

غاية ما يبذله السخي من ماله أن يعطيه بيديه، وتنبيهاً على منح الدنيا والآخرة وعلى ما يعطي للاستدراج وما يعطي للإكرام(١).

ولهذا نرى جريراً عندما أراد أن يمدح قوماً بالكرم قال فيهم في البيت الذي يُقال أنه أفضل ما قيل في المدح، قال جرير:

ألستم خير من رَكِب المطايا وأندى العالمين بطون راح

٣. الكناية عن صفة الندم:

من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ الأعراف: ١٤٩، قال البيضاوي رحمه الله: (**وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ**) كناية عن اشتداد ندمهم فإن النادم المتحسر يعض يده غماً فتصير يده مسقوطاً فيها(٢).

فقوله تعالى: (سقط في أيديهم) جاءت كناية عن صفة الندامة والحسرة التي وقعت لبني إسرائيل بسبب ضلالهم واتباعهم أهواءهم.

ومن كنايات الندم قوله تعالى: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ ﴾ الكهف: ٤٢، قال البيضاوي رحمه الله: (فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ) ظهراً لبطن تلهفاً وتحسراً...لأن تقليب الكفين كناية عن الندم فكأنه قيل: فأصبح يندم، أو حال أي متحسراً على ما أنفق فيها(٣).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ الفرقان: ٢٧، قال البيضاوي رحمه الله: (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ) من فرط الحسرة، وعض اليدين وأكل البنان وحرق الأسنان ونحوها كنايات عن الغيظ والحسرة لأنها من روادفهما(٤).

---

(١) تفسير البيضاوي: ٤٤٩/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٥٧٣/١
(٣) تفسير البيضاوي: ٣٤٠/٢
(٤) تفسير البيضاوي: ٥٢٠/٢

٤. الكناية عن صفة الاكتئاب والاغتمام:

مثالها قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ النحل: ٥٨، قال البيضاوي رحمه الله: **(ظَلَّ وَجْهُهُ)** صار أو دام النهار كله. **(مُسْوَدًّا)** من الكآبة والحياء من الناس. واسوداد الوجه كناية عن الاغتمام والتشوير[١].

٥. الكناية عن صفة التكبر:

مثالها قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ ﴾ الإسراء: ٨٣، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَنَأى بِجانِبِهِ)** لوى عطفه وبعد بنفسه عنه كأنه مستغن مستبد بأمره، ويجوز أن يكون كناية عن الاستكبار لأنه من عادة المستكبرين[٢].

فلما كان النأي بالجنب من عادات المستكبرين كان تحريق الجنوب بالنار إضافة للوجوه جزاء لهم يوم القيامة على استكبارهم، فلذلك قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ التوبة: ٣٤ – ٣٥

ومثالها أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ﴾ الحج: ٨ – ٩، قال البيضاوي رحمه الله: (ثانِيَ عِطْفِهِ) متكبراً وثني العطف كناية عن التكبر كليّ الجيد، أو معرضاً عن الحق استخفافاً به[٣].

فالآيتان السابقتان جاءتا للدلالة على مدى التكبر والاستخفاف عند المُنعَم عليه، والمجادل، وكأن فائدة الكناية هنا جاءت لتسجيل حركاتهم وإماءاتهم وإشاراتهم التي كانوا يتلامزون بها، أمام المؤمنين، فالله يريد في هذه الآيات أن يقول لهم أن حركاتِهم الصغيرة كالنأي بالجنب، أو ثني العطف مسجلةٌ عليهم محاسبون عليها فمن باب أولى ستكون أقوالهم وأفعالهم المعادية للإسلام وبالاً عليهم، ويحاسبون عليها حساباً عسيراً.

(١) تفسير البيضاوي: ٢/٢٦٦
(٢) تفسير البيضاوي:
(٣) تفسير البيضاوي: ٢/٤٤٠

٦. الكناية عن الموت:

مثالها قوله تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ الحج: ٣٦، قال البيضاوي رحمه الله: (فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها) سقطت على الأرض وهو كناية عن الموت[١].

وهنا قد يرِد سؤالٌ مفاده: ما فائدة الكناية في هذه الآية؟ أي لماذا قال الله: **(فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فكلوا منها)**، ولم يقل: (فإذا ماتت فكلوا منها).

قد يكون الجواب على هذا السؤال أن الآية جاءت للحديث عن الأضاحي، وقد قرَّر العلماء أن سيلان الدم شرطٌ لازمٌ حتى يحل الأكل من الأضحية أو الذَّكاة، وذلك أخذاً من قول النبي صلى الله عليه وسلم: **(ما أَنْهَرَ الدَّم وذُكِر اسمُ الله عليه فكُلْ)** [٢].

ومعلومٌ أن إجراء الدم وسيلانه حتى آخره لا يكون إلا إذا سقطت على الأرض، وبذلك كان التعبير بـ(إذا وجبت جنوبها) أبلغ وأكثر دلالة على المراد من التعبير بـ(ماتت، أو ذُبحت)، لأنه قد يُفهم من موتها الموت بأي طريقة كانت من الطرق الأخرى سوى الذبح كالضرب على الرأس أو التردي من عُلُوٍّ، وقد يُفهم من الذبح، مجرد إجراء السِّكِّين على رقبتها دون خروج سائر الدم.

٧. الكناية عن صفة التحقير:

مثالها قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ ﴾ ص: ٦٢ – ٦٣، قال البيضاوي رحمه الله: **(أَمْ زاغَتْ)** مالت. **(عَنْهُمُ الْأَبْصارُ)** فلا نراهم...على أن المراد نفي رؤيتهم لغيبتهم كأنهم قالوا: أليسوا ها هنا أم زاغت عنهم أبصارنا...بمعنى أي الأمرين فعلنا بهم الاستسخار منهم أم تحقيرهم، فإن زيغ الأبصار كناية عنه على معنى إنكارهما على أنفسهم[٣].

---

(١) تفسير البيضاوي: ٤٤٩/٢

(٢) أحكام الأضحية والذكاة (مطبوع ضمن كتاب الصيد الثمين في رسائل ابن عثيمين): محمد العثيمين، ص٢٣٥، دار الثقة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م

(٣) تفسير البيضاوي: ١٧٧/٣–١٧٨

فالكافرون في النار يتذاكرون ضعفاء المؤمنين وما كانوا يفعلونه بهم من الاستسخار وزيغ الأبصار عنهم، فزيغ الأبصار هنا كناية عن تحقيرهم، فهم في نظرهم أقل من أن يُنظر إليهم فضلاً عن محادثتهم والوقوف معهم.

وبهذا تكون فائدة الكناية هنا إبراز مدى اللوم والحسرة التي يكون عليها الكفار في النار إذ أنهم لا يرون من كانوا يحتقرونهم معهم في نفس المكان.

وهنا يتضح معنى دقيق يبرز من وراء ستر الكناية، وهو أن الطغاة لما استرذلوا المؤمنين واحتقروهم ورفضوا مجالستهم والوقوف معهم وحتى مجرد النظر إليهم، كان جزاؤهم أنهم محرومون من أن ينزلوا منازلهم في جنة الله، فهم يبحثون عنهم ويسألون عن مكانهم لعلهم يستطيعون إليهم سبيلاً فيقولون أين هم؟ ما لنا لا نراهم؟ على سبيل التحسر والندم.

٨. الكناية عن صفة الجهل:

مثالها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ البقرة: ٢٦ قال البيضاوي رحمه الله: (وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ) كان من حقه: (وأما الذين كفروا فلا يعلمون)، ليطابق قرينه ويقابل قسيمه، لكن لما كان قولهم هذا دليلاً واضحاً على كمال جهلهم عدل إليه على سبيل الكناية ليكون كالبرهان عليه[1].

قسَّم الله الناس في فهم الآيات والأمثال التي يضربها الله لهم إلى صنفين، صنف مؤمن، وصفهم بأنهم يعلمون، وكان القياس أن يقابلهم بالكافرين ويصفهم بأنهم (يجهلون أو لا يعلمون)، ولكن الله لم يقل ذلك بل عدل عن التصريح بجهلهم إلى الكناية وهو قولهم: (ماذا أراد الله بهذا مثلاً)، ولا شك أن ذلك أبلغ وإحضاراً للدليل والبرهان كما أشار البيضاوي رحمه الله.

٩. الكناية عن صفة الغضب:

مثالها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ آل عمران: ٧٧، قال البيضاوي رحمه الله: (أُولئِكَ لاَ خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ) بما يسرهم أو بشيء أصلاً، وأن الملائكة يسألونهم يوم القيامة، أو لا ينتفعون بكلمات الله وآياته، والظاهر أنه كناية عن غضبه

(١) تفسير البيضاوي: ٧٥/١

عليهم لقوله: (وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ) فإن من سخط على غيره واستهان به أعرض عنه وعن التكلم معه والالتفات نحوه، كما أن من اعتد بغيره يقاوله ويكثر النظر إليه[١].

١٠. الكناية عن الجماع:

مثالها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ النساء: ٣٤، قال البيضاوي رحمه الله: **(فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضاجِعِ)** في المراقد فلا تدخلوهن تحت اللحف، أو لا تباشروهن فيكون كناية عن الجماع[٢].

ومثالها أيضاً قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ٤٣﴾ النساء: ٤٣ ، قال البيضاوي رحمه الله: (أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ) أو ماسستم بشرتهن ببشرتكم، وبه استدل الشافعي على أن اللمس ينقض الوضوء. وقيل: أو جامعتموهن...واستعماله كناية عن الجماع أقل من الملامسة[٣].

ثانياً: الكناية عن موصوف:

وهي أن نذكر في الكلام صفة أو عدة صفات، ونريد بها موصوفاً معيناً[٤]

مثالها قوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ١٨﴾ الزخرف: ١٨، قال البيضاوي رحمه الله: **(أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ)** أي أو جعلوا له، أو اتخذ من يتربى في الزينة يعني البنات [٥].

فاللاتي يُنَشَّأنَ في الحلية هن البنات، لذلك كانت هذه كناية عنهن.

فمن المعروف في عادات الناس أنَّهم يُنَشِّئُون بناتهم بما يلائم طبيعتَهُنَّ، وذلك بإعدادهنّ حتّى يكُنَّ زوجاتٍ مالكاتٍ قُلوب أزواجهنّ، وهذا الإعداد يتطلّبُ تدريبَهُنَّ على إتقان زيناتِهِنَّ

(١) تفسير البيضاوي: ٢٧١/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٣٥٤/١
(٣) تفسير البيضاوي: ٣٥٩/١
(٤) من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان ، ٢٣٦
(٥) تفسير البيضاوي: ٢٤٧/٣

وحِلْيَاتِهِنَّ، والتخضُّعِ في القول، ومُجَافَاة الجدال، وعدم تعلُّم الكلام الذي يُقَال في المخاصمات، لئَلاَّ يُفْسِد عليها لسانُها حياتَها مع زوجها، أو مع أحد أولياء أَمْرِها، فجمال المرأة بحشمتها وإتْقان زينتها وضبطِ لسانها عن الخُصُومات(١).

ومن كنايات الموصوف قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ القلم: ٤٨، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ)** يونس عليه السلام(٢).

ثالثاً: الكناية عن نسبة:

والكناية عن نسبة هي "أنهم يرومون وصْفَ الرجل ومدْحَه، وإثباتَ معنًى من المعاني الشريفةِ له، فيَدَعونَ التصْريحَ بذلك، ويُكَنُّونَ عن جَعْلها فيه بِجَعْلها في شيءٍ يَشْتمِلُ عليه وَيتَلبَّس به، ويتوصَّلون في الجملة إلى ما أَرادوا من الإثباتِ، لا من الجهةِ الظاهرةِ المعروفةِ، بل من طريقٍ يَخْفى، ومَسْلكٍ يَدِقُّ"(٣).

مثالها قوله تعالى: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ الزمر: ٥٦، قال البيضاوي رحمه الله: **(عَلى مَا فَرَّطْتُ)** بما قصرت. **(فِي جَنْبِ اللَّهِ)** في جانبه أي في حقه وهو طاعته...وهو كناية فيها مبالغة كقوله:

إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالمُرُوءَةَ وَالنَّدَى فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الحَشْرَجِ(٤).

فقوله: (في جنب الله) كناية عن حقه، ونقل ابن عطية في تفسيره عن مجاهد قوله: "**فِي جَنْبِ اللَّهِ أي في أمر الله**"(٥) فيكون جنب الله كناية عن أمره، فالتقصير في أمر الله تقصير مع الله، فهي كناية عن نسبة.

وقال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ إبراهيم: ١٤، قال: ومعنى (خاف مقامي) خافني، فلفظ مقام مقحم للمبالغة في تعلق الفعل بمفعوله، كقوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ الرحمن: ٤٦ ، لأن المقام أصله

(١) البلاغة العربية لعبد الرحمن الدمشقي: ١٤٩/٢
(٢) تفسير البيضاوي: ٤٣٦/٣
(٣) دلائل الإعجاز: ٣٠٦
(٤) تفسير البيضاوي: ١٩٤/٣
(٥) المحرر الوجيز: ٥٣٨/٤

مكان القيام...فإذا قيل (خاف مقامي) كان فيه من المبالغة ما ليس في (خافني) بحيث إن الخوف يتعلق بمكان المخوف منه. كما يقال: قصر في جانبي. ومنه قوله تعالى: (على ما فرطت في جنب الله) وكل ذلك كناية عن المضاف إليه كقول زياد الأعجم:

إن السماحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشرج[١]

وهذا البيت الذي استشهد به كلٌ من البيضاوي وابن عاشور –رحمهما الله– عَلَمٌ عند البلغاء في كناية النسبة ومعناه يوضحه الإمام الجرجاني فيقول: أرادَ، كما لا يخفى، أنْ يُثْبِتَ هذه المعاني والأوصافَ خلالاً للممدوح وضرائبَ فيه، فتركَ أنْ يُصرِّحَ فيقولَ: "إنَّ السماحةَ والمروءةَ والندى لمجموعةٌ في ابنِ الحَشْرج، أو مقصورةٌ عليه، أو مختصَّة به"، وما شاكَلَ ذلك مما هو صريحٌ في إثباتِ الأوصافِ للمذكورين بها، وعدَلَ إلى ما تَرى مَن الكناية والتَّلويح، فجعل كونَها في القُبَّة المضروبةِ عليه، عبارةً عن كونها فيه، وإشارةً إليه، فخرَجَ كلامُه بذلك إلى ما خَرَجَ إليه منَ الجَزالةِ، وظهرَ فيه ما أنت تَرى منَ الفخَامة، ولو أنه أَسْقَط هذه الواسِطَة من البَيْن، لما كان إلاَّ كلاماً غُفْلاً، وحديثاً ساذَجاً[٢].

(١) التحرير والتنوير: ٢٠٨/١٣

(٢) دلائل الإعجاز: ٣٠٧

المطلب الثاني: التعريض:

التعريض لغة:

جاء في لسان العرب: عَرَّضَ لِفُلَانٍ وَبِهِ إذا قَالَ فِيهِ قَوْلًا وَهُوَ يَعِيبُه. الأَصمعي: يُقَالُ عَرَّضَ لِي فُلَانٌ تَعْرِيضاً إِذا رَحْرَحَ بِالشَّيْءِ وَلَمْ يبيِّن. والمَعارِيضُ مِنَ الْكَلَامِ: مَا عُرِّضَ بِهِ وَلَمْ يُصَرَّحْ. وأَعْراضُ الكلامِ ومَعارِضُه ومَعارِيضُه: كَلَامٌ يُشْبِهُ بعضهُ بَعْضًا فِي الْمَعَانِي كَالرَّجُلِ تَسْأَله: هَلْ رأَيت فُلَانًا؟ فَيَكْرَهُ أَن يَكْذِبَ وَقَدْ رَآهُ فَيَقُولُ: إِنَّ فُلَانًا لَيُرَى؛ وَلِهَذَا الْمَعْنَى قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْعَبَّاسِ: مَا أُحِبُّ بمَعارِيضِ الكلامِ حُمْرَ النَّعَم(١).

أمَّا اصطلاحاً فقد عرَّفه كثير من العلماء منهم ابن الأثير حيث يقول: فهو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم بالوضع الحقيقي والمجازي(٢).

أمَّا العلوي فقد عرَّف التعريض تعريفاً دقيقاً حيث يقول: **هو المعنى الحاصل عند اللفظ لا به**(٣).

أهمية التعريض:

وموضوع التعريض من الموضوعات الدقيقة في البلاغة العربية، إذ أن أكثر العلوم يعتمد علماؤها في تقرير تفصيلاتها والوقوف على تفريعاتها على التصريح والبيان الواضح ليُفهم المتعلمين دقائق هذا العلم، لكن علم الفصاحة والبلاغة متميز عن هذه العلوم، إذ أنه بالضد منها قائمٌ على التلميح والتعريض فإنك إذا قرأتَ ما قالَه العلماءُ فيه، وجدْتَ جُلَّه أو كُلَّهَ رمزاً ووَحْياً، وكنايةً وتعريضاً، وإيماءً إلى الغرض من وجْهٍ لا يَفْطِنُ له إلاَّ مَنْ غلغَلَ الفكْرَ وأدَّقَ النظَرَ، ومَنْ يَرجعُ من طَبْعه إلى أَلْمَعيَّةٍ يَقْوى معها على الغامِض، ويصلُ بها إلى الخفيِّ، حتى كان بَسْلاً حَراماً أن تتجلَّى معانيهم سافرةَ الأوجُهِ لا نِقابَ لها، وباديةَ الصَّفحةِ لا حجابَ دونَها، وحتى كأنَّ الإفصاحَ بها حَرامٌ، وذكرَها إلاَّ على سبيل الكناية والتعريض غير سائغ(٤).

---

(١) لسان العرب (عرض): ١٨٣/٧

(٢) المثل السائر: ٥٦/٣

(٣) الطراز: ١٩٤/١

(٤) دلائل الإعجاز: ٤٥٥ بتصرف.

ولا بد من الإشارة إلى أن مبحثي الكناية والتعريض مبحثان متقاربان، لأنهما قائمان على اختفاء المعاني وراء الألفاظ، لذلك هناك من يخلط بين الكناية والتعريض ويجعلهما في مقام واحد، ويسوق أمثلة كل منهما للآخر. لكن الصحيح أن هناك فرق بين الكناية والتعريض.

الفرق بين الكناية والتعريض:

فرَّق الزمخشري في كشافه بين الكناية والتعريض فقال: **الكناية:** أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له، كقولك: طويل النجاد والحمائل لطول القامة وكثير الرماد للمضياف. **والتعريض:** أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتك لأسلم عليك، ولأنظر إلى وجهك الكريم(١).

فمن الفروق بين الكناية والتعريض:

١. الفرق باعتبار المجاز:

الكناية واقعة في المجاز، ومعدودة منه، بخلاف التعريض، فلا يعد منه، وذلك من أجل كون التعريض مفهوما من جهة القرينة، فلا تعلق له باللفظ، لا من جهة حقيقته، ولا من جهة مجازه(٢).

٢. الفرق من حيث الخفاء:

فالتعريض أخفى من الكناية؛ لأن دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز، ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي، وإنما سمي التعريض تعريضا؛ لأن المعنى فيه يفهم من عرضه أي: من جانبه، وعرض كل شيء جانبه(٣).

ومعنى هذا الكلام أننا لو قلنا مثلاً: (فلانٌ كثير الرماد)، هذه العبارة دالةٌ على الكناية، ودلالتها جاءت معتمدة على الألفاظ، وذلك لأن كثرة الرماد أوحت بكثر إيقاد النار، الذي أوحى بكثرة الضيوف وإكرامهم، وبهذا استُدِلَّ على الكرم، فالدليل على الكناية قائم من اللفظ نفسه.

---

(١) الكشاف: ٢٨٢/١-٢٨٣

(٢) الطراز: ٢٠٢/١

(٣) المثل السائر: ٥٧/٣

أما لو جئنا إلى التعريض في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ البقرة: ٤ ، فدلالة التعريض هنا لا تعتمد على اللفظ، بل يُلمح من السياق، ودلالته على التعريض تعتمد على الموقف وعلى القرائن الخارجية لا على القرائن اللفظية، ومن هنا يتضح أن التعريض أخفى من الكناية.

٣. الفرق من حيث الإفراد والتركيب في الألفاظ:

فالكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معا، فتأتي على هذا تارة، وعلى هذا تارة أخرى، وأما التعريض فإنه يختص باللفظ المركب، ولا يأتي في اللفظ المفرد البتة.

فالتعريض لا يأتي في اللفظ المفرد، لأنه كما تقرر سابقاً فإن التعريض لا يكون من معنى الألفاظ نفسها، لأنه يعرف على أنه المعنى الحاصل عند اللفظ لا به، واللفظ في إفراده لا يؤدي معنىً كاملاً ولا يمكن أن يفهم من تلويح أو إشارة يُبنى عليها التعريض، بخلاف الكناية فإنه يأتي في المفرد والمركب(١).

لفتة جميلة في الفرق بين الكناية والتعريض:

فالكناية تختلف عن التعريض كما سبق فالتعريض أشد خفاء من الكناية، ولقد أشار العلوي في الطراز إلى استخدام التعريض والكناية في قذف المؤمنين، ولاختلافهما فقد فرق العلماء بين القذف بالكناية والقذف بالتعريض من حيث الحكم.

وفي هذا يقول العلوي: من أجل هذا فرق علماء الشريعة بين صريح القذف وكنايته، وتعريضه، فأوجبوا في الصريح من القذف الحد مطلقا في قولك: يا زاني، وأوجبوا في كنايته الحد إذا نوى به في مثل قولك: يا فاعلا بأمه، ويا مفعولا به، ولم يوجبوا في التعريض الحد في مثل قولك. يا ولد الحلال، وما ذاك إلا لأجل أن الصريح والكناية، يدلان على القذف من جهة اللفظ، إما بالحقيقة، أو بالمجاز(٢).

(١) المثل السائر: ٥٧/٣ بتصرف
(٢) الطراز: ٢٠٢/١

التعريض عند البيضاوي:

عرَّف الإمام البيضاوي رحمه الله التعريض فقال: التعريض والتلويح: إيهام المقصود بما لم يوضع له حقيقة ولا مجازاً، كقول السائل جئتك لأسلم عليك، والكناية هي الدلالة على الشيء بذكر لوازمه وروادفه، كقولك الطويل النجاد للطويل، وكثير الرماد للمضياف(١).

وتعريف البيضاوي رحمه الله يشير إلى ما قرره العلماء من أن الكناية والتعريض مختلفان وإن تقاربا في كونهما دالان على معنى خفي يتم عند الألفاظ.

ولقد بين البيضاوي رحمه الله التعريض في كثير من الآيات القرآنية والمتتبع لهذه الآيات يَلْحَظُ أن هناك طرقاً خاصة تشير إلى التعريض، يمكن أن تصنف تحت العناوين التالية:

طُرُق وأساليب التعريض في تفسير البيضاوي:

١. تقديم الصلة:

من ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾ البقرة: ٤، قال البيضاوي رحمه الله: وفي تقديم الصلة وبناء يوقنون على هم تعريض لمن عداهم من أهل الكتاب، وبأن اعتقادهم في أمر الآخرة غير مطابق ولا صادر عن إيقان(٢).

فجملة (وبالآخرة هم يوقنون)، وإن كان المراد الأول منها إثبات إيقان المؤمنين بالآخرة، لكن من مرادها أيضاً التعريض بالذين لا يوقنون بها، وهم أهل الكتاب على ما ذكر البيضاوي.

ويوضح لنا السكاكي هذا التعريض بقوله: وفي معنى قوله: (وبالآخرة هم يوقنون) نذهب على أنه تعريض بأن الآخرة التي عليها أهل الكتاب فيما يقولون أنها لا يدخل الجنة فيها من كان هودا أو نصارى وأنها لا تمسهم النار فيها إلا أياما معدودات وأن أهل الجنة فيها لا يتلذذون في الجنة إلا بالنسيم والأرواح العبقة والسماع اللذيذ ليست بالآخرة وإيقانهم بمثلها ليس من الإيقان بالتي هي الآخرة عند الله في شيء(٣).

---

(١) تفسير البيضاوي: ٢٠٣/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٣٨/١

(٣) مفتاح العلوم: ٢٣٤

٢. تقديم الضمير:

مثاله قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ الأنبياء: ٤٩، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ)** خائفون وفي تصدير الضمير وبناء الحكم عليه مبالغة وتعريض(١).

٣. التعريض بـ(إنما):

من المعاني التي تأتي لها (إنما) التعريض، ويشير إلى هذا الإمام عبد القاهر الجرجاني بقوله: ثم اعلمْ أَنك إذا استقريْتَ وجدْتَها أقوى ما تكونُ وأعْلَقَ ما ترى بالقلب، إذا كان لا يُراد بالكلامِ بعدَها نفْسُ معناه، ولكنَّ التعريضَ بأمرٍ هو مُقْتضاه، نحوُ أنَّا نعلمُ أَنْ ليس الغَرضُ مِن قولِه تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الرعد: ١٩] [الزمر: ٩]، أنْ يَعلَم السَّامِعُون ظاهرَ معناه، ولكنْ أن يُذَمَّ الكفَّارُ، وأنْ يُقالَ إنهم مِنْ فرطِ العِنادِ ومِنْ غلبةِ الهوى عليهم، في حُكْم مَنْ ليس بذي عقْلٍ، وإنكم إنْ طمِعْتُم منهم في أنْ يَنْظروا ويَتذكَّروا، كنتُم كمَنْ طمِعَ في ذلك مِنْ غيرِ أُولي الألباب(٢).

ومما جاء في تفسير البيضاوي على التعريض بـ(إنما)، قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ البقرة: ١١ – ١٢ ، قال البيضاوي رحمه الله: (أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلكِنْ لاَّ يَشْعُرُونَ) وتعريف الخبر وتوسيط الفصل لرد ما في قولهم (إنما نحن مصلحون) من التعريض للمؤمنين(٣).

فقولهم (إنما نحن مصلحون) جاءت للتعريض بالمؤمنين وكأنهم أرادوا أن يقولوا أننا نحن المصلحون فقط ولا مصلح غيرنا، لأن إنما من أدوات القصر، وبهذا يكون قصدهم أن يعرضوا بالمؤمنين بأنهم هم المفسدون فجاء الرد من الله عليهم أنهم هم المفسدون لا المؤمنين.

٤. نفي الصفات السيئة عن أضداد المُعرَّض بهم:

فنفي الصفات السيئة والمعاصي عن المؤمنين مثلاً تأتي ليُفهم منها بطريق المخالفة أن غير المؤمنين متصفون بها فيكون هذا تعريض بهم.

من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ ﴾ الفرقان: ٦٨، قال البيضاوي رحمه الله: نفى عنهم أمهات

(١) تفسير البيضاوي: ٤٢٣/٢
(٢) دلائل الإعجاز: ٣٥٤
(٣) تفسير البيضاوي: ٤٩/١

المعاصي بعد ما أثبت لهم أصول الطاعات إظهاراً لكمال إيمانهم وإشعاراً بأن الأجر المذكور موعود للجامع بين ذلك، وتعريضاً للكفرة بأضداده ولذلك عقبه بالوعيد تهديداً لهم فقال: (وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً) [1].

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ التحريم: ٨، قال البيضاوي رحمه الله: (يَوْمَ لاَّ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ) ظرف ل يُدْخِلَكُمْ. (وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ) عطف على النبي عليه الصلاة والسلام إحماداً لهم وتعريضاً لمن ناوأهم[2].

والمعنى أن الله لن يخزي النبي والمؤمنين، وهو تعريض بالمناوئين له أي أنهم سيكونون بالضد منهم في عداد المُخزَيْن.

ومن التعريض بنفي الصفات السيئة قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ البقرة: ١٣٥، قال البيضاوي رحمه الله: (وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) تعريض بأهل الكتاب وغيرهم، فإنهم يدعون اتباعه وهم مشركون[3].

٥. نفي الصفات الحسنة عن أضداد المُعرَّض بهم:

نفي الصفات الحسنة عن الكفار في القرآن الكريم يأتي للتعريض بالمؤمنين ويكون كالمدح لهم، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ الأعراف: ٧٢، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَما كانُوا مُؤْمِنِينَ) تعريض بمن آمن منهم، وتنبيه على أن الفارق بين من نجا وبين من هلك هو الإيمان**[4].

٦. إثبات الصفات الحسنة لأضداد المُعرَّض بهم:

على العكس مما سبق فيأتي التنزيل بإثبات الصفات الحسنة للمؤمنين تعريضاً بالكافرين وكأنهم بالضِّدِّ منهم، ومثاله قوله تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ

(١) تفسير البيضاوي: ٥٣٠/٢
(٢) تفسير البيضاوي: ٤٢٢/٣
(٣) تفسير البيضاوي: ١٤٢/١
(٤) تفسير البيضاوي: ٥٥٢/١

ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ النحل: ١٠٢، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَهُدىً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ) المنقادين لحكمه...وفيه تعريض بحصول أضداد ذلك لغيرهم**[١].

ومن التعريض بإثبات الصفات الحسنة قوله تعالى: ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ آل عمران: ٩٥، قال البيضاوي رحمه الله: (قُلْ صَدَقَ اللَّهُ) تعريض بكذبهم، أي ثبت أن الله صادق فيما أنزل وأنتم الكاذبون[٢].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ الأعراف: ١٥٨، قال البيضاوي رحمه الله: (فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِماتِهِ) ما أنزل عليه وعلى سائر الرسل من كتبه ووحيه. وقرئ (وكلمته) على إرادة الجنس أو القرآن، أو عيسى تعريضًا لليهود وتنبيهاً على أن من لم يؤمن به لم يعتبر إيمانه[٣].

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ مريم: ٣٣، قال البيضاوي رحمه الله: (وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا) كما هو على يحيى والتعريف للعهد والأظهر أنه للجنس والتعريض باللعن على أعدائه، فإنه لما جعل جنس السلام على نفسه عرض بأن ضده عليهم كقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ ﴾ طه: ٤٧، فإنه تعريض بأن العذاب على من كذب وتولى[٤].

٧. إثبات الصفات السيئة للمُعرَّض بهم:

فعندما يصف الله عز وجل أعمال قوم بالسوء والكراهة يكون مدحاً لمن خالف هذه الصفات وأتى بالضد منها، كما في قوله تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ التوبة: ٨١.

(١) تفسير البيضاوي: ٢/٢٨٠
(٢) تفسير البيضاوي: ١/٢٧٨
(٣) تفسير البيضاوي: ١/٥٧٦
(٤) تفسير البيضاوي: ٢/٣٦٦

قال البيضاوي رحمه الله: (وَكَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) إيثاراً للدعة والخفض على طاعة الله، وفيه تعريض بالمؤمنين الذين آثروا عليها تحصيل رضاه ببذل الأموال والمهج[1].

فيكون التعريض هنا على طريق المدح وليس الذم، مع أن أكثر التعريض يأتي للذم والتوبيخ.

٨. إثبات القدرة للعاجز الضعيف:

يأتي التعريض بأن يُنزَّل العاجز منزلة القادر تعريضاً بعجزه وإظهاراً لضعفه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ الأنبياء: ٦٣، قال البيضاوي رحمه الله: (قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ) أسند الفعل إليه تجوزاً لأن غيظه لما رأى من زيادة تعظيمهم له تسبب لمباشرته إياه، أو تقريراً لنفسه مع الاستهزاء والتبكيت على أسلوب تعريضي كما لو قال لك من لا يحسن الخط فيما كتبته بخط رشيق: أأنت كتبت هذا فقلت بل كتبته أنت[2].

٩. تصوير الأمر على نفس المُعرِّض والقصد إيقاعه على المعرَّض به:

هذه طريقة دقيقة وغاية في البلاغة يأتي عليها التعريض، وذلك أن يعمد المتكلم بالحديث عن نفسه، ويقصد به حمل الكلام على غيره تعريضاً، وفائدة هذا النوع من التعريض التلطف في الدعوة لتكون أقرب إلى نفس المستمع.

مثاله قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ الشعراء: ٧٥ – ٧٧، قال البيضاوي رحمه الله: (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي) يريد أنهم أعداء لعابديهم من حيث إنهم يتضررون من جهتهم فوق ما يتضرر الرجل من جهة عدوه، أو إن المغري بعبادتهم أعدى أعدائهم وهو الشيطان، لكنه صور الأمر في نفسه تعريضاً لهم فإنه أنفع في النصح من التصريح، وإشعاراً بأنها نصيحة بدأ بها نفسه ليكون أدعى إلى القبول[3].

على معنى أني فكرت في أمري فرأيت عبادتي لها عبادة للعدو وهو الشيطان، فاجتنبتها، وآثرت عبادة من الخير كله في يده، وأواهم بذلك أنها نصيحة ينصح بها نفسه، لينظروا فيقولوا: ما

(١) تفسير البيضاوي: ٦٩/٢
(٢) تفسير البيضاوي: ٤٢٥/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ٥٤٣/٢

نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه، فيكون ذلك أدعى لهم إلى القبول لقوله، وأبعث على الاستماع منه، ولو قال فإنهم عدو لكم لم يكن بتلك المثابة(١).

ومن قبيل تصوير الأمر على النفس والمراد به الغير على طريق التعريض قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ الأنعام: ١٥، قال البيضاوي رحمه الله: (قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) مبالغة أخرى في قطع أطماعهم، وتعريض لهم بأنهم عصاة مستوجبون للعذاب(٢).

والمعنى أنه أراد أنكم عصيتم الله فسيكون جزاؤكم عذاب عظيم.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ الأنعام: ٥٦، قال البيضاوي رحمه الله: (قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً) أي إن اتبعت أهواءكم فقد ضللت. (وَما أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) أي في شيء من الهدى حتى أكون من عدادهم، وفيه تعريض بأنهم كذلك(٣).

١٠. التعريض بالمدح:

حيث يُعمد إلى المدح بالكرم مثلاً والمراد منه السؤال والعطاء، ومثاله في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ الأنبياء: ٨٣، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) وصف ربه بغاية الرحمة بعد ما ذكر نفسه بما يوجبها واكتفى بذلك عن عرض المطلوب لطفاً في السؤال(٤).**

فكأن أيوب عليه السلام استحيا من الله عز وجل أن يطلب منه رفع البلاء صراحةً، فعمد إلى التعريض بوصف الله بالرحمة البالغة تلطفاً بالسؤال، "وروي أنه كان يقال له: ما لك لا تدعو في العافية، فكان يقول إني لأستحيي من الله تعالى أن أسأله زوال عذابه حتى يمر علي فيه ما مر من الرخاء، وأصابه البلاء فيما روي وهو ابن ثمانين سنة"(٥)

(١) المثل السائر: ١٢٩/٣
(٢) تفسير البيضاوي: ٤٨٢/١
(٣) تفسير البيضاوي: ٤٩٤/١
(٤) تفسير البيضاوي: ٤٢٩/٢
(٥) المحرر الوجيز: ٩٥/٤

الفصل الرابع

"مباحث علم البديع في تفسير البيضاوي"

- المبحث الأول: المحسنات المعنوية
- المبحث الثاني: المحسنات اللفظية

الفصل الرابع: مباحث علم البديع في تفسير البيضاوي

البديع لغة: بدَع الشيءَ يَبْدَعُه بَدْعاً وابْتَدَعَه: أَنشأَه وبدأَه، والبَدِيعُ: المُحْدَثُ العَجيب، وأَبدعْتُ الشَّيْءَ: اخْتَرَعْته لَا عَلَى مِثال[1].

البديع اصطلاحاً: علم يعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة[2]، وقيل: هو علم يعرف به الوجوه والمزايا التي تزيد الكلام حسنا وطلاوة، وتكسوه بهاءً، ورونقاً، بعد مطابقته لمقتضى الحال مع وضوح دلالته على المراد لفظا ومعنى[3].

وواضعه، (عبد الله بن المعتز العباسي) المتوفى سنه ٢٧٤ هجرية – ثم اقتفى أثره في عصره (قدامة بن جعفر الكاتب) فزاد عليها، ثم ألف فيه كثيرون (كأبي هلال العسكري) وابن رشيق القيرواني، وصفي الدين الحلي، وابن حجة الحموي) وغيرهم ممن زادُوا في أنواعه، ونظموا فيها قصائد تُعرف (بالبديعيّات) [4]

(١) لسان العرب (بدع): ٧/٨
(٢) بغية الإيضاح: ٥٧١/٤
(٣) علوم البلاغة للمراغي: ٢٩٨
(٤) علوم البلاغة للمراغي: ٢٩٩

المبحث الأول: المحسنات المعنوية:

أولاً: الطباق:

ويقال له التضاد، والتكافؤ، والطباق، وهو أن يؤتى بالشيء وبضده في الكلام[1].

ويأتي الطباق على أشكال مختلفة، جاء على ذكر بعضٍ منها الإمام البيضاوي في تفسيره.

"والعنصر الجماليُّ في الطباق هو ما فيه من التلاؤم بينه وبين تداعي الأفكار في الأذهان، باعتبار أنّ المتقابلات أقرب تخاطراً إلى الأذهان من المتشابهات والمتخالفات"[2].

أنواع الطباق في تفسير البيضاوي:

١. الطباق بين اسمين:

مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ سبأ: ٢٤، قال البيضاوي رحمه الله في معنى (الهدى): والهدى في الأصل مصدر كالسرى والتقى ومعناه الدلالة. وقيل: الدلالة الموصلة إلى البغية **لأنه جعل مقابل الضلالة** في قوله تعالى: **(إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ)**[3].

فالبيضاوي رحمه الله يشير بقوله: (لأنه جُعِل مقابل الضلالة)، إلى وجود طباق بين الهدى والضلال، والهدى والضلال اسمان كما هو واضح، ويسميه البيضاوي مقابلة.

٢. الطباق بين فعلين:

مثاله قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ البقرة: ٢٨، قال البيضاوي رحمه الله: والحياة حقيقة في القوة الحساسة، أو ما يقتضيها وبها سمي الحيوان حيواناً مجازاً في القوة النامية، لأنها من طلائعها ومقدماتها، وفيما يخص الإنسان من الفضائل، كالعقل والعلم والإيمان من حيث إنها كمالها وغايتها، **والموت بإزائها يقال على ما يقابلها في كل مرتبة** قال تعالى: **(قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ)**[4].

---

(١) الطراز: ١٩٧/٢

(٢) البلاغة العربية لعبد الرحمن الدمشقي: ٣٧٥/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ١٠٧/٣

(٤) تفسير البيضاوي: ٧٩/١

فالطباق بين (يحييكم ويميتكم)، وهما فعلان.

ومن طباق الفعلين قوله تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ الكهف: ٢٩ ، وقوله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾ الكهف: ٣١

قال البيضاوي رحمه الله: (وَساءَتْ) النار. (مُرْتَفَقاً) متكأ وأصل الارتفاق نصب المرفق تحت الخد، وهو لمقابلة قوله (وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً) وإلا فلا ارتفاق لأهل النار[١].

٣. الطباق بين حرفين:

أشار البيضاوي رحمه الله إلى أن الطباق قد يقع بين حرفين وذلك عندما تعرَّض لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ البقرة: ٢١٤، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَلَمَّا يَأْتِكُمْ)** ولم يأتكم، وأصل لَمَّا لم زيدت عليها ما وفيها توقع **ولذلك جعلت مقابل قد**[٢].

فيشير البيضاوي إلى أن (لمَّا وقد) حرفان بينهما طباق أو مقابلة على ما سماهما به، والسبب في ذلك هو أن معنى (لما) على ما أشار هو توقع الحدوث، بينما قد تأتي للتأكيد.

٤. الطباق الخفي أو المعنوي:

والطباق الخفي أو المعنوي هو ما يكون بين لفظة وبين معنى يطابق هذه اللفظة، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾ مريم: ٧٥

قال البيضاوي رحمه الله: (وَأَضْعَفُ جُنْداً) أي فئة وأنصاراً قابل به (أحسن نديا) من حيث إن حسن النادي باجتماع وجوه القوم وأعيانهم وظهور شوكتهم واستظهارهم[٣].

فالطباق الخفي واقعٌ بين (أضعف جنداً) و (أحسن نديا)، من حيث أن المعنى الذي يشير إليه (أحسن نديا)، هو أقوى شوكة واستظهاراً كما أشار البيضاوي وهو يطابق (أضعف جنداً)[٤].

---

(١) تفسير البيضاوي: ٣٣٧/٢
(٢) تفسير البيضاوي: ١٨٥/١
(٣) تفسير البيضاوي: ٣٧٧/٢
(٤) تفسير البيضاوي: ٣٧٦/٢

ومن الطباق الخفي قوله تعالى: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ يس: ٧٠، قال البيضاوي رحمه الله: (لِيُنْذِرَ) القرآن أو الرسول صلّى الله عليه وسلّم...(مَنْ كانَ حَيًّا) عاقلاً فهما فإن الغافل كالميت، أو مؤمناً في علم الله تعالى فإن الحياة الأبدية بالإيمان...(وَيَحِقَّ الْقَوْلُ) وتجب كلمة العذاب. (عَلَى الْكافِرِينَ) المصرين على الكفر، وجعلهم في مقابلة من كان حياً إشعاراً بأنهم لكفرهم وسقوط حجتهم وعدم تأملهم أموات في الحقيقة[١].

فالطباق بين (حياً) و(الكافرين)، وهو طباق خفي إذ أنه وضع الكافرين موضع الأموات ليطابق (من كان حياً)، والتي تدل على المؤمنين.

ومن الطباق الخفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ فصلت: ٤٠، قال البيضاوي رحمه الله: (أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ) قابل الإلقاء في النار بالإتيان آمناً مبالغة في إحماد حال المؤمنين[٢].

فالذي يُلقى في النار يقابله الذي يُدخل الجنة، لكنه قابله بالإتيان آمناً، وهو من الطباق الخفي، جاء لغرض وصف حال المؤمنين في الجنة وتقلبهم في نعيمها.

٥. **طباق السلب**:

هو الجمع بين فعلي مصدر واحد مثبت ومنفي، أو أمر ونهي[٣].

ومثاله قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ الشعراء: ١٣٦، قال البيضاوي رحمه الله: **(قالُوا سَواءٌ عَلَيْنا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ)** فإنا لا نرعوي عما نحن عليه، وتغيير شق النفي عما تقتضيه المقابلة للمبالغة في قلة اعتدادهم بوعظه[٤]

فيشير البيضاوي في عبارته السابقة إلى وجود مقابلة أو تضاد بين (أوعظت) و(لم تكن من الواعظين)، وهذا الطباق أو التضاد سماه العلماء طباق السلب حيث يؤتى بفعلين أو مشتقاتهما مرة مثبتة ومرة منفية لإفادة الطباق.

---

(١) تفسير البيضاوي: ١٣٨/٣
(٢) تفسير البيضاوي: ٢٢٧/٣
(٣) بغية الإيضاح: ٥٧٥/٤
(٤) تفسير البيضاوي: ٥٤٩/٢

٦. الطباق المجازي:

وهو الطباق الذي يأتي بين ألفاظ لا تدل على معانٍ حقيقية وإنما هي معانٍ مجازية، كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ الملك: ٢٢، قال البيضاوي رحمه الله: ومعنى مُكِبًّا أنه يعثر كل ساعة ويخر على وجهه لوعورة طريقه واختلاف أجزائه، ولذلك قابله بقوله: (أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا) قائماً سالماً من العثار...والمراد تمثيل المشرك والموحد بالسالكين والدينين بالمسلكين[١].

فالطباق قائم بين لفظتي: (مكباً وسوياً)، وهذا الطباق ليس بمعناه الحقيقي أي أنه ليس مقصوداً بكلمة (مكباً) الذي يتعثر بالطريق على الحقيقة وليس المقصود بـ(سوياً) الذي يسير سيراً سالماً صحيحاً، وإنما المقصود منهما المعنى المجازي وهو الضال والمهتدي على الترتيب.

(١) تفسير البيضاوي: ٣/٤٢٨-٤٢٩

ثانياً: المقابلة:

وهي أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر وبين ضديهما[1]، وقيل هي: أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابل ذلك على سبيل الترتيب[2].

فمن المقابلة التي جاءت في كتاب الله عز وجل قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ هود: ٢٤، قال البيضاوي رحمه الله: (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ) الكافر والمؤمن. (كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ) يجوز أن يراد به تشبيه الكافر بالأعمى لتعاميه عن آيات الله، وبالأصم لتصامه عن إسماع كلام الله تعالى وتأبيه عن تدبر معانيه، وتشبيه المؤمن بالسميع والبصير لأن أمره بالضد فيكون كل واحد منهما مشبهاً باثنين باعتبار وصفين، أو تشبيه الكافر بالجامع بين العمى والصمم والمؤمن بالجامع بين ضديهما والعاطف لعطف الصفة على الصفة...وهذا من باب اللف والطباق[3].

فقد جاءت المقابلة بين الكافرين والمؤمنين بذكر صفات كل فريق منهم على وجه التشبيه، فوصف الله الكافر بـ(الأعمى والأصم)، وقابل هاتين الصفتين بما يضادها على وجه الترتيب وهي صفات المؤمن فقال: (والبصير والسميع).

ومن المقابلة قوله تعالى: ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ الأعراف: ٥٨، قال البيضاوي رحمه الله: (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ) الأرض الكريمة التربة. (يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ) بمشيئته وتيسيره، عبر به عن كثرة النبات وحسنه وغزارة نفعه لأنه أوقعه في مقابلة. (وَالَّذِي خَبُثَ) أي كالحرة والسبخة. (لاَ يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً) قليلاً عديم النفع[4].

فالمقابلة قائمة بين: (البلد الطيب)، و (الذي خبث) من جهة، وبين (يخرج نباته بإذن ربه)، و(لا يخرج إلا نكداً) من جهة أخرى.

ومن المقابلات البديعة في القرآن الكريم المقابلة بين قوله تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ

(١) مفتاح العلوم: ٤٢٤
(٢) علوم البلاغة للمراغي: ٣٢٢
(٣) تفسير البيضاوي: ١٢٧/٢
(٤) تفسير البيضاوي: ٥٤٩/١

ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ التوبة: ٦٧ – ٦٨

وبين قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ التوبة: ٧١ – ٧٢

قال البيضاوي رحمه الله: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ) في مقابلة قوله (الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ في سائر الأمور) (١).

فقد أشار البيضاوي رحمه الله إلى وجود مقابلة بين هاتين الآيتين، والمدقق في هذه الآيات يلحظ عدة مقابلات اجتمعت لتكوّن مقابلةً واحدة.

١. المقابلة بين: (المنافقون والمنافقات) و(المؤمنون والمؤمنات).
٢. المقابلة بين: (بعضهم من بعض) و(بعضهم أولياء بعض).
٣. المقابلة بين: (يأمرون بالمنكر)، و (يأمرون بالمعروف).
٤. المقابلة بين: (ينهون عن المعروف) و (ينهون عن المنكر)
٥. المقابلة بين: (يقبضون أيديهم) و (يؤتون الزكاة)، فإن قبض الأيدي كناية عن البخل وعدم الإنفاق، وإيتاء الزكاة دلالة على الإنفاق فيكون بين العبارتين تضاد.
٦. المقابلة بين: (نسوا الله فنسيهم) و (أولئك سيرحمهم الله) فنسيان الله لهم كناية عن تعذيبه لهم، والرحمة كناية عن النعيم الذي حلَّ بهم.
٧. المقابلة بين: (نار جهنم خالدين فيها) و(جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها).
٨. المقابلة بين: (لعنهم الله) و(رضوان من الله أكبر).
٩. المقابلة بين: (ولهم عذاب مقيم) و(ذلك هو الفوز العظيم).

(١) تفسير البيضاوي: ٢/٦٤

وهذه المقابلات تأتي للإشارة إلى تباين واختلاف أحوال الفريقين في الدنيا بأعمالهم وفي الآخرة بعواقب هذه الأعمال، وذلك من سنن القرآن الكريم ليكون ذلك إقامةً الحجة على الكافر ليكون على علم بنهاية الطريق الذي يسلك وإلى أي شيء سيؤدي إليه كفره وعناده.

ثالثاً: المشاكلة:

المشاكلة اصطلاحاً: هي **أن** تذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته[1]

والمشاكلة نوعان:

١. المشاكلة التحقيقية:

وهي أن تذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته حقيقة، أي أنه مذكور في الكلام نصّاً، كما في قوله تعالى: ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾ المائدة: ١١٦، قال البيضاوي رحمه الله: **تعلم ما أخفيه في نفسي كما تعلم ما أعلنه، ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك. وقوله (في نفسك) للمشاكلة وقيل المراد بالنفس الذات**[2].

ومثلها أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ البقرة: ١٤ – ١٥، قال البيضاوي رحمه الله: (اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) يجازيهم على استهزائهم، سمي جزاء الاستهزاء باسمه كما سمي جزاء السيئة سيئة، إما لمقابلة اللفظ باللفظ، أو لكونه مماثلاً له في القدر، أو يرجع وبال الاستهزاء عليهم فيكون كالمستهزئ بهم[3].

فالاستهزاء هنا من الله ليس على حقيقته وإنما جاء على المشاكلة ليدل على أن عقاب الله لهم ناتجٌ عن أعمالهم واستهزائهم بالمؤمنين.

ومثلها آية: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ الشورى: ٤٠، قال البيضاوي رحمه الله: (وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها) وسمى الثانية سَيِّئَةٍ للازدواج[4].

فسمي الله عز وجل ردُّ السيئة سيئةً رغم أنها ليست سيئةً على الحقيقة لأنه ليس البادئ به وليس واقعاً منه ابتداءً، لكن لوقوعه في صحبته ومشاكلته له سماه سيئة.

ويمكن أن تقع المشاكلة في الحروف كما وقعت في الألفاظ وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً

(١) مفتاح العلوم: ٤٢٤
(٢) تفسير البيضاوي: ٤٧٤/١
(٣) تفسير البيضاوي: ٥٠/١
(٤) تفسير البيضاوي: ٢٤١/٣

فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ غافر: ٧٩ – ٨٠ ، قال البيضاوي رحمه الله: (وَعَلَيْها) في البر. (وَعَلَى الْفُلْكِ) في البحر. (تُحْمَلُونَ) وإنما قال وَعَلَى الْفُلْكِ ولم يقل في الفلك للمزاوجة[١].

٢. المشاكلة التقديرية:

أمَّا المشاكلة التقديرية فهي أن يذكر الشيء بلفظ غيره ويكون أحدهما مذكوراً والآخر مقدراً غير موجود في سياق الكلام، وذلك كقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ البقرة: ١٣٧ – ١٣٨.

قال البيضاوي رحمه الله: (صِبْغَةَ اللَّهِ) أي صبغنا الله صبغته، وهي فطرة الله تعالى التي فَطَرَ الناس عَلَيْهَا، فإنها حلية الإنسان كما أن الصبغة حلية المصبوغ، أو هدانا الله هدايته وأرشدنا حجته، أو طهر قلوبنا بالإيمان تطهيره، وسماه صبغة لأنه ظهر أثره عليهم ظهور الصبغ على المصبوغ، وتداخل في قلوبهم تداخل الصبغ الثوب، **أو للمشاكلة**، فإن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية ويقولون: هو تطهير لهم وبه تتحقق نصرانيتهم[٢].

رابعاً: التجريد:

والتجريد اصطلاحاً: هو أن يُنتزع من أمر ذي صفة أو أكثر، أمر آخر أو أكثر مثله فيها، لإفادة المبالغة بادعاء كمال الصفة في ذلك الأمر حتى كأنه بلغ من الاتصاف بتلك الصفة مبلغا يصح أن ينتزع منه موصوف آخر متصف بتلك الصفة، فهي فيه كأنها تفيض بمثالاتها لقوتها كما يفيض الماء عن ماء البحر[٣].

ومثالها من التنزيل قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾ مريم: ٥ – ٦، قال البيضاوي رحمه الله: وقرئ (يرثني وارث آل يعقوب)...و(وارث من آل يعقوب) على أنه فاعل يَرِثُنِي وهذا يسمى التجريد في علم البيان لأنه جرد عن المذكور أولاً مع أنه المراد[٤].

---

(١) تفسير البيضاوي: ٢١٧/٣
(٢) تفسير البيضاوي: ١٤٣/١
(٣) علوم البلاغة للمراغي: ٣٣٤
(٤) تفسير البيضاوي: ٣٦٠/٢

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ ﴾ الرحمن: ٣٧، قال البيضاوي رحمه الله: (فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً) أي حمراء كوردة وقرئت بالرفع على كان التامة فيكون من باب التجريد كقوله:

وَلَئِنْ بَقِيتُ لأَرْحَلَنَّ بِغَزْوَةٍ تَحْوِي الغَنَائِمِ أَوْ يَمُوتَ كَرِيمُ

(كَالدِّهانِ) مذابة كالدهن وهو اسم لما يدهن به كالحزام، أو جمع دهن وقيل هو الأديم الأحمر[1].

فالسماء لشدة حُمرتها في مشهد يوم القيامة صحَّ أن يُنتزع منها الورد الذي يشبه الدهان وهو الجلد الأحمر.

خامساً: اللف والنشر:

وهو ذكر الشيئين على جهة الاجتماع مطلقين من غير تقييد، ثم يرمى بما يليق بكل واحد منهما اتكالا على قريحة السامع، بأن يلحق بكل واحد منهما ما يستحقه[2].

مثاله قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ البقرة: ١١١ ، قال البيضاوي رحمه الله: (وَقالُوا) عطف على وَدَّ، والضمير لأهل الكتاب من اليهود والنصارى. (لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى) لف بين قولي الفريقين كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ ﴾ البقرة: ١٣٥ ثقة بفهم السامع[3].

فاللف في قوله: (وقالوا) أي اليهود والنصارى، والنشر في (هوداً أو نصارى)، وإذا أردنا أن نلحق كل واحد بما يستحقه كان حق السياق أن يكون: (قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان من النصارى)، وواضح ما في اللف والنشر من الإيجاز والبلاغة.

(١) تفسير البيضاوي: ٣/٣٥٦
(٢) الطراز: ٣/١٩٩
(٣) تفسير البيضاوي: ١/١٢٩

ومن اللف والنشر أيضاً قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ هود: ٢٤، قال البيضاوي رحمه الله: يجوز أن يراد به تشبيه الكافر بالأعمى لتعاميه عن آيات الله، وبالأصم لتصامه عن إسماع كلام الله تعالى وتأبيه عن تدبر معانيه، وتشبيه المؤمن بالسميع والبصير لأن أمره بالضد فيكون كل واحد منهما مشبهاً باثنين باعتبار وصفين...وهذا من باب اللف والطباق(١).

ومنه قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ الأنعام: ١٠٣، قال البيضاوي رحمه الله: ويجوز أن يكون من باب اللف أي لا تدركه الأبصار لأنه اللطيف وهو يدرك الأبصار لأنه الخبير(٢).

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الروم: ٢٣، قال البيضاوي رحمه الله: منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار فلف وضم بين الزمانين والفعلين بعاطفين إشعاراً بأن كلاً من الزمانين وإن اختص بأحدهما فهو صالح للآخر عند الحاجة(٣).

سادساً: تأكيد المدح بما يشبه الذم:

ويأتي هذا المحسن البديعي على ضربين:

الضرب الأول: أن يستثني من صفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح بتقدير دخولها في صفة الذم، والضرب الثاني: أن يثبت للشيء صفة مدح يعقبها بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرى(٤).

ومثال النوع الأول من كتاب الله عز وجل قوله تعالى: ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ ﴾ مريم: ٦٢، قال البيضاوي رحمه الله: **(لاَّ يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً)** فضول كلام. **(إِلَّا سَلاماً)** ولكن يسمعون قولاً يسلمون فيه من العيب والنقيصة، أو تسليم الملائكة عليهم أو تسليم

(١) تفسير البيضاوي: ١٢٧/٢
(٢) تفسير البيضاوي: ٥٠٩/١-٥١٠
(٣) تفسير البيضاوي: ٤٩/٣
(٤) انظر: من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان ، ٢٧١-٢٧٢

بعضهم، على بعض على الاستثناء المنقطع، أو على أن معنى التسليم إن كان لغواً فلا يسمعون لغواً سواه كقوله:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِم غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُم بِهِنَّ فُلُولٌ من قراع الكتائب[1].

فيشير البيضاوي رحمه الله بما استدل عليه من بيت (ولا عيب فيهم...) إلى وجود أسلوب تأكيد المدح بما يشبه الذم في هذه الآية، إذ أن الله عز وجل أكد بهذا الأسلوب ومدح المؤمنين وحالهم في الجنة بما نفى عنهم من سماع اللغو وما تستنفر منه الآذان.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ﴾ البروج: ٨، قال البيضاوي رحمه الله: (وَما نَقَمُوا مِنْهُمْ) وما أنكروا. (إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) استثناء على طريقة قوله:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُم بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قراعِ الكتائبِ[2]

فالنقم يأتي للإشارة إلى صفة ذم تقدمها نفي لكن هذه الصفة اتضح أنها بعد الاستثناء صفة مدح إذ أن نقمة الكفار على المؤمنين كانت بسبب إيمانهم بالله العزيز الحميد وهذه صفة مدح أُكِّدت بهذا الأسلوب.

ومن النوع الثاني قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ الحج: ٤٠، قال البيضاوي رحمه الله: (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ) يعني مكة. (بِغَيْرِ حَقٍّ) بغير موجب استحقوه به. (إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ) على طريقة قول النابغة:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُم بِهِنَّ فُلُولٌ من قراع الكتائب[3]

فقد أثبت للمؤمنين صفة مدح وهو أنهم أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أنه أتى بأداة استثناء يتوهم السامع أنه سيأتي بعدها بسبب ينافي ما قبل الاستثناء من مدح لهم إلا أنه أتى بصفة مدح لهم تأكيداً للمدح الأول وهو أنهم يقولون ربنا الله.

(١) تفسير البيضاوي: ٣٧٣/٢
(٢) تفسير البيضاوي: ٥١٨/٣
(٣) تفسير البيضاوي: ٤٥٠/٢

سابعاً: أسلوب الحكيم:

وهو تلقي المخاطب بغير ما يترقبه أو يتوقعه، إما بترك سؤاله والإجابة عن سؤال لم يسأله، وإما بحمل كلامه على غير ما كان يقصد تنبيهاً على أنه كان ينبغي له أن يسأل هذا السؤال أو يقصد هذا المعنى(١).

ومن هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٖ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٢١٥﴾ ﴾ البقرة: ٢١٥، قال البيضاوي رحمه الله: عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (أن عمرو بن الجموح الأنصاري كان شيخا هما ذا مال عظيم، فقال يا رسول الله ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها فنزلت). **(قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ)** سئل عن المنفق فأجيب ببيان المَصْرف لأنه أهم فإن اعتداد النّفقة باعتباره، ولأنه كان في سؤال عمرو وإن لم يكن مذكوراً في الآية(٢).

فالبيضاوي رحمه الله بقوله: (سئل عن المُنْفَق فأجيب ببيان المَصْرف لأنه أهم فإن اعتداد النّفقة باعتباره) يشير إلى ما عرف بأسلوب الحكيم حيث **كان سؤالهم عما ينفقونه فأجيبوا بمصارف الإنفاق لأنها أهم.**

ومن هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِۖ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾ البقرة: ١٨٩، قال البيضاوي رحمه الله: (وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقى)...كانت الأنصار إذا أحرموا لم يدخلوا داراً ولا فسطاطاً من بابه، وإنما يدخلون من نقب أو فرجة وراءه، ويعدون ذلك براً، فبين لهم أنه ليس ببر وإنما البر بر من اتقى المحارم والشهوات، ووجه اتصاله بما قبله أنهم سألوا عن الأمرين...أو أنهم لما سألوا عمّا لا يعنيهم ولا يتعلق بعلم النبوة وتركوا السؤال عما يعنيهم ويختص بعلم النبوة، عقب بذكره جواب ما سألوه تنبيهاً على أن اللائق بهم أن يسألوا أمثال ذلك ويهتموا بالعلم بها(٣).

فقد كان سؤال المشركين لرسول الله عن الأهلة وكيف تصغر ثم تكبر ثم تصغر مرة أخرى وتتغير منازلها، فلما كان هذا جواب هذا السؤال مما لا تستوعبه عقولهم في ذلك الوقت، كان

(١) من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان ، ٢٧٣
(٢) تفسير البيضاوي: ١٨٥/١
(٣) تفسير البيضاوي: ١٧٢/١

الجواب عنه (هي مواقيت للناس والحج)، وكأنه بهذا الجواب يقرعهم على سؤالهم عن أشياء لا تعنيهم ويقول لهم: اسألوا عما يَعنيكم في دينكم ودنياكم.

ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ الأعراف: ٧٥، قال البيضاوي رحمه الله: (قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ) عدلوا به عن الجواب السوي الذي هو نعم تنبيهاً على أن إرساله أظهر من أن يشك فيه عاقل ويخفى على ذوي رأي، وإنما الكلام فيمن آمن به ومن كفر[1].

كأنهم أرادوا القول لا تسألوا هل نعلم أنه مرسل أم لا، فهذا مما لا يشك فيه عاقل ولكن اسألوا ما هو موقفكم من هذه الرسالة، فإننا مؤمنون به وهذا ما يجب على كل إنسان.

ثامناً: سوق المعلوم مساق المجهول:

هو إخراج ما يُعرف صحته مخرج ما يشك فيه ليزيد بذلك تأكيدا[2].

ومثاله من كتاب الله عز وجل قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾سبأ: ٢٤، قال البيضاوي رحمه الله: (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) أي وإن أحد الفريقين...لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال المبينين، وهو بعد ما تقدم من التقرير البليغ الدال على من هو على الهدى ومن هو في الضلال أبلغ من التصريح لأنه في صورة الانصاف المسكت للخصم المشاغب[3].

فالمؤمنون عند حجاجهم مع الكافرين أو المشركين يعلمون أنهم هم على الحق وأن الفريق الآخر على الضلال المبين، لكنهم أخرجوا الكلام مخرج من يشك فيه لزيادة التقرير والتأكيد وهذا الأسلوب وهذه الطريقة في الاحتجاج أكثر إقناعاً وتأثيراً ولهذا نرى البيضاوي رحمه الله يعلق على ذلك بقوله: (وهو بعد ما تقدم من التقرير البليغ الدال على من هو على الهدى ومن هو في الضلال أبلغ من التصريح).

(١) تفسير البيضاوي: ٥٥٤/١
(٢) الصناعتين:٣٩٦
(٣) تفسير البيضاوي: ١٠٧/٣

تاسعاً: الاستطراد:

ومعناه في مصطلح علماء البيان أن يشرع المتكلم في شيء من فنون الكلام، ثم يستمر عليه فيخرج إلى غيره، ثم يرجع إلى ما كان عليه من قبل[1].

ومثاله من التنزيل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ فاطر: ١٢، قال البيضاوي رحمه الله: (وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها) استطراد في صفة البحرين وما فيهما من النعم[2].

ومن الاستطراد قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ الحديد: ١٠

قال البيضاوي رحمه الله: (**لاَ يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقاتَلَ أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً**) بيان لتفاوت المنفقين باختلاف أحوالهم من السبق وقوة اليقين، وتحري الحاجات حثاً على تحري الأفضل منها بعد الحث على الإنفاق، **وذكر القتال للاستطراد**[3].

فسياق الآيات كلها تتحدث عن الإنفاق لكنه ذكر القتال استطراداً، وعاد بعد ذلك للحديث عن الإنفاق مرة أخرى فقال في الآية التالية للآية السابقة: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ الحديد: ١١، فبهذا يكون الحديث عن القتال في الآية السابقة جاء للاستطراد وبيان عظيم الصلة بين الإنفاق والقتال، وذلك لأن الإنفاق بذل الأموال، والقتال بذل النفوس، ومن الصلة بينهما أيضاً، أن القتال يعتمد اعتماداً كاملاً على الإنفاق لما فيه من حاجة لشراء العتاد والمؤمن التي يحتاجها الجيش.

---

(١) الطراز: ٨/٣

(٢) تفسير البيضاوي: ١١٨/٣

(٣) تفسير البيضاوي: ٣٧٢/٣

عاشراً: المذهب الكلامي:

وهو أن يورد المتكلم حجة لما يدعيه على طريق أهل الكلام[1]. وقيل: هو أن يورد المتكلم على صحَّة دعواه حُجَّة قاطعة مسلمة عند المخاطب، بأن تكون المقدمات بعد تسليمها مستلزمة للمطلوب[2].

ومن المذهب الكلامي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ البقرة: ١٦٤ ، ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ الأنبياء: ٢٢.

قال البيضاوي رحمه الله: واعلم أن دلالة هذه الآيات على وجود الإله ووحدته من وجوه كثيرة يطول شرحها مفصلاً، والكلام المجمل أنها: أمور ممكنة وجد كل منها بوجه مخصوص من وجوه محتملة، وأنحاء مختلفة، إذ كان من الجائز مثلاً أن لا تتحرك السماوات، أو بعضها كالأرض وأن تتحرك بعكس حركاتها، وبحيث تصير المنطقة دائرة مارة بالقطبين، وأن لا يكون لها أوج وحضيض أصلاً، وعلى هذا الوجه لبساطتها وتساوي أجزائها، فلا بد لها من موجد قادر حكيم، يوجدها على ما تستدعيه حكمته وتقتضيه مشيئته، متعالياً عن معارضة غيره. إذ لو كان معه إله يقدر على ما يقدر عليه الآخر. فإن توافقت إرادتهما: فالفعل إن كان لهما، لزم اجتماع مؤثرين على أثر واحد، وإن كان لأحدهما، لزم ترجيح الفاعل بلا مرجح وجز الآخر المنافي لآلهيته. وإن اختلفت: لزم التمانع والتطارد، كما أشار إليه بقوله تعالى: **(لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا). وفي الآية تنبيه على شرف علم الكلام وأهله، وحث على البحث والنظر فيه**[3].

فالآيتين السابقتين جاءتا على أسلوب المذهب الكلامي وإليه أشار البيضاوي بقوله: (وفي الآية تنبيه على شرف علم الكلام وأهله، وحث على البحث والنظر فيه)، ووجه هذا الأسلوب في هاتين الآيتين أنهما جاءتا بأدلة عقلية وبراهين قاطعة، إذ أن قوله تعالى: (لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا) حجة قاطعة لمن كان له عقل، إذ أن السماوات والأرض لو كان فيهما آلهة غير الله

(١) بغية الإيضاح: ٦١٥/٤
(٢) جواهر البلاغة: ٣٠٥
(٣) تفسير البيضاوي: ١٥٥/١

مشتركون معه في الخلق لكان حتماً أن يختلفوا ومن ثم تفسد المخلوقات، لكنهما لم يفسدا، وهذا دليلٌ دامغ أنه ليس مع الله شريك في الخلق.

ومن هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ الزخرف: ٨١، قال البيضاوي رحمه الله: **(قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ)** منكم فإن النبي صلّى الله عليه وسلم يكون أعلم بالله وبما يصح له وبما لا يصح له، وأولى بتعظيم ما يوجب تعظيمه ومن تعظيم الوالد تعظيم ولده، ولا يلزم من ذلك صحة كينونة الولد وعبادته له إذ المحال قد يستلزم المحال بل المراد نفيهما على أبلغ الوجوه كقوله تعالى: **(لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا)** غير أن (لَوْ) ثَمَّ مشعرة بانتفاء الطرفين، و(إن) هاهنا لا تشعر به ولا بنقيضه فإنها لمجرد الشريطة بل الانتفاء معلوم لانتفاء اللازم الدال على انتفاء ملزومه، والدلالة على أن إنكاره الولد ليس لعناد ومراء بل لو كان لكان أولى الناس بالاعتراف به[1].

حادي عشر: التقسيم:

يأتي التقسيم اصطلاحاً على معانٍ مختلفة، أولها: **ذكر متعدد، ثم إضافة ما لكل إليه على التعيين**[2].

ومثاله من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ هود: ١٠٥ – ١٠٨ قال البيضاوي رحمه الله: وها هنا المراد أن أهل الموقف لا يخرجون عن القسمين، وأن حالهم لا يخلو عن السعادة والشقاوة[3].

فقوله تعالى: (فمنهم شقي وسعيد) ذكر هاهنا متعدداً، ثم بدأ بالتفصيل والتقسيم في أحوال كل منهم.

(١) تفسير البيضاوي: ٢٥٧/٣
(٢) بغية الإيضاح: ٦٠٣/٤
(٣) تفسير البيضاوي: ١٥١/٢

ثاني المعاني التي يأتي عليها التقسيم: هو أن يذكر أحوال الشيء مضافا إلى كل حال ما يليق بها[1].

مثاله ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾ النساء: ٦

قال البيضاوي رحمه الله: (**وَمَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ من أكلها. وَمَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ**) بقدر حاجته وأجرة سعيه... **وإيراد هذا التقسيم** بعد قوله (ولا تأكلوها) يدل على أنه نهي للأولياء أن يأخذوا وينفقوا على أنفسهم أموال اليتامى[2].

فقوله تعالى: (ولا تأكلوها) نهي للجميع عن أكل أموال اليتامى، لكنه بدأ بذكر وتقسيم الأحوال وإضافة حكم لكل حالة لوحدها، فالغني عليه الاستعفاف، والفقير عليه الأكل بالمعروف.

ثالث المعاني التي يأتي عليها التقسيم: **استيفاء أقسام الشيء بالذكر**[3].

مثاله من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ الشورى: ٤٩ – ٥٠، قال البيضاوي رحمه الله: (لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) فله أن يقسم النعمة والبلية كيف يشاء... (يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً)... والمعنى يجعل أحوال العباد في الأولاد مختلفة على مقتضى المشيئة فيهب لبعض إما صنفاً واحداً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى أو الصنفين جميعاً ويعقم آخرين... وتغيير العاطف في الثالث لأنه قسيم المشترك بين القسمين، ولم يحتج إليه الرابع لإفصاحه بأنه قسيم المشترك بين الأقسام المتقدمة[4].

فكلام البيضاوي السابق يشير إلى تقسيم الله عز وجل ما يهبه للناس في أرحام الأمهات إلى أقسام أربعة جاء على تفصيلها وبيانها في الآية مع استيفاء لأقسامها جميعاً.

---

(١) بغية الإيضاح: ٦٠٧/٤
(٢) تفسير البيضاوي: ٣٣٣/١
(٣) بغية الإيضاح: ٦٠٧/٤
(٤) تفسير البيضاوي: ٢٤٢/٣

ثاني عشر: المبالغة:

المبالغة أن يُدَّعَى لوصف بلوغه في الشدة أو الضعف حدا مستحيلا أو مستبعدا[١]، وقيل في تعريف المبالغة: هي أن تثبت للشيء وصفا من الأوصاف تقصد فيه الزيادة على غيره، إما على جهة الإمكان، أو التعذر، أو الاستحالة[٢].

فالمبالغة تأتي على ثلاثة أنواع كما يتضح من التعريف وتفصيل هذه الأنواع الثلاثة: النوع الأول: التبليغ: ويكون الادعاء فيه للوصف من الشدة أو الضعف ممكناً عقلاً وعادة، والنوع الثاني: الإغراق: ويكون الادعاء فيه للوصف من الشدة أو الضعف ممكناً عقلاً لا عادة، والنوع الثالث: الغلو: ويكون فيه الادعاء للوصف من الشدة أو الضعف مستحيلاً عقلاً وعادة[٣].

فمما جاء في القرآن الكريم على مبالغة الإغراق قوله تعالى: ﴿**أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا** ﴿٥٣﴾﴾ النساء: ٥٣، قال البيضاوي رحمه الله: **(فَإِذاً لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً)** أي لو كان لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون أحداً ما يوازي نقيرا، وهو النقرة في ظهر النواة. **وهذا هو الإغراق** في بيان شُحِّهم فإنهم إن بخلوا بالنقير وهم ملوك فما ظنك بهم إذا كانوا فقراء أذلاء متفاقرين[٤].

فقول البيضاوي رحمه الله: (وهذا هو الإغراق في بيان شُحِّهم) إشارة منه إلى أن في الآية مبالغة وإغراقاً في وصف بخلهم وشحهم.

---

(١) بغية الإيضاح: ٦١٢/٤
(٢) الطراز: ٦٣/٣
(٣) انظر: جواهر البلاغة: ٣١٢-٣١٣
(٤) تفسير البيضاوي: ٣٦٣/١

المبحث الثاني: المحسنات اللفظية:

السجع:

السجع لغة: سجع: اسْتَوَى وَاسْتَقَامَ وأَشبه بَعْضُهُ بَعْضًا، وَالسَّجْعُ: الْكَلَامُ المُقَفَّى، وسَجَعَ يَسْجَعُ سَجْعاً وسَجَّعَ تَسْجِيعاً: تَكَلَّم بِكَلَامٍ لَهُ فَواصِلُ كفواصِلِ الشِّعْر مِنْ غَيْرِ وَزْنٍ(١).

والسجع اصطلاحاً: تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد(٢)، وقيل: هو تواطؤ الفاصلتين أو الفواصل على حرف واحد، أو حرفين متقاربين، أو حروف متقاربة(٣).

والبيضاوي رحمه الله في تفسيره أشار في مواطن كثيرة إلى السجع في القرآن الكريم حيث يسميه تارة: (مراعاة الفواصل)، ويسميه تارة أخرى: (المحافظة على رؤوس الآي).

التغييرات التي تطرأ على النظم لأجل السجع:

أشار البيضاوي رحمه الله في تفسيره إلى أنه يُعمد في سبيل السجع في القرآن الكريم إلى تغيير نظم الكلام، وليس هذا التغيير من أجل السجع فقط، بل له اعتبارات أخرى –إلى جانب السجع–تتعلق بالمعنى، ويأتي تغيير النظم من أجل السجع على أشكال عدة، منها:

١. التقديم والتأخير:

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ النحل: ٧٢، قال البيضاوي رحمه الله: (وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ) وتقديم الصلة على الفعل إما للاهتمام أو لإيهام التخصيص مبالغة، أو للمحافظة على الفواصل(٤).

ومنه قوله تعالى: ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾ لقمان:

---

(١) انظر: لسان العرب (سجع): ١٥٠/٨

(٢) المثل السائر: ٢١٠/١

(٣) من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان ، ٢٨٦

(٤) تفسير البيضاوي: ٢٧١/٢

١٧ – ١٨ ، قال البيضاوي رحمه الله: (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) وتأخير الفَخُورِ وهو مقابل للمصعر خده والمختال للماشي مرحاً لتوافق رؤوس الآي[١].

ومنه قوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ﴾ الفاتحة: ٤ – ٥، قال البيضاوي رحمه الله: وقدمت العبادة على الاستعانة ليتوافق رؤوس الآي.

٢. إفراد ما حقه الثنية:

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ۝١١٦ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ۝١١٧ ﴾ طه: ١١٦ – ١١٧ ، قال البيضاوي رحمه الله: (**مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى**) أفرده بإسناد الشقاء إليه بعد إشراكهما في الخروج اكتفاء باستلزام شقائه شقاءها من حيث إنه قيم عليها ومحافظة على الفواصل[٢].

إذ لو قال الله تعالى: (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقيا) لاختلت الفواصل لذلك قال (فتشقى) لتوافق الآية السابقة لها حيث قال في ختامها: (إلا إبليس أبى).

٣. وضع المضارع موضع الماضي:

كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٩ لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ ۝٧٠ ﴾ المائدة: ٦٩ – ٧٠ ، قال البيضاوي رحمه الله: وإنما جيء بـ (يَقْتُلُونَ) موضع قتلوا على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها واستفظاعاً للقتل وتنبيهاً على أن ذلك من ديدنهم ماضياً ومستقبلاً ومحافظة على رؤوس الآي[٣].

٤. تغيير نوع الجملة:

كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ۝٢٣ ﴾ الحج: ٢٣، قال

(١) تفسير البيضاوي: ٦٤/٣
(٢) تفسير البيضاوي: ٤٠٦/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ٤٥٢/١

البيضاوي رحمه الله: (**وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ**) غير أسلوب الكلام فيه للدلالة على أن الحرير ثيابهم المعتادة، أو للمحافظة على هيئة الفواصل[1].

معنى قول البيضاوي: (غير أسلوب الكلام فيه) هو الإشارة إلى أن الجمل كلها من بداية الآية جاءت على طريقة الجمل الفعلية (يدخل، يحلون)، لكنه عند ختامها قال: (لباسهم) ولم يقل (يلبسون)، فحولها من جملة فعلية إلى اسمية، والسبب -كما يفهم من كلام البيضاوي-هو أنه لو قال: (يلبسون) لاقتضى ذلك أن تُختم الآية بـ(حريراً) على أنها مفعول به، وهذا يخالف الروي في الآيات السابقة لهذه الآية حيث ختمت بـ﴿ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾ الحج: ٢٢، وقبلها: ﴿ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ ﴾ الحج: ٢١.

كما أن الآية السابقة بُدلت الجملة الفعلية إلى اسمية للمحافظة على الفواصل، قد يحدث العكس فتُبدَّل الاسمية إلى فعلية أيضاً للمحافظة على الفواصل كما في قوله تعالى: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾ الأحزاب: ٤٤.

يقول البيضاوي رحمه الله: (**وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً**) هي الجنة، ولعل اختلاف النظم لمحافظة الفواصل والمبالغة فيما هو أهم[2].

والمعنى الذي يشير إليه البيضاوي أن الآية من بدايتها جاءت بجملة اسمية فقال الله تعالى: (تحيتهم يوم يلقونه سلام)، وكان حق النظم جرياً على ما سبق أن يقول: (وأجرهم يومئذٍ كريم) وحينها ستكون كلمة (كريم) مرفوعة مخالفة للفواصل السابقة، لكنه عدل عن الجملة الإسمية إلى الجملة الفعلية لتتفق الفاصلة مع سابقاتها وهي: ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾ الأحزاب: ٤٣، وقبلها: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ الأحزاب: ٤٢.

٥. تغيير نوع الكلمة:

كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ النمل: ٢٧، قال البيضاوي رحمه الله: (**أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ**) أي أم كذبت والتغيير للمبالغة ومحافظة الفواصل[3].

---

(١) تفسير البيضاوي: ٢/٤٤٤

(٢) تفسير البيضاوي: ٣/٩٠

(٣) تفسير البيضاوي: ٢/٥٦٥

فكان القياس كما يشير البيضاوي أن يُقابَل الفعل بالفعل لكنه غير نوع الكلمة إلى اسم للمحافظة على الفواصل لأن الفواصل السابقة لها: (لا يهتدون، ما يخفون وما يعلنون) بالإضافة إلى سبب آخر وهو المبالغة.

كما أن الفعل يُستبدل به الاسم للمحافظة على الفواصل يحدث العكس، فيستبدل الاسم بالفعل كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ يس: ٦٧، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَلَا يَرْجِعُونَ)** ولا رجوعاً فوضع الفعل موضعه للفواصل[١].

حيث الفاصلة السابقة لهذه الآية: ﴿ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ يس: ٦٦، لذلك عَدَل عن الاسم (رجوعاً) إلى الفعل (يرجعون).

٦. زيادة حرف:

كما في قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ ﴾ الأحزاب: ١٠، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا الأنواع من الظن)** والألف مزيدة في أمثاله تشبيهاً للفواصل بالقوافي[٢].

فقد زيدت الألف في كلمة (الظنون) لتتفق الفواصل حيث ختمت الآيات السابقة بقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ الأحزاب: ٩ والتي قبلها بقوله تعالى: ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ﴾ الأحزاب: ٨.

٧. تغيير صيغة المصدر:

كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ ﴾ المزمل: ٨، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا)** وانقطع إليه بالعبادة وجرد نفسك عما سواه، ولهذه الرمزة **ومراعاة الفواصل وضعه موضع تبتلاً**[٣].

---

(١) تفسير البيضاوي: ١٣٧/٣

(٢) تفسير البيضاوي: ٧٩/٣

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٦١/٣

فيشير البيضاوي رحمه الله إلى أن الأصل أن يقال: (تبتل إليه تبتلاً) لكنه قال: (تبتيلاً) مراعاة للفواصل السابقة لهذه الآية ﴿ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧ ﴾ المزمل: ٧، و ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦ ﴾ المزمل: ٦.

فالمصدر من تبتل هو تبتل كما جاء في لسان العرب في مادة (بتل): وَفِي التَّنْزِيلِ:(وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا) جَاءَ الْمَصْدَرُ فِيهِ عَلَى غَيْرِ طَرِيقِ الْفِعْلِ، وَلَهُ نَظَائِرُ، وَمَعْنَاهُ أَخْلِصْ لَهُ إِخْلاصاً. والتَّبَتُّلُ: الِانْقِطَاعُ عَنِ الدُّنْيَا إِلى اللَّهِ تَعَالَى... والأَصل فِي تَبَتَّلَ أَن تَقُولَ تَبَتَّلْتُ تَبَتُّلًا[1].

٨. العدول عن صيغة الاسم إلى صيغة المبالغة:

كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ ﴾ الإنسان: ٣، قال البيضاوي رحمه الله: ولعله لم يقل كافراً ليطابق قسيمه محافظة على الفواصل[2].

قسم الله أنواع الناس إلى صنفين: (شاكر) و(كافر) لكنه سمى الكافر (كفوراً) بصيغة المبالغة لأسباب منها المحافظة على الفواصل.

٩. حذف المفعول:

كما في قوله تعالى: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾ الضحى: ٣، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَما قَلى)** وما أبغضك، وحذف المفعول استغناء بذكره من قبل ومراعاة للفواصل[3].

يعني أنه كان الأصل أن يقال: (وما قلاك)، لكنه حذف المفعول الذي هو الضمير لمراعاة الفواصل السابقة لهذه الآية ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ ﴾ الضحى: ١ – ٢

بلاغة السجع:

السجع في القرآن الكريم لا يأتي مراعاة للفظ فقط على حساب المعنى والنظم والبلاغة، لكنه يأتي مزاوجاً بين جمال الألفاظ وتراصها مع أخواتها وبين المعنى البلاغي، "فجمال الفواصل في القرآن بادٍ لا يخفى على أحد، فموضع الفاصلة في الآية لا يأتي اعتباطاً أو لمراعاة اللفظ فقط

(١) لسان العرب (بتل): ٤٢/١١
(٢) تفسير البيضاوي: ٤٧٧/٣
(٣) تفسير البيضاوي: ٥٤٣/٣

ولكنها تكمل معنى الآية، ويتم بها النغم الموسيقى للآية، فنراها أكثر ما تنتهى بالنون والميم وحروف المد، وتلك هي الحروف الطبيعية في الموسيقى نفسها"[١].

وللفواصل القرآنية مكانها الذي لا يحيد من التأثير الموسيقي في النفس وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب، وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها؛ أو بالمد، وهو كذلك طبيعي في القرآن، فإن لم تنته بواحدة من هذه، كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى، كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه، وعلى أن ذلك لا يكون أكثر ما أنت واجده إلا في الجمل القصار، ولا يكون إلا بحرف قوي يستتبع القلقلة أو الصفير أو نحوهما مما هو ضروب أخرى من النظم الموسيقي.

وهذه هي طريقة الاستهواء الصوتي في اللغة، وأثرها طبيعي في كل نفس، فهي تشبه في القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه الذي يخاطب به كل نفس تفهمه، وكل نفس لا تفهمه، ثم لا يجد من النفوس على أي حال إلا الإقرار والاستجابة؛ ولو نزل القرآن بغيرها لكان ضرباً من الكلام البليغ الذي يُطمَع فيه أو في أكثره، ولما وجد فيه أثر يتعدى أهل هذه اللغة العربية إلى أهل اللغات الأخرى، ولكنه انفرد بهذا الوجه للعجز، فتألقت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو أبدل بغيره أو أقحِم معه حرف آخر، لكان ذلك خللاً بيناً، أو ضعفاً ظاهراً في نسق الوزن وجرس النغمة، وفي حِسِّ السمع وذوق اللسان، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرَج وتَسانُد الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض، ولرأيت هُجنة في السمع، كالذي تنكره من كل مَرئي لم تقع أجزاؤه على ترتيبها، ولم تنفق على طبقاتها، وخرج بعضُها طولاً وبعضُها عرضاً، وذهب ما بقي منها إلى جهات متناكرة[٢].

(١) من بلاغة القرآن لأحمد البدوي: ٦٥.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، ص١٥٠، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م.

الفصل الخامس
"تأثر البيضاوي بالسابقين وتأثيره في اللاحقين"

- المبحث الأول: تأثره بالسابقين.
- المبحث الثاني: تأثيره في اللاحقين.

الفصل الخامس: تأثر البيضاوي بالسابقين وتأثيره في اللاحقين:

المبحث الأول: تأثر البيضاوي بالسابقين:

لا شك أن أي عالم أو أديب أو مفكر -كما يقال- هو ابن عصره، يتأثر بمعلميه وأساتذته ومن يقرأ لهم، ويؤثر أيضاً في غيره، وليس معنى ذلك أن الأديب حين يتأثر بغيره أن شخصيته ذائبة ينقل ما يسمعه أو يقرأه دون أن يُعمِل عقله وفكره فيهما ليس هذا صحيحاً، لأن الإنسان يتأثر بالعلوم التي يستقيها من السابقين والمعاصرين ويضفي عليها شخصيته وآراءه ويورثها للاحقين، فالعلم رحم بين أهله -كما قيل- والعلوم والمعارف الإنسانية متراكمة.

وليس مقصد هذا المبحث أن يستقصي كل المجالات التي تأثر بها البيضاوي من آراء السابقين أو المعاصرين، وإنما مقصده التركيز على الآراء البلاغية واللغوية، وإظهار مدى تأثره بها.

أولاً: الزمخشري (٥٣٨هـ):

تأثر البيضاوي رحمه الله بالزمخشري كثيراً، خاصة في آرائه البلاغية واللغوية، والمتفحص لتفسير البيضاوي يرى ذلك جلياً، حين يقارن بين آراء البيضاوي وآراء الزمخشري.

وهنا أسوق بعض المواضع التي يظهر فيها تأثر البيضاوي بآراء الزمخشري البلاغية، محاولاً التنويع بين مباحث علم البلاغة فيما أذكره، وهي كالتالي:

١. الخبر بغرض التهكم:

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ هود: ٨٧. قال البيضاوي: تهكموا به وقصدوا وصفه بضد ذلك[١]. وقال الزمخشري رحمه الله: وأرادوا بقولهم ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ نسبته إلى غاية السفه والغيّ، فعكسوا ليتهكموا به[٢].

(١) تفسير البيضاوي: ١٤٥/٢.
(٢) الكشاف: ٢٢٦/٣.

٢. الخبر لغرض الوعيد

ومن تأثر البيضاوي بالزمخشري الخبر الذي جاء لغرض الوعيد، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ يونس: ٤٤، قال البيضاوي رحمه الله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ بإفسادها وتفويت منافعها عليهم...ويجوز أن يكون وعيداً لهم[١]

أمَّا الزمخشري فقال: أي لا ينقصهم شيئاً مما يتصل بمصالحهم من بعثة الرسل وإنزال الكتب، ولكنهم يظلمون أنفسهم بالكفر والتكذيب. ويجوز أن يكون وعيداً للمكذبين[٢].

٣. ما يجري مجرى القسم:

في قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦ ﴾ يس: ١٦، قال البيضاوي: (قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ) استشهدوا بعلم الله وهو يجري مجرى القسم[٣]. قال الزمخشري رحمه الله: وقوله: (رَبُّنا يَعْلَمُ) جار مجرى القسم في التوكيد[٤].

٤. السين في إفادة التوكيد:

في قوله تعالى:﴿ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ التوبة: ٧١، قال البيضاوي رحمه الله: (أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُ) لا محالة، فإن السين مؤكدة للوقوع[٥]. قال الزمخشري رحمه الله: (سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ) السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة، فهي تؤكد الوعد[٦].

٥. التوكيد بتكرار الكلمة:

كما في قوله تعالى: ﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ٥٧ ﴾ النساء: ٥٧، قال البيضاوي: والظليل صفة مشتقة من الظل لتأكيده كقولهم: شمس شامس، وليل أليل، ويوم أيوم[٧]. قال الزمخشري رحمه الله: (ظَلِيلًا) صفة مشتقة من لفظ الظلّ لتأكيد معناه. كما يقال: ليل أليل، ويوم أيوم، وما أشبه ذلك[٨].

---

(١) تفسير البيضاوي: ١٠٣/٢
(٢) الكشاف: ٣٤٩/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ١٢٩/٣.
(٤) الكشاف: ٩/٤
(٥) تفسير البيضاوي: ٦٤/٢
(٦) الكشاف:٢٨٩/٢
(٧) تفسير البيضاوي: ٣٦٤/١
(٨) الكشاف: ٥٢٣/١

٦. النداء لغرض التخصيص:

ومثاله قوله تعالى: ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ هود: ٧٣ ، قال البيضاوي رحمه الله: وأهل البيت نصب على المدح أو النداء لقصد التخصيص[١]. قال الزمخشري رحمه الله: وأهل البيت: نصب على النداء أو على الاختصاص، لأن (أَهْلَ الْبَيْتِ) مدح لهم[٢]

٧. التعريف للتكثير:

في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾ الأعراف: ١٣١، قال البيضاوي رحمه الله: وإنما عرف الحسنة وذكرها مع أداة التحقيق لكثرة وقوعها[٣]. قال الزمخشري رحمه الله: فإن قلت: كيف. قيل: (فإذا جاءتهم الحسنة) بإذا وتعريف الحسنة، (وإن تصبهم سيئة) بإنّ وتنكير السيئة؟ قلت: لأنّ جنس الحسنة وقوعه كالواجب لكثرته واتساعه[٤].

٨. التنكير للتقليل:

في قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ الإسراء: ١، قال البيضاوي رحمه الله: وفائدته الدلالة بتنكيره على تقليل مدة الإسراء[٥]. قال الزمخشري رحمه الله: أراد بقوله (لَيْلًا) بلفظ التنكير: تقليل مدّة الإسراء[٦].

٩. الاعتراض للتنزيه والتعظيم:

في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ آل عمران: ١٩١، قال البيضاوي رحمه الله: (سُبْحانَكَ) تنزيهاً لك من العبث وخلق الباطل وهو اعتراض[٧]. وقال الزمخشري رحمه الله: وسبحانك: اعتراض للتنزيه من العبث، وأن يخلق شيئاً بغير حكمة[٨].

---

(١) تفسير البيضاوي: ١٤٠/٢
(٢) الكشاف: ٤١١/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ٥٦٦/١
(٤) الكشاف: ١٤٥/٢
(٥) تفسير البيضاوي: ٢٨٩/٢
(٦) الكشاف: ٦٤٦/٢
(٧) تفسير البيضاوي: ٣٢٣/١
(٨) الكشاف: ٤٥٤/١

١٠. الالتفات للتفخيم:

في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ النساء: ٦٤، قال البيضاوي رحمه الله: (وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ) وإنما عدل الخطاب تفخيماً لشأنه[١].

قال الزمخشري رحمه الله: ولم يقل: واستغفرت لهم، وعدل عنه إلى طريقة الالتفات، تفخيما لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيما لاستغفاره[٢].

١١. التغليب:

في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾ الإسراء: ٦٣ ، قال البيضاوي رحمه الله: (فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ) جزاؤك وجزاؤهم فغلَّب المخاطب على الغائب[٣].

قال الزمخشري رحمه الله: التقدير: فإنّ جهنم جزاؤهم وجزاؤك، ثم غلب المخاطب على الغائب فقيل: جزاؤكم [٤].

١٢. وضع المفرد موضع المثنى:

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ التوبة: ٦٢، قال البيضاوي رحمه الله: وتوحيد الضمير لتلازم الرضاءين[٥]. قال الزمخشري رحمه الله: وإنما وحد الضمير لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم، فكانا في حكم مرضىّ واحد[٦].

---

(١) تفسير البيضاوي: ٣٦٧/١
(٢) الكشاف: ٥٢٨/١
(٣) تفسير البيضاوي: ٣٠٩/٢
(٤) الكشاف: ٦٧٧/٢
(٥) تفسير البيضاوي: ٦١/٢
(٦) الكشاف: ٢٨٥/٢

١٣. تشبيه المحسوس بالمعقول:

في قوله تعالى: ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾ الصافات: ٦٥، قال البيضاوي رحمه الله: (كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ) في تناهي القبح والهول، وهو تشبيه بالمتخيل كتشبيه الفائق الحسن بالملك(١).

وقال الزمخشري رحمه الله: وشبه برءوس الشياطين دلالة على تناهيه في الكراهة وقبح المنظر، لأنّ الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس، لاعتقادهم أنه شر محض لا يخلطه خير، فيقولون في القبيح الصورة: كأنه وجه شيطان، كأنه رأس شيطان. وإذا صوّره المصورون: جاءوا بصورته على أقبح ما يقدر وأهوله، كما أنهم اعتقدوا في الملك أنه خير محض لا شر فيه، فشبهوا به الصورة الحسنة(٢).

١٤. التشبيه البليغ:

في قوله تعالى: ﴿ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ﴾ البقرة: ٢٥، قال البيضاوي رحمه الله: فالمعنى هذا مثل رزقنا ولكن لما استحكم الشبه بينهما جعل ذاته ذاته كقولك: أبو يوسف أبو حنيفة(٣).

وقال الزمخشري رحمه الله: معناه هذا مثل الذي رزقناه من قبل وشبهه بدليل قوله (وأتوا به متشابها)، وهذا كقولك: أبو يوسف أبو حنيفة، تريد أنه لاستحكام الشبه كأن ذاته ذاته (٤).

١٥. المجاز العقلي لعلاقة المكانية:

في قوله تعالى: ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ ﴾ يوسف: ٣٩، قال البيضاوي رحمه الله: (يا صاحِبَيِ السِّجْنِ) أي يا ساكنيه، أو يا صاحبي فيه فأضافهما إليه على الاتساع كقوله: يَا سَارِقَ اللَّيْلَةَ أَهْلَ الدَّارِ(٥).

---

(١) تفسير البيضاوي: ٣/١٥٠
(٢) الكشاف: ٤/٤٦
(٣) تفسير البيضاوي: ١/٧٠
(٤) الكشاف: ١/١٠٨
(٥) تفسير البيضاوي: ٢/١٧٣

وقال الزمخشري رحمه الله: (يا صاحِبَيِ السِّجْنِ) يريد يا صاحبيَّ في السجن، فأضافهما إلى السجن كما تقول: يا سارق الليلة، فكما أن الليلة مسروق فيها غير مسروقة[١].

١٦. المجاز المرسل لعلاقة الحالية:

في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ آل عمران: ١٠٧، قال البيضاوي رحمه الله: (وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ) يعني الجنة والثواب المخلد[٢]. وقال الزمخشري رحمه الله: (فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ) ففي نعمته وهي الثواب المخلد[٣].

١٧. الاستعارة المكنية:

في قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ يس: ٣٧، قال البيضاوي رحمه الله: نزيله ونكشفه عن مكانه مستعار من سلخ الجلد[٤]. وقال الزمخشري رحمه الله: سلخ جلد الشاة: إذا كشطه عنها وأزاله. ومنه: سلخ الحية لخرشائها، فاستعير لإزالة الضوء وكشفه عن مكان الليل[٥].

١٨. الكناية:

في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ الأعراف: ١٤٩، قال البيضاوي رحمه الله: (وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ) كناية عن اشتداد ندمهم فإن النادم المتحسر يعض يده غماً فتصير يده مسقوطاً فيها[٦]. وقال الزمخشري رحمه الله: (وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ) ولما اشتدّ ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل، لأنّ من شأن من اشتدّ ندمه وحسرته أن يعض يده غما، فتصير يده مسقوطا فيها [٧].

ثانياً: الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٠هـ):

يظهر تأثر البيضاوي رحمه الله بأقوال الخليل بن أحمد الفراهيدي –الإمام الكبير– في مواطن كثيرة من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ الفاتحة: ٥، قال البيضاوي رحمه الله: و(إيا) ضمير منصوب منفصل، وما يلحقه من الياء والكاف والهاء

(١) الكشاف: ٤٧١/٢
(٢) تفسير البيضاوي: ٢٨٦/١
(٣) الكشاف: ٣٩٩/١
(٤) تفسير البيضاوي: ١٣٢/٣
(٥) الكشاف: ١٦/٤
(٦) تفسير البيضاوي: ٥٧٣/١
(٧) الكشاف: ١٦٠/٢

حروف زيدت لبيان التكلم والخطاب والغيبة لا محل لها من الإعراب، كالتاء في أنتَ والكاف في أرأيتك. وقال الخليل: إيا مضاف إليها، واحتج بما حكاه عن بعض العرب إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب[1]

ومن تأثر البيضاوي بالخليل تفسير قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ البقرة: ١ – ٢، قال البيضاوي رحمه الله: الم وسائر الألفاظ التي يتهجى بها، أسماء مسمياتها الحروف التي ركبت منها الكلم لدخولها في حد الاسم، واعتوار ما يخص به من التعريف والتنكير والجمع والتصغير ونحو ذلك عليها، وبه صرَّح الخليل وأبو علي[2]

ثالثاً: سيبويه (١٨٠هـ):

تأثر البيضاوي بعلماء اللغة والنحو إجمالاً، إذ كان البيضاوي مطلعاً على هذه العلوم، وهي أداة مهمة لا يستغني عنها المفسر بأي حال من الأحوال، وكان سيبويه أحد الذين تأثر بهم البيضاوي في تفسيره فنقل عنه واستشهد بأقواله في مواضعَ كثيرة.

فمن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤١ ﴾ الأعراف: ٤١، قال البيضاوي رحمه الله: (وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ) أغطية، والتنوين فيه للبدل عن الاعلال عند سيبويه[3]

ومن تأثره بسيبويه قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٦٦ ﴾ النحل: ٦٦، قال البيضاوي رحمه الله: (نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ) استئناف لبيان العبرة، وإنما ذَكَّر الضمير ووحَّده ها هنا للفظ وأنثه في سورة «المؤمنين» للمعنى، فإن الْأَنْعامِ اسم جمع ولذلك عده سيبويه في المفردات المبنية على أفعال كأخلاق وأكياس[4]

رابعاً: المبرد (٢٨٦هـ):

من الذين تأثر بهم البيضاوي ونقل عنهم العالم اللغوي الكبير المبرد، فمن المواطن التي يظهر فيها تأثر البيضاوي بالمبرد قول البيضاوي: "و(إنَّ) من الحروف التي تشابه الفعل في عدد

(١) تفسير البيضاوي: ١٦/١
(٢) تفسير البيضاوي: ٢٤/١
(٣) تفسير البيضاوي: ٥٤٤/١
(٤) تفسير البيضاوي: ٢٦٨/١

الحروف، والبناء على الفتح، ولزوم الأسماء، وإعطاء معانيه والمتعدي خاصة في دخولها على اسمين... وفائدتها تأكيد النسبة وتحقيقها، ولذلك يُتلقى بها القسم، ويُصدَّر بها الأجوبة، وتُذكَر في مَعرِض الشَّكِّ مثل قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ الكهف: ٨٣ – ٨٤، ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ الأعراف: ١٠٤، قال المبرد: قولك: (عبدالله قائم) إخبار عن قيامه، (وإن عبدالله قائم) جواب سائل عن قيامه، (وإن عبدالله لقائم) جواب منكر لقيامه"[١].

ومن مظاهر تأثره بالمبرد ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ البقرة: ١٣٠ ، قال البيضاوي رحمه الله: (إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ) إلا من استمهنها وأذلها واستخف بها. قال المبرد وثعلب سفه بالكسر متعد وبالضم لازم[٢]

خامساً: الأخفش:

فمن الآيات التي يظهر فيها تأثر البيضاوي رحمه الله بالأخفش قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾ يس: ٣٤، قال البيضاوي رحمه الله: (مِنَ الْعُيُونِ) أي شيئاً من العيون، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه، أو الْعُيُونِ ومِنْ مزيدة عند الأخفش[٣]

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ البقرة: ٢٣، قال البيضاوي رحمه الله: (مِنْ مِثْلِهِ) صفة سورة أي: بسورة كائنة من مثله، والضمير لما نزلنا، و (من) للتبعيض أو للتبيين. وزائدة عند الأخفش أي بسورةٍ مماثلة للقرآن العظيم في البلاغة وحسن النظم[٤]

(١) تفسير البيضاوي: ٣٩/١.
(٢) تفسير البيضاوي: ١٣٩/١
(٣) تفسير البيضاوي: ١٣٢/٣
(٤) تفسير البيضاوي: ٤٤/١

سادساً: أبو البقاء العُكْبَري (٦١٦هـ)[١]:

يظهر تأثر البيضاوي بأبي البقاء العكبري في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ البقرة: ٨ قال البيضاوي: "والناس أصله أُناس، لقولهم: إنسان، وأُنس، وأناسي، فحذفت الهمزة حذفها في لوقة وعوض عنها حرف التعريف ولذلك لا يكاد يجمع بينهما"[٢].

وقال العكبري: "أصل الناس عند سيبويه أُناس، فحذفت همزته، وهي فاء الكلمة، وجعلت الألف واللام عوض منها، فلا يكاد يستعمل الناس إلا بالألف واللام، ولا يكاد يستعمل أُناس بالألف واللام، فالألف في الناس على هذا زائدة واشتقاقه من الأُنس بضم الهمزة"[٣].

---

(١) هو عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبريّ البغدادي، أبو البقاء، محبّ الدين: عالم بالأدب واللغة والفرائض والحساب. أصله من عكبرا (بليدة على دجلة) ومولده ووفاته ببغداد. أصيب في صباه بالجدري، فعمي (الأعلام للزركلي: ٤/٨٠)

(٢) تفسير البيضاوي: ١/٤٤.

(٣) التبيان في إعراب القرآن: ١/٢٤.

المبحث الثاني: تأثيره في اللاحقين:

كان لتفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل أثراً كبيراً على كثير من العلماء والكُتَّاب فراحوا يستقون من معينه وينقلون منه في كتاباتهم وتفاسيرهم.

وللوقوف على تأثير هذا التفسير في اللاحقين سأقف عند عناوين بارزة وهي:

١. تأثير تفسير البيضاوي في كُتَّاب الحواشي والتعليقات.
٢. المفسرون الذين تأثروا بتفسير البيضاوي ونقلوا عنه في تفاسيرهم.
٣. المحققون الذين أحالوا على تفسير البيضاوي لتدعيم أقوال المفسرين.

أولاً: تأثير تفسير البيضاوي في كُتَّاب الحواشي والتعليقات:

لعلَّ أكبر مظاهر تأثير تفسير البيضاوي في اللاحقين انكباب الشراح والمُحشِّين عليه، حيث وثَّقت الدراسات أسماء ثلاثمائة وثلاث وثلاثين حاشية(١).

ولقد ظهر تأثير تفسير البيضاوي في هذه الحواشي في شرح كُتَّابها لكلام البيضاوي والوقوف على آرائه سواء البلاغية منها أو غيرها، حيث كانوا يوافقونه أحياناً ويخالفونه أحياناً أخرى، ويبسطون القول في آرائه البلاغية. وبهذا يكون تفسير البيضاوي قد أثَّر تأثيراً مباشراً بمن استفاد منه بشكل مباشر، وتأثيراً غير مباشر بمن قرأ حواشيه وتعليقاته.

وسأقف عند أبرز الحواشي التي كتبت على تفسير البيضاوي محاولاً إظهار تأثير تفسير البيضاوي في هذه الحواشي فيما يخص الجوانب البلاغية، بذكر أمثلة على مظاهر هذا التأثر.

١. حاشية الشهاب:

الشهاب الخفاجي في حاشيته المعروفة باسم (عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي) يقف على كلام البيضاوي كثيراً ويناقش آراءه البلاغية.

من مظاهر تأثر الشهاب الخفاجي بآراء البيضاوي البلاغية وموافقته له، تعقيبه على تفسير البيضاوي لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ المائدة: ٥٦.

(١) انظر: كشف الظنون: ١/١٨٨، وإيضاح المكنون: ١/١٣٨، الفهرس الشامل للتراث العربي والإسلامي المخطوط: ١/٣٢٠.

قال البيضاوي رحمه الله:(فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ) أي فإنهم هم الغالبون، ولكن وضع الظاهر موضع المضمر تنبيهاً على البرهان عليه[1].

قال الشهاب الخفاجي: وقوله: (وضع الظاهر موضع المضمر إلخ) هذا مبني على أنّ جواب الشرط الاسمي في نحوه لا بد من اشتماله على ضميره كما مرّ فوضع الاسم الظاهر موضع الضمير للدلالة على علة الغلبة، وهو أنهم حزب الله كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ الصافات: ١٧٣[2].

ومن تأثر الشهاب بالبيضاوي ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ النور: ١٠.

قال البيضاوي رحمه الله: (وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ) متروك الجواب للتعظيم أي لفضحكم وعاجلكم بالعقوبة[3].

وقال الشهاب: قوله: (متروك الجواب للتعظيم) أي ليدلّ على أنّ المقدر أمر هائل عظيم لا تحيط به العبارة[4]

فنلحظ أن الشهاب الخفاجي كان يأخذ عبارة البيضاوي ويشرحها متفقاً معها في الأغلب وشارحاً لها وباسطاً القول فيها.

٢. حاشية السيوطي:

ومن الذين تأثروا بتفسير البيضاوي السيوطي في حاشيته المعروفة بـ "نواهد الأبكار وشوارد الأفكار" حيث كان يقف عند آراء البيضاوي البلاغية ويقوم بشرحها وتدعيمها بأقوال العلماء.

ويظهر هذا عندما نرى تفسير البيضاوي لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ البقرة: ٨٣.

---

(١) تفسير البيضاوي: ٤٤٦/١
(٢) حاشية الشهاب: ٢٥٦/٣
(٣) تفسير البيضاوي: ٤٨٨/٢
(٤) حاشية الشهاب: ٣٦١/٦

قال البيضاوي في هذه الآية: (ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ) على طريقة الالتفات[1].

وقال السيوطي رحمه الله: قوله: (ثم توليتم على طريقة الالتفات)، قال الحلبي: إنما يجئ هذا على قراءة لا يعبدون بالغيبة، وأما على قراءة الخطاب فلا التفات البتة، ويجوز أن يكون أراد بالالتفات الخروج من خطاب بني إسرائيل القدماء إلى خطاب الحاضرين في زمن النبي- صلى الله عليه وسلم- وقد قيل بذلك. ويؤيده قوله تعالى: (إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ)، قيل: يعني بهم الذين أسلموا في زمانه عليه الصلاة والسلام كعبد الله في سلام، وأضرابه، فيكون التفاتا على القراءتين[2]

فالسيوطي رحمه الله في هذه الآية يسرد آراء العلماء فيما قاله البيضاوي ومن ثم يبدي رأيه ونراه يتفق مع ما قاله البيضاوي.

ومن الأمثلة التي تظهر تأثير تفسير البيضاوي في حاشية السيوطي، ما جاء في تفسير البيضاوي عند قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾ البقرة: ٣.

قال البيضاوي رحمه الله: عبر عن الأداء بالإقامة لاشتمالها على القيام، كما عبر عنها بالقنوت والركوع والسجود والتسبيح. والأول أظهر لأنه أشهر وإلى الحقيقة أقرب[3].

وقال السيوطي شارحاً عبارة البيضاوي: قوله: (أو يؤدونها، عبر عن أدائها بالإقامة، لاشتمالها على القيام، كما عبر عنها بالقنوت، والركوع، والسجود، والتسبيح)

قال بعض أرباب الحواشي: هذا بعيد؛ لأنه قال هنا (ويقيمون الصلاة) فذكر اسم الصلاة مع إقامتها، وأما في تلك الأماكن فلم يذكر معها اسم الصلاة.

وقال الشيخ أكمل الدين: قيل: إنه على هذا مجاز، من باب ذكر الجزء وإرادة الكل؛ لأن القيام في الصلاة جزء من الصلاة، وفيه نظر؛ لأن الجزء لا يستلزم الكل، فلا يكون مجازا.

والجواب أن المراد القيام في الصلاة، وهو يستلزمها قطعا[4].

---

(١) تفسير البيضاوي: ١١٦/١
(٢) نواهد الأبكار: ٢٧٨/٢
(٣) تفسير البيضاوي: ٣٥/١
(٤) نواهد الأبكار: ٣٠١/١

فالسيوطي رحمه الله قد وقف عند عبارة البيضاوي السابقة وقام بشرحها وساق لها آراء البلاغيين وهذا أثرٌ كبير تركه هذا التفسير ظاهرٌ تمام الظهور في هذا المثال.

٣. حاشية محي الدين شيخ زاده:

وضع شيخ زادة حاشية جليلة شرح فيها كثيراً من المسائل التي نبه عليها البيضاوي في تفسيره سيَّما المسائل البلاغية فنراه يطيل الوقف شارحاً لهذه المسائل.

فمن ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ الفاتحة: ٥، قال البيضاوي في هذه الآية: "وقدم المفعول للتعظيم والاهتمام به والدلالة على الحصر..." (١)

قال شيخ زاده: (قوله: وقدم المفعول) ذكر لتقديم المفعول وجوهاً خمسة: الأول أن الضمير المنصوب عبارة عن ذات المعبود بالحق المستحق لأن يعظم بغاية ما يمكن من التعظيم ومن طريق التعظيم تقديمه في الذكر، والثاني أن المطلب الأعلى والأعم والأقوى بالنسبة إلى القارئ إنما هو مولاه المعبود بالحق الموصوف بجميع صفات الجلال والجمال المستجمع لجميع وجوه الفضل والإفضال، فكان لذلك نصب عينه وأهم عنده من جميع ما سواه بحيث لا يسبق إلى لسانه إلا ذكره ولا إلى قلبه إلا محبته ولا إلى جوارحه إلا حضوره والاستكانة إليه فلم يتمالك لذلك إلا أن يقدم اللفظ الدال عليه على عامله، والثالث الدلالة على الحصر فإن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر والتخصيص كما تقرر في علم البيان..." (٢)

وواضح ما في كلام الشيخ زاده من تفصيل وشرح وبسط لكلام البيضاوي، وهذا يُظهر مدى الأثر الذي تركه البيضاوي في علم البلاغة.

٤. حاشية القونوي:

ومن أجَلِّ الحواشي التي وضعت على تفسير البيضاوي حاشية القونوي حيث يظهر فيها تأثره بتفسير القونوي، حيث شرح فيها تفسير البيضاوي وأكَّد على المسائل البلاغية بتفصيلها وبسط الكلام فيها.

---

(١) تفسير البيضاوي: ١٦/١

(٢) حاشية محي الدين شيخ زاده: محمد بن مصلح القوجوي، ٨٧/١-٨٨، تحقيق محمد شاهين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.

فمن ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ البقرة: ٧، قال البيضاوي رحمه الله: وسماه على الاستعارة ختماً[١]

قال القونوي في شرح عبارة البيضاوي: فعلى هذا في (ختم) استعارة تصريحية تبعية ويلزم منه تشبيه القلوب والأسماع بالأواني المختومة[٢].

(١) تفسير البيضاوي: ٤١/١

(٢) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: ٤٧/٢

ثانياً: المفسرون الذين تأثروا بتفسير البيضاوي ونقلوا عنه في تفاسيرهم:

تأثر الكثير من المفسرين بتفسير البيضاوي واعتمدوا عليه اعتماداً كبيراً في تفاسيرهم واعتبره بعضهم من مصادره الرئيسة في تفسيره، ومن هؤلاء المفسرين:

١. أبو السعود "تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم"

صاحب هذا التفسير هو "محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، المولى أبو السعود المتوفى (٩٨٢هـ): مفسر شاعر، من علماء الترك المستعربين. ولد بقرب القسطنطينية، ودرس ودرَّس في بلاد متعددة، وتقلد القضاء في بروسة فالقسطنطينية فالروم ايلي. وأضيف إليه الإفتاء سنة ٩٥٢هـ وكان حاضر الذهن سريع البديهة[١]

اعتمد أبو السعود في تفسيره كثيراً على تفسيري الكشاف وأنوار التنزيل، ونراه في مقدمة تفسيره يشير إلى مكانة هذين التفسيرين، ومن ذلك قوله في المفسرين المتأخرين: فدوَّنوا أسفاراً بارعة جامعة لفنون المحاسن الرائعة يتضمن كل منها فوائد شريفة تقر بها عيون الأعيان وعوائد لطيفة يتشنف بها آذان الأذهان لا سيما الكشاف وأنوار التنزيل المتفردان بالشأن الجليل والنعت الجميل فإن كلا منهما قد أحرز قصب السبق أي إحراز كأنه مرآة لاجتلاء وجه الإعجاز صحائفهما مرايا المزايا الحسان وسطورهما عقود الجمان وقلائد العقبان[٢].

فأبو السعود رحمه الله قد وقف على أهمية هذين التفسيرين والكنوز والدقائق البلاغية فيهما لذلك فقد عكف عليهما كثيراً وفي ذلك يقول: "ولقد كان في سوابق الأيام وسوالف الدهور والأعوام أوان اشتغالي بمطالعتهما وممارستهما وزمان انتصابي لمفاوضتهما ومدارستهما يدور في خلدي على استمرار آناء الليل وأطراف النهار أن أنظم درر فوائدهما في سمط دقيق وأرتب غرر فرائدهما على ترتيب أنيق وأضيف إليها ما ألفيته في تضاعيف الكتب الفاخرة"[٣]

لكنه كان متردداً بسبب أشغال الدنيا لكنه في النهاية قام وألف تفسيره معتمداً على تفسيري الكشاف وأنوار التنزيل بالإضافة إلى عديد التفاسير الأخرى، وأضاف إليها خلاصة إبداعه وعلومه المختلفة.

---

(١) الأعلام: ٥٩/٧

(٢) تفسير أبي السعود: ٤/١

(٣) تفسير أبي السعود: ١٤/١

والمهم في هذا المقام هو تأثر أبو السعود رحمه الله بتفسير البيضاوي كما صرَّح بذلك في مقدمة تفسيره، ويظهر هذا التأثر في مواطن كثيرة.

من تلك المواطن والأمثلة التي وافق فيها أبو السعود البيضاوي ونقل فيها عبارته نصَّاً ما جاء في قوله تعالى: **(أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)** (النجم:٣٧).

قال البيضاوي رحمه الله: وتقديم موسى عليه الصلاة والسلام لأن صحفه وهي التوراة كانت أشهر وأكبر عندهم[١].

وقال أبو السعود: وتقديمُ مُوسى لما أنَّ صحفَهُ التي هي التوراة أشهرُ عندَهُم وأكثرُ[٢]

ومن موافقته له أيضاً ما جاء في قوله تعالى: قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ الروم: ١١، قال البيضاوي رحمه الله: (ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) للجزاء والعدول إلى الخطاب للمبالغة في المقصود[٣].

قال أبو السعود: (ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) إلى موقفِ الحسابِ والجزاءِ والالتفاتُ للمُبالغةِ في التَّرهيبِ[٤].

ومن المواضع التي اعترض فيها أبو السعود على قول البيضاوي ما جاء في قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ آل عمران: ٢٣.

قال البيضاوي: وتنكير النصيب يحتمل التعظيم والتحقير[٥].

قال أبو السعود: وما فيه من التنكير –كلمة نصيباً– للتفخيم وحملُه على التحقير لا يساعده مقامُ المبالغة في تقبيح حالِهم[٦]

(١) تفسير البيضاوي: ٣٤١/٣
(٢) تفسير أبي السعود: ١٦٣/٨
(٣) تفسير البيضاوي: ٤٧/٣
(٤) تفسير أبي السعود: ٥٣/٧
(٥) تفسير البيضاوي: ٢٥١/١
(٦) تفسير أبي السعود: ٢٠/٢

٢. تفسير النسفي "مدارك التنزيل وحقائق التأويل"

هو عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، أبو البركات، حافظ الدين: فقيه حنفي، مفسر، من أهل إيذج (من كور أصبهان) ووفاته فيها. نسبته إلى (نسف) ببلاد السند، بين جيحون وسمرقند[١]، متوفى سنة (٧١٠هـ).

اختصر النسفي تفسيره من تفسير الكشاف والبيضاوي وفي هذا يقول الذهبي: هذا التفسير، اختصره النسفي – رحمه الله – من تفسير البيضاوي ومن الكشاف للزمخشري... قرأتُ فى هذا التفسير فوجدته كما قلت آنفاً موجز العبارة سهل المأخذ، مختصراً من تفسير الكشاف، جامعاً لمحاسنه، متحاشياً لمساوئه، ومن تفسير البيضاوي أيضاً حتى إنه ليأخذ عبارته بنصها أو قريباً منه ويضمنها تفسيره [٢]

فمن المواضع التي تظهر تأثر النسفي بتفسير البيضاوي ونقله عنه عبارته بنصها أو قريباً منها ما جاء في قوله تعالى: كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾ الفتح: ١٣.

قال البيضاوي رحمه الله: وضع الكافرين موضع الضمير إيذاناً بأن من لم يجمع بين الإيمان بالله ورسوله فهو كافر وأنه مستوجب للسعير بكفره، وتنكير سعيراً للتهويل أو لأنها نار مخصوصة[٣].

قال النسفي: **(وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بالله وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا للكافرين)** أي لهم فأقيم الظاهر مقام الضمير للإيذان بأن من لم يجمع بين الإيمانين بالله والإيمان برسوله فهو كافر ونكّر (سَعِيراً) لأنها نار مخصوصة كما نكر (نَاراً تلظى)[٤].

---

(١) الأعلام: ٦٧/٤

(٢) التفسير والمفسرون: ٢١٦/١-٢١٧

(٣) تفسير البيضاوي: ٢٩٦/٣

(٤) تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل): عبدالله النسفي، ٣٣٧/٣، حققه وخرج أحاديثه يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م

٣. تفسير الخطيب الشربيني:

من التفاسير التي ظهر تأثرها بتفسير البيضاوي تفسير (السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير) للخطيب الشربيني، وهو محمد بن أحمد الشربيني، شمس الدين: فقيه شافعيّ، مفسر. من أهل القاهرة. متوفى (٩٧٧هـ) [١]

اعتمد الخطيب الشربيني في تفسيره على كثير من التفاسير، وفي هذا يقول: وقد تلقّيت التفسير بحمد الله من تفاسير متعدّدة رواية ودراية عن أئمة ظهرت وبهرت مفاخرهم، واشتهرت وانتشرت مآثرهم، جمعني الله وإياهم والمسلمين في مستقر رحمته بمحمد وآله وصحابته[٢]

ومن الذين اعتمد عليهم الخطيب في تفسيره تفسير البيضاوي، ويظهر ذلك جلياً لمن تصفَّح هذا التفسير.

ونرى الشربيني ينقل عن البيضاوي نصاً ويقول: (قال البيضاوي)، ويوافقه أحياناً ويشرح عبارته أحياناً أخرى ويناقش عبارته أحياناً.

فمن المواطن التي اعتمد فيها الخطيب قول البيضاوي كما هو ونقله في تفسيره قوله في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ البقرة: ١٤٥.

قال الخطيب: وقد أكد سبحانه وتعالى التهديد في ذلك وبالغ فيه قال البيضاوي من سبعة أوجه: الأوّل: الاتيان باللام الموطئة للقسم، الثاني: القسم المضمر، الثالث: حرف التحقيق أي: التأكيد وهي أن الرابع تركيبه من جملة إسمية، الخامس: الاتيان باللام في الخبر أي: وهو من الظالمين، السادس: جعله من الظالمين أي: تعريف الظالمين الدال على المعروفين ولم يقل إنك ظالم، فإن في الاندراج معهم إيهاماً بحصول أنواع الظلم؛ لأنّ أل في الظالمين للاستغراق، السابع: التقييد بمجيء العلم تعظيماً للحق المعلوم وتحريضاً على اقتضائه وتحذيراً عن متابعة الهوى واستفظاعاً لظهور الذنب عن الأنبياء[٣].

---

(١) الأعلام: ٦/٦

(٢) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: شمس الدين الشربيني، ٣/١، مطبعة بولاق الأميرية، القاهرة، ١٢٨٥هـ.

(٣) السراج المنير: ١٠٢/١. انظر: تفسير البيضاوي: ١٤٨/١

ومن المواطن التي يظهر فيها تأثره بالبيضاوي ومناقشته له ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ الفاتحة: ٥.

قال الخطيب: فإن قيل: لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ أجيب: بأنّ عادة العرب التفنن في الكلام والعدول من أسلوب إلى آخر تحسيناً للكلام وتنشيطاً للسامع فيكون أكثر إسغاءً للكلام فتعدل من الخطاب إلى الغيبة ومن الغيبة إلى التكلم وبالعكس فيهما فهذه أقسام أربعة ذكرها البيضاوي والتحقيق كما قاله بعض المتأخرين: أنها ستة لأنّ الملتفت إليه إثنان وكل منهما إمّا غيبة أو خطاب أو تكلم[١]

٤. تفسير ابن عجيبة "البحر المديد في تفسير القرآن المجيد":

صاحب هذا التفسير هو أحمد بن محمد بن المهدي، ابن عجيبة، الحسني الأنجري: مفسر صوفي مشارك. من أهل المغرب. دفن ببلدة أنجرة (بين طنجة وتطوان) له كتب كثيرة. متوفى (١٢٢٤هـ) [٢].

يعد تفسير البيضاوي من أولى التفاسير التي اعتمد عليها ابن عجيبة في تفسيره[٣]

فقد كان ابن عجيبة ينقل عبارة البيضاوي كما هي كما جاء في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٤١﴾ البقرة: ١٤١.

قال ابن عجيبة: قال البيضاوي: كرره للمبالغة في التحذير[٤]

ومن تأثر ابن عجيبة بتفسير البيضاوي قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٢٨٢﴾ البقرة: ٢٨٢.

---

(١) السراج المنير: ١٠/١. وانظر: تفسير البيضاوي: ١٥/١

(٢) الأعلام: ٢٢٥/١

(٣) انظر: مقدمة تحقيق البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: أبو العباس أحمد بن محمد بن عجيبة، ٣٥/١ ، تحقيق أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر الدكتور حسن عباس زكي، القاهرة، ١٤١٩هـ.

(٤) البحر المديد: ١٧٣/١. وانظر: تفسير البيضاوي: ١٤٤/١

قال ابن عجيبة: وكرر لفظ الجلالة في الجمل الثلاث، لاستقلالها، فإن الأُولى حثٌّ على التقوى والثانية وعدٌ بتعليم العلم، والثالثة تعظيم لشأنه، ولأنه أدخل في التعظيم من الكناية. قاله البيضاوي[١].

٥. تفسير الألوسي "روح المعانى في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني":

صاحب هذا التفسير هو محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي، شهاب الدين، أبو الثناء: مفسر، محدث، أديب، من المجددين، من أهل بغداد، مولده ووفاته فيها. كان سلفي الاعتقاد، مجتهدا. تقلد الإفتاء ببلده سنة ١٢٤٨ هـ وعزل، فانقطع للعلم. متوفى (١٢٧٠هـ) [٢]

هذا التفسير أفرغ فيه مؤلفه وسعه، وبذل مجهوده حتى أخرجه للناس كتاباً جامعاً لآراء السَلَف رواية ودراية، مشتملاً على أقوال الخَلَف بكل أمانة وعناية، فهو جامع لخلاصة كل ما سبقه من التفاسير، فتراه ينقل لك عن تفسير ابن عطية، وتفسير أبى حيان، وتفسير الكشاف، وتفسير أبى السعود، وتفسير البيضاوي، وتفسير الفخر الرازي، وغيرها من كتب التفسير المعتبرة[٣]

فتفسير البيضاوي من التفاسير التي اعتمد عليها الألوسي في روح المعاني كمصدر من مصادره، وكان ينص على نقله من تفسير البيضاوي فيقول: قال القاضي، أو قال القاضي البيضاوي، أو قال القاضي ناصر الدين.

ويظهر تأثره ونقله من تفسير البيضاوي ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ غافر: ٥٨، قال الألوسي: (قَلِيلًا ما تَتَذَكَّرُونَ) أي تذكرا قليلا تتذكرون. وقرأ الجمهور والأعرج والحسن وأبو جعفر وشيبة بياء الغيبة والضمير للناس أو الكفار، قال الزمخشري: والتاء أعم، وعلله صاحب التقريب بأن فيه تغليب الخطاب على الغيبة، وقال القاضي: إن التاء للتغيب أو الالتفات[٤].

ومن نقولاته عن البيضاوي ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ غافر: ٦٩ ، قال الألوسي: وقال القاضي: تكرير ذكر المجادلة لتعدد

(١) البحر المديد: ٣١٥/١. وانظر: تفسير البيضاوي: ٢٣٦/١
(٢) الأعلام: ١٧٦/٧
(٣) التفسير والمفسرون: ٢٥٢/١-٢٥٣
(٤) تفسير الألوسي: ٣٣٣/١٢. وانظر: تفسير البيضاوي: ٢١٤/٣

المجادل بأن يكون هناك قوما وهنا قوما آخرين أو المجادلة فيه بأن يحمل في كل على معنى مناسب ففيما مر في البعث وهنا في التوحيد أو هو للتأكيد اهتماما بشأن ذلك(١).

٦. التفسير الوسيط "مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر":

قام بتأليف هذا التفسير مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ونرى تأثرهم بتفسير البيضاوي جلياً وواضحاً.

فمن تأثرهم ونقلهم عنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي ﴾ **هود: ٤٤** جاء في التفسير الوسيط: ومن المفسِّرين من جعل ذلك تمثيلا لكمال قدرة الله عليهما، وتمام انقيادهما لما يشاؤه فيهما، قال الإمام البيضاوى: نوديا بما ينادى به أُولو العلم، وأُمرا بما يؤمرون به تمثيلا لكمال قدرته، وانقيادهما لما يشاءُ تكوينه فيهما، بالآمر المطاع الذي يأْمر المنقاد لحكمه، المبادر إلى امتثال أَمره، مهابة من عظمته، وخشية من أليم عقابه(٢).

٧. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور:

تأثر صاحب هذا الكتاب وهو إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ) بتفسير البيضاوي ونقل عنه كثيراً في كتابه.

فمن ذلك قوله: "وقال البيضاوي: والأسباط جمع سبط وهو الحافد، يريد به حفدة يعقوب وأبناءه وذراريهم فإنهم حفدة لإبراهيم وإسحاق"(٣).

وقد كان يحيل إليه كثيراً فمن ذلك قوله: وإذا راجعت تفسير البيضاوي لقوله سبحانه وتعالى في البقرة ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾ البقرة: ١١٧ زادك بصيرة فيما هنا(٤).

٨. تفسير الإيجي "جامع البيان في تفسير القرآن":

صاحب هذا التفسير هو محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الحسني الحسيني الإيجي الشافعيّ: مفسر، من أهل (إيج) بنواحي شيراز. متوفى سنة (٩٠٥هـ).

---

(١) تفسير الألوسي: ٣٣٧/١٢. وانظر: تفسير البيضاوي: ٢١٥/٣

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم: مجمع البحوث بالأزهر، ١٩٨/٤، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م. وانظر: تفسير البيضاوي: ١٣٢/٢

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: إبراهيم بن عمر البقاعي، ١٨٩/٢، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٣٣/٤

لقد انشغل الإيجي بعلم التفسير، ووقف على كتب عدة في جمعه لمادة تفسيره، وله كتب في التفسير منها: تفسير سورة الفاتحة، جامع البيان في تفسير القرآن.

ومما يدل على براعته في التفسير أنه يجمع في تفسير الآية أقوالاً كثيرة بأوجز عبارة وألطف إشارة، وهذا لا يستطيعه إلا من كان بالتفسير خبيرًا وبطرق المفسرين وعباراتهم بصيرًا، حتى قال عن نفسه كما في مقدمة تفسيره: "ثم اعلم أن ما يحتويه أكثر التفاسير ترى في هذا التفسير مع معانٍ صحيحة نفيسة لم تجد في كثير منها"(١).

وقد نصَّ الإيجي في مقدمة تفسيره أنه اعتمد على تفسير البيضاوي مع تفاسير أخرى فقال: ثم إن مأخذ كتابي هذا: المعالم، والوسيط، وتفسير ابن كثير، والنسفي، والكشاف مع شروحه: الطيبي، والكشف وشرح المحقق التفتازاني وتفسير القاضي ناصر الدين البيضاوي.

من تأثره بتفسير البيضاوي ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ الأعراف: ١٠٨، قال الإيجي: (فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ) للناظرين متعلق بـ بيضاء، أي: بيضاء للنظارة(٢).

قال البيضاوي رحمه الله: (فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ) أي بيضاء بياضاً خارجاً عن العادة تجتمع عليها النظارة، أو بيضاء للنظار(٣).

٩. تفسير إسماعيل حقي "روح البيان في تفسير القرآن":

صاحب هذا التفسير هو إسماعيل حقي بن مصطفى الإسلامبولي الحنفي الخلوتي، المولى أبو الفداء: متصوف مفسر .تركي مستعرب. ولد في آيدوس وسكن القسطنطينية، وانتقل إلى بروسة، وكان من أتباع الطريقة (الخلوتية) فنفي إلى تكفور طاغ، وأوذي. وعاد إلى بروسة فمات فيها. له كتب عربية وتركية. توفي (١١٢٧هـ)(٤)

(١) تفسير الإيجي (جامع البيان في تفسير القرآن): محمد بن عبد الرحمن الإيجي، ٦/١ (مقدمة الناشر بتصرف)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م

(٢) تفسير الإيجي: ٦٣٩/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٥٦٢/١

(٤) الأعلام: ٣١٣/١

فمن تأثر حقي بالبيضاوي ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾ التوبة: ١٠٤.

قال حقي: (وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ) أي جنس الصدقات صدقاتهم وصدقات غيرهم أراد به أخذ النبي عليه السلام والائمة بعده لان أخذهم لا يكون الا بأمر الله وكأن الله هو الآخذ قال البيضاوي يقبلها قبول من يأخذ شيئاً ليؤدي بدله ففيه استعارة تبعية لان الآخذ حقيقة هو الرسول عليه السلام لا من عيَّنه لأخذها(١).

١٠. صفوة التفاسير "الصابوني":

صاحب هذا التفسير هو محمد علي الصابوني وهو من المفسرين المعاصرين جمع تفسيره من عدة تفاسير ونقل كثيرا عن البيضاوي في تفسيره.

فمن ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ البقرة: ٢١، قال الصابوني: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} أي لتكونوا في زمرة المتقين، الفائزين بالهدى والفلاح قال البيضاوي: لما عدَّد تعالى فِرَق المكلفين، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات، هزاً للسامع، وتنشيطاً له، واهتماماً بأمر العبادة وتفخيماً لشأنها، وإنما كثر النداء في القرآن ب {يَاأَيُّهَا} لاستقلاله بأوجهٍ من التأكيد، وكل ما نادى الله له عباده من حيث إنها أمور عظام من حقها أن يتفطنوا لها، ويقبلوا بقلوبهم عليها وأكثرهم عنها غافلون حقيقٌ بأن يُنادى له بالآكد الأبلغ(٢)

١١. تفسير المنار "تفسير القرآن الكريم":

صاحب هذا التفسير هو محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بَهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني، البغدادي الأصل، الحسيني النسب: صاحب مجلة (المنار) وأحد رجال الإصلاح الإسلامي. من الكتّاب، العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير. ولد ونشأ في القلمون (من أعمال طرابلس الشام) وتعلم فيها وفي طرابلس. وتنسك، ونظم الشعر في صباه. متوفى (سنة ١٣٥٤هـ)(٣).

---

(١) تفسير روح البيان: إسماعيل حقي، ٥٠٠/٣، دار الفكر، بيروت. وانظر: تفسير البيضاوي: ٧٧/٢

(٢) صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني، ٣٥/١، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م. انظر تفسير البيضاوي: ٥٩/١

(٣) الأعلام: ١٢٦/٦

من المواضع التي يظهر فيها تأثره بالبيضاوي ونقله عنه ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ البقرة: ٩٧، قال صاحب المنار: وَمِنْهَا أَنَّ الضَّمِيرَ الْمَنْصُوبَ الْبَارِزَ فِي (نَزَّلَهُ) لِلْقُرْآنِ وَهُوَ لَمْ يُذْكَرْ فِيمَا قَبْلَهَا، وَإِنَّمَا عَيَّنَتْهُ قَرِينَةُ الْحَالِ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى فَخَامَةِ شَأْنِهِ، كَأَنَّهُ لِشُهْرَتِهِ قَدِ اسْتَغْنَى عَنْ ذِكْرِهِ (قَالَهُ الْبَيْضَاوِيُّ)[١].

١٢. تفسير زهرة التفاسير لأبي زهرة:

صاحب هذا التفسير هو محمد بن أحمد أبو زهرة. أكبر علماء الشريعة الإسلامية في عصره. مولده بمدينة المحلة الكبرى وتربى بالجامع الأحمدي. متوفى (سنة ١٣٩٤هـ)[٢]

من تأثره بالبيضاوي ونقله عنه ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ يونس: ٥، قال أبو زهرة: ونحن نقول: إن الشمس ذاتها ضياء، والقمر نور، أي ذا نور، وقلنا في القمر ذو نور، لأن ضياءه ليس من ذاته إنما هو من توسطه بين الأرض والشمس، ونوره عرضي وليس ذاته نورا كالشمس في أن ذاتها ضياء، ولقد أدرك هذا بعض المفسرين الأقدمين الذين لم يعنوا بدراسة الأجرام السماوية. فقد قال البيضاوي: أنه سُمي " نورا " للقمر للمبالغة، فهو أعم من الضوء[٣]

١٣. تفسير محاسن التأويل للقاسمي:

صاحب هذا التفسير هو جمال الدين (أو محمد جمال الدين) بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، من سلالة الحسين السبط: إمام الشام في عصره، علما بالدين، وتضلعا من فنون الأدب. مولده ووفاته في دمشق. متوفى (١٣٣٢هـ)[٤]

من تأثره بالبيضاوي ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ المائدة: ٦٣، قال القاسمي: "وقال البيضاويّ: فيها

(١) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): محمد رشيد رضا، ٣٢٥/١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م. وانظر: تفسير البيضاوي: ١٢٢/١

(٢) الأعلام: ٢٥/٦

(٣) زهرة التفاسير: أبو زهرة، ٣٥١٧/٧، دار الفكر العربي. وانظر: تفسير البيضاوي: ٩٠/٢

(٤) الأعلام: ١٣٥/٢

تحضيض لعلمائهم على النهي عن ذلك، فإن (لولا) إذا دخل على الماضي أفاد التوبيخ، وإذا دخل على المستقبل أفاد التحضيض"[1].

١٤. فتح البيان في مقاصد القرآن:

صاحب هذا التفسير هو محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لُطْف الله الحسيني البخاري القنوجي، أبو الطيّب: من رجال النهضة الإسلامية المجددين. ولد ونشأ في قنوج (بالهند) وتعلم في دهلي. وسافر إلى بهوپال طلبا للمعيشة، ففاز بثروة وافرة...له نيف وستون مصنفا بالعربية والفارسية والهندية[2].

ويظهر تأثر صاحب فتح البيان بالبيضاوي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ الكهف: ٢٢، قال محمد صديق خان رحمه الله: قيل وإظهار الواو في هذه الجملة يدل على أنها مرادة في الجملتين الأوليين...وقيل زائدة لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت، وهذا ما جنح إليه الزمخشري وصرح به البيضاوي واختاره ابن هشام[3].

١٥. التفسير المنير للزحيلي:

هذا تفسير معاصر للدكتور وهبة بن مصطفى الزحيلي، تأثر فيه بالبيضاوي فنقل عنه في مواضع كثيرة.

من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾﴾ الشعراء: ٩٦ – ٩٧، قال الزحيلي: (وهم فيها يختصمون) يتخاصمون مع معبوديهم، على أساس أن الله ينطق الأصنام، فتخاصم العبدة، ويؤيده الخطاب في قوله ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ الشعراء: ٩٨ أي نجعلكم مساوين له في استحقاق العبادة. قال البيضاوي: ويجوز أن تكون

---

(١) محاسن التأويل: محمد جمال القاسمي، ١٨٣/٤، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ. وانظر: تفسير البيضاوي: ٤٤٩/١

(٢) الأعلام: ١٦٨/٦

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن: محمد صديق خان القنوجي، ٣٢/٨، عني بطبعهِ عَبد الله الأنصَاري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا– بيروت، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م. وانظر: تفسير البيضاوي: ٣٣٤/٢

الضمائر للعبدة، كما في قالوا والخطاب للمبالغة في التحسر والندامة، والمعنى: أنهم مع تخاصمهم في مبدأ ضلالهم معترفون بانهماكهم في الضلالة، متحسرون عليها[1].

الخلاصة:

بعد ما تقدم من ذكر التفاسير التي نقلت عن تفسير البيضاوي يتضح أن تفسير البيضاوي قد أثر تأثيراً كبيراً في اللاحقين، إذ كان مرجعاً مهماً في كثير من التفاسير، وذلك لما في هذا التفسير من خصائص مميزة سبق ذكرها لعل أهمها اهتمامه بالجوانب والنكات البلاغية إلى جانب اختصاره وإيجازه مع كونه يناصر مذهب أهل السنة والجماعة تاركاً اعتزاليات الكشاف.

إحالات محققي التفاسير على تفسير البيضاوي:

لا بد من الإشارة إلى أن تأثير تفسير البيضاوي لم ينعكس فقط على التفاسير التي جاءت من بعده، بل كان لها الأثر على التفاسير التي سبقته، وذلك لأن محققي هذه التفاسير كانوا يحيلون إلى تفسير البيضاوي لإيضاحٍ أو مزيدِ شرحٍ أو إزالة إبهام.

من هذه التفاسير مثلاً تفسير مقاتل بن سليمان إذ نرى محقق هذا التفسير يحيل إلى تفسير البيضاوي بعد قول مقاتل بن سليمان في قوله تعالى: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾ البقرة: ١٤٠، قال مقاتل بن سليمان: وإنما سموا الأسباط لأنه وُلِد لكل واحد منهم أمة من الناس[2].

ونرى المحقق عبد الله محمود شحاته يضع حاشية بعد الكلام السابق يقول فيها: (وفي البيضاوي: والأسباط جمع سبط وهو الحافد يريد به حفدة يعقوب أو أبناؤه وذريتهم فإنهم حفدة إبراهيم وإسحاق) [3].

وعلى منوال ما سبق نجد كثيراً من المحققين يحيلون إلى تفسير البيضاوي وهذا من عظيم تأثير تفسير البيضاوي على التفاسير الأخرى ومحققيها، وقيمته العملية، فممن حذا حذو عبد الله شحاتة في إحالاته:

---

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: وهبة الزحيلي، ١٧٧/١٩، دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ. وانظر: تفسير البيضاوي: ٥٤٥/٢

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان: أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى، ٤٣/١، تحقيق عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى – ١٤٢٣هـ.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ٤٣/١

١. محققا تفسير القرطبي (أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش) [١].
٢. محقق تفسير الثعالبي (الشيخان محمد علي معوض وعادل أحمد عبد الموجود) [٢]
٣. محققو التفسير البسيط للنيسابوري، وتحقيق هذا التفسير عبارة عن (١٥) رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه، وكان محققو هذا التفسير يحيلون إلى تفسير البيضاوي[٣].
٤. محققا (تفسير درج الدرر في تفسير الآي والسور) للإمام عبد القاهر الجرجاني[٤].
٥. محقق تفسير القشيري إبراهيم البسيوني[٥].
٦. محقق إيجاز البيان عن معاني القرآن الدكتور حنيف القاسمي[٦]

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي): أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م.

(٢) الجواهر الحسان في تفسير القرآن: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (المتوفى: ٨٧٥هـ)، تحقيق الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى – ١٤١٨ هـ.

(٣) انظر: التَّفْسِيرُ البَسِيْط: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، عدد من الباحثين بجامعة الإمام محمد بن سعود ،الناشر: عمادة البحث العلمي – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ

(٤) انظر: دَرْجُ الدُّرر في تَفسِيرِ الآيِ والسُّوَر: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ)، محقق القسم الأول: طلعت صلاح الفرحان، محقق القسم الثاني: محمد أديب شكور أمرير، دار الفكر – عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م

(٥) انظر: لطائف الإشارات (تفسير القشيري): عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: ٤٦٥هـ)، تحقيق إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، الطبعة الثالثة.

(٦) انظر: إيجاز البيان عن معاني القرآن، محمود بن أبى الحسن بن الحسين النيسابوري أبو القاسم، نجم الدين (المتوفى: نحو ٥٥٠هـ)، تحقيق الدكتور حنيف بن حسن القاسمي، دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٥ هـ

الخاتمة

بداية أحمد الله عز وجل أن وفقني لإكمال هذه الدراسة حيث وقفت من خلالها على جهود الإمام البيضاوي البلاغية في تفسيره "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" تتبعت هذه الجهود وقمت بدراستها وتبويبها على أساس مباحث علم البلاغة من معاني وبيان وبديع.

أولاً: النتائج:

١. يُعتبر تفسير الإمام ناصر الدين البيضاوي من أهم التفاسير التي اهتمت بإظهار الجوانب البلاغية والإعجازية في القرآن الكريم.
٢. الإمام البيضاوي عالمٌ موسوعيٌ جمع علوماً كثيرة كالفقه والأصول والتفسير والتاريخ والبلاغة واللغة.
٣. ظهر من خلال الدراسة اهتمام البيضاوي رحمه الله بعلمي المعاني والبيان أكثر من علم البديع.
٤. ظهر من الدراسة أن البيضاوي كغيره من العلماء تأثر بكثير من معاصريه وسابقيه وخاصة الزمخشري والرازي والراغب الأصفهاني.
٥. تبيَّن من الدراسة تأثير البيضاوي في اللاحقين كأبي السعود، والنسفي، والخطيب الشربيني، وابن عجيبة، وإسماعيل حقي، ومحمد رشيد رضا، والألوسي، والبقاعي، والإيجي، والصابوني، وأبي زهرة، والقاسمي.
٦. تبيَّن من الدراسة أن تفسير البيضاوي قد أحدث نشاطاً علمياً واسعاً، حيث كتبت عليه الحواشي والتعليقات والمختصرات، وعقدت لمدارسته دروس العلم في المساجد والمراكز العلمية، وعقدت مناظرات حول هذا التفسير.

ثانياً: التوصيات:

بعد النتائج التي توصلت لها في حدود هذه الدراسة، هذه أهم التوصيات:

١. حواشي تفسير البيضاوي مليئة بعلوم البلاغة، فهي بحاجة إلى دراسات متأنية للوقوف على البلاغة القرآنية فيها.
٢. التفاسير القرآنية معينٌ لا ينضب وهي منبع البلاغة العربية، فلا بد من الاستفادة من الدراسات البلاغية القرآنية السابقة وربطها معاً ضمن دراسة موحدة.
٣. تأثير البيضاوي في اللاحقين كبيرٌ جداً، يمكن أن تُفرد له دراسة خاصة، لإظهار فضل هذا العالم وتأثيره.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

أولاً: الكتب والمراجع:

١.	آداب البحث والمناظرة: محمد الأمين الشنقيطي، تحقيق سعود العريفي، دار عالم الفوائد.
٢.	أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة ودار المدني بجدة.
٣.	الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة: محمد الجرجاني، تحقيق الدكتور عبد القادر حسين، دار نهضة مصر، القاهرة.
٤.	إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م.
٥.	إعراب القرآن: المنسوب إلى للزجاج: تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني.
٦.	الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة ١٥، لبنان، بيروت.
٧.	الإكسير في علم التفسير: سليمان الطوفي، تحقيق عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الثانية.
٨.	أمالي ابن بشران: أبو القاسم ابن بشران ١٤١/٢، تحقيق أحمد بن سليمان، دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م
٩.	أنوار الربيع في أنواع البديع: ابن معصوم المدني، تحقيق شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م
١٠.	إيجاز البيان عن معاني القرآن، محمود بن أبى الحسن بن الحسين النيسابوري أبو القاسم، نجم الدين (المتوفى: نحو ٥٥٠هـ)، تحقيق الدكتور حنيف بن حسن القاسمي، دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٥ هـ
١١.	إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: إسماعيل باشا، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
١٢.	الإيضاح في علوم البلاغة: جلال الدين القزويني، محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل بيروت، الطبعة الثالثة.

١٣.	البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: أبو العباس أحمد بن محمد بن عجيبة، تحقيق أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر الدكتور حسن عباس زكي، القاهرة، ١٤١٩هـ.
١٤.	البداية والنهاية: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق عبدالله التركي، هجر للطباعة والنشر، ط١، ١٩٩٧م.
١٥.	البديع في البديع: ابن المعتز، دار الجيل، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.
١٦.	البرهان في أصول الفقه: عبد الملك الجويني، تحقيق صلاح عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.
١٧.	البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م
١٨.	بغية الايضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة: عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، الطبعة السابعة عشر، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م
١٩.	بغية الوعاة: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد إبراهيم، دار الفكر، ط٢، ١٩٧٩م.
٢٠.	البلاغة العربية: عبد الرحمن بن حسن الميداني الدمشقي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.
٢١.	بلاغة الكلمة والجملة والجمل: منير سلطان، منشأة المعارف، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، الإسكندرية.
٢٢.	البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني: فضل حسن عباس، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م، الأردن.
٢٣.	البيان والتبيين: عمرو بن بحر المشهور بالجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ
٢٤.	تاج العروس من جواهر القاموس: الزبيدي، مجموعة محققين، دار الهداية.
٢٥.	التبيان في إعراب القرآن: أبو البقاء العكبري، تحقيق علي البجاوي، الناشر عيسى البابي الحلبي وشركاه.
٢٦.	تحرير ألفاظ التنبيه: محيي الدين النووي، تحقيق عبد الغني الدقر، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
٢٧.	التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤هـ.
٢٨.	التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة: شمس الدين السخاوي، أسعد طرابزوني الحسيني، ١٩٧٩م

٢٩.	تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم): أبو السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣٠.	تفسير الإيجي (جامع البيان في تفسير القرآن): محمد بن عبد الرحمن الإيجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م
٣١.	التَّفْسِيرُ البَسِيْط: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، عدد من الباحثين بجامعة الإمام محمد بن سعود ،الناشر: عمادة البحث العلمي – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ
٣٢.	تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل): ناصر الدين البيضاوي، تحقيق محمد حلاق ومحمود الأطرش، دار الرشيد، ، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
٣٣.	تفسير الراغب الأصفهاني: الراغب الأصفهاني، تحقيق محمد بسيوني وعادل الشدي، كلية الآداب جامعة طنطا، ودار الوطن الرياض.
٣٤.	تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.
٣٥.	تفسير القرآن العظيم (ابن كثير): أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٩ هـ
٣٦.	تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، تحقيق مصطفى السيد محمد وآخرون، مؤسسة قرطبة.
٣٧.	التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.
٣٨.	تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل): عبدالله النسفي، حققه وخرج أحاديثه يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م
٣٩.	التفسير الوسيط للقرآن الكريم: مجمع البحوث بالأزهر، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م.
٤٠.	تفسير روح البيان: إسماعيل حقي، دار الفكر، بيروت.
٤١.	تفسير مقاتل بن سليمان: أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى، تحقيق عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى – ١٤٢٣هـ.
٤٢.	التفسير والتأويل في القرآن: صلاح الخالدي، دار النفائس، الأردن، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

٤٣.	التفسير والمفسرون: محمد الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٧، ٢٠٠٠م).
٤٤.	التفسير ورجاله: محمد الفاضل بن عاشور، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ١٣٩٠هـ، ١٩٧٠م.
٤٥.	الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي): أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م.
٤٦.	جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: أحمد الهاشمي، المكتبة العصرية بيروت.
٤٧.	الجواهر الحسان في تفسير القرآن: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، تحقيق الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى – ١٤١٨ هـ.
٤٨.	حاشية الشهاب (عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي)، دار صادر، بيروت.
٤٩.	حاشية القونوي على تفسير الإمام البيضاوي، عبد الله عمر، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
٥٠.	حاشية محي الدين شيخ زاده: محمد بن مصلح القوجوي، تحقيق محمد شاهين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.
٥١.	حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر: عبد الرزاق البيطار، تحقيق محمد البيطار، ١٣٨٠هـ، ١٩٦١م.
٥٢.	خصائص التراكيب: محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، الطبعة السابعة.
٥٣.	خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر: المحبي.
٥٤.	خلاصة المعاني: الحسن المفتي، تحقيق عبد القادر حسين، الناشرون العرب، السعودية.
٥٥.	الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: شهاب الدين الحلبي، تحقيق أحمد الخراط، دار القلم، دمشق.
٥٦.	دَرْجُ الدُّرر في تَفسِيرِ الآيِ والسُّوَر: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار، محقق القسم الأول: طلعت صلاح الفرحان، محقق القسم الثاني: محمد أديب شكور أمرير، دار الفكر – عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م

٥٧.	الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر العسقلاني، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣م.
٥٨.	دلائل الاعجاز في علم المعاني: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة ودار المدني بجدة، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.
٥٩.	الدليل إلى المتون العلمية: عبد العزيز بن إبراهيم بن قاسم.
٦٠.	ديوان البحتري: عبدالرحمن البرقوقي، مطبعة هندية بالموسكي، الطبعة الأولى، ١٩١١م، مصر.
٦١.	ديوان امرئ القيس: امرؤ القيس، عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.
٦٢.	روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين الألوسي، تحقيق علي عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
٦٣.	روضة الطالبين وعمدة المفتين: أبو زكريا النووي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، على محمد معوض، دار الكتب العلمية.
٦٤.	زهرة التفاسير: أبو زهرة، دار الفكر العربي.
٦٥.	سر الفصاحة: عبد الله بن محمد الخفاجي الحلبي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.
٦٦.	السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: شمس الدين الشربيني، مطبعة بولاق الأميرية، القاهرة، ١٢٨٥هـ.
٦٧.	السنن الكبرى: أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق حسن شلبي، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.
٦٨.	شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد، تحقيق عبد القادر ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٩٨٨م.
٦٩.	شرح السنة للبغوي: الحسين البغوي، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
٧٠.	الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية: طاشكبري زاده، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٥م.
٧١.	الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها: ابن فارس الرازي، الناشر محمد علي بيضون، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م<

٧٢.	الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: أبو نصر الفارابي، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
٧٣.	صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
٧٤.	صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.
٧٥.	كتاب الصناعتين: أبو هلال العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٩هـ
٧٦.	الصيد الثمين في رسائل ابن عثيمين: محمد العثيمين، دار الثقة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢ م
٧٧.	طبقات الشافعية الكبرى: السبكي، تحقيق الحلو والطناحي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
٧٨.	طبقات الشافعية: ابن قاضي شهبة، تحقيق عبد العليم خان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، ط١، ١٩٧٩م.
٧٩.	طبقات المفسرين: الداوودي، تحقيق مجموعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.
٨٠.	الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: يحيى بن حمزة العلوي، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
٨١.	عجائب الآثار في التراجم والأخبار: عبد الرحمن الجبرتي، دار الجيل، بيروت.
٨٢.	علم المعاني والبيان والبديع: عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت
٨٣.	العمدة في محاسن الشعر وآدابه: ابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، الطبعة الخامسة، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م
٨٤.	غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات: علي بن ظافر الأزدي المصري، تحقيق: دكتور محمد زغلول سلام، دكتور مصطفى الصاوي الجويني، دار المعارف القاهرة.
٨٥.	فتح البيان في مقاصد القرآن: محمد صديق خان القنوجي، عني بطبعهِ عَبد الله الأنصَاري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا– بيروت، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.
٨٦.	الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي: عبد الرؤوف المناوي، تحقيق أحمد مجتبى، دار العاصمة، الرياض.

٨٧.	فتح القدير: محمد بن علي الشوكاني، دار ابن كثير ودار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
٨٨.	فقه اللغة وسر العربية: عبد الملك الثعالبي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.
٨٩.	فن البلاغة: عبد القادر حسين، عالم الكتب، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٤م.
٩٠.	كتاب التعريفات: علي بن محمد الجرجاني، تحقيق جماعة من العلماء، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م،
٩١.	الكتاب: سيبويه، عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م
٩٢.	الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ
٩٣.	كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: حاجي خليفة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٩٤.	الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة: نجم الدين الغزي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
٩٥.	لسان العرب: جمال الدين ابن منظور، بتصرف، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ
٩٦.	لطائف الإشارات (تفسير القشيري): عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: ٤٦٥هـ)، تحقيق إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، الطبعة الثالثة.
٩٧.	المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين بن الأثير، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة.
٩٨.	محاسن التأويل: محمد جمال القاسمي، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
٩٩.	المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية الأندلسي، تحقيق عبد السلام محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
١٠٠.	المحصول: فخر الدين الرازي، تحقيق طه العلواني، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.
١٠١.	مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان: اليافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

١٠٢.	المستصفى: أبو حامد الغزالي، تحقيق محمد عبدالسلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.
١٠٣.	معجم البلدان: ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.
١٠٤.	معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
١٠٥.	المعجم المفصل في علوم البلاغة: إنعام عكاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.
١٠٦.	معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.
١٠٧.	المعجم الوافي في أدوات النحو العربي: علي توفيق الحمد ويوسف الزعبي، دار الأمل، الأردن، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م
١٠٨.	المغني لابن قدامة: ابن قدامة المقدسي، مكتبة القاهرة، ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م.
١٠٩.	مفاتيح الغيب: فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ، بيروت.
١١٠.	مفتاح العلوم: يوسف بن أبي بكر السكاكي، ضبط نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
١١١.	المفضليات: المفضل بن محمد الضبي، تحقيق: أحمد محمد شاكر و عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة.
١١٢.	من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان، الطبعة الرابعة، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.
١١٣.	من بلاغة القرآن: أحمد البدوي، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٥م.
١١٤.	المنهاج الواضح للبلاغة: حامد عوني، المكتبة الأزهرية للتراث.
١١٥.	نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
١١٦.	نقد الشعر: قدامة بن جعفر، مطبعة الجوائب، قسطنطينة، الطبعة الأولى، ١٣٠٢هـ.
١١٧.	نهاية الأرب في فنون الأدب: شهاب الدين النويري، دار الكتاب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

١١٨.	النهاية في غريب الحديث والأثر: مجد الدين ابن الأثير، تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ، ١٩٩٧م.
١١٩.	نواهد الأبكار وشوارد الأفكار: جلال الدين السيوطي، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٥م
١٢٠.	هدية العارفين أسماء المؤلفين والمصنفين: اسماعيل البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥١م.
١٢١.	الوافي بالوفيات: صلاح الدين الصفدي، تحقيق الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.

ثانياً: **الرسائل الجامعية**:

١.	الاستنباط عند القاضي البيضاوي من خلال تفسيره أنوار التنزيل وأسرار التأويل: يوسف السلمي، رسالة دكتوراة، إشراف عبد العزيز محمود، جامعة أم القرى، السعودية، ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م
٢.	اهتمام مفسري القرن الحادي عشر بتفسير البيضاوي أسبابه ومظاهره: محمد إدريس، رسالة ماجستير، إشراف عبد القادر محمد الحسين، كلية الشريعة، جامعة دمشق.
٣.	البيضاوي ومنهجه في التفسير: يوسف أحمد علي، رسالة دكتوراة، إشراف الأستاذ محمد شوقي السيد، جامعة أم القرى، السعودية.

الفهرس

التمهيد: حياة الإمام البيضاوي ---------- ٨

أولاً: اسمه ونسبه: ٨
ثانياً: مولده ونشأته: ٩
ثالثاً: شيوخه: ٩
رابعاً: تلاميذه: ١٠
خامساً: ثناء العلماء عليه: ١٠
سادساً: آثاره ومصنفاته العلمية: ١١
سابعاً: وفاته: ١٣

الفصل الأول: نظرة في تفسير البيضاوي ---------- ١٦

المبحث الأول: سبب تأليف البيضاوي لتفسيره ---------- ١٦
المبحث الثاني: مكانة تفسير البيضاوي بين كتب التفاسير ---------- ٢١
أولاً: المؤلفات التي كتبت على تفسير البيضاوي: ---------- ٢٦
١. الحواشي: ---------- ٢٩
٢. التعليقات والحواشي غير التامة: ---------- ٣١
٣. تخريج أحاديث تفسير البيضاوي: ---------- ٣٢
٤. مختصراته: ---------- ٣٤
ثانياً: الدروس التي عُقِدت على تفسير البيضاوي: ---------- ٣٦
ثالثاً : تتلمذ العلماء وطلاب العلم على تفسير البيضاوي: ---------- ٣٩
المبحث الثالث: مصادر تفسير البيضاوي ---------- ٤٣
أولاً: من القرآن الكريم: ---------- ٤٣
ثانياً: من السنة النبوية(): ---------- ٤٥
ثالثاً: من أقوال الصحابة: ---------- ٤٧
رابعاً: من كتب الفقهاء(): ---------- ٤٨
خامساً: من كتب الأصول(): ---------- ٤٩
سادساً: من كتب اللغة(): ---------- ٥١
سابعاً: من كتب التفسير: ---------- ٥٥
المبحث الرابع: منهج البيضاوي في التفسير ---------- ٦٥
أولاً: منهجه العام: ---------- ٦٥
١. معلومات السورة: ---------- ٦٥
٢. سبب النزول: ---------- ٦٦
٣. الجمع بين التفسير بالرواية والدراية: ---------- ٦٦
٤. أحاديث فضائل السور: ---------- ٦٧
٥. المسائل الفقهية: ---------- ٦٧

٦. القراءات: ---------- ٦٨
٧. المعنى اللغوي للكلمة: ---------- ٦٨
٨. الاستشهاد بالشعر لبيان معنى الكلمة: ---------- ٦٩
٩. الاستشهاد بأقوال اللُّغويين: ---------- ٦٩
١٠. بيان الاشتقاقات والأبنية الصرفية: ---------- ٦٩
١١. بيان التغيرات الصرفية: ---------- ٦٩
١٢. الصناعة النحوية: ---------- ٦٩
ثانياً: منهجه البلاغي: ---------- ٧٠
١. اهتمامه بعلمي المعاني والبيان أكثر من البديع: ---------- ٧٠
٢. التعريفات الاصطلاحية البلاغية: ---------- ٧١
٣. عدم التفصيل في تسمية الفن البلاغي: ---------- ٧٢
٤. استشهاده بالشعر : ---------- ٧٢
٥. ربط الآية بلاغياً بآية أخرى: ---------- ٧٣
٦. ذكر الأغراض البلاغية للفن البلاغي: ---------- ٧٣
٧. ذكر الوجوه البلاغية المتعددة: ---------- ٧٣
٨. اعتراضه على آراء بلاغية: ---------- ٧٤
٩. تعليل توجيهاته البلاغية: ---------- ٧٤

الفصل الثاني: مباحث علم المعاني في تفسير البيضاوي ---------- ٧٦

المبحث الأول: الخبر والإنشاء: ---------- ٨٤
المطلب الأول: الخبر: ---------- ٨٤
المطلب الثاني: الإنشاء: ---------- ١٠٩
أنواع الإنشاء الطلبي: ---------- ١١٠
أولاً: الأمر: ١١٠
الأغراض البلاغية للأمر: ١١٠
١. التهديد: ---------- ١١٠
٢. التعجيز: ---------- ١١١
٣. الخبر: ---------- ١١٢
٤. الإهانة: ---------- ١١٣
٥. الدعاء: ---------- ١١٤
٦. الإقناط والتيئيس: ---------- ١١٥
٧. الإباحة: ---------- ١١٦
٨. الندب: ---------- ١١٧
٩. التهكم والاستهزاء: ---------- ١١٧
١٠. التبكيت والتوبيخ: ---------- ١١٨
١١. الاستهانة والاستخفاف: ---------- ١٢٠
١٢. التفويض: ---------- ١٢١
١٣. التسوية: ---------- ١٢٢
ثانياً: النهي: ١٢٣

الأغراض البلاغية للنهي: ١٢٤
١. الدعاء: ---------- ١٢٥
٢. التهكم والاستهزاء: ---------- ١٢٥
٣. التأديب: ---------- ١٢٦
٤. الاعتذار: ---------- ١٢٧
٥. التهييج: ---------- ١٢٧
٦. التسوية: ---------- ١٢٨
٧. التهديد والوعيد: ---------- ١٢٨
٨. الإخبار: ---------- ١٢٩
٩. الاستهانة والاستخفاف: ---------- ١٣٠
١٠. النصح والإرشاد: ---------- ١٣٠
١١. المبالغة: ---------- ١٣١
١٢. الإباحة: ---------- ١٣١
١٣. التيئيس: ---------- ١٣٢
١٤. التعظيم والتغليظ: ---------- ١٣٣
١٥. التثبيط: ---------- ١٣٣
١٦. التسلية: ---------- ١٣٤
ثالثاً: الاستفهام: ١٣٥
الأغراض البلاغية للاستفهام: ١٣٦
١. التوبيخ والتقريع والتبكيت: ---------- ١٣٦
٢. التهكم والاستهزاء: ---------- ١٣٧
٣. التشويق: ---------- ١٣٨
٤. التحضيض والتحريض: ---------- ١٣٨
٥. النهي: ---------- ١٤٠
٦. الإنكار: ---------- ١٤٠
٧. الأمر والحث: ---------- ١٤١
٨. النفي: ---------- ١٤٢
٩. التعجب: ---------- ١٤٢
١٠. التعجيب: ---------- ١٤٣
١١. التقرير: ---------- ١٤٤
١٢. التحقير: ---------- ١٤٥
١٣. التهويل: ---------- ١٤٥
١٤. الاستبعاد: ---------- ١٤٦
١٥. العَرْض: ---------- ١٤٧
١٦. الاستبطاء: ---------- ١٤٨
رابعاً: التمني: ١٤٩
أدوات التمني ١٥٠
١. ليت: ---------- ١٥٠
٢. هل: ---------- ١٥١
٣. لو: ---------- ١٥٢

٤. لعلَّ: ---------- ١٥٢
خامساً: النداء: **١٥٥**
الأغراض البلاغية للنداء ---------- ١٥٦
١. الإغراء: ---------- ١٥٦
٢. التحسر: ---------- ١٥٦
٣. الاختصاص: ---------- ١٥٧
المبحث الثاني: التعريف والتنكير ---------- ١٥٩
أدوات التعريف: ---------- ١٦٠
١. الضمير: ---------- ١٦٠
٢. العَلَمية: ---------- ١٦١
٣. اسم الإشارة: ---------- ١٦١
٤. الاسم الموصول: ---------- ١٦١
٥. التعريف بـ"أل": ---------- ١٦١
لام التعريف في تفسير البيضاوي: **١٦٣**
الأغراض البلاغية للتعريف: **١٦٣**
١. التكثير: ---------- ١٦٤
٢. التعظيم: ---------- ١٦٤
٣. التشريف: ---------- ١٦٥
٤. التهويل: ---------- ١٦٦
٥. الاستعطاف: ---------- ١٦٧
٦. الشمول: ---------- ١٦٧
٧. التحقير: ---------- ١٦٨
٨. المبالغة: ---------- ١٦٨
٩. الوصف: ---------- ١٦٩
١٠. الاختصاص: ---------- ١٧٠
أغراض التنكير: **١٧٢**
١. التعظيم: ---------- ١٧٢
٢. التقليل: ---------- ١٧٢
٣. التحقير: ---------- ١٧٣
٤. التعميم: ---------- ١٧٤
٥. المبالغة: ---------- ١٧٥
٦. النوعية: ---------- ١٧٥
٧. التهويل: ---------- ١٧٦
٨. الإبهام: ---------- ١٧٧
٩. التكثير: ---------- ١٧٧
المبحث الثالث: التقديم والتأخير ---------- ١٧٨
الأغراض البلاغية للتقديم والتأخير: **١٨١**
١. التخصيص: ---------- ١٨١
٢. تقوية الحكم وتقريره في نفس السامع: ---------- ١٨٤

٣. العناية والاهتمام: ---------- ١٨٦
٤. تقديم الكثير على ما دونه: ---------- ١٨٩
٥. تقدم الكلمة لتقدمها في الزمن: ---------- ١٩١
٦. الترقي من الأدنى إلى الأعلى: ---------- ١٩٢
٧. التقديم للرتبة والشرف: ---------- ١٩٢
٨. المناسبة والسياق: ---------- ١٩٣
٩. تقديم الغاية على الوسيلة: ---------- ١٩٤
١٠. تقديم الأشهر : ---------- ١٩٥
١١. دفع التوهم: ---------- ١٩٥
١٢. تقديم السَّبب على المسبَّب: ---------- ١٩٥
١٣. تقديم الأقرب إلى الحس: ---------- ١٩٦
١٤. تقديم الأبلغ: ---------- ١٩٦
١٥. مراعاة الفواصل: ---------- ١٩٧
المبحث الرابع: الاعتراض ---------- ٢٠٠
الأغراض البلاغية للاعتراض: ٢٠١
١. التنزيه والتعظيم: ---------- ٢٠٢
٢. التأكيد: ---------- ٢٠٢
٣. الحث والترغيب: ---------- ٢٠٤
٤. البيان والتوضيح: ---------- ٢٠٥
٥. دفع التوهم: ---------- ٢٠٦
٦. التعليل: ---------- ٢٠٧
٧. الدعاء: ---------- ٢٠٨
٨. التسلية: ---------- ٢٠٩
٩. الحصر والاختصاص: ---------- ٢٠٩
١٠. التوبيخ: ---------- ٢١٠
المبحث الخامس: خروج الكلام عن مقتضى الظاهر ---------- ٢١١
أولاً: الالتفات: ---------- ٢١١
الالتفات عند البيضاوي: ٢١٢
من صور الالتفات في تفسير البيضاوي: ٢١٣
١. الالتفات من الغيبة إلى الخطاب: ---------- ٢١٣
٢. الالتفات من الخطاب إلى الغيبة: ---------- ٢١٤
٣. الالتفات من الغيبة إلى التكلم: ---------- ٢١٧
٤. الالتفات من التكلم إلى الغيبة: ---------- ٢١٩
باقي صور الالتفات: ٢٢٠
الفائدة البلاغية للالتفات: ٢٢٠
١. التعظيم والتفخيم: ---------- ٢٢٠
٢. التهديد والتحذير: ---------- ٢٢١
٣. الترهيب: ---------- ٢٢٢
٤. التوبيخ والذم: ---------- ٢٢٢
٥. المبالغة: ---------- ٢٢٣

٦. الدلالة على الاختصاص: ---------- ٢٢٣
٧. الوعيد: ---------- ٢٢٤
٨. العناية والاهتمام: ---------- ٢٢٤
٩. الزجر: ---------- ٢٢٥
١٠. التعميم: ---------- ٢٢٥
١١. المعاتبة: ---------- ٢٢٥
ثانياً: التغليب: ---------- ٢٢٦
من أقسام التغليب عند الإمام البيضاوي: ٢٢٧
١. تغليب المخاطَب على الغائب: ---------- ٢٢٧
٢. تغليب المذكر على المؤنث: ---------- ٢٢٩
٣. تغليب العاقل على غير العاقل: ---------- ٢٣٠
٤. تغليب الجماعة على الواحد: ---------- ٢٣١
٥. تغليب الموجود على ما لم يوجد: ---------- ٢٣٢
٦. تغليب الأَشْهَر: ---------- ٢٣٢
٧. تغليب المتعدي بنفسه على المتعدي بغيره: ---------- ٢٣٢
٨. تغليب الثواب على العقاب: ---------- ٢٣٣
ثالثاً: التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي: ---------- ٢٣٤
رابعاً: التعبير عن الماضي بلفظ المضارع أو المستقبل: ---------- ٢٣٥
خامساً: وضع المفرد موضع المثنى: ---------- ٢٣٦
سادساً: وضع المثنى موضع المفرد: ---------- ٢٣٨
سابعاً: وضع المفرد موضع الجمع: ---------- ٢٣٨
ثامناً: وضع الجمع موضع المفرد: ---------- ٢٣٩
تاسعاً: وضع الجمع موضع المثنى: ---------- ٢٣٩
عاشراً: وضع الظاهر موضع المضمر: ---------- ٢٤٠
الأغراض البلاغية لوضع الظاهر موضع المضمر عند البيضاوي: ٢٤٢
١. التشبيه والوصف: ---------- ٢٤٢
٢. التعظيم: ---------- ٢٤٤
٣. الاختصاص: ---------- ٢٤٥
٤. التعميم: ---------- ٢٤٥
٥. التهويل: ---------- ٢٤٦
٦. التعليل والبرهان: ---------- ٢٤٦
٧. الدلالة على الاستحقاق: ---------- ٢٤٧
٨. التعريف: ---------- ٢٤٧
٩. زيادة التقرير والتمكين: ---------- ٢٤٨
١٠. تربية المهابة وإدخال الرّوع على ضمير المتلقّي: ---------- ٢٤٨
المبحث السادس: الإيجاز والإطناب والمساواة ---------- ٢٤٩
المطلب الأول: الإيجاز: ---------- ٢٤٩
أولاً: إيجاز الحذف: ٢٥٢
إيجاز الحذف عند البيضاوي: ٢٥٢
١. حذف المسند: ---------- ٢٥٢

٢. حذف المسند إليه: ---------- ٢٥٤
.3 حذف المتعلقات: ---------- ٢٥٤
حذف جواب لولا: ---------- ٢٥٤
حذف متعلق الفعل: ---------- ٢٥٤
حذف المضاف: ---------- ٢٥٥
حذف المضاف إليه: ---------- ٢٥٥
حذف "لا": ---------- ٢٥٦
حذف الشرط: ---------- ٢٥٦
حذف جواب الطلب: ---------- ٢٥٧
حذف المعطوف: ---------- ٢٥٧
حذف المفعول به: ---------- ٢٥٨
حذف أحد المتلازميْن: ---------- ٢٥٩
حذف المُفَضَّل عليه: ---------- ٢٦٠
حذف جملة: ---------- ٢٦٠
ثانياً: إيجاز القصر: ٢٦٠
إيجاز القصر عند البيضاوي: ٢٦١
المطلب الثاني: الإطناب: ---------- ٢٦٨
صور الإطناب في تفسير البيضاوي: ٢٦٨
أولاً: الإيضاح بعد الإبهام: ---------- ٢٦٨
.1 التوكيد والمبالغة: ---------- ٢٦٨
.2 تشويق السامع: ---------- ٢٦٩
.3 تفخيم المبهم: ---------- ٢٧٠
ثانياً: ذِكْر الخاص بعد العام: ٢٧٠
ثالثاً: ذكر العام بعد الخاص: ٢٧٢
رابعاً: التكرار: ٢٧٢
أغراض التكرار في تفسير البيضاوي: ٢٧٢
١. التعظيم والترغيب: ---------- ٢٧٢
٢. التأكيد: ---------- ٢٧٣
٣. مزيد الاعتناء: ---------- ٢٧٣
٤. الدلالة على تكرار الفعل: ---------- ٢٧٤
٥. التفخيم: ---------- ٢٧٤
٦. الاختصاص: ---------- ٢٧٥
٧. التذكير: ---------- ٢٧٥
٨. منع الفصل: ---------- ٢٧٦
٩. منع التوهم: ---------- ٢٧٧
١٠. الدلالة على اختلاف الحال: ---------- ٢٧٧
١١. الدلالة على اختلاف الطرق والتنويع: ---------- ٢٧٨
١٢. المبالغة في التحذير: ---------- ٢٧٩
١٣. المبالغة في التوصية: ---------- ٢٧٩
١٤. المبالغة في التقريع: ---------- ٢٧٩

١٥. المبالغة في الابتهال: ---------- ٢٧٩
١٦. التعليل: ---------- ٢٨٠
١٧. التهويل: ---------- ٢٨٠
١٨. الذم: ---------- ٢٨٠
١٩. المدح: ---------- ٢٨٠
٢٠. الاستعطاف: ---------- ٢٨١

الفصل الثالث: مباحث علم البيان في تفسير البيضاوي ---------- ٢٨٣

المبحث الأول: التشبيه ---------- ٢٨٦
فائدة التشبيه عند البيضاوي: ٢٨٧
أنواع التشبيه باعتبار طرفيه في تفسير البيضاوي: ٢٨٨
١. تشبيه المحسوس بالمحسوس: ---------- ٢٨٨
٢. تشبيه المعقول بالمعقول: ---------- ٢٨٩
٣. تشبيه المحسوس بالمعقول: ---------- ٢٩٠
٤. تشبيه المعقول بالمحسوس: ---------- ٢٩١
٥. تشبيه المفرد بالمفرد: ---------- ٢٩٢
٦. تشبيه المُركَّب بالمُركَّب: ---------- ٢٩٤
من أنواع التشبيه في تفسير البيضاوي: ٢٩٥
١. التشبيه البليغ: ---------- ٢٩٥
٢. التشبيه الضمني: ---------- ٢٩٧
٣. التشبيه المقلوب: ---------- ٢٩٨
المبحث الثاني: المجـــاز ---------- ٣٠٠
المطلب الأول: المجاز العقلي: ---------- ٣٠١
علاقات المجاز العقلي في تفسير البيضاوي: ٣٠١
١. الزمانية: ---------- ٣٠١
٢. المكانية: ---------- ٣٠٢
٣. المصدرية: ---------- ٣٠٣
٤. المفعولية: ---------- ٣٠٤
٥. الفاعلية: ---------- ٣٠٥
٦. السببية: ---------- ٣٠٥
٧. المحلية: ---------- ٣٠٧
٨. الممالأة والموافقة: ---------- ٣٠٧
٩. الملابسة: ---------- ٣٠٨
١٠. الوصفية: ---------- ٣٠٩
المطلب الثاني: المجاز المرسل: ---------- ٣١١
علاقات المجاز المرسل في تفسير البيضاوي: ٣١١
١. السَّببية: ---------- ٣١١
٢. المسبَّبية: ---------- ٣١٢
٣. المحلية: ---------- ٣١٤

٤. الحالية: ---------- ٣١٤
٥. اعتبار ما كان: ---------- ٣١٥
٦. اعتبار ما سيكون: ---------- ٣١٦
٧. الآلية: ---------- ٣١٧
٨. الجزئية: ---------- ٣١٨
٩. الكلية: ---------- ٣٢٠
المبحث الثالث: الاستعارة: ---------- ٣٢١
أنواع الاستعارة: ٣٢٥
أولاً: الاستعارة المكنية: ٣٢٥
ثانياً: الاستعارة التصريحية: ٣٣٠
أنواع الاستعارة باعتبار ما يتصل بها من الملاءمات: ٣٣٢
١. الاستعارة المرشحة: ---------- ٣٣٣
٢. الاستعارة المجردة: ---------- ٣٣٥
المبحث الرابع: الكناية والتعريض ---------- ٣٣٦
المطلب الأول: الكناية: ---------- ٣٣٦
الفرق بين الكناية والمجاز: ٣٣٧
الكناية في تفسير البيضاوي: ٣٣٨
أولاً: الكناية عن صفة: ٣٣٨
١. الكناية عن صفة البخل: ---------- ٣٣٨
٢. الكناية عن صفة الكرم: ---------- ٣٣٨
٣. الكناية عن صفة الندم: ---------- ٣٣٩
٤. الكناية عن صفة الاكتئاب والاغتمام: ---------- ٣٤٠
٥. الكناية عن صفة التكبر: ---------- ٣٤٠
٦. الكناية عن الموت: ---------- ٣٤١
٧. الكناية عن صفة التحقير: ---------- ٣٤١
٨. الكناية عن صفة الجهل: ---------- ٣٤٢
٩. الكناية عن صفة الغضب: ---------- ٣٤٢
١٠. الكناية عن الجماع: ---------- ٣٤٣
ثانياً: الكناية عن موصوف: ٣٤٣
ثالثاً: الكناية عن نسبة: ٣٤٤
المطلب الثاني: التعريض: ---------- ٣٤٦
أهمية التعريض: ٣٤٦
الفرق بين الكناية والتعريض: ٣٤٧
١. الفرق باعتبار المجاز: ---------- ٣٤٧
.2 الفرق من حيث الخفاء: ---------- ٣٤٧
.3 الفرق من حيث الإفراد والتركيب في الألفاظ: ---------- ٣٤٨
التعريض عند البيضاوي: ٣٤٩
طُرُق وأساليب التعريض في تفسير البيضاوي: ٣٤٩
١. تقديم الصلة: ---------- ٣٤٩
٢. تقديم الضمير: ---------- ٣٥٠

٣. التعريض بـ(إنما): ---------- ٣٥٠
٤. نفي الصفات السيئة عن أضداد المُعرَّض بهم: ---------- ٣٥٠
٥. نفي الصفات الحسنة عن أضداد المُعرَّض بهم: ---------- ٣٥١
٦. إثبات الصفات الحسنة لأضداد المُعرَّض بهم: ---------- ٣٥١
٧. إثبات الصفات السيئة للمُعرَّض بهم: ---------- ٣٥٢
٨. إثبات القدرة للعاجز الضعيف: ---------- ٣٥٣
٩. تصوير الأمر على نفس المُعرِّض والقصد إيقاعه على المعرَّض به: ---------- ٣٥٣
١٠. التعريض بالمدح: ---------- ٣٥٤

الفصل الرابع: مباحث علم البديع في تفسير البيضاوي ---------- ٣٥٦

المبحث الأول: المحسنات المعنوية: ---------- ٣٥٧
أولاً: الطباق: ---------- ٣٥٧
أنواع الطباق في تفسير البيضاوي: ٣٥٧
١. الطباق بين اسمين: ---------- ٣٥٧
٢. الطباق بين فعلين: ---------- ٣٥٧
٣. الطباق بين حرفين: ---------- ٣٥٨
٤. الطباق الخفي أو المعنوي: ---------- ٣٥٨
٥. طباق السلب: ---------- ٣٥٩
٦. الطباق المجازي: ---------- ٣٦٠
ثانياً: المقابلة: ٣٦١
ثالثاً: المشاكلة: ٣٦٤
١. المشاكلة التحقيقية: ---------- ٣٦٤
٢. المشاكلة التقديرية: ---------- ٣٦٥
رابعاً: التجريد: ٣٦٥
خامساً: اللف والنشر: ٣٦٦
سادساً: تأكيد المدح بما يشبه الذم: ٣٦٧
سابعاً: أسلوب الحكيم: ٣٦٩
ثامناً: سوق المعلوم مساق المجهول: ٣٧٠
تاسعاً: الاستطراد: ٣٧١
عاشراً: المذهب الكلامي: ٣٧٢
حادي عشر: التقسيم: ٣٧٣
ثاني عشر: المبالغة: ٣٧٥
المبحث الثاني: المحسنات اللفظية: ---------- ٣٧٦
السجع: ٣٧٦
التغييرات التي تطرأ على النظم لأجل السجع: ٣٧٦
١. التقديم والتأخير: ---------- ٣٧٦
٢. إفراد ما حقه الثنية: ---------- ٣٧٧
٣. وضع المضارع موضع الماضي: ---------- ٣٧٧
٤. تغيير نوع الجملة: ---------- ٣٧٧

٥. تغيير نوع الكلمة: ---------- ٣٧٨
٦. زيادة حرف: ---------- ٣٧٩
٧. تغيير صيغة المصدر: ---------- ٣٧٩
٨. العدول عن صيغة الاسم إلى صيغة المبالغة: ---------- ٣٨٠
٩. حذف المفعول: ---------- ٣٨٠

الفصل الخامس: تأثر البيضاوي بالسابقين وتأثيره في اللاحقين: ---------- ٣٨٣

المبحث الأول: تأثر البيضاوي بالسابقين: ---------- ٣٨٣
أولاً: الزمخشري (٥٣٨هـ): ---------- ٣٨٣
ثانياً: الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٠هـ): ---------- ٣٨٨
ثالثاً: سيبويه (١٨٠هـ): ---------- ٣٨٩
رابعاً: المبرد (٢٨٦هـ): ---------- ٣٨٩
خامساً: الأخفش: ---------- ٣٩٠
سادساً: أبو البقاء العُكْبَري (٦١٦هـ): ---------- ٣٩١
المبحث الثاني: تأثيره في اللاحقين: ---------- ٣٩٢
أولاً: تأثير تفسير البيضاوي في كُتَّاب الحواشي والتعليقات: ---------- ٣٩٢
١. حاشية الشهاب: ---------- ٣٩٢
٢. حاشية السيوطي: ---------- ٣٩٣
٣. حاشية محي الدين شيخ زاده: ---------- ٣٩٥
٤. حاشية القونوي: ---------- ٣٩٥
ثانياً: المفسرون الذين تأثروا بتفسير البيضاوي ونقلوا عنه في تفاسيرهم: ---------- ٣٩٧
١. أبو السعود "تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم" ---------- ٣٩٧
٢. تفسير النسفي "مدارك التنزيل وحقائق التأويل" ---------- ٣٩٩
٣. تفسير الخطيب الشربيني: ---------- ٤٠٠
٤. تفسير ابن عجيبة "البحر المديد في تفسير القرآن المجيد": ---------- ٤٠١
٥. تفسير الألوسي "روح المعانى في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني": ---------- ٤٠٢
٦. التفسير الوسيط "مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر": ---------- ٤٠٣
٧. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ---------- ٤٠٣
٨. تفسير الإيجي "جامع البيان في تفسير القرآن": ---------- ٤٠٣
٩. تفسير إسماعيل حقي "روح البيان في تفسير القرآن": ---------- ٤٠٤
١٠. صفوة التفاسير "الصابوني": ---------- ٤٠٥
١١. تفسير المنار "تفسير القرآن الكريم": ---------- ٤٠٥
١٢. تفسير زهرة التفاسير لأبي زهرة: ---------- ٤٠٦
١٣. تفسير محاسن التأويل للقاسمي: ---------- ٤٠٦
١٤. فتح البيان في مقاصد القرآن: ---------- ٤٠٧
١٥. التفسير المنير للزحيلي: ---------- ٤٠٧
إحالات محققي التفاسير على تفسير البيضاوي: ٤٠٨

الخاتمة ---------- ٤١٠